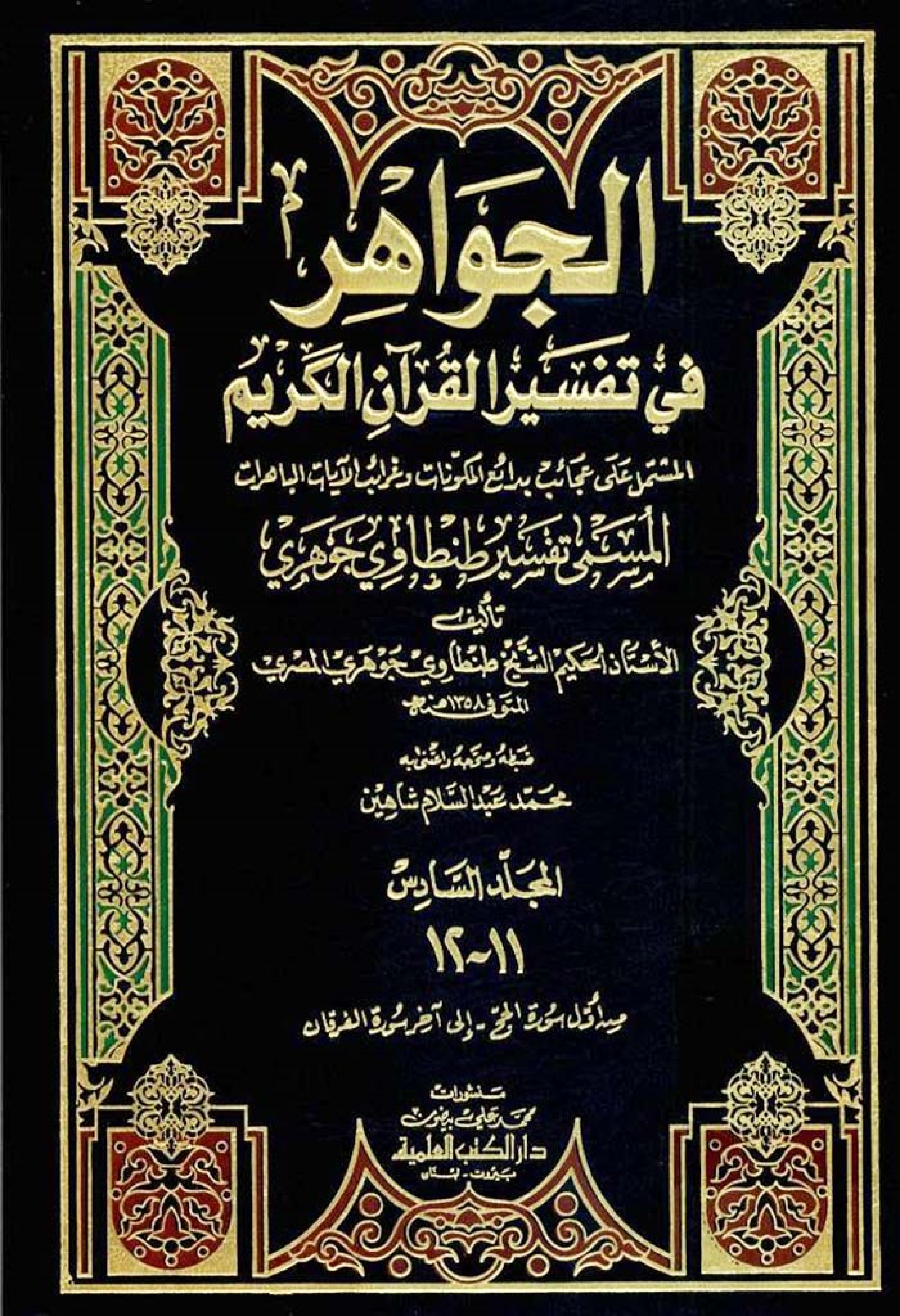

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد السادس
١١-١٢
من أول سورة الحج - إلى آخر سورة الفرقان
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الثاني عشر

المحتوى:

سورة النور وسورة الفرقان

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
[الذاريات: ٥٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النور مدنية
وهي أربع وستون آية
وهي ثلاثة أقسام

القسم الأول: في أحكام القذف، والزنا، وبراءة أم المؤمنين، وما يتبع ذلك من المواعظ، من أول السورة إلى قوله: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[الآية: ٢٦]

القسم الثاني: من قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾[الآية: ٢٧] إلى قوله: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[الآية: ٣٤]، وذلك في آداب المعاشرة وآداب الرجال والنساء.

القسم الثالث: في عجائب السماوات والأرض وأحوال الكفار والمؤمنين وما يتبع ذلك من الآداب الواجبة العامة، من قوله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[الآية: ٣٥] إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ

شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾
وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ
﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ
﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ
هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ
فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾
يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ
وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا
يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ وأوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وكذلك من بعدكم إلى يوم القيامة ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لكي تتعظوا بالأمر والنهي فلا تعطلوا الحدود.

حكم الزنا

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾ فيما فرضنا، أو فيما أنزلنا حكم الزانية والزاني، ويصح جعل الزانية والزاني مبتدأ خبره ﴿ فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ الجلد: ضرب الجلد، فلا ينبغي أن يصل إلى اللحم وهذا فرض على الأمة كلها، يقوم مقامهم الإمام لتعذر اجتماعهم، وهذا الحكم لمن استوفى الشروط في وجوب الحد وهي البلوغ والعقل؛ ويجب أن يغرب عاماً عند الشافعي لثبوته في السنة، ووكل أبو حنيفة أمر التغريب لرأي الإمام، ويجب على العبد والأمة نصف الحد ولا رجم عليهما، وهذا حكم غير المحصن. أما المحصن فيزيد على ما تقدم أن يكون حراً مسلماً متزوجاً بنكاح صحيح وقد دخل بها، والإسلام ليس بشرط عند الشافعي محتجاً برجمه عليه الصلاة والسلام اليهوديين، وحكم المحصن الرجم.

ويرى مالك في غير المحصن كما يرى الشافعي ولكن المرأة لا تغرب، ويرى الحنفية أن التغريب المروي في الحديث منسوخ كما نسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ ﴾ [النساء: ١٥] وقوله: ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ [النساء: ١٦] بهذه الآية، ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ رحمة ورقة فتعطلوا الحدود أو تخففوا الضرب، بل يكون في الزنا أشد من الفرية، وفي الفرية أشد من حد الشرب، أو يخفف في الأخير ويشدد في الأولين على الخلاف في المذاهب، وقوله: ﴿ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أي: في حكم الله. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». وروي أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت، فقال للجلاد: اضرب ظهرها ورجليها، فقال له ابنه: ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، فقال: يا بني إن الله لم يأمرني بقتلها وقد ضربت فأوجعت، ومعنى قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أن المؤمن لا تأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله، أي: إذا كنتم تؤمنون فلا تتركوا إقامة الحدود ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك ليزيد التنكيل، والطائفة أقلها ثلاثة، وقيل رجل أو اثنان، والمراد حصول التشهير فقد يكون التفضيح أكثر تعذيباً من التعذيب.

ولما كانت الأشكال تحن إلى أشكالها وكان ضعفة المهاجرين قد هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ لتقارب الأشكال وائتلاف الأخلاق ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فهو مكروه كراهة تنزيه لما يلزم فيه من التشبه بالفساق والتعرض للتهمة والتسبب لسوء المقالة والطعن في النسب وغير ذلك، ويجوز أن يراد بالتحريم انصراف النفس عن ذلك، فإن الزناة يأتلفون والصلحاء كذلك. فهذا تحريم يرجع للطبع والعادة، والشرع لا يمنع زواجهن.

وقيل: إن نكاحهن كان محرماً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾[النور: ٣٢] ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لما سئل في نكاح المسافحات: «أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال».

فصل في
حكم القذف العام، وفي حكم قذف الرجل زوجته، وفي الملاعنة

اعلم أن من قذف محصناً أو محصنة بالزنا فقال له: يا زاني أو يا زانية أو زنيت؛ فعليه جلد ثمانين جلدة إن كان القاذف حراً وكان المقذوف محصناً أي مسلماً بالغاً عاقلاً حراً عفيفاً من الزنا، ولا فرق بين الذكر والأنثى، ويكون الضرب هنا أخف من ضرب الزنا، ولا تعتبر شهادة زوج المقذوفة خلافاً لأبي حنيفة، ثم إذا كان القاذف عبداً يجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وهو يكون برأي القاضي. ومن زنى وتاب وحسنت توبته وقذف لا يجب في قذفه إلا التعزير، وهكذا القذف بغير الزنا مثل: يا فاسق ويا شارب الخمر، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ﴾ اللاتي استوفين الشروط الخمسة المتقدمة وكذلك الرجال بهذه الشروط، وخص النساء بالذكر لشناعة أمرهن إذا قذفن، وقوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أي: يشهدون على الزنا ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ أخف من جلد الزاني ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ المحكوم بفسقهم، فالقذف إذن من الكبائر فلذلك سمي مرتكبه فاسقاً ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد القذف ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ أحوالهم، وهذا استثناء من الفاسقين وسيأتي إيضاحه والخلاف فيه، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر ذنوبهم ويرحمهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به الخ، ﴿ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا ﴿ وَ ﴾ الشهادة ﴿ ٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ ويدفع عنها الحد ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ ﴾ إن الزوج ﴿ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ فيما رماني به من الزنا ﴿ وَٱلْخَـٰمِسَةَ ﴾ بالرفع والنصب ﴿ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ في ذلك ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان.

فصل في قصة الإفك

ولما ذكر حكم القذف العام وقذف الرجل زوجته أتبعه سبحانه بالكلام على الإفك في أمر عائشة أم المؤمنين، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. ومحصل القصة، ما ذكرته رضي الله عنها قالت: «فقدت عقداً في غزوة بني المصطلق فتخلفت، ولم يعرف خلو الهودج لخفتي، فلما ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطل بعيره وساقه حتى أتاهم بعد ما نزلوا، فهلك في من هلك، فاعتللت شهراً، وكان عليه الصلاة والسلام يسأل كيف أنت ولا أرى منه لطفاً كنت أراه حتى عثرت خالة أبي أم مسطح فقالت: تعس مسطح، فأنكرت عليها فأخبرتني بالإفك، فلما سمعت ازددت مرضاً وبت

عند أبوي لا يرقأ لي دمع وما أكتحل بنوم، وهما يظنان أن الدمع فالق كبدي، حتى قال عليه الصلاة والسلام: أبشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك، فقلت بحمد الله لا بحمدك». اهـ. وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ وهو الصرف لأنه قول مأفوك مصروف عن وجهه ﴿ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ جماعة منكم وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة منهم عبد الله بن أبي وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش. ثم استأنف سبحانه الكلام مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعائشة وصفوان رضي الله عنهم قائلاً: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ ﴾ أي: الإفك ﴿ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لكم فيه ثواب وارتقاء الأنفس وظهور الكرامة بإنزال ثمان عشرة آية في براءتكم وتعظيم شأنكم، وفيه أيضاً تهويل وتشديد على من تكلم فيكم وثناء على من ظن خيراً ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي: جزاء ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ معظمه ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الخائضين وهو عبد الله بن أبي، فإنه هو الذي بدأ به، لأنه يحكى أن صفوان مر بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه، فقال: من هذه؟ فقالوا: عائشة، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: جهنم. ثم أخذ يوبخ العصبة فقال سبحانه: ﴿ لَّوْلَآ ﴾ هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي: الإفك ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي: هلا ظن المؤمنون والمؤمنات الذين سمعوا الإفك خيراً بعائشة وصفوان اللذين هما جميعاً كنفس واحدة؟ فإذا ظنوا بهما خيراً فقد ظنوا بأنفسهم، وهذا من أبلغ ما يكون في التلطف من حيث اتحاد المؤمنين ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ كذب بين لا حقيقة له ﴿ لَّوْلَا ﴾ هلا ﴿ جَآءُو عَلَيْهِ ﴾ على ما زعموا ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون بذلك ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في حكمته وشريعته ﴿ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ القاذفون لأنهم ليس عندهم أربعة شهود ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ففضله في الدنيا بالنعم الكثيرة ومنها إمهالكم للتوبة ورحمته في الآخرة بنعم كثيرة منها العفو والمغفرة ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ خضتم فيه ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، فالجلد واللوم مستصغرات بالنسبة له ﴿ إِذْ ﴾ متعلق بـ«مسكم» ﴿ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: يقولون بألسنتهم من الإفك ما ليس في قلوبهم ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ سهلاً لا تبعة له ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ في الوزر. فهذه ثلاث خصال: التلقي والتحدث والاستصغار للذنب مع عظمته ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ ﴾ ما يصح لنا ﴿ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ في أمثال هذه الأمور لاسيما ما يختص بابنة الصديق ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهاً لله من أن تكون حرم نبيه صلى الله عليه وسلم فاجرة، فإن فجورها يخل بمقصود الزواج ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ لأن المبهوت عليه عظيم ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ كراهة ﴿ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ما دمتم أحياء مكلفين ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ، فإن الإيمان يمنع من القبائح، ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب تعليماً لكم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بصفوان وعائشة وبكل الأحوال ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبيره هذا العالم، ومن حكمته أن يجعل زوجاته صلى الله عليه وسلم طاهرات لأنه يكرم أولياءه. ومن حكمته أنه برأ عائشة وحكم على القاذفين بالحد. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

يُحِبُّونَ ﴾ كعبد الله بن أبي وأصحابه ﴿ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي: يظهر الزنا ﴿ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾ فيحدون في الدنيا ويدخلون جهنم في الأخرى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما في الضمائر ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فليكن عقابكم لهم على ما تعلمون من الظواهر في الدنيا، وهو يعاقب على ما يعلم من حب الإشاعة وعقابه في الآخرة ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ بكم لعاجلكم بالعقوبة، والخطاب لمسطح وحسان بن ثابت وحمنة، وكرره للمنة بترك المعاجلة بالعقوبة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ بإشاعة الفاحشة ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ الفحشاء: ما أفرط قبحه، والمنكر: ما أنكره الشرع ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بأن شرع التوبة ووفقكم لها فتمحى ذنوبكم، وأنزل الحدود وهي كفارات لذنوبكم ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي: ما طهر ولا صلح، فإنه بفضله ورحمته شرع التوبة وقبلها، وأنزل الزواجر وحكم بها، ووفقكم لما يمحو الذنوب إما بأعمالكم الصالحة وإما بما تصابون به من الرزايا، فإنها مكفرات ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ بتوفيقه للتوبة وحمله عليها وقبولها منه وبإقامة الحدود وإنزال ما يخفف من الحوادث المؤلمة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لمقالتهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم.

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي: لا يحلف ﴿ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ في الدين ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ في المال ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ ﴾ على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الموصوفين بأنهم من ﴿ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها. ويصح أن يقال: ولا يقصر أولو الفضل الخ. ثم قال: ﴿ وَلْيَعْفُواْ ﴾ أي: وليستروا ﴿ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ يعرضوا وليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فليفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل الله بهم مع كثرة ذنوبهم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فتخلقوا بأخلاق الله وتأدبوا بآدابه. ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورد إلى مسطح نفقته. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ العفائف ﴿ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾ عما قذفن به ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ بالله ورسوله كعائشة رضي الله عنها وغيرها من كل سليمة الصدر نقية القلب لا دهاء عندها ولا مكر لأنها لم تجرب الأمور ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فهؤلاء القذفة ملعونون في الدارين ولهم عذاب عظيم في الآخرة إن لم يتوبوا، فيعذبون ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بما أفكوا أو بهتوا إذ تظهر آثار الأعمال على تلك الأعضاء وهو أبلغ من نطق اللسان فالمغتابون والقاذفون وأمثالهم تظهر صور أعمالهم مجسمة يراها المذنب وتشاهدها الناس حوله والملائكة بصورة قبيحة بشعة تشعر بالمهانة والذلة، ولا مانع من النطق اللفظي وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] وذلك حاصل بعد الموت بلا توان، فيظهر الإنسان بمظهره الحقيقي، وهذا قد أظهره الكشف الحديث، فإن علماء الأرواح لما استحضروها أخبرت بما يفيد أن أخلاق الإنسان وصوره الباطنة تلازمه ولا

تفارقه، ويود لو يتخلص منها وتستقيم حاله فلا يقدر، بل تكون له كالهواء يحيط به أينما حل. ويقولون: إن جسم الإنسان بعد الموت عبارة عن صورة طبق الأصل أي مطابقة لهذا الجسم المادي، ويسمى ذلك الجسم «الجسم الأثيري» أي المنسوب للأثير، وهي المادة اللطيفة التي هي أخف وألطف من الهواء والعالم كله مغمور فيها، وهذه الصورة تمثل الأخلاق الباطنية للإنسان ويود لو ينخلع منها إذا كانت قبيحة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ جزاءهم المستحق ﴿ وَيَعْلَمُونَ ﴾ علم معاينة ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ العادل الظاهر عدله ولذلك ينتقم من المظلوم لظالمه ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبي، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والعكس، يعني عائشة ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا عام فإن الطيور على أشكالها تقع، وإذا كانت عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مبرأة لأنها مع الطيب، وهذا قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي: أصحاب الإفك ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عفو لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: الجنة، وقد خصت عائشة بأن جبريل نزل بصورتها في راحته وقال: هي زوجتك، ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم بكراً غيرها، وقبض صلى الله عليه وسلم في حجرها وفي يومها ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في اللحاف، ونزلت براءتها من السماء، وهي ابنة الصديق وخلقت طيبة ووعدت المغفرة والرزق الكريم. انتهى التفسير اللفظي، وهنا أربع لطائف:

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾[الآية: ٤]، إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الآية: ٥].

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ ﴾[الآية: ٨] الخ.

(٣) وفي قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[الآية: ٢١]، إلى قوله: ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الآية: ٢١].

(٤) وفي قوله: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾[الآية: ٢٦] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾، إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(١) ومقتضى هذه الآية أن القاذف إذا تاب تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق سواء أكان قبل إقامة الحد أو بعده، لأن الاستثناء راجع إلى رد الشهادة وإلى الفسق، وهذا قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري ومالك والشافعي.

(٢) لا تقبل شهادته أبداً بعد التوبة ولكن يزول عنه اسم الفسق، وهذا لأن الاستثناء راجع إلى الفسق عند النخعي وشريح.

(٣) لا ترد شهادته بنفس القذف ما لم يحد عند أصحاب الرأي.

(٤) هو قبل الحد شر منه حين يحد، لأن الحدود كفارات فكيف تردونها في أحسن حاله وتقبلونها في شر حاله وهذا هو اعتراض الشافعي على أصحاب الرأي، بل قال: إن حد القذف يسقط بالتوبة وأن الاستثناء يرجع للكل كما تقدم.

(٥) لا يسقط الحد بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط، كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة، وهذا مذهب عامة العلماء وقوله: ﴿ أَبَدًا ﴾[النور: ٤] أي: ما دام مصراً على القذف، وذلك على مذهب من يقول بقبول شهادته بعد التوبة، وتكون الأبدية في كل شيء بحسبه فالقاذف أبديته حتى يتوب وأبدية الكافر حتى يؤمن، أي: لا تقبل ما دام على كفره.

اللطيفة الثانية:

﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآيات

فقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[النور: ٦] معناه على أنه من الصادقين، فحذف الجار وكسرت «إن» وعلق العامل بـ«اللام» تأكيداً. روي عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي فقال لعاصم: أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ سل لي عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عاصم لعويمر: لم يأتني بخير، قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة التي سألت عنها، فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عنها، فجاء عويمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله؟ إلى آخر ما تقدم، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم باللعان، فتلاعنا فلما فرغا من التلاعن طلقها عويمر ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال مالك: قال شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين. هذا ملخص ما جاء في الصحيحين ومثله ما جاء في البخاري في مسألة هلال بن أمية لما قذف امرأته بشريك بن سمحاء، وذكر أن جبريل نزل بالآية بعد أن قال هلال: ولينزلنّ الله ما يبرئ ظهري من الحد، فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفها وقال: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انظروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك ابن سمحاء، فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن. وخدلج الساقين: ممتلئ الساقين غليظهما.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾

يقول علماؤنا رحمهم الله تعالى في هذا المقام: إنه شرع الحدود وشرع التوبة، والتوبة من نوع التهذيب، والعقوبة من نوع التعذيب. فانظر كيف كان التهذيب مع التعذيب سببين لزكاة الناس

وطهارتهم . ومعنى هذا أن الله فضله عم الناس ولولا فضله ورحمته لم يطهروا ، وعليه أصبح كل هم وغم ومصائب وأمراض كل ذلك مما يزكي ويطهر ، وأيضاً كل علم وكل حكمة وكل خلق شريف كل ذلك مطهر . فالمطهرات التي أنزلها الله في الأرض نوعان : التهذيب والتعذيب ، فأضحت المدارس التي في الأرض للتطهير قسمين : قسم الحوادث التي تصيب الناس ، وقسم المرقيات للعقول الإنسانية . وقد شرحت هذا في أماكن كثيرة في هذا التفسير .

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ الخ

اعلم أن هذه الآية تشرح الغرائز والأخلاق والطباع وبهجتها وعجائبها ، وتبين أن هذا الإنسان بل هذا الوجود لا تلازم فيه إلا بالتناسب ، ولا اتحاد إلا بصفات متناسبة ، فكرة الأرض متجاذبة الأجزاء هكذا كرة الهواء وكرة النسيم ، فكل جزء من أجزاء هذه المواد لاحقة بأصلها مطيعة لمجموعها ذلك للتناسب والتشابه في الصفات ، هكذا أخلاق الناس أنهم إذا تشاكلت صفاتهم اتفقوا وإذا اختلفت تفرقوا ، وهكذا يوم القيامة فالناس لا يجتمعون إلا حيث يتفقون ، ولذلك تفرق المسلمون اليوم للجهل الذي فشا بينهم ولو تناسبوا في العلوم والمعارف لجمعتهم ووحدتهم ولكنهم جهلوا فالجهل فرقهم والله هو الولي الحميد .

ثم اعلم أن هذه الحكمة ألهمها الله للأمم وثبتها في العقول فنطقت بها الألسنة وكتبت في الكتب وذاعت في الأمم وانتشرت في الأقطار قديماً كما ترى في كتاب « كليلة ودمنة » فقد جاء فيه ما نصه :

حكاية العابد والفأرة

حكي أن عابداً قتل فأرة ثم ندم على ما فعل وحزن حزناً شديداً على هذا الذنب ، ولم يجد سبيلاً إلى التوبة في نظره إلا أنه يعلق الفأرة في عنقه مدة ، ثم دعا الله أن يحييها فتصير بنتاً ، فأجاب الله دعاءه فصارت بنتاً ورباها وترعرعت وآن زمن الزواج ، فسألها : أي الأزواج تختار؟ فقالت : أختار أقوى الأزواج . فقال لها : إذن تختارين الشمس . قالت : كلا . فالسحاب أقوى من الشمس لأنه يحجبها ، قال : إذن أزوجك للسحاب . قالت : كلا . فالريح أقوى منه لأنها ترفعه وتحمله إلى الجهات . قال : فلأزوجك للريح . قالت : كلا . فالجبل أقوى يصده ويمنعه . قال : فلأزوجك بالجبل . قالت : كلا . فالفأر أقوى من الجبل لأنه يحفره ويفتح فيه جحراً . فعرف عند ذلك أنها لا ترغب إلا فيمن هو على شاكلتها ، فدعا الله فرجعت فأرة وتم الأمر . وهذا قول الشاعر :

** إن الطيور على أشكالها تقع **

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾[النور: ٢٦] الخ . انتهى الكلام على القسم الأول من السورة .

القسم الثاني

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ التي تسكنونها فليس مؤجر الدار ولا الذي أعارها لهما حق الدخول إلا بإذن، فالدار على السكنى لا على الملك ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ تستأذنوا، أي: تستعلموا، يقال: آنس الشيء، أبصره، ويصح أن يكون من الأنس على وزن قفل، فإن المستأذن مستوحش قبل الإذن مستأنس بعده، وأن يكون من الأنس على وزن تبر، أي: تتعرفوا هل ثمة إنسان ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فتقولوا لهم: السلام عليكم أأدخل، ثلاث مرات، فإن أذن له دخل وإلا رجع، ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي: ما ذكر من الاستئذان والتسليم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من أن تدخلوا بغتة وتحيوا تحية الجاهلية فتقولوا: حييتم صباحاً. حييتم مساء، وربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف لعدم الاستئذان، وإنما أنزل عليكم هذا إرادة أن تذكروا وتعملوا بما هو أصلح لكم، وهذا قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ يأذن لكم ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ حتى يأتي من يأذن لكم ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ ولا تلحوا ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾

أي: الرجوع أطهر لكم من الإلحاح والوقوف على الباب، فذلك مناف للمروءة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون فيجاريكم عليه ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ ﴾ كالربط والخانات والحوانيت ﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ ﴾ منفعة ﴿ لَّكُمۡۚ ﴾ كإيواء الأمتعة بالحوانيت وكاتقاء الحر والبرد في المنازل المبنية للسابلة وكالدخول في بيوت التجار والحوانيت في الأسواق يدخلها الناس للبيع والشراء، فهذه كلها ليس فيها استئذان ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ عما لا يحل النظر إليه ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾ ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾[المؤمنون: ٦] ﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ ﴾ أنفع لهم وأطهر لما فيها من البعد عن الريبة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ لا يخفى عليه ما يقصدون من استعمال الأبصار وكل جارحة من جوارحهم فليحذروه ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ عما لا يحل لهن. روي عن أم سلمة قالت: كنت عند رسول الله صلى الله عليه و سلم وعنده ميمونة بنت الحارث إذ أقبل ابن مكتوم فدخل عليه وذلك بعد أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احتجبا منه. فقلنا: يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه؟ رواه الترمذي وأبو داود. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي: ولا يظهرن لغير المحرم الزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الأذن والقلائد في العنق، فلا يجوز للمرأة إظهارها كسائر الحلي والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها فلا تبدي منها شيئاً ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ ﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم والكحل والخضاب في الكف وكالوجه والقدمين ففي ستر هذه الأشياء حرج عظيم، فإن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها لا سيما في مثل تحمل الشهادة والمعالجة والمتاجرة وما أشبه ذلك، وهذا كله إذا لم يخف الرجل فتنة، فإن خافها غض بصره ﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾ الخمر جمع خمار، أي: ليضعنها، وذلك كما تقول: ضربت بيدي على الحائط، إذا وضعتها عليه، أي: ليلقين بمقانعهن على مواضع الجيب وهو النحر والصدر ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وأقراطهن وصدورهن ولقد كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة، فأمرن أن يسدلنها من قدامهن حتى تغطيهن ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ هذا بيان لمن يحل لهم الإبداء فيرون الزينة الخفية منها ومواضعها كالصدر والساق والرأس ونحو ذلك ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ لأنهم المقصودون بالزينة فيجوز لهم النظر إلى جميع البدن، ويكره النظر للفرج، ﴿ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ ﴾ لأن الطباع تنفر من مماسة القرائب فلهم أن ينظروا منهن إلى ما عدا ما بين السرة والركبة، ومثل المذكورين الآباء والأبناء والإخوة وبنو الإخوة وبنو الأخوات من الرضاع. ثم قال تعالى: ﴿ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ ﴾ أي: المؤمنات من أهل دينهن، فيجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلى ما بين السرة والركبة، ولا يجوز للمرأة المؤمنة أن تتجرد من ثيابها عند الذمية أو الكافرة ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ ﴾ من الإماء والعبيد فينظر العبد من سيدته ما عدا ما بين السرة والركبة كالأمة، فهو

كالمحارم وكالنساء المسلمات، وهذا ظاهر القرآن وحديث أنس: «إذ وهب النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة عبداً وكان عليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال: إنه ليس عليك بأس وإنّما هو أبوك أو غلامك». وقال سعيد بن المسيب: هو كالأجنبي معها، وتحمل الآية على الإماء دون العبيد، ثم قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء، كالبله الذين لا يعرفون شيئاً من أمر النساء، والشيوخ والصلحاء، وكالعنين والخصي والمخنث والمجبوب. وفي حديث مسلم: «أنه كان يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة، قال: إذا أقبلت بأربع وإذا أدبرت بثمان، فأمر صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل عليهن، وأخرجوه إلى البيداء يدخل كل جمعة ليطعم». وأراد بالأربع أن لها في بطنها أربع عكن فهي تقبل إذا أقبلت بها، وأراد بالثمان أطراف العكن الأربع من الجانبين وذلك صفة لها بالسمن.

ثم قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ أي: لم يعرفوا العورة من غيرها لصغرهم وعدم بلوغهم حد الشهوة والظهور والاطلاع، والطفل جنس وضع موضع الجمع والوصف يدل عليه ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال، وهذا أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت. وقد كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها فنهين عن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وإنّما نبّه على التوبة هنا لأن آداب هذه السورة لا يخلو أحد من التفريط فيها ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بسعادة الدارين، لأن النفس الإنسانية أشبه بماء نهر النيل مثلاً، والقوى الإنسانية من الشهوة والغضب والعقل أشبه بجداول تجري من ذلك النهر، والشهوة والغضب أشبه بالبحر الأبيض المتوسط يصب ماء النهر فيه سبهللاً بلا فائدة، والكف عن الشهوات كغض البصر وتجنب النساء وقلة الإفراط في الشهوات حلالاً أو حراماً وما أشبه ذلك أشبه بالسدود والحبوس والقناطر الموضوعة في مجرى النيل وسقي الأرض من الجداول النيلية في الوجهين القبلي والبحري، وخروج النبات والأثمار والحدائق الغناء والأشجار والأزهار البهجة والنماء أشبه بتصريف عقولنا في أنواع العلوم والحكم وازدهار الآراء وجمال النفوس وإشراق القلوب، فكل ما حفظناه من قوانا رجع إلى قوة العقل، وكل ما أضعناه من قوى النفس في المبصرات والمذوقات والملموسات وجميع اللذات نقص من قوة العقل، والفلاح يكون بالقوة العقلية والخيبة بالتمادي في القوة الشهوية. وبهذا عرفت الحكمة في غض البصر والكف عن المحرمات. فالله تعالى وضع هذه القوى أمانة عندنا، فإذا صرفناها في أسفل الأمور سفلنا وإذا صرفناها في أعلاها علونا. وهذه اللذات المذكورة ونحوها لم تخلق إلا لبقاء النسل فهي مقدمات، وللمقدمات نتائج، إذ لا عقول إلا لمولود ولا ولادة إلا بهذه الشهوات. فإذا جعل الإنسان حياته مقصورة على المقدمات صار آلة ضائعة كما يضيع ماء النيل في البحر الأبيض وإذا حفظها سقى بها حقول العلوم وبساتين المعارف وجنى ثمار اللذائذ العقلية والثناء العاجل

والثواب الآجل، بل الأمر فوق ذلك فإن أعلى الجنة لأولي الألباب والعلم أعلى لذة في الجنة كما هو أعلى لذة للأنبياء والحكماء في الدنيا. فتعجب كيف كان هذا التحريم مقصوداً به رقي عقولنا والعامة لا يفهمون مثل هذه الأمور، وما يعقلها إلا الحكماء الذين فكروا في الدنيا وخلقها. فالعامة يخافون من عذاب يوم القيامة وحده والخاصة يخافون منها ومن عذاب الدنيا بالجهالة ونقص القوى العقلية، ويرون الثواب والعقاب أمامهما في هذه الحياة مقدمة لما سيرونه بعد الموت، فيكون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الآية: ٣١] معروفاً لهم في هذه الحياة يقرؤونه في نفوسهم وفيمن حولهم، ويرون الزناة والمسرفين وأمثالهم قد طوحت بهم طوائح الدهر وقلب الدهر لهم ظهر المجن وأنزل بهم العذاب الهون كما أضل عقولهم. فعذابهم معجل في هذه الحياة وإن كانوا لا يعقلون أنهم معذبون، ويسجنون وهم لا يعلمون أنهم مسجونون.

ولما فرغ من الكلام على النهي عما يفضي إلى السفاح المخل بالنسب المؤدي إلى انقطاع الألفة وذهاب الأسرات أعقبه بما يكون سبباً في بقاء النسل، وهو المقصود فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ مقلوب أيائم، كيتامى، جمع أيم، وهو العزب ذكراً كان أو أنثى بكراً كان أو ثيباً. قال الشاعر:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي وإن كنت أفتى منكم أتأيم

أي: زوجوا من كان أعزب من الرجال والنساء البنات والأخوات والبنين والإخوان ﴿مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ للنكاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ عبيدكم ﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾ وهذا الخطاب للأولياء والسادة وهذا الأمر للندب:

(١) فيستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة أن يتزوج.

(٢) ومن لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة أفضل له من النكاح عند الشافعي.

(٣) والنكاح أفضل له عند أصحاب الرأي.

(٤) تزويج الأيامى خاص بالأولياء وتزويج العبيد والإماء خاص بالسادات عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم كعمر وعلي وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعائشة وسعيد بن المسيب والحسن وشريح والنخعي وعمر بن عبد العزيز والثوري والأوزاعي وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق.

(٥) يجوز للمرأة أن تزوج نفسها عند أصحاب الرأي.

(٦) إن كانت دنيئة جاز لها أن تزوج نفسها وإن كانت شريفة لم يجز عند مالك.

ولما كان الناس عادة يتركون الزواج ويتحاشونه خيفة الفقر إذا كان الخاطب أو المخطوبة في فقر، أردفه بما يفيد أنه سبحانه وتعالى يغنيهما عند الزواج إما بالقناعة والرضا وإما بالمال وإما بهما معاً، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ففضل الله يسعهما، والمال غاد ورائح.

وكم يسر أتى من بعد عسر وفرج كربة القلب الشجيّ

وورد في حديث: «اطلبوا الغنى من هذه الآية»، ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ ذو سعة إذ لا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته فهو يسع الزوجين وجميع الناس ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق ويقدر على ما

تقتضيه الحكمة ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ ليجتهد في العفة وقمع الشهوة من لا يجدون ما ينكحون به من الصداق والنفقة، مثل أن يصوم الشاب إذا لم يجد المال لحديث: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»، ومعنى الباءة: النكاح، أي: أسباب النكاح، والوجاء: رضُ الأنثيين، فليستعفف هؤلاء ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فيجدون ما يتزوجون به.

فصل: في المكاتبة

المكاتبة أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال ـ ويسمي مالاً معلوماً ـ تؤدي ذلك في نجمين، أي: موعدين، أو نجوم في كل نجم كذا، فإذا أديت ذلك فأنت حر، ويقبل العبد ذلك، فإذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة. ومتى عتق بأداء المال فما فضل في يده من المال فهو له ويتبعه أولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ ويرده إلى الرق وما في يده من المال فهو لسيده، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المكاتبة ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ عبداً كان أو أمة ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾:

(١) والأمر للوجوب عند عطاء وعمرو بن دينار. وقد روي أن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه وكان كثير المال فأبى، فانطلق سيرين إلى عمر فشكاه، فدعاه عمر فقال له: كاتبه، فأبى فضربه بالدرة وتلا قوله تعالى: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ الخ.

(٢) أو للندب وهو قول أكثر أهل العلم.

(٣) والكتابة تجوز إلى نجم واحد وحالة واحدة عند أبي حنيفة ولا تقلّ عن نجمين عند الشافعي.

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ أي: مالاً أو قوة على الكسب أو صدقاً وأمانة أو الاكتساب مع الأمانة، وهذا رأي الشافعي، أو أن يكون بالغاً عاقلاً. وجوز أبو حنيفة مكاتبة الصبي المراهق. وقوله: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾، يقول الله: آتوا أيها السادة المكاتبين شيئاً من مال الله الذي آتاكم فليس لكم فيه فضل، فإن الله ربكم ورب عبيدكم وأموالكم ملكه، وكذلك أعطوا أيها الحكام المكاتبين سهمهم من الصدقات العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾[التوبة: ٦٠]، فإن عتق الرقاب داخل في الصدقات، وهذا الأمر عام لكل امرئ، فهو يخص جميع المؤمنين على عتق الرقاب. واعلم أن السيد لا حد للمقدار الذي يحطه، والحط واجب وقدره بعضهم بالربع، وهو قول عليّ، وقال ابن عباس: يحط الثلث وأنت خبير أنه لا حد للحط.

فصل: في عدم إكراه الإماء على الزنا

روي أنه كان لعبد الله بن أبيّ ابن سلول المنافق جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة، وكان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما. وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين: فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه، ويقال إن إحدى الجاريتين جاءت ببرد وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، فقالتا: والله لا نفعل قد جاء الإسلام وحرم الزنا، فأتتا

رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا إليه، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وذكر هذا الشرط لأنه على مقتضى السبب الذي نزلت لأجله الآية، وإلا فالإكراه محظور سواء أردن التَّحصن والعفة أم لم يردن ذلك، على أن الإكراه لا يمكن إلا إذا أردن العفة، فأما التي لا تريد العفة فليست بمكرهة على الزنا بل هي راغبة فيه. يقول الله: ﴿لَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتطلبوا كسبهن وبيع أولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ على الزنا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني بالمكرهات والوزر على المكره. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية يقول لهن: والله لهن والله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ من الحلال والحرام ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: مثلاً من أمثال من قبلكم، أي: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم، وهي قصة عائشة رضي الله عنها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وما وعظ به من الآيات والمثل. ولقد جاء هناك من العظات البالغات ما فيه مزدجر لمدكر كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾[النور: ١٦] الخ، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[النور: ١٠] الخ، وقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾[النور: ٢٢] الخ. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني. وهاهنا لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ الخ

عن قتادة إن الاستئذان ثلاثة: الأول: يسمع الحي. والثاني: ليتأهبوا. والثالث: إن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا. فإنهم في أول مرة ربما منعهم بعض الأشغال من الإذن، وفي المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضي المنع أو يقتضي التساوي، فإذا لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع، فيسن له الرجوع، ويجب أن لا يكون الاستئذان متصلاً بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت، فأما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذلك حرام، لأنه يتضمن الإيذاء، وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقد كان صلى الله عليه وسلم لا يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، فيقول: السلام عليكم، مرتين ومن جاء مع الرسول لا يحتاج إلى استئذان، وكذلك من جرت العادة له بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان، ويستأذن الإنسان على أخته وأمه لقوله صلى الله عليه وسلم لرجل وقد سأله في ذلك: «أتحب أن تراها عريانة؟».

واعلم أن الاستئذان مشروع لثلاثة أمور: الدخول في منزل الغير، والنظر إلى المحرم شرعاً، والاطلاع على ما يكره الإنسان الاطلاع عليه. فإذن دخول ملك الغير بغير إذنه محظور، والاطلاع على المحرمات محظور شرعاً، هكذا فليكن محظوراً على الإنسان الدخول على أمه وأخته وزوجته وأمته للخصلة الثالثة، فإنهن ربما كن في حال لا يحببن اطلاع أحد عليها، فلئن نجا من الحرمة مع هؤلاء بالنسبة لتحريم النظر وحظر الدخول في ملك الغير فليكن ذلك للأمر الثالث، وعليه صار الاستئذان على جميع الناس قريباً وبعيداً ومحارم وزوجات، وهذا هو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم: «أتحب أن تراها عريانة؟».

اللطيفة الثانية

قال صلى الله عليه وسلم: «تزوجوا الولود الودود فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾[النور: ٣٢] قد أخذ منه بعض العلماء كما في تفسير البيضاوي أنه يجب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبها، ويقول عامة السلف: إن النكاح مستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبته، كما تقدم. فعلمت من هذا أنه قد أوجب بعض العلماء على السيد تزويج عبده وأمته في حال خاصة.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا خاف الفتنة ولم يجد سبيلاً لدرئها وجب عليه النكاح. واعلم أن هذا الزمان الذي نكتب فيه هذا التفسير قد تغيرت فيه طباع أهل المدن، فترى الشبان المتعلمين يغدون ويروحون وقد أسكرهم الصبا وخامرهم الجهل وأحاط بهم الشيطان فأسدل عليهم حجاباً من الخزي والعار، فترك بعضهم الزواج اكتفاء بالزنا واستخفافاً بالدين، فأصبح المسلمون المتعلمون في الأمصار أشبه بأهل باريس الذين يفضلون الخلاعة على الزواج.

ولما رأت هكذا حكومة الترك سنت قانوناً تجبر فيه الشاب الذي لم يتزوج بعد السنة الثامنة عشرة أن يدفع مالاً للحكومة لتنفقه على أبناء المتزوجين. ولقد بلغنا أن الأمة الروسية التي أصبحت اليوم «بلشفية» أي: أنها تجري على حكم الأكثرية، تأمر الفتيان والفتيات بالتزوج بعد الثامنة عشرة، فإن لم تتزوج الفتاة قبل هذا السن زوجوها لمن يريدون هم. واعلم أن هذا الأمر يجب على علماء الإسلام أن يفكروا فيه، فإذا رأوا خلاعة منتشرة وفسوقاً واضحاً فلا حرج عليهم إذا أفتوا بما يحفظ الأعراض ويشغل الأرحام بالأجنة والذكور بالعفة والنساء بتربية الأولاد وليكن ذلك بحكمة وتفكر. ولقد ترى أئمتنا المتقدمين رضوان الله عليهم قد نظروا في ذلك من عدة وجوه تارة من حيث التخلي للعبادة بترك النكاح وتارة بغير ذلك كما تقدم.

فلينظر اليوم علماء الإسلام إلى الخطر المحدق بالمسلمين، وليعلموا أن الله خلق الذكور بقدر الإناث تقريباً، ودليل ذلك تعداد المواليد، فإنك تراه متعادلاً تقريباً في جميع الكرة الأرضية. وإذا كان التعداد جائزاً ليكون اللواتي لا عائل لهن يجدن من يعولهن. فإذا تزوج جميع الصالحين للنكاح لم يبق هناك نساء لا عائل لهن، فإذا نفذ قانون على هذا الوضع وحتم على كل صالح للنكاح أن يتزوج صالحة للنكاح فذلك لا يمنع منه ديننا، فإن قوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النور: ٣٢] الخ، قد قال بعض العلماء بجعله للوجوب في مسألة الإماء والعبيد، ولم يبق إلا أن نعممه فيكون للجميع. وإذا صح ذلك أصبح الزواج فرضاً لازماً للصالحين له كفرض الصلاة والصيام. وإذا قلنا يمنعه الفقر فالحكومات اليوم أصبحت تساعد الذي لا زوجة له، فقد زال هذا المانع، وإذا كانت فيه عاهة فينظر في أمره.

وإني لست أقطع في هذه المسألة، وإنّما أقول: إن المجال فيها متسع وديننا صالح له. فهنا أمر بقوله: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ ﴾[النور: ٣٢]، وفي الحديث. والترغيب في النكاح كثير في الشرع، وإذا كانت ألمانيا وتركيا والروسيا يحرصن على إكثار نوع الإنسان، ويفرض الزواج عند البعض على كل

صالح له وصالحة، فهل هذه الأمم تكون أحرص على إكثار النسل من الإسلام؟ كلا. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «تزوجوا الولود الودود فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة». ولعل في قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النور: ٣٢] رمز إلى ما تفعله تركيا اليوم من تغريم الأعزب وإعانة المتزوج، وانظر إلى إمبراطور ألمانيا «غليوم» الذي كان السبب في الحرب كيف كان يحرض قومه على إكثار النسل، وكيف أمر العلماء فاخترعوا صوراً للمتزوج وصوراً للأعزاب، فجعل الناس يدخلون فيرون رجلاً أشمط وامرأة شمطاء منزويين في ركن المنزل، قد آذاهما البرد وهما منكمشان، وآخرين معهما أولادهما هذا يعمل وذلك يلعب وهذه تطبخ وهذا يصنع الخبز وهذه ترتب البيت وهكذا، والأبوان مستبشران فرحان فيرغب الناس في النكاح. ولذلك صارت ألمانيا نحو ٧٠ مليوناً. أما فرنسا فإنها صارت أقل من أربعين مليوناً. فالمسلمون أولى بإكثار النسل. واعلم أن التعدد المذكور في الآية لا يكون إلا حيث يتخلى قوم عن الزواج لهواً ولعباً أو فقراً. فأما إذا أمر الناس جميعاً بالزواج فلا تعدد إلا نادراً جداً. واعلم أن التعدد اليوم في الإسلام لا يزيد على ثلاثة أو خمسة في المائة، فإذا تم ما ذكرته نقص التعدد بل ينعدم، وأمة الإسلام قابلة لذلك لأنه إذا كان كل امرأة لرجل والله قد جعل العدد على هذا المنوال ولم يخلق إلا بقدر فخلق الذكور على عدد الإناث كما تقدم، فيكون التعدد إذن نادراً جداً بل يكون خارجاً عن العدل، لأنه إذا كانت عندك امرأة صالحة للنكاح فكيف تحجبها عن رجل صالح للنكاح؟ ويكون قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾[النساء: ٣] الخ مقرباً لذلك، لأنه إذا كان خوف عدم العدل بين الزوجتين يمنع التعدد فليكن خوف حرمان الأعزب من امرأة صالحة للنكاح غير عدل. واعلم أن هذه المباحث أوردتها ولم أعط فيها رأياً. ولكن عرضتها لبحث العلماء وتفكير الحكماء ومراعاة مقتضيات الأحوال وتكون الفتيا على حسب الأحوال، وهذا يحتاج إلى إجماع أهل الحل والعقد في الممالك الإسلامية، فما أجمعوا عليه بعد البحث والتروّي يصبح ديناً، ومباحثي هذه مقدمات لمباحثهم المستقبلة إن شاء الله تعالى، وسيكون في الأمة الإسلامية من قراء هذا التفسير من ينشرون هذه المباحث، وستكون مباحثهم إجماعية فما استقر الرأي عليه فلا خلاف فيه. اللهم اهد أمتنا الإسلامية إلى سواء الصراط. انتهى الكلام على القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن

فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ
بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ
أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى
مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ
يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ
تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى
ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ

ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ مزين السماوات بالنجوم والأرض بالنبات والمياه، ومنور قلوب أهل السماوات والأرض من الملائكة والمؤمنين ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ نور الله في قلب المؤمن ﴿ كَمِشۡكَوٰةٖ ﴾ كصفة مشكاة وهي الكوة غير النافذة. ويقال أيضاً: الأنبوبة في وسط القنديل ﴿ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ﴾ في قنديل من زجاج ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ نجم مضيء من هذه الأنجم الخمسة: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، وهذه هي الأنجم الدرية منسوبة للدر في الصفاء ﴿ يُوقَدُ ﴾ المصباح أو توقد الزجاجة، أي: مصباحها ﴿ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ ﴾ أي: أخذ دهن هذا القنديل من شجرة الزيتون بفلاة لا يصيبها ظل الشرق إذا غربت الشمس ولا ظل الغرب إذا طلعت الشمس، بل هي مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وغروبها، فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ وأصفى

أو لا نابتة في شرق المعمورة ولا غربها بل هي في الشام وزيتونه كما يقال أجود الزيتون ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ ﴾ من وراء قشرها ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ فالزيت لصفائه وتلألؤه يكاد يضيء من غير نار، وباجتماع المشكاة الجامعة للنور والزجاجة المقوية له والمصباح المتقد والزيت الصافي يكون النور أقوى، فلولا المشكاة لتفرق في الجهات الست، ولولا صفاء الزيت لم يكن الضوء باهراً، ولولا الزجاجة لم يكن متضاعفاً، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ لنور المعرفة ودين الإسلام ونور البصيرة، وهذا النور الثاقب ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيبين كل شيء بالطرق التي يعلم أنها توصل إليه، وقوله: ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ أي: تلك القناديل المدلول عليها بالمشكاة والمصباح والزجاجة والزيت معلقة في مساجد ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أمر الله أن تعظم فلا يذكر فيها الخنا من القول، وتطهر من الأنجاس والأقذار ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ يتلى فيها كتابه ويباحث في أحكامه وأفعاله ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾ يصلي له بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين، ووحد الغدو لأن صلاته واحدة وفي الآصال صلوات وهي جمع أصل ككتب جمع أصيل وهو العشي. وقوله: ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل «يسبح»، ومن قرأ «يُسَبَّح» بالبناء للمجهول فيكون مسنداً لقوله: «له»، و«رجال» فاعل لما دل عليه «يسبح»، أي: يسبح له رجال ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ ﴾ لا تشغلهم تجارة في السفر ﴿ وَلَا بَيْعٌ ﴾ في الحضر ﴿ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ باللسان والقلب ﴿ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: وعن إقامة الصلاة وحضور المساجد لذلك ﴿ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ المفروضة ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي: هؤلاء الرجال وإن بالغوا في الطاعات من الصلاة والزكاة وذكر الله وجلون خائفون، لأنهم يعلمون أنهم ما عبدوا الله حق عبادته وما قدروه حق قدره، ويخشون يوماً تضطرب فيه وتتغير القلوب فتفقه ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر وتخشى الهلاك وتطمع في النجاة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ يقول: اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا وهي الحسنات كلها وهي الطاعات فرضها ونفلها. وأما غير الأحسن وهي المساوي فهو يغفرها لهم أو يجازيهم جزاء أحسن من أعمالهم من عشرة إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ فهو لا يقتصر على مكافأتهم على أعمالهم ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لكمال قدرته وسعة إحسانه وفضله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ وهو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب، أي: يجري على وجه الأرض كأنه ماء يجري ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ جمع قاع وهو الأرض المستوية ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ يظنه العطشان ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ ﴾ أي: جاء إلى ما توهم أنه ماء ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ كما ظنه ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ ﴾ أي: جزاء الله ﴿ عِندَهُۥ ﴾ عند الكافر ﴿ فَوَفَّىٰهُ ﴾ أعطاه ﴿ حِسَابَهُۥ ﴾ جزاء عمله وافياً كاملاً ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ لا يشغله حساب عن حساب. روي أنها نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية تعبد في الجاهلية والتمس الدين، فلما جاء الإسلام كفر، وقوله: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ ﴾ عطف على «كسراب»، يقول الله: إن أعمال الكفار إن كانت حسنة فهي كسراب الخ، وإن كانت سيئة فهي كظلمات ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ ذي لج، أي: عميق، واللج: معظم الماء

﴿ يَغْشَـٰهُ ﴾ يغشى البحر ﴿ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ ﴾ أي: أمواج مترادفة متراكبة ﴿ مِّن فَوْقِهِۦ ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿ سَحَابٌ ﴾ غطى النجوم وحجب أنوارها هذه ﴿ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي: إن البحر يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة، فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة حداً لا يطاق ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ لم يقرب أن يراها فضلاً عن رؤيتها ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا ﴾ ومن لم يوفقه لأسباب الهداية ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ وأما الموفق فله نور على نور كما تقدم في مثل المشكاة.

واعلم أن الآيات المتقدمة قد اشتملت على نمطين:

النمط الأول: تسبيح الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله في مثل المشكاة.

والنمط الثاني: السحاب المندمج في مثل أعمال الذين كفروا إذا كان فوق الأمواج الهائجة في البحر اللجي الخ.

لذلك أخذ يذكر ما يناسب الأول قائلاً سبحانه: إن كل من في السماوات والأرض يسبحون له، وخصص نوعاً منها بديع الصنع عجيب الوضع والإحكام، وهي الطير حال كونها صافات باسطات أجنحتها في الهواء مع ثقل أجسامها، فبالحكمة ارتفاعها وبالنظم البديع طيرانها مخالفة لسائر الدواب الأرضية إذا قويت على مخالفتها ومغالبة القوة الجاذبة الأرضية؛ فعلت إلى الجو وعاشت في الهواء الطلق، فدلالتها على المبدع الحكيم أقرب وإبداعها أحكم كل واحد مما ذكر ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ الله ﴿ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ دعاءه وتنزيهه، وذلك إما باختياره كالإنسان، وإما بطبعه كسائر الحيوان والطير، فإنها وإن لم تصل كصلاة الإنسان فإن غرائزها المستمدة من النور الأعلى تستمد الرزق والأحوال من المبدع، وهذا الاستمداد والطلب في معنى الدعاء بالغريزة والطبع، وهي بما ركب فيها من دقائق الصنعة وبدائع الحكمة وما حليت به من الريش الناعم البهج المجوف الخفيف والمناقير المحددة المساعدة على النهوض في الهواء، بذلك كله تدل على حكمة نظمتها وحكيم أبدعها. ألم تر إليها كيف كتب الحمل والإرضاع على ذوات الأربع ولم تحمل هي ما لا طاقة لها به بل حكم عليها أن تبيض، ولم تحمل أذى الحمل والإرضاع خيفة أن يعيقها عن الطيران، وخف ريشها وكان مجوفاً ولم يكن لها كرش ولا أمعاء، واستغنى عن ذلك كله بغيره من الحوصلة والقانصة. كل ذلك إبداع وإتقان ليتم أمر الطيران بخفة الأجسام ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهو يشملها بعلمه ويملكها بقدرته، فبالعلم يقدر المصالح وبالقدرة يفعل ما يقتضيه العلم من الحكمة، فلذلك كان تدبيرها محكماً بحيث خصص كلاً بخاصة لا يشركه فيها سواه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع.

ثم أخذ سبحانه يذكر ما يلائم النمط الثاني فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾، يقول الله بعد أن ذكر في المثل الثاني: إن السحاب فوق الأمواج المتراكمة يزيد الجو ظلمات ويوقع الراكب في حيرة، ألم تر أن الله يسوق سحاباً ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أي: يضم بعضه إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ من فتوقه، جمع خلل

كجبال في جبل ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الغمام، وكل ما علاك فهو سماء ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا ﴾ من قطع عظام تشبه الجبال في عظمها وألوانها ﴿ مِنۢ بَرَدٍ ﴾ « من » للتبعيض، واللتان قبلها للابتداء، أي: أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها، وذلك أن الأبخرة إذا تصاعدت فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوي البرد هناك اجتمعت وصارت سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل برداً، وقد يبرد الهواء بما فيه من البخار برداً مفرطاً فينقبض وينعقد بخاره سحاباً وينزل منه المطر أو الثلج. وهذا المقام قد أوضحته فيما تقدم في سورة « الرعد » وسيتضح قريباً، ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ بالبرد ﴿ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾ ضوء برقه ﴿ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة، وذلك من العجائب أن السحاب الذي ضرب به المثل في تقوية الظلمة يكون منه نور يكاد يذهب بالأبصار، فبهذا قد اشتق النور من الظلام والهداية من الضلال. فالسحاب الذي ذكر مثلاً لظلمة أعمال الكافرين أضاء الجو بنور وأشرق في سائر الأقطار وكاد يخطف الأبصار، ولذلك أعقبه بما هو من قبيله فقال: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ ﴾ بالمعاقبة بينهما، وبأن ينقص من أحدهما ما زاد في الآخر وبتغير أحوالهما نوراً وظلمة وحراً وبرداً وغير ذلك، كما كان السحاب ظلمة واشتق منه نور البرق الذي يبهر الأبصار ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ لدلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وحكمته.

فصل: في علم الحيوان

اعلم أن الله تعالى لما ذكر مثل المؤمنين بالمشكاة ومثل أعمال الكفار بالسراب وبالظلمات وذكر منها السحاب ثم جعل ذلك السحاب موضوع نظر وبحث وبين نظامه وعجائبه وأن الماء ينزل منه، أتبعه سبحانه بذكر الحيوانات لأنها من الماء النازل من السحاب. وذلك أنه ما من حيوان إلا وهو مركب من مواد أهمها الماء، فالماء نزل من السحاب وجرى في النهر وتفرقت منه أجزاء فدخلت في جسم كل حيوان.

(١) فمن الحيوان ما يتكاثر بالانقسام، بمعنى أنه إذا بلغ أشده انقسم إلى اثنين كل منهما إلى اثنين، وهكذا على التعاقب.

(٢) ومنه ما ينقسم الحيوان منه إلى عدة حيوانات.

(٣) ومنه ما إذا بلغ أشده انفجر فخرج منه حيوانات تنمو وتتناسل ويموت هو.

(٤) ومنها ما يتناسل بالتبرعم، وذلك أنه ينبت على جسم الحيوان تنوء كالبرعم ثم يبلغ فينفصل ويصير حيواناً مستقلاً.

(٥) ومنها ما يتناسل بالبيض إذ يتكون الجنين في البيضة كما يحدث في ذوات الفقرات. فمنه ما تخرج فيه البيضة من الأنثى قبل بلوغ الجنين وتتم حضانتها في الخارج كالطيور وبعض السمك، ومنها ما تبقى البيضة في الرحم ويتكون الجنين فيه ثم يولد كاملاً كالإنسان وذوات الأربع من البهائم والوحوش والسباع وما أشبه ذلك، فكل هذه تلد الجنين بعد أن يتربى في بطنها، وهذه الحيوانات على اختلاف أنواعها مكونة من الماء مختلطاً بغيره ممتزجاً به متحداً معه، وهي:

(أولاً) إما حيوانات فقرية ذات عظام ودم وهي: (أ) الإنسان. (ب) وذوات الأربع. (جـ) والطيور. (د) والسمك. (هـ) والزواحف كالحيات.

(ثانياً) حيوانات حلقية قد تركب جسمها من حلقات: (أ) وهي الحشرات كالذباب وأبي دقيق من كل ما له ستة أرجل. (ب) والعناكب وهي ذوات ثمانية أرجل. (جـ) وما له أكثر من ٤٠ رجلاً. (د) وقارض الخشب. (هـ) والدود.

(ثالثاً) وإما حيوانات قشرية ليس لها عظام ولا دم ولا حلقات تركب منها جلدها، وإنما جسمها هلامي قد يحفظ في قشر يحيط به وذلك كالقوقعة وغيرها مما تقدم شرحه في هذا التفسير.

(رابعاً) وإما حيوانات شعاعية تظهر على شواطئ البحار كالحيوان المسمى «سمك النجم» وغيره مما تقدم شرحه موضحاً ولعلها تتضح بأوسع من هذا قريباً.

هذه هي أقسام الحيوانات وقد علمت أنها كلها خلقت من ماء، أي: إن الماء داخل في تركيبها. فتعجب كيف ذكر الله السحاب في مثل أعمال الكفار، ثم شرح السحاب وعجائبه. ثم ذكر الحيوان المخلوق من الماء من حيث تركيبه منه وكذلك أكثر الحيوان يتولد من نطفة، وإنما قلنا أكثر لأن بعضه قد رأيت أنه يتولد من نتوء في الجسم أو بالانقسام. فهذا ليس تولده من نطفة بل ذلك بالانقسام ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨].

وإذا فهمت هذه المقدمة عرفت أيها الذكي قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ حيوان يدب على الأرض ﴿ مِّن مَّاءٍ ﴾ وهو جزء مادته، أو ماء مخصوص وهو النطفة، وقد علمت شرحه وافياً كاملاً ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ﴾ إشارة إلى الزواحف التي هي من ذوات الفقرات كالحيات ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ وذلك كالطيور وكذوات الأربع كما تقدم ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ مما ذكر وما لم يذكر، ومنه ذوات الحلق وذوات القشر والحيوانات الشعاعية وما يمشي على ستة أرجل وعلى ثمانية أرجل وعلى أربعين رجلاً. وهذه تقدم أنها من ذوات الحلق ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهو بقدرته نوّع الحياة فلم يخص بها ذوات الفقرات ولا ذوات الحلقات ولا الحيوانات ذوات القشر التي جسمها رخو، فتراه جعل الحياة سارية عامة فلا يحجبها فقد العظم ولا فقد الدم ولا فقد الحلقات ولا فقد القشر. وترى الدودة العارية التي لا عظم لها ولا جلد عائشة فرحة. وترى نوع الحشرات وحده كالنمل والذباب والبعوض والناموس والجنادب والخنافس والنحل والجعلان ودود القز ونحوها أصنافاً كثيرة ربما زاد عددها على مجموع سائر أصناف الحيوان من الدود إلى الإنسان. ولقد وجدوا أن الخنافس وحدها نحو ٨٠٠٠٠ صنف، ولذلك يقدرون الحشرات المعروفة بنحو ٢٠٠,٠٠٠ ويتوقعون أن تبلغ بما يكشفونه من أنواعها الصغيرة مليون صنف. وهذه الحشرات كلها ما علم منها وما لم يعلم يمر في دور التكوين على ثلاث درجات، فهو يكون دودة لدنة الملمس تنسل بين التراب أو الأعشاب ثم تصير جندباً صلب القشر يثب وثباً ثم تصير فراشة ذات أجنحة تتلألأ بالألوان الزاهية. وقد تأكل في دورها الأول التراب فتهضمه وتصبح في دورها الثاني لا تهضم إلا أوراق العشب الندية. ومنها دود الحرير فهو يكون دوداً فشرنقة ففراشة، ثم تبيض الفراشة بزوراً والبزور تصير دوداً والدود يفرز لعاباً واللعاب يصير خيوطاً وهو الحرير يصنع منه غلافاً يكمن

فيه وهي الشرنقة، ثم يخرج من الشرنقة فراشاً بأجنحة يتزاوج ويبيض. ومنها الذباب الاعتيادي فهو يلقي بزوراً صغيرة بيضاء تصير دوداً أبيض وهو الدود المعروف الذي يشاهد في اللحم المنتن والجبن والمش القديم، ثم يتحول ذلك الدود إلى جنادب تدب لا أجنحة لها، ثم يتحول إلى فراش يطير، ومنه الذباب الفارسي فإنه يكون في الدور الأول دوداً ثم يخلع ثوبه ويصير جندباً يدب تحت الماء يتسلق الأعشاب المائية وله قوائم قصيرة بلا أجنحة، ولا يعيش إلا في المياه أو الأوحال، فإذا جاء أجل انتقاله إلى فراش تسلق أوراق العشب وخلع ثوب الجندبية فإذا هو خارج من تحتها ذا أجنحة صغيرة جميلة، وبعد قليل تصير كبيرة يطير بها إلى حيث يشاء. وكان الناس قبلاً يظنون أن كل دور من هذه الأدوار حيواناً مستقلاً، فالدودة غير الجندب والجندب غير الحشرة الطائرة وهكذا. واعلم أن الناس يأكلون الجبن واللحم ويرون فيهما الدود ولا يخطر ببالهم أن هذا الدود هو عين الذباب الذي يطير على وجوههم وطعامهم أنه هو هو، وهذا الدود هو الذي يصير جندباً أو شرنقة ثم يصير حشرة طائرة، وهي التي تبيض وبيضها يصير دوداً. ومن ذلك الناموس فإنه يضع بزوراً في الماء تصير دوداً فيه، وذلك الدود يصير شرنقة وهي تصير ناموسة وهكذا. والطريقة لإبادة الناموس ردم المستنقعات والآجام أو تغطية سطوحها بالسائل المسمى بترول. وهذه الأدوار الثلاثة لهذه الحشرات مختلفة. فالدودة لا عمل لها إلا الاغتذاء، كالأطفال في بني آدم، فهي تنمو وتزيد ثم تنكمش كما نرى دودة الحرير، وقد تكتسي ثوباً تنسجه على نفسها من خيوط، فهي حينئذ الشرنقة وهي كجثة محنطة ملفوفة بالأكفان، ثم لا نلبث أن نرى الحياة أخذت تدب في تلك الجثة رويداً رويداً حتى تبعث من مرقدها وتخلع أكفانها وقد لبست ثوباً جديداً زاهي اللون من أزرق أو أخضر أو أحمر أو ذهبي أو عقيقي أو بنفسجي. فتعجب من حشرة بهجة اللون بديعة التركيب منقشة مرقشة نشأت من رمة جافة لا يظهر للحياة فيها أثر. ومن هذا نشأ تقديس المصريين القدماء للجعلان، جمع جعل، فإنها تنشأ من رمم مائتة، فرمزوا بها للحياة والخصب وأكثروا من رسمها في كتاباتهم ونقشوها على الهياكل وصنعوا لها التماثيل بأقدار مختلفة، وكانوا يصلون لها. فاعجب لصنع الله وكيف خلق الله العجائب ولون الألوان وأبدع الأشكال وحير الألباب حتى جعل علم الحشرات مدهشاً. وقد تقدم بأوسع من هذا في آخر سورة «الحج»، ولعمري إن المسلمين أحق الأمم بفهم هذه العجائب.

أيّ عذر للمسلمين في جهالتهم؟. يقول الله في هذه الآيات: ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥]. فانظر كيف قال: إنه يخلق ما يشاء، وقال: إنه على كل شيء قدير، مشيراً بذلك إلى الاختلاف وحسن الصنع الذي رأيته، وكيف كانت الحشرات موضع العجب للأمم حتى قدس المتقدمون من الأمم بعضها، لأن علماءهم لم يبينوا لهم عجائب إلا عجائبها، ولو أنهم فتحوا لهم باب العلم على مصراعيه كما فتحه القرآن لم يقفوا في العجائب عند حد الجعلان فقدسوه، بل التقديس لصاحب الصنعة الذي زين ونقش وزخرف وأبهج صنعه وأبدع إتقانه وجعل دودة ربما هضمت الطين فتصير فراشة لا تهضم الطين ولا تأكله بل تأكل ما هو ألطف. إن هذا العالم عجيب ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨]. وهاهنا أربع لطائف:

(١) في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٣٥] إلى قوله: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[الآية: ٣٥] الخ.

(٢) وفي قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الآية: ٣٨].

(٣) وفي قوله: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾[الآية: ٤١] الخ.

(٤) وفي قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[الآية: ٤٣] إلى قوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[الآية: ٤٣].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

اعلم أن هذه السورة قد بيّن الله فيها أحكام الزانية والزاني وجلدهما، وبيّن حكم من رمى زوجته بالزنا وعقابه، وبيّن حكم الملاعنة وكيف يتفرق الزوجان بها، ثم قصة الإفك وكيف خاض الناس فيه، وجعل هذا الحديث كحديث مريم ابنة عمران في عفتها وأنها أحصنت فرجها.

ثم أبان كيف يجب أن يعفو الإنسان عمن ظلمه، كما امتثل أبو بكر الصديق رضي الله عنه فعفا عن مسطح. ثم أمر الرجال والنساء بغض الأبصار وحرم عليهن أن يظهرن زينتهن لغير المحارم.

ثم بيّن حكم النكاح والمكاتبة تكثيراً للنسل في الأول، وحفظاً للفرج وعتقاً للعبيد الذين هم عباد الله، وبيّن أنه يجب أن ينفق من المال في سبيل العتق، فإن المال مال الله والخلق عباده، فتحاً لباب الحرية، لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين، ومن رحمته لهم أن يكون دينه فاتحاً لباب الحرية وإطلاق العبيد من رقهم. ثم ختم ذلك بأن هذه آيات مبينات ومواعظ للمتقين. ولما كانت هذه الأحكام إنّما أتى بها لتعليم الأخلاق والآداب وحفظ المجتمع مما يقوض دعائمه وتقويته بما يكثر النسل فيه وكان ذلك مقدمات لما هو أعلى مراماً وأجل وأعظم وهي المعارف والعلوم أردفه بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، كأنه تعالى يقول: أيها الناس لا تلهكم الأحكام الشرعية من الحلال والحرام وأحكام الزنا والنكاح والقذف وما أشبه ذلك، لا تلهكم عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، كما قال في آية أخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩]. فهاهنا كان الله يقول: لا تلهكم أيها الناس أحكام النكاح والقذف والعتق وحده والزنا وعقابه عن عظائم الأمور وجلائلها. أيها الناس ارفعوا رؤوسكم إلى أعلى، انظروا إلى جمالي ونوري في شمسي وفي قمري وفي النبات والزهر والنهر، أنا لم أخلقكم في هذه الأرض لتكونوا فيها خالدين، وإنّما خلقتكم لتعيشوا آمنين أمداً ثم أنقلكم إلى دار أجمل من هذه، ولن تنالوا تلك الدار الجميلة إلا إذا نظرتم جمالي وفهمتم بعض حكمي، وابتدأ ذلك بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥] الخ.

واعلم أن الله جعل هذا المثل نبراساً للعوالم المشرقة، ضربه بما نشاهده كل يوم في مساجدنا.

يقول الله: أي عبادي أتريدون أن تعرفوا حكمتي في خلقي؟ انظروا القناديل المعلقة في مساجدكم انظروها ألا ترون أنبوبة فيها زيت أحاط بها زجاجة اشتعلت فيها نار فأضاءت المساجد وأنتم تصلون فيها؟. فهذا نظام مركب تركيباً أنتج هذا النور الذي أشرق على أبصاركم فأضاء لكم مساجدكم، هكذا نوري المشرق في عجائب خلقي.

وهاهنا أخذ الناس يفكرون في ذلك التمثيل، فقوم خصصوه: (١) فقالوا: ذلك تمثيل لمحمد صلى الله عليه وسلم. (٢) وقوم قالوا: لإبراهيم عليه الصلاة والسلام. (٣) وقوم قالوا: ذلك لكل مؤمن فعمموا. (٤) وقوم قالوا: كلا. بل هو لكل إنسان، أي: لقواه الدارکة. (٥) وقوم قالوا: بل هو لقواه العاقلة. (٦) وقوم قالوا: هو للقرآن.

اختلفت أنظار العلماء في هذا التمثيل على مقدار هممهم ومقتضى نظرهم ومقامهم في العلم، فمن كان لا يعرف إلا الإيمان قال به. ومن كان مغموراً في نور النبوة قال بها. ومن كان ذا نظر في السماوات والأرض والعالم عمم المثل، فتارة أرجعه لنفس الإنسان وتارة لقواه الداركة. وتارة لقواه العاقلة، وهذا أعم الأقوال، لأن الإنسان يشمل الأنبياء والإيمان القائم بالقلوب. واعلم أن هذا المثل اللفظي الذي جعل مشاكلاً لعجائب أجسامنا وعقولنا وإدراكنا أشبه بما نصبه الله في الأرض من الأجسام الإنسانية إذ أحكم صنعها ونظم أعضاءها وخلق وسوى وقدر وأحكم فجعلها العلماء تمثيلاً لأمور وهي:

(١) كالسفينة تركبها الروح في بحر الحياة اللجي حتى تصل إلى شاطئ الموت.

(٢) أو كالدار فيها السكان المختلفون من القوى الداركة وأعضاء الحس وأعضاء الحركة والهاضمة والمصورة والغاذية وما أشبه ذلك، وفيها أمتعة كالصفراء والدم والبلغم ونحوها.

(٣) أو كاللوح والنفس تنقش فيها وترسم وتتعلم، حتى إذا علمت ما تطيقه رمت باللوح وراحت إلى ربها، كما أن الطفل يقرأ في اللوح ويتعلم حتى إذا عرف القراءة المطلوبة ترك اللوح وذهب إلى ما يريد.

(٤) أو كالمدينة والروح ملكها والأعضاء منازلها الخ.

(٥) أو كالدكان والروح صاحبها والأعضاء الباطنة متاعها والأعمال تجارتها والربح والخسارة في آخرتها وهكذا. هكذا هذا المثل وهو قنديل المسجد.

الوجه الأول من الوجوه السابقة

إن هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار.

الوجه الثاني

المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله فيه ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ لا يهودي ولا نصراني ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[النور: ٣٥] وهو إبراهيم عليه السلام ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[النور: ٣٥] نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وهذان الوجهان متقاربان فلذلك عدا في الإجمال وجهاً واحداً.

الوجه الثالث

المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم. سمى الله محمداً مصباحاً كما سماه سراجاً منيراً، والشجرة المباركة إبراهيم لأن أكثر الأنبياء من صلبه ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا

غَرْبِيَّةٍ﴾[النور: ٣٥] يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، لأن اليهود تصلي إلى الغرب والنصارى تصلي إلى الشرق.

الوجه الرابع

إنه لكل مؤمن، وهذا أرقى مما قبله وأوسع مدى على حسب ارتقاء النظر واتساع الفكر، فالمشكاة نفسه، والزجاجة قلبه، والمصباح الإيمان في قلبه، والقرآن يوقد من شجرة مباركة هي شجرة الإخلاص لله وحده، وهذا التمثيل وإن كان أعم مما قبله فهو قاصر على قوم مختصين.

الوجه الخامس

إن هذا تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الداركة الخمس التي بها المعاش والمعاد، وهي الحساسة التي ندرك بها المحسوسات بالحواس الخمس، والقوة الخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العاقلة متى شاءت، ثم العاقلة التي تدرك الحقائق الكلية وتستنتج، ثم القوة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب الخاصة بالأنبياء، فهذه مثل لها بالمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت. ألا ترى رعاك الله أن المشكاة بمعنى الكوة قد شابهتها محال الحواس التي قد وضعت فيها ووجهها إلى المظاهر، ولا تدرك ما وراءها كالعين فإنها لا تدرك ما خلفها ولكن تدرك ما أمامها. ثم إنك تعلم أن الإنسان إذا أدرك المحسوسات وصورت في نفسه صارت في القوة الخيالية كما يحس به كل إنسان، فإننا إذا أغمضنا أعيننا فإنا ندرك في أنفسنا تلك الصور التي رأيناها، فهذه القوة التي حفظت تلك الصور نسميها الخيالية، فهي كالزجاجة تقبل صور المدركات وتضبطها. ثم إن قوتنا المفكرة أكبر من هذه القوة الخيالية فإن هذه القوة الكامنة فينا تتصرف في الصور التي في قوة الخيال فتقول هذا حسن وهذا قبيح، وتستنتج فهي كالمصباح، فأما القوة العاقلة فهي كالشجرة المباركة لأنها تؤدي إلى ثمرات لا نهاية لها. فأما كونها زيتونة لا شرقية ولا غربية فذلك أنها تجرد المعاني عن الصور، وتخترع القضايا الكلية التي لا تخص شيئاً بعينه، أي: لا تتقيد بالجزئيات. فإذا أدركت أن الكل أكبر من الجزء وأن الشيئين المساويين لشيء واحد متساويات فلم يكن هذا المعنى خاصاً بشيء فهو لا شرقي ولا غربي بل هو عام. فأما الزيت فهو كالقوة القدسية الخاصة بالأنبياء فهي لشدة صفائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تعليم ولا تفكر.

الوجه السادس

إن هذا تمثيل للقوة العاقلة وحدها، فهي في بدء أمرها خالية من العلوم، ثم تنقش فيها العلوم بالحواس الخمس فتصير كالزجاجة متلألئة في نفسها قابلة للأنوار، ثم تعرف العلوم بفكرها كالشجرة الزيتونة، أو بالحدس كالزيت، أو بقوة قدسية كالتي يكاد زيتها يضيء فإنها تكاد تعلم وإن لم تتصل بها العلوم. فإن اتصلت بها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت فهي المصباح، فإذا استحضرتها كان نوراً على نور.

الوجه السابع وهو أسهلها

قال ابن عباس: هذا نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه، كذلك يكاد قلب المؤمن يعلم بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونوراً على نور.

هذه هي الوجوه السبعة التي ذكرها العلماء . وأنت ترى أن الآية صالحة لها جميعها ، لأن الأنبياء ونوع الإنسان والعقول كلها تشابه تلك القناديل المعلقة في المساجد ، وكأن الله يقول لعباده بهذا المثل : انظروا إلى هذه القناديل المعلقة في مساجدكم التي نورت أرضها وحيطانها ، هكذا أنا أنرت قلوبكم وقلوب أنبيائكم وعقولكم وحواسكم ، وأنعمت عليكم بنعمة الحواس والخيال والعقل والقوى المدركة ، فإبراهيم ومحمد والمؤمنون ونوع الإنسان وحواسكم وعقولكم وخيالكم وقوّاتكم العاقلة كل هذه أنوار مثلت لها بهذه القناديل ، إني نور السماوات والأرض ، أنرت السماوات بالكواكب والشموس ، وأنرت السبل والطرق بالنجوم وجعلتها علامات لكم ، وجعلت كل شيء بحساب ونظام ، وجعلت هذا القنديل مثالاً لكم وأنتم تصلون في مساجدكم ، فبهذا القنديل أذكركم بنوري في سماواتي بالكواكب والشموس والأقمار ، وهو مثال أيضاً للأنوار المشرقة في نفوس أنبيائكم كمحمد وإبراهيم ، وقواكم العاقلة والحاسة والخيالية وعجائب نفوسكم . إن نوري مشرق في العالم العلوي والسفلي .

عجائب القرآن في قوله تعالى أيضاً:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

انظر أيها الذكي إلى نظم القرآن وعجائبه . انظر وتعجب ، انظر كيف أتى بعد آيات العتق والنكاح والقذف والملاعنة بآيات النور . يقول الله : أيها المسلمون ، إياكم أن يشغلكم أحكام الشرع وإقامة الحدود ونظام الأسرات والزواج والعتق والمكاتبة وأحكام الحرام والحلال عن النظر إلى عجائب خلقي . إياكم أيها المسلمون أن يصرفكم صارف عن عجائب صنعي . إياكم أن يصدكم علم الفقه عن علم الكائنات . انظروا إلى السراج الموضوع أمامكم في كوة المسجد . انظروا إن سماواتي فيها سرج من الشموس والأقمار والسيارات ، إن عقولكم فيها سراج . إن حواسكم وقواكم الداخلة فيها سرج ، إن دينكم سراج . إن أنبياءكم سرج . إن المؤمنين سرج . إنني أضأت كل شيء بأنواري وعلومي ظاهراً وباطناً . إن مساجدكم يسبح فيها قوم بالغدو والآصال فلا تلهيهم تجارة ولا بيع . هكذا لا يشغلكم ما تقدم من علوم الفقه في هذه السورة وغيرها عن النظر إلى عجائب صنعي . هذا هو الذي فهمته أيها الذكي من هذه الآية وقوله : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾[النور : ٣٧] الخ .

اللهم إني أسألك أن تقدرني على إتمام تفسير القرآن وأن تنشره بين المسلمين . اللهم إني أسألك أن تنير بصائرهم كما أنرت السماوات والأرض وأشرقت الأرض بنورك . اللهم ابعث فيهم رجالاً منهم يرشدونهم إلى مقاصد القرآن فترتقي الأمة إلى سبل النجاح وطرق الفلاح .

إيضاح الكلام على القنديل والمشكاة في المسجد

تبين لك فيما تقدم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن ضعف النوع الإنساني ، وأن المسلمين بعد القرون الأولى سيصبحون قاصرين على الأحكام الشرعية وهم فيها غير ملومين ولا مذمومين ، ولكن اللوم والذم إنّما يتوجه إليهم لقصورهم واقتصارهم على الأحكام الشرعية . لذلك تراه في سورة « البقرة » لما ذكر الحيض والرضاع والنفقات والطلاق والعدة والرجعة وما أشبه ذلك ،

فاجأ المسلمين بقوله: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[الآية: ٢٣٨]. ولقد بينا هذا القول هناك فارجع إليه، كأنه يقول للمسلمين: إياكم أن تشغلكم القضايا والشهود والزواج والطلاق والعدة والمهر والنفقة والعدة وسائر الأحكام الشرعية عن التوجه لله، فإن هذه أمور لحفظ نظامكم وارتقاء مدنكم وإسعادكم في الحياة الدنيا. فأما ارتقاء العقول فإنّما يكون باتجاه النفوس إلى خالق الكون، وذلك بالمحافظة على الصلاة والتوجه إلى الله فيها. هذا ما كان هناك.

ولكن اسمع ما هو أعجب هنا، هناك ذكر الصلاة وهنا أتى بما هو أعظم مقاماً وأبدع إحكاماً. لم يكتف بالصلاة بل ذكر المقصود الأعظم من الصلاة ومن جميع هذه الحياة، إذ عبر بالنور الذي عمّ السماوات والأرض نور الشمس ونور القمر ونور السراج، وما نور السراج إلا أثر من آثار أنوار الشمس. ألا ترى إلى الزيت كيف كان في الشجر، والشجر كيف كان عناصر أرضية، والعناصر الأرضية كانت مادة ساذجة لا صور فيها، والمادة قبس من نور العقول المجردة فاضت من ذلك العالم الأقدس بالنظام الأكمل، فذكر نور السماوات والأرض بالكواكب، ومثل بالسراج الذي هو أثر من آثار النور العام مثل به لما هو أتم وأكمل، وهو نور العقول والبصائر. وإيضاحه أن نقول:

اعلم أن العقل عند الحكماء كأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط والفارابي وابن سينا والغزالي والرازي وابن رشد وأضرابهم إما عقل بالقوة وإما عقل بالفعل وإما عقل مستفاد وإما عقل فعال، وهذه هي التي ضرب لها مثل المشكاة على حسب الحقيقة، وما تقدم إنّما هو إجمال، وهذه المباحث لا يعقلها إلا الحكماء. ولكني سأضرب لك مثلاً يوضح المقام لك حتى تطلع على عجائب الحكمة وبدائع العلم، وتقف على السر المصون والجوهر المكنون، فأقول:

تصور شاباً ذكي الفؤاد رائع الفكر قوي الذهن مستعد للتجارة فهذه حال أولى وهو في صغره، ثم إن هذا الشاب تعاطى التجارة وأخذ يقصد المال لقصد الربح، فكسب ألفاً وبالألف كسب ألفاً أخرى، وبهما كسب ألفين وهكذا، فهذه حال ثانية. ثم إنه إذا اجتمع عنده آلاف ونال الغنى على مقدار طاقته بحيث لا يقبل الزيادة وأخذ يقلب المال كله مرة بعد أخرى فهذه حال ثالثة. فهذه الأحوال الثلاثة يمكننا أن نسميها على الترتيب غنى بالقوة وغنى بالفعل وغنى مستفاد. فهو قبل أن يملك شيئاً غني بالقوة، أي أنه في إمكانه أن يكون غنياً، ومتى ملك شيئاً بعد شيء يقال: إنه غني بالفعل بالنسبة لما ملكه، وبالقوة بالنسبة لما يملكه، فإذا تم غناه يقال: إنه غني بالفعل، ولم يبق هناك ما هو بالقوة بالنسبة له، فإذا قلب المال كرة بعد أخرى يقال: إن هذا غني مستفاد. هذا مثال أول. المثال الثاني: شاب ذكي كالمتقدم هو ابن ملك فهو قبل أن يملك يقال له: ملك بالقوة، فإذا ملكه أبوه ولاية يقال له: قد ملك بالفعل شيئاً وبالقوة شيئاً آخر، فإذا مات أبوه وولي مكانه قيل: إنه ملك بالفعل، فإذا ألقى الأوامر مرة بعد أخرى قيل: ملك مستفاد مثلاً. هذان المثلان إذا علقتهما أدركت ما سأوضحه لك الآن، فأقول: اعلم أن العقول الإنسانية في أول أمرها مستعدة لاقتناص الصور من هذه المادة التي نعيش فيها، فكل امرئ في أول حياته ينظر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس، وهذه المذوقات والمشمومات والملموسات والمسموعات والمبصرات صفات المادة وصورها، وهذه الصور جلابيب للمادة، وقد عدها الحكماء فكانت ٣٦ كالألوان والأصوات الخ.

فهذه الجلابيب التي كسيت بها المادة خلق العقل ليكتسي بها ويلبسها ، فإن الطفل نراه مستعداً لفهم ما حوله ودراسته ، فهو قبل فهم الأشياء عقلها بالقوة لا بالفعل ، أي أنه مستعد للتعقل ، فإذا عقل صورة بعد صورة وعلماً بعد علم يقال : إنه قد عقل شيئاً بالقوة وشيئاً بالفعل ، فما عرفه صار معقولاً بالعقل وما لم يعقله صار معقولاً بالقوة ، فإذا انتهت معلوماته بأن درس جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والسياسية والأخلاقية بحيث وصل إلى ما يطيقه نوع الإنسان يقال : إن له عقلاً بالفعل ، فإذا استحضر هذه المعقولات التي خزنها عنده بعد أن صارت بالفعل يقال : إن هذا العقل مستفاد .

هذه هي المراتب الثلاث التي تقدمت في مثال التاجر وفي مثال ابن الملك . فهذا العقل المستفاد في نوع الإنسان الذي لا يكون إلا لأكابر العلماء له نظير في عالم غير عالمنا وهو العقل الفعال . ومعنى العقل الفعال العقل الذي لم يقتنص علومه من المادة ، بل علومه مغروسة فيه بفطرته ، فإن المادة قد كسبت الصور اللاحقة بها من ذلك العقل ورسم فيها ما كان مرتسماً فيه ، وجميع الأحوال القائمة به ترتسم في المادة مقسمة عليها ، وتلك العلوم في العقل الفعال غير متقسمة فيه ، لكنها منقسمة في المادة موزعة عليها ، فنراها جمعت بين الزرع والحجر والنهر والكوكب الخ ، ولكن العقل الفعال جمع هذا كله غير مفرق ولا منقسم ، كما أن عقولنا تجمع هذا وهي غير مقسمة ولا مجزأة ، بل هي واحدة منزهة عن التقسيم كما هو مبرهن عليه في كتب الحكمة . وهذا العقل الفعال نسبته إلى عقولنا كنسبة الشمس إلى أبصارنا . فإذا كانت أبصارنا مستعدة للأبصار ، ومعنى كونها مستعدة أنه لو أشرق نور في الهواء وعلى قرنية العين وعلى عدسيتها وأحضر الصور على شبكيتها أدركته ووصلته للعين ، فهكذا عقولنا إذا أشرق العقل الفعال عليها إشراقاً معنوياً كإشراق الشمس في الهواء وفي العين فإن المعاني تتمثل في عقولنا كما رسمت الصور في القوة الباصرة . فالعقل الفعال كالشمس والعقول كالعيون وإشراق العقل الفعال المعنوي كإشراق الشمس الحسي . فحصول الصور في العقول كحصول المرئيات في أبصارنا ، فإذا حصلت المعقولات في نفوسنا واستنتجنا بها علوماً أخرى وهكذا ، فإنه يقال : إن العقل عندنا بالفعل بالنسبة لما عرفناه ، وبالقوة بالنسبة لما لا نعرفه . فإذا ارتسمت العلوم في نفوسنا يقال : إنها عندنا بالفعل ، ثم يكون العقل المستفاد ، ثم إن العقل بالقوة كأنه مادة للعقل بالفعل ، والعقل بالفعل كأنه مادة للعقل المستفاد ، والعقل المستفاد كأنه مادة للعقل الفعال ، والعقل الفعال كأنه صورة له .

وعلى ذلك يكون هذا الوجود مرتباً في عقولنا من الأدنى إلى الأعلى ، فإننا ندرك البسائط ثم المركبات ، وندرك الصور المحسوسات التي هي أخس من المعقولات ، ثم ندرك الكليات ، ثم تتم عندنا وتكمل وتكون عقلاً مستفاداً ، فأما في العقل الفعال فإن العلوم فيه تتنزل من الكليات إلى الجزئيات بلا زمان ، بل هي فيه هكذا أبداً ، وهي تكون في المادة من الأدنى للأعلى .

الصورة والمادة والمعاني والعقول

إياك أن تظن أن المعاني التي تنقش في عقولنا مثل الصور التي في المادة سواء بسواء . كلا إن الصور التي في المادة منقوشة فيها . ولقد اعتاد الناس أن يقولوا : إن الصورة غير المادة . ألا ترى أن نقش الخاتم شيء والمعدن الذي نقش عليه شيء آخر ؟ كما أن الإنسان شيء واللباس الذي يلبسه شيء آخر ، فما هنا ليس كذلك ، فإن المعاني التي تقتنصها عقولنا من المادة تصبح هي نفس عقولنا .

وكما أنك إذا رأيت صورتك في المرآة لم يكن هناك شيء غير الصورة، فالصورة هي عين المصوَّر ـ بالفتح ـ إذ لا مادة هناك، فالصورة والمصور شيء واحد هكذا عقولنا. فكل معنى عقلناه أو قضايا اقتبسناها فهي هي عقولنا. فالله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة فاقتنصنا من المادة معلومات، وتلك المعلومات أصبحت نفس عقولنا لا شيء وراءها، فليست صفات لعقولنا بل هي نفس عقولنا. كما أن صورنا في المرآة ليست شيئاً سوى الصورة، فإذا نحن عقلنا أنفسنا فالعقل الذي عقلنا به هو نفس المعقول. فإذن يكون عقلنا عقلاً وعاقلاً ومعقولاً، فإذا تعقل الإنسان نفسه فالعقل هو العاقل وهو المعقول، إذ ليس هناك شيئان متغايران كالجسم واللباس عليه وكالمادة والصورة بل هما شيء واحد. هذا هو السر الذي تراه في ثنايا الكتب الفلسفية قد أوضحته لك على قدر الإمكان وبه تعرف كيف انتقل الناس من أدنى الأمور إلى أعلاها. فبينما هم ينظرون الألوان والأصوات، إذا هم يرتقون إلى الكليات، إذا هم يفكرون في العقول وقد استكملت علومها، إذا هم يقولون بالعقول المستفادة التي تحضر المعقول متى شاءت، إذا هم يرتقون إلى العالم الأعلى، أي: الذي ليس في مادة، ويقولون: إذا نحن قدرنا هنا في الأرض أن نكون عقولاً بمجرد الاطلاع على هذه المادة وأخذ صورها والتصرف فيها وأننا نلبس ملابسها وتصبح حللاً لعقولنا ونذهب بها إلى عالم آخر، فأحرّ بنا أن نقول: إن هناك عوالم لم تكتسب علومها من المادة بل علومها فيها كامنة. وإذا كنا نقول: هاهنا مادة فيها صور تعلمنا منها وأخذنا العلم عنها وهي حاضرة أمامنا وأصبحنا عالمين بها، فما بالنا ننكص على أعقابنا ولا نقول: إن هذا العقل الذي كسبناه منها على منوال العقل الذي أكسبها هذه الصورة، ولذلك نرى أنفسنا تحذو حذوه فتنطبع بهذه الصور التي طبعها ذلك العقل في المادة وهذه العقول التي غرست فينا واستعدت لدرس هذه المادة مستمدة من ذلك العقل الفعال، والعقل الفعال قد جعل هذه المادة كلوح تقرؤه نفوسنا فتقلده وتدرس ما خطه في لوح الطبيعة وتنحو نحو العقل الفعال، لأننا نرى أن الأبناء يسيرون على طبيعة الآباء. فإذا كنا نرى جميع صغار الحيوان تتبع في نظامها وسيرها نظام آبائها ووجدنا عقلنا لما كان عقلاً بالقوة أخذ يسعى سعياً حثيثاً حتى استكمل المعقولات؛ فما الذي يمنعنا أن نقول: إن العقول الإنسانية تحتذي حذو عقل ليس في مادة، وتقلده وتستكمل العلم لتبلغ شأوه، أو تقرب من ذلك الشأو، كما كان صغار الحيوان يتبعن آباءهن، وأن ذلك العقل الفعال فيه النظام غير مستحدث من المادة، لأنه لا يحتاج إليها. أما عقلنا فهو إليها محتاج وعليها يعول. ولقد أوضحت لك المقام والله هو الولي الحميد.

أفلا تنظر وتعجب كيف ذكر الله قنديل المسجد ونور الكواكب؟ وأشار بنور القنديل إلى أنوار القلوب وإلى ما ينقش في العقول من المعاني، وكيف انتقلنا من مقام إلى مقام حتى وصلنا إلى عالم الملائكة. ولعمري ما ضياء القنديل في المسجد إلا الظواهر الحيطان والسقف والأرض، وأن الحقائق في العقول لتفصل تفصيلاً وتعرف تحقيقاً، وقد بيّن الله ما هو أجل بما هو أقل، لأن ما هو أقل أعرف عندنا وما هو أجل مجهول لدينا، وهانحن أولاء وصلنا من هذا المقال لعالم الملائكة ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠]، وقال الشاعر:

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

قطرة ماء في تفسير قوله تعالى أيضاً:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

اعلم أن الناس اعتادوا أن يعرفوا عظمة هذه الدنيا بالنظر في السماوات والأرض. والقرآن طافح بذلك، وهذا التفسير قد عني بهذا الشأن أشد عناية. الله أكبر. جلّ العلم. فهل لك أن أحدثك حديثاً جميلاً عجيباً في هذه الدنيا التي نعيش فيها تطبيقاً على هذه الآية؟ ومن هذا الحديث يتجلى لك أن العلم الحديث أظهر أن جميع ذرات هذه العوالم تفسير هذه الآية، وأن هذه الدنيا كلها نور خلقه الله، وأن هذا العالم كله نور وأننا نعيش في وسط النور، وأن ما نراه من حيوان ونبات وسماء وأرض وحجر ومدر كل هذا ما هو إلا نور متجمد كما تجمد الماء فصار ثلجاً. فهذه العوالم التي شرحتها الأمم كلها وذكر مجملها القرآن تدخل في هذه الآية. ومتى سمعت ما أقوله لك الآن وتحققته انشرح صدرك وتمنيت أن ترى هذا النور عياناً، وأن تحجب عنك هذه الدنيا وصورها الزائلة وتتمتع بجمال لا نهاية له.

فهاك اسمع ما يقوله العالم «هنشو» الذي يكتب في مجلة «هارير» الأمريكية في سنة ١٩٢٦ وهذا القول نشر في مجلات أخرى فأريد أن أسمعك ملخص ما يقوله، ولكني أحافظ على الحقائق العلمية والمقادير تماماً وأورد القول بإيضاح يناسب هذا التفسير حتى تعرف نور الله وجماله الذي أشرق في الأرض اليوم وأصبحت علوم الأمم في الشرق والغرب مفسرات للقرآن وهم لا يشعرون.

يقول «هنشو»: إن بعض قطرات الماء قد يكون قطرها ثلث سنتمتر. ولا جرم أنك أيها الذكي تعرف هذا المقياس فهو مشهور، لأن السنتي جزء من مائة من المتر، قال: فلنكبره.

(١) وأخذ يكبره تقديراً مراراً حتى أوصل قطره إلى ١٥ سنتيمتراً. يقول: ومتى صارت قطرة الماء هكذا أصبحت كثيرة الارتجاف وظهرت عليها ألوان قوس قزح.

(٢) وإذا كبرناها حتى صار قطرها ١٧٠ متراً زال ظهور قوس قزح ولا نرى فيها إلا الماء لا غير.

(٣) وإذا كبرنا قطر نقطة الماء فصار مائة ميل، قال: فحينئذ تظهر جواهر الماء الصغيرة، ويكون كل جوهر صغير من الماء قد صار مثل «الجوزة» حجماً وقياس قطره سنتيان ونصف، ومعنى هذا أن جوهر الماء المذكور لا يمكن قسمته إلى قسمين كل منهما ماء، بل لا يمكن إلا تحليله إلى العناصر التي تركب منها. فهذا هو الجوهر المائي في حده الأدنى الذي لا يقبل القسمة إلى قسمين مائيين، بل يحلل إلى عناصره الأصلية التي لا تسمى ماء، وهما: الأكسوجين والأدروجين. وهذا الجوهر المائي الذي كبرناه وقلنا: إنه لا يقسم، إذا أمسكناه فرضاً وجدناه أشبه بالحجر صلابة لاتحاد الأكسوجين بالأدروجين اتحاداً قوياً جداً لا يمكن انفصاله إلا بأعمال كيمائية لا محل لذكرها، ولكن هذا الجوهر المذكور يجب علينا أن نعرف ما فيه لأن العلم لا حد له وشوق النفس لا نهاية له؛ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فما أشوقنا إلى أن ندخل هذا الجوهر الصغير من النقطة كما دخلنا النقطة وتفرجنا عليها ونحن راكبون في سفينة تجري في ذلك البحر اللجي، قال: فحينئذ نكبر النقطة مرة رابعة.

(٤) فنجعل قطرها مائة ألف ميل، فيصير قطر كل جوهر مائي من النقطة المذكورة أكثر من أربعين قدماً بعد أن كان سنتيين ونصفاً. ولكن هذا التكبير لا يفيدنا إلا أمراً واحداً وهو أننا نرى كل

جوهر مائي مؤلفاً من ثلاثة جواهر: أحدهما: وهو الأكسوجين في الوسط والآخران واحد عن يمينه وواحد عن يساره، وهما من الأدروجين. وهذه الثلاثة جواهر فردة، أي: أنها لا تنقسم، ومعنى أنها لا تنقسم أنها إذا حللت لا تكون أجزاؤها أكسوجيناً وأدروجيناً بل أشياء أخرى ستعلمها. هذه الجواهر الثلاثة أشبه بخلاء ومسافات لا غير لا مادة فيها، وجوهر الأكسوجين الذي في الوسط عبارة عن قنديل في المركز تحيط به ست دوائر تبعد عنه ٢٠ قدماً، وهذه الجواهر هي سطحه، والجوهران اللذان من الهيدروجين حوله ما هما إلا دائرتان من النور قطر كل منهما سبعة أقدام تدوران حول مركز من النور. إذن نحن الآن عرفنا الجوهر المائي أولاً، ولما كبرناه وجدناه مركباً من أشياء ليست ماء، ولكنها أشياء أخرى في علم الكيمياء يحلل الماء إليها في جميع المدارس في العالم، وتكون عبارة عن مواد أشبه بالهواء، وهذا معلوم مستفيض، ولكن النفس لا تزال تريد الزيادة في العلم، كما قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، وقال ابن سينا في قصيدة النفس:

أسرع برد جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

حينئذ علينا أن نعرف ما هذا الأكسوجين وما هذا الأدروجين بعد أن عرفنا نقطة الماء وعرفنا أجزاء كل جوهر منها.

(٥) إذن نكبر نقطة الماء المذكورة مرة خامسة ألف مرة أخرى، فتصير أكبر من فلك الأرض حول الشمس، وحينئذ يصير قطر الجوهر المائي الذي حدثناك عنه وقلنا: إنه مركب من الجواهر الثلاثة المذكورة الفردة، ثمانية أميال. فماذا نرى إذن؟ نرى أن الدوائر التي حدثتك عنها في الأكسوجين والأدروجين ما هي إلا خطوط وهمية من النور ترسمها نقطة صغيرة من النور تدور حول مركزها في الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون دورة، وهذه النقطة الدائرة هي الكهرباء السالبة، ومركزها النوري يسمونه الكهرباء الموجبة، وهذه الدوائر التي رسمتها النقطة في الأكسوجين والأدروجين ما هي إلا كالدوائر التي ترسمها شعلة نحركها نحن بسرعة فترسم دائرة بحسب نظرنا نحن، وفي الواقع لا شيء سوى الشعلة. وبهذا البيان عرفنا أن الجوهر المائي رجع إلى أكسوجين وأدروجين. وهذان الجوهران الفرديان رجع كل منهما إلى نقطتين من النور: نقطة يسمونها سالبة تدور حول أخرى يسمونها موجبة، وهذه التي تدور حول الأخرى تكون أكثر من واحدة، وتكون الدوائر على مقدار تعداد النقط الدائرة. إذن الأمر واضح لا موجود إلا النور. فالأكسوجين والأدروجين نقط من النور لا غير، وبالدوران السريع صار كل منهما غازاً، وبالاتحاد بينهما صار ماء والحقيقة واضحة. ما ذلك كله إلا نور. بقي علينا أن نعرف عدد الجواهر المائية التي في النقطة الواحدة من الماء. يقول العلامة «هنشو» المذكور: إن في النقطة من الماء عدد «خمس» وأمامه عشرون صفر، أي خمسمائة ألف ألف ألف ألف ألف ألف جوهر مائي، وهذا العدد العظيم من النقط المائية ليس مندمجاً كلا ولا مصمتاً، فهناك أبعاد شاسعة كالأبعاد التي بين الكواكب والشمس والأرض بالنسبة لأحجامها، فإذا ألصق بعضها ببعض لم تملأ إلا جزءاً من مائة ألف ألف ألف ألف جزء من النقطة. إذن قطرة الماء المذكورة عبارة عن نقط من النور، وهذه النقط يدور بعضها على بعض، وبشدة السرعة ترى مواد غازية، وهذه باتحادها تكون ماء، وهناك فضاء بينها بحيث تكون النقط بالنسبة للفضاء أشبه بالنجوم في مداراتها مع البعد الشاسع

بينها كالذي بين الأرض والشمس، وليس هذا خاصاً بالماء وأجزائه، كلا، بل جميع الأجسام من جبل ونبات وحيوان أنوار أو كهرباء متحركة في شكل عناصر متحدة قد بلغ عددها ٩٢ في وقتنا الحاضر مركبات من نقط النور المذكورة. إذن جميع عالمنا نور، وأي قطرة من الماء أو أي قطعة من حديد أو حجر أو طين ما هي إلا نقط من النور تدور في فضاء، ترسم دوائر من النور الخ. فقطرة الماء مثلاً أشبه بالمشكاة، وهكذا كل قطعة في المادة، ودوائر الأنوار الحادثة داخلها بسرعة جري النقط النورية في عناصرها أشبه بزجاجة المصباح، والمصباح أشبه بالنقط النورية التي في مركز كل من الأكسوجين والأدروجين فيما تقدم، وهكذا بقية العناصر. فهاهنا ظهرت المشكاة وظهرت الزجاجة وظهر المصباح وبقي ما يوقد منه المصباح، فجعله يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية الخ. وهذا هو الذي غاب عن الناس الآن. نعم إن وصف شجرة الزيتونة بأنها لا شرقية ولا غربية ربما يفيد أنها ليست من عالمنا الأرضي بل من العالم الإلهي الذي لا ندركه. اللهم إن قطرة من الماء أصبحت نوراً، وقطعة من الحجر أصبحت نوراً، وهذا النور ما أشرق إلا من نورك، ولا ظهر إلا من جمالك، ولكنك أريته لنا غير نور، فقد حبستنا في حواسنا فرأت الجمال غير الجمال، ولا سبيل لنا إلا أن ندرس جمالك الظاهر في عالم الطبيعة الذي حجبنا عنك، ولعلنا إذا فارقناه نرجع لعالم النور ونشاهد جمال وجهك المحتجب عنا، وسناء كمالك وبهائك الذي توارى بحجاب الحس ونكون ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٥٥] فنشاهد تلك المناظر الحسنة البهجة. إذن هذا العالم ما هو إلا نور متراكم وجمال احتجب وسعادة اختفت، ولا سبيل إلى السعادة إلا بإدراك الحقائق وذلك بالعلوم. ولقد استبان من هذا البحث أن قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩] قد وصل هنا إلى قرار مكين، فالكهرباء الموجبة والكهرباء السالبة المذكورتان كل منهما زوج، وهما زوجان كالذكر والأنثى وهذا الزوجان اتحدا كالذكور والإناث من الحيوان والنبات. وهذا السر الذي ظهر الآن هو الذي ظهر في الدين المجوسي قبل دخول الخرافات عليه كما تقدم في سورة «الأنبياء»، إذ جاء فيه أن الله خلق أصلين، وهما: الخير والشر، وليس يقوم العالم إلا بهما، ثم جاء المتأخرون منهم فجعلوا الخير والشر لإلهين لا لواحد كالمتقدمين، وهكذا طبع العدد زوج وفرد، وعلم الحساب جمع وتفريق، والعالم مركب من التنافر والمحبة. فكل هذه عبارات ترجع إلى معنى واحد وهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات: ٤٩]، فمن علماء اليونان من قال: أصل العالم العدد. ومنهم من قال: الكراهة والحب. هذا ما فتح الله به في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

النور قديماً وحديثاً في أرضنا

(١) المشاعل. (٢) مصابيح الزيت. (٣) قناديل الشمع. (٤) زيت البترول المعروف. (٥) الغاز الذي هو خلاصة الفحم المحترق الجاري في الأنابيب لإنارة المدن. (٦) خلاصة المادة الكحولية المسماة «اسبيرتو» أي بخارها الذي يغشى عادة بغشاء يحفظ ضوءه. (٧) ضوء الكهرباء الذي عمّ الأقطار الآن أيام كتابة هذا التفسير. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

انظرها في سورة «آل عمران».

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وهي جوهرتان

الجوهرة الأولى: في تسبيح الطير

إن مقام تسبيح الحيوانات وغيرها قد تقدم في سورة «الإسراء» عند قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الآية: ٤٤]، وهكذا في سورة «هود»، واستبان هناك أن التسبيح والتحميد من المخلوقات لا يعرفان إلا بقراءة جميع العلوم، ومن ذلك دراسة الألوان التي وضحت في سورة «المؤمنون»، ومسألة نغمات الأحجار في سورة «الرعد» وبيان أن التسبيح والتحميد لغز الوجود، وفيهما مسألة الخير والشر، وأن المجوس تخلصوا منها بأن للعالم إلهين، والإسلام أرجعها للتسبيح والتحميد. وبيان أن المسبح والحامد وهو جاهل كالحشرة المستدفئة بالزهر الملقحة للشجر ولا علم لها. وبيان أن هذه الإنسانية اليوم جاهلة هذا الوجود. وبيان أن الصوفية الذين يتبعهم أكثر المسلمين ينهونهم عن العلم، فأرسل الله على لسان الشيخ الخواص وهو منهم ما يفيد أن الجماد يعقل وأن الأشجار تتعاشق، وقد ظهر في الكشف الحديث ووضح في هذا التفسير تعاشق الأشجار، أما أن الجماد يعقل فهذا لم تصل له عقولنا. نعم عقولنا عرفت أن النبات يحس ويتحرك كالحيوان كما أثبته العالم الهندي بمصر، وتقدم في سورة «الحج»، أما كونه يسبح وكون الجماد يعقل فهذا لم نصل له، غاية الأمر أن الأمم اليوم تعرف أن كل جماد متحرك حركات سريعة تعد بمئات الألوف في ثانية. وقد استبان فيما تقدم لماذا ظهر هذا على ألسنة الصالحين من المسلمين، وأن حكمة ذلك إقامة الحجة على الصوفية في زماننا، إذا هم قصروا في معرفة العلوم التي هي فروض كفايات. وبيان أن المفتوح عليه منهم نادر، وهم كالمتبتلين من أهل الهند البوذيين الذين رفعوا أنفسهم عن الشعب. انظره هناك في سورة «الإسراء». انتهت الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية: في الطيور الرحالة

مترجم عن الإنجليزية

إن الطيور على نوعين: نوع يصرف حياته في مكان واحد ولا يفارقه ولا يبذر شجرته أو المستنقع الذي يبني فيه بيته ويعيش فيه أكثر من خطوات معدودات إلا نادراً جداً. ونوع آخر لا يألو جهداً في الحط والترحال مدة الحياة وفي جميع العصور فيكون في مكان بضعة أشهر ثم يرتحل آلافاً من الأميال ليصرف بقية السنة في مملكة أخرى. وهذه الطيور تسمى طيوراً رحالة لأنها دائماً على هذه الحال. وهذا النوع طائفتان: طائفة تألف رحلة الشتاء، وأخرى تألف رحلة الصيف. فالأولى تسكن البلاد الحارة وترحل إلى الباردة شمالاً، والثانية تسكن البلاد الباردة وترحل للحارة جنوباً طلباً لحرارة الشمس. إن الإنسان عند سفره يدفع أجرة السفينة في البحر أو القطر في البر. ولكن الطيور الرحالة لا يعوزها إلا أجنحتها. فلا أجرة تدفعها ولا سفينة تقلقها ولا قطر يحملها في البر. فتراها أسراباً تطير في جو السماء مارة بالبحار وبالممالك المختلفة. إن ارتحال الطيور من أعجب العجائب العظيمة المدهشة في هذه الدنيا وبدائعها وعجيب نظامها. ففي فصل الربيع من كل سنة في يوم معين يصل إلى أوروبا طوائف من الطير، وتبتدئ فتبني أعشاشها في الأمكنة التي بنت فيها في السنة الفائتة، وقد يبني العش طير صغير على الطريقة التي بنى أبواه بها العش الذي تربى هو في العام السابق بحيث يكون قريباً منه.

وقد يقوم بعض الناس بتجارب لمعرفة بعض عادات هذا الطير، فيصطادون منها جماعة ثم يعلمونها بعلامات خاصة كدوائر وغيرها ليعلموا هل هذه هي التي تصل في العام القابل. وقد ثبت لهم بهذه الطريقة أن الطائر المسمى «الخطاف» بالعربية و«سولو» بالإنجليزية الذي يصرف زمن الشتاء بالقرب من بحيرة «تشادو» في أواسط أفريقيا يبني أعشاشه لتربية صغاره سنة بعد سنة في حائط من منزل مخصوص في قرى الفلاحين ببلاد الإنجليز. إن طرق السفن الحربية الرئيسية في البحر الأبيض من أوروبا إلى أفريقيا ثلاثة مبتدئة من شبه جزيرة أسبانيا وإيطاليا واليونان. والمسافرون في هذه الطرق على السفن بالبحر الأبيض المتوسط زمن الخريف غالباً يرون أسراباً كثيرة من الطيور الرحالة طائرات جنوباً إلى بلاد الجزائر وبلاد تونس وبلاد مصر.

ما سبب رحلة الشتاء والصيف؟

وهنا يرد هذا السؤال فيقال: لم رحلت هذه الطيور؟ ولقد أجاب على هذا السؤال علماء الحيوان الذين هم أقرب إلى العلم بأحواله من سائر الناس، فقالوا: إن تلك الأقطار التي يرحل لها ذلك الطير أوفق إلى تربية صغاره وتغذيته بالأغذية الموافقة لها. وهذا السبب ذهبوا إليه لأنهم لم يعرفوا الحقيقة ببحث أو في طريق أقرب، فليس من الناس من يعرف السر في ذلك على حقيقته والله أعلم. انتهى «ترجم من الإنجليزية».

حكمة: إن سفر هذه الطيور الأوروبية إلى أفريقيا وسفر الطيور الأفريقية إلى أوروبا أشبه بسفر الناس من إحدى الجهتين إلى الآخرة ارتياداً لطلب الرزق وجداً في طلب العلم، وذلك كله مما يعلم الإنسان أن الأرض كلها منزل واحد، وقد عرف هذه الحقيقة الطير فعمل بها، وقال: لي رحلتان: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، ولكن الناس يقاتل بعضهم بعضاً على الأمكنة، وفاتهم بل جهلوا أنهم أسرة واحدة، وسيعرفون هذه الحقيقة في مستقبل الزمان حيثما تعم الرحمة أهل الأرض. انظر (شكل ١ و ٢).



(شكل ١ ـ صورة الخطاف)

(شكل ٢ ـ صورة ورود الطيور المهاجرة من كتاب «علوم للجميع» المسمى «ساينس فورال» تأليف العلامة «روبرت برون»)

وهاهنا فائدتان :

الفائدة الأولى

أسرع المخلوقات الحية

كشف مذ مدة قصيرة الدكتور « تشارلس تونسند » البحاثة الأميركي الشهير حشرة غريبة في البرازيل تعد أسرع المخلوقات الحية لأنها تقطع ٨١٥ ميلاً في الساعة أو نحو ١٤ ميلاً في الدقيقة و٤٠٠ ياردة في الثانية ، فتكون سرعتها نحواً من نصف سرعة رصاصة البندقية التي تجتاز ٩٠٠ ياردة في الثانية ، بينما الطيارة لا تجتاز أكثر من ١٣٠ ياردة في الثانية ، وأسرع إنسان لا يجتاز ١١ ياردة في الثانية . أما اسم هذه الحشرة فهو « سفنوميا » وهي موجودة في أمريكا الجنوبية والشمالية وبعض أنحاء أوروبا ، وإلى الآن لم يتمكنوا من معرفة مصدر سرعتها الحقيقي ، وقد قدروا أن جناحيها يدوران عدة آلاف من المرات في الثانية ، بينما أسرع طيارة لا يدور دولابها الأمامي أكثر من ٢٠٠٠ مرة في الدقيقة . وقد قال الدكتور « تشارلس تونسند » المذكور ما يأتي : لو أتيح للإنسان أن يطير بسرعة هذه الحشرة لتمكن من الدوران حول الأرض في ١٧ ساعة فقط ، فإنه يترك « نيويورك » الساعة الرابعة زوالية صباحاً ويفطر فوق « ريو » ثم يجتاز « باكين » ويتناول الشاي فوق « الأستانة » والغداء فوق « مدريد » ويصل « نيويورك » الساعة التاسعة زوالية مساء وهذا ميعاد دخول الأوبرا . وقد حرك اكتشاف هذه الحشرة اهتمام المهندسين والمخترعين ، وأخذوا يتحدثون متسائلين : لماذا لا نعمل الفكرة فنصطنع طيارة بسرعة هذه الحشرة أو أسرع ؟ وعسى أن يحقق اهتمامهم رغبتهم هذه فيقوموا للإنسانية بخدمة جليلة لا تقدر ولا تثمن .

مقاييس السرعة

نظم القائد « أرنولد » الأمريكي قائمة بمقاييس السرعة وهي كما يلي :

(١) أعظم سرعة للإنسان الراكض ٢١ ميلاً في الساعة .

(٢) سرعته على المزلجة ٢٢ ميلاً في الساعة .

(٣) أعظم سرعة للحصان ٣٩ ميلاً في الساعة .

(٤) أعظم سرعة للدراجة « بيسكلت » ٧٥ ميلاً في الساعة .

(٥) أعظم سرعة للدراجة البخارية ١١٢ ميلاً في الساعة .

(٦) أعظم سرعة للقطار الحديدي ١٢٠ ميلاً في الساعة .

(٧) أعظم سرعة للطيارة ٢٨٨ ميلاً في الساعة .

أسرع طيارة في العالم لا جناح لها ولا مراوح

صنع المسيو « شبادلين » وهو مهندس فرنسوي شهير نموذج طيارة بلا جناحين ولا مروحة في مقدمتها ومع هذا فهي تطير . ويعتقد هذا المخترع أن الطيارة التي تصنع على نمط نموذجه هذا يمكنها أن تقطع من سبعمائة إلى ألف ميل في الساعة . فهي والحالة هذه تسبق الشمس إذا بارتها في شوط بين باريس ونيويورك ، وقد قال المخترع ضاحكاً : إنه يتمنى لركاب طيارتي أن يتناولوا الغداء في « الجراند بولفارد » بباريس ويشربوا الشاي في « برودواي » بنيويورك .

والمسيو «شبادلين» مقتنع بأن طيارته التي أسماها «جيروبتر» ستكون طيارة المستقبل القريب. وقد أيد النموذج الذي صنعه لهذه الطيارة أقواله بكيفية مدهشة. ويبلغ طول نموذجه هذا نحو عشرين قيراطاً ولا يزيد ارتفاعه على قدم واحد، وهو يحاكي الطيارات العادية في هيكلها. وعلى كل من جانبيه دولاب كرفّ البواخر النهرية أو كالتي كانت مستعملة لبواخر البحار في أول عهد البواخر. وكان يقتضي لهذا النموذج محرك تكون قوته ١ من ٧ حصان ووزنه أوقية وربع، ولما كان محرك كهذا معدوم الوجود جهز المخترع نموذجه بمحرك كهربائي وأوصل إليه التيار بأسلاك لينة من دنيمو صغير وضعه على المائدة، وما كان يوصل التيار به حتى أخذ رفاساها يدوران بسرعة ٧٠٠٠ دورة في الدقيقة، وأخذت تلك الطيارة الصغيرة ترتفع وتدور في الحجرة. وقد جعلت مغالق متحركة حول أغطية الرفاسين تستخدم لتحويل مقدم الطيارة إلى أعلى أو إلى أسفل. ومبدأ المخترع في طيارته هذه العجيبة هو من قبيل مبدأ المركبة الألمانية المسماة «روكن»، فالرفان في الطيارة التي نحن بصددها يقومان مقام المروحة التي تكون في مقدمة الطيارة العادية، وهما اللذان يدفعان الطيارة ويسيّرانها. ويقول المخترع: إن سرعة هذه الطيارة يمكن أن تزداد إذا استعمل الغاز الهالك الذي ينساب من المحركات على مبدأ الصاروخ. ولهذه الطيارة ميزة أخرى كما يقول مخترعها، وهي أن رفاسيها وأغطيتها تقوم مقام المظلة الواقية «الباراشوت» في حالة إصابة المحرك بعطل، فتنزل الطيارة إلى الأرض ببطء يقيها خطر الاصطدام الشديد. ولا يخفى ما لهذا الاختراع من الأهمية الكبيرة في عالم الطيران. انتهت الفائدة الأولى.

الفائدة الثانية

جاء في الأنباء البرقية في ١٠ يونيو ١٩٢٧ ما نصه:

ارتياد القطب الشمالي

عاد الكابتن «جورج ولكنس» بعدما ضلله ضباب الدائرة المتجمدة الشمالية ورده على أعقابه وترك وراءه إحدى طياراته وسط الثلوج المتجمدة في ساحل «ألاسكا» الشمالي، وقد قال: إن دليله «جرايهام» طار في ٢٨ مايو إلى أبتاه في جرينلند ومن هناك إلى مستودع الوقود والمؤونة في رأس بارو ليحاول حل المسألة الغامضة عن مهاجرة الطيور إلى أقصى الشمال، ويتثبت مما إذا كانت قارة الأتلنتيك التي ورد ذكرها في الأساطير موجودة في مكان لم يصل إليه بنو البشر، ولكن البعثة عدلت عنها الآن كما عدلت في السنة الماضية من جراء الضباب الكثيف وطبقات الثلج المستترة، والطياران يطيران في عالم كله ضباب لا يخترق. انتهت الفائدة الثانية.

وإنما نقلت لك هذا الخبر البرقي لتطلع على غرام الأمم التي يعيش معها المسلمون، أولئك الذين يخاطرون بأنفسهم ويعرضونها للتهلكة في سبيل العلم. وأي علم هو؟ هو علم الطيور في مهاجرتها. تلك الطيور التي ذكرها الله في القرآن أنها مسبحات مصليات، فكان على المسلمين أن يعشقوا العلم ليعرفوا عجائب صنع ربهم وليبتهجوا بالجمال والبهاء والحكمة والنور. فهل الأمم التي تدرس كل علم كالأمم النائمة؟ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩]، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

اختراع الطيارات

في سورة « المائدة » في آية الغراب ، وفي « النحل » عند قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨] ، تقدم الكلام على البالون والطيارات ورسم بعضها في سورة « النحل » . اهـ .

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ الخ

لقد ذكرت لك فيما تقدم في سورة « الرعد » ما يناسب قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] من أمر الثلج . وذلك أنك ترى هناك أشكالاً منظمة عجيبة مسدسة الشكل مرسومة في القرن الماضي بهجة المناظر حسنة الأشكال . ولكني هنا أريد أن أريك ما يناسب هذا المقام من عجائب العلم في هذه الآية .

أولاً ـ أبين لك ما كان يعلمه علماء القرن الثاني عشر الهجري من أمم الإسلام ، إذ كان العلم لديهم قليلاً ، وقد جاء على لسان صلحائهم ما يناسب كشف العصر الحاضر .

ثانياً ـ أذكر تلك الجبال الثلجية من كتاب « علوم للجميع » تأليف العلامة « روبرت براون » الإنجليزي ومقالاً لغيره في ذلك .

ثالثاً ـ أذكر ما أبدعه صديقنا مصطفى بك منير في الجمعية الجغرافية أمام ٢٥٠ عالماً من علماء أوروبا تفسيراً لهذه الآية . فهذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

فيما جاء في أقوال علماء الإسلام في القرون المتأخرة

قد ذكرت سابقاً في هذا التفسير أن الشيخ أحمد بن المبارك الذي عاش في القرن الثاني الهجري كان عالماً من أكابر علماء الإسلام ، وقد لقي الشيخ عبد العزيز الدباغ الذي لم يدرس ولم يتعلم ، وأن الأول قد أدهشه الثاني بعلمه . فلأسمعك ما أجاب به في هذا المقام ، وأقدم لك مقدمة فأقول :

لقد ذكرت في هذا التفسير أن العالم الديني في الإسلام يجب أن يكون علمه أوسع من علم الفقه ، وهاهي ذه الحادثة الآتية تبين لك كيف كان الناس في العصور المتأخرة يسألون علماء الإسلام في أغور وأصعب مسائل الطبيعة العويصة . فانظر كيف سئل ابن المبارك المذكور في ذلك؟ وكيف بحث عن الجواب في كلام الفلاسفة الإسلاميين وعلماء الحديث وغيرهم فلم يجد طلبته؟ ثم كيف سأل الشيخ الدباغ فأجابه بما لم يعلمه إلا علماء العصر الحادث؟ . فهاك البيان وهذا هو السؤال الذي ورد إليه :

الحمد لله . ساداتنا الأعلام . أدام الله بكم النفع للأنام . (١) جوابكم في الثلج ما أصله؟(٢) هل ينزل كذلك من محله منعقداً؟ (٣) وما محله الذي ينزل فيه؟ (٤) ولأي شيء خصّ بالبلاد الشديدة البرودة؟(٥) ولأي شيء خصّ بالجبال؟(٦) ولماذا نراه تارة مجتمعاً مع المطر وتارة وحده وهو الأغلب؟ (٧) ولأي شيء خصت الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل ؟ (٨) وأيضاً الصاعقة لا تنزل إلا في البلاد الباردة والجبال ومواضع الشجر ، بخلاف الأرض المستوية الحارة مثل الصحراء ، فإن أهلها يقولون : إنها لا تنزل فيها فلماذا؟ . هذا ملخص السؤال .

فلما أخذ يبحث في كلام علماء الإسلام رأى ما يأتي :

أولاً ـ أن أهل السنة والجماعة لم يفيدوا في هذا فائدة. قال: إنه قرأ كتب التفسير والحديث وعلم الكلام فما عثر على شيء فيها. ومن هؤلاء الحافظ السيوطي مع علو درجته في الآثار لم يتعرض لذلك لا في كتابه المسمى «الهبة السنية في الهيئة السنية» وقد وضعه في علم الهيئة لأمثال هذه المسألة، ولا في حاشيته على البيضاوي، ولا في «الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور»، ولا في كتبه الأخرى، مع أنه أكثر فيها من الكلام على الرعد والصواعق والمطر والسحاب والبرق. وأيضا لم يتكلم على الثلج والبرد ولا على سببهما. قال: وإنّما رأيت ذلك في كلام البيضاوي نقله عن الحكماء. وملخص ذلك أن البخار المائي إذا وصل إلى الطبقة الباردة صار سحاباً ونزلت الأجزاء المائية، فهي على أحوال: إما أن يكون بردها قليلاً فتكون مطراً، وإما أن يكون بردها شديداً فإن جمدت قبل الاجتماع فهي ثلج وإن جمدت بعد الاجتماع فهي البرد. ولما نقل كلامه كله اعترض على البيضاوي في نقله كلام الفلاسفة. هذا هو الذي رآه ابن المبارك في كلام المتقدمين. ثم رجع إلى الشيخ الدباغ فعلمه وأجاب بما يأتي:

(١) إن الثلج ماء عقدته الرياح وأصله غالباً من ماء البحر المحيط. وهنا أخذ يشرح ارتفاع البخار في الجو وأنه يصير مثل الهباء ثم تجتمع أجزاؤه لأجل ما فيه من النداوة وينزل على هيئة الصوف أحياناً وعلى هيئة أخرى أدق منها أحياناً. فهذا أصل الثلج. أما البرد فإن المسافة بين انعقاده ونزوله غير طويلة، وهو من مياه البحور والغدران، وإنه إنّما ينزل على هيئة الطعام المفتول الغليظ، وإنّما غلظ لأجل مصاكة الرياح له، فراجت أجزاؤه في الهواء تحت أيدي الرياح مثل روجان أجزاء الطعام تحت أيدي المرأة في الصحفة، فحصل فيه فتل مثل ما يحصل في الطعام. قال: ولو أنه تأخر نزوله ودامت المصاكة لاندهقت أجزاؤه وصار ثلجاً. فهذا بيان أصل الثلج وبيان الموضع الذي ينزل فيه وبيان البرد.

(٢) وأما قولكم: لأي شيء خص بالبلاد الشديدة البرد الخ؟ فجوابه: أن الثلج لا يزال على انعقاده حتى يطرأ عليه مانع، والمانع يجعله مطراً، وذلك المانع هو الأجزاء البخارية الصاعدة من الأرض الحاملة للحرارة، فإذا لقيت الثلج كسرت برودته فصار مطراً، وهذا البخار الحار يكثر في البلاد الحارة والسهول؛ ولذا لا يرى فيه ثلج. ولو فرض أنه رؤي ذلك لا يطول بخلاف البلاد الباردة والجبال المرتفعة فإنه لا مانع فيها من بقاء الثلج على انعقاده.

(٣) فأما كونه ينزل مع المطر أو وحده فذلك لما يأتي: إما ذوبان بعض أجزائه بالأجزاء البخارية المذكورة فينزل الذي لم يذب ثلجاً والذي ذاب مطراً، ولذلك يكون المطر النازل معه في الغالب ضعيفاً رفيعاً مسحوقاً مثل الثلج. وإما إنه نزل قبل تمام انعقاده فإن الرياح تحمل ماء فينعقد ثم تحمل ماء آخر فإذا نزلا نزل الأول ثلجاً والثاني مطراً.

(٤) وأما اختصاص الجبال وعلو الأرض بالبرودة دون السهل. فجوابه أن ذلك لقرب الجبال والأرض العالية من الجو الذي هو في غاية البرودة. فأما السهول فهي بعيدة منه.

(٥) وأما الصاعقة التي ذكرتموها فإن القول بعدم نزولها في الأرض السهلة المستوية الحارة غير صحيح، فإنها نزلت ببلاد «سلجماسة» وهي أرض مستوية سهلة كانت صحراء، ولما أتم الجواب قال: واعلم أن هذا أخذ به من عاين الأمر على ما هو عليه من أرباب البصيرة الخ ـ يريد الشيخ الدباغ ـ وقد

سأل الشيخ الدباغ أيضاً قائلاً: هل في السماء جبال من برد كما قاله بعض المفسرين؟. أجاب: ليس فيها ذلك، والمراد بالسماء في الآية ما علاك، فكأنه يقول من جهة العلو وجبال البرد تكون في جهة العلو بحمل الرياح لها من الأرض إلى الجهة المذكورة. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في مقال بعض علماء الطبيعة في عصرنا وما دبجه العلامة «روبرت براون» الإنجليزي في كتابه «علوم للجميع»

قد جاء في كتاب «الفلسفة الطبيعية» في تعريف البرد أنه قطع من الجليد متفاوتة الحجم، فمنها ما هو أصغر من الحمص. ومنها ما هو بقدر البرتقال. ومنها ما هو بين هذين الحجمين. ولا يعرف كيف يتكون، والظاهر أنه يحدث من هبوب ريح شديدة البرد وتتخللها ريح أخرى أحر منها جداً وهي مشبعة رطوبة تقريباً، ولكن تعليل هذه الرياح الباردة عسر وغير معروف. فانظر إلى علماء الطبيعة في عصرنا الحاضر كيف تحيروا في تعليل البرد، ووازن بين هذا وبين كلام الشيخ الدباغ الذي قال: إن السماء ما علاك، وإن البرد ما هو إلا ما دحرجته الرياح من المواد المائية ولم يطل زمنه، وشرح شرحاً طويلاً ضافياً. فلنقض القول في مسألة الثلج والبرد من كتاب «علوم للجميع» فنقول:

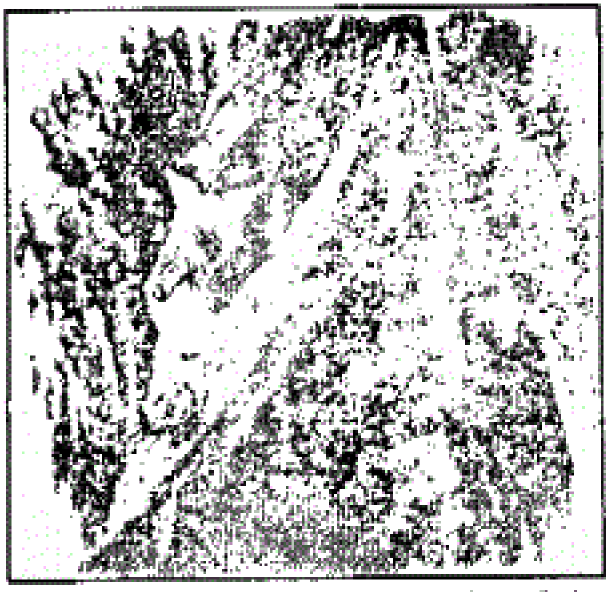
اعلم أنني قدمت لك في سورة «الرعد» عند الكلام على الثلج أنه عند القطبين يكون دائماً ويأخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً. ومعنى هذا أن الثلج دائم في جميع أنحاء الدنيا، غاية الأمر أنه مرتفع عند خط الاستواء، وهو على الأرض عند القطبين وما بينهما يكون بالنسبة لهما ارتفاعاً وانخفاضاً. فاقرأ ما ذكرته هناك ثم انظر هنا ما يقوله فسترى عجباً عجباً. سترى ما قاله الله في القرآن يشاهد عياناً. وبعبارة أخرى: سترى ما عجز عنه فحول العلماء سابقاً، وإنّما شرحه الشيخ الدباغ الذي لم يتعلم، قد ظهر له بالمعاينة. سترى أيها الذكي ما جاء في القرآن من أن هناك جبالاً فيها من برد حقاً وصدقاً. ومعنى هذا أنك الآن ستشاهد صورة الجبال الثلجية المرتفعة فوقنا، وتعجب من المسلمين الذين تركوا جميع العلوم وجهلوها حق الجهل، وإذا قرأ المتعلم هذه الآية تحير وقال في نفسه: هل السماء فيها جبال من برد؟. وإذا كان المطر ليس من نفس السماء فكيف يكون البرد منها؟. وكيف تكون هناك جبال فوقنا من برد؟. كل هذا كان يحيرني أنا ولم أعرف تمام هذه المعاني إلا من إيضاح الشيخ الدباغ ومشاهدة المناظر التي ستراها الآن وهي منقولة من الكتاب الإنجليزي المذكور. أفلست بعد ذلك أيها الذكي توقن أن ذل المسلمين اليوم إنّما جاء لجهلهم الفاضح وأنهم معاقبون في الدنيا والآخرة على هذه العلوم. فاسمع إذن كلام ذلك العلامة.

قال: إن الثلج يظهر في أعلى الجو في كل مكان في الأرض وعند كل خط من خطوط العرض غاية الأمر أن ذلك الثلج قد يذوب قبل نزوله إلى الأرض إذ يقابل الطبقات المنخفضة الحارة فهذه الحرارة تذيبه. إذن ما من بقعة في الأرض إلا وفوقها ثلج، فمنه ما ينزل إذا لم تقابله الحرارة في الأماكن المنخفضة، ومنه ما لا ينزل. وهذه صورته (ش٣).



(شكل ٣) صورة ألواح الثلج في الأقطار العالية من الجو قد تخللتها أشعة الشمس

ويقول المؤلف قبل ذلك في صفحة ١٧٩ ما نصه: إن جسم الثلج لطيف جداً حتى إنه يشغل مسافة أكبر من المسافة التي يشغلها الماء ٢٤ مرة. أما عمق الثلج فإن الماء الذي يكون منه لا يشغل إلا عشر عمق الثلج. فإذا كان مقدار الثلج عشر بوصات فهذا القدر لا يعادل إلا بوصة واحدة من الماء. هذا كلامه. إذن بهذا عرفنا السر في أن الثلج مرتفع في أعلى الجو، ذلك لأنه خفيف جداً فارتفع، هذا ومن عجب أن الشيخ عبد العزيز الدباغ المتقدم ذكره يقول فوق ما تقدم في صفحة ١٣٩ من الكتاب المذكور ما نصه:



(شكل ٤) هذه صورة هضبة «مونت بلانك» من جبال الألب والجبال المتصلة بها والثلج الدائم المغطي لها

وكم مرة أنظر إلى طرف الماء الموالي للجو الذي فيه الرياح فأرى فيه جبالاً من الثلج لا يعلم قدر عظمتها إلا الله. ونرجع إلى ما نحن فيه فنقول: ثم إن هذا الثلج الذي رأيته في الشكل المتقدم معرض لأن ينزل إلى الطبقات المنخفضة الحارة فيرجع بخاراً، فماذا فعل الله لحفظه؟ خلق له الجبال فمتى صادف ذلك جبل مرتفع اختطفه وضمه إليه ورسا فوقه حتى لا ينزل ويبقى ثلجاً فوق الجبل. وهذه صورته (شكل ٤).

جبال الألب تمر بإيطاليا وفرنسا وسويسرا وهذه الهضبة بالأخيرة

ولعلك تقول: عرفنا أن الثلج مرتفع وهو كالجبال، وعرفنا أن الجبال تحفظه، ولكن ما فائدة هذا الثلج وما فائدة حفظه؟ أقول لك: فائدته أن يحيا الإنسان والحيوان والنبات بذلك الثلج الذي نزل من الجو على الجبل ومن الجبل نزل إلى النهر ثم ذاب وجرى. وهذه صورته (انظر شكل ٥). هذه هي معاني الآية.

(شكل ٥) صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في «الرون» بجانبي «فركا» منحدراً إلى رأس واد من الأودية حيث يبتدئ منه النهر

فالثلج شاهدته وشاهدت نظام الله وحفظه له ثم إنزاله في النهر، أليس هذا معنى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]. اللهم إنا نحمدك فقد أريتنا الآيات وعلمتنا على مقدار درجتنا الأرضية التي خلقتنا فيها، فلك الحمد ولك الشكر. كل ذلك أيها الذكي جاء في الثلج، ولكن الآية لم يذكر فيها الثلج بل المذكور فيها هو البرد، فأين البرد إذن؟ نقول: لقد علمت مما تقدم أن الماء يكون مطراً وبرداً وثلجاً. فهذه الثلاثة متجاورة، وغاية الأمر أن البرد يكون نزوله أسرع. لقد علمت أن أمر البرد من الصعوبة بمكان. لقد حار فيه القوم حيرة شديدة، فتارة تراهم:

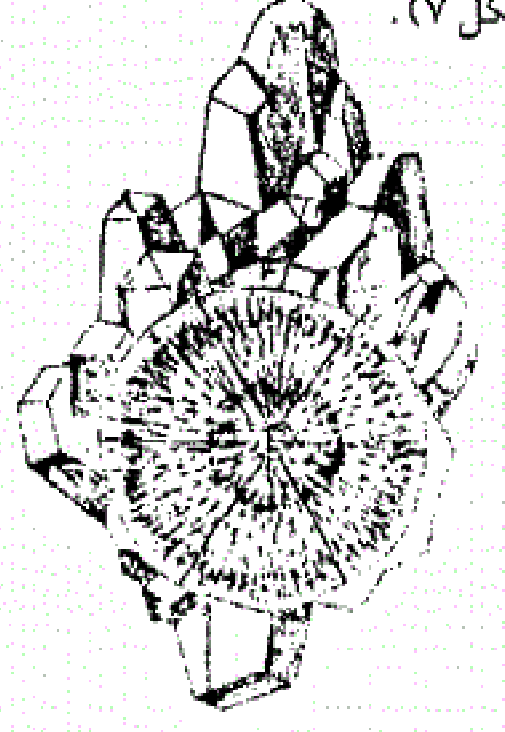
(١) يقولون: إن الفكرة الأولية في ذلك أن يقال: كما أن نسبة الصقيع إلى الندى كنسبة الثلج إلى المطر هكذا يقال: إن البرد ما هو إلا ممثل لصقيع المطر. وبعبارة أخرى: هو مطر منعقد.

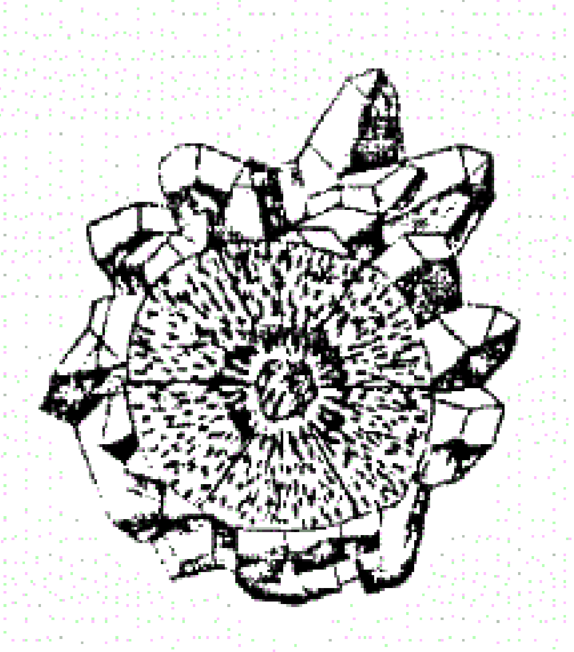
(٢) ثم تراهم يتعمقون في البحث فيقولون: إن البرد لا يكون مباشرة من نفس المطر. ذلك لأنهم رأوه عبارة عن كرات صغيرة جداً من الجليد الصلب منسوجة متجانسة مصمتة ذات سطح أملس، وقد عللوا ذلك بأن المطر كان أولاً في طبقة حارة من الجو الأعلى، ثم سقط فجأة إلى جو أدنى منه فيه تيار شديد البرودة فأثر فيه فكوره مرات جليدية ثم نسجه نسجا كما تقدم.

(٣) ثم إنهم شاهدوا أنواعاً من البرد بهيئات حبوب بيضاء غير شفافة، أي أنها لا تري ما وراءها كأنها صور صغيرة لكرات الثلج لا أنها صور لقطرات المطر، وهذه تشاهد كثيراً نازلة مع قطرات المطر، والقطعة من البرد إذ ذاك مركبة من حبات صغيرة منه بحيث لا يزيد قطر الواحدة منها عن عشر البوصة، أي نحو ربع سنتيمتر، وقد غطيت بطبقة من الجليد. وقد عللوا ذلك بأن البرد أولاً كان ألواحاً ثلجية في أعلى الجو الذي اشتدت برودته، ثم نزل إلى جو حار فأخذ يذوب فيه وقبل أن يتم ذوبانه نزل إلى جو بارد قرب الأرض. هنالك جمد فصار برداً ولكن آثار الثلج لا تزال ظاهرة في خلال أجزائه. هذا آخر ما ذكروه. إذن يكون الأمر دائراً بين هذه الأحوال. مطر جمد فصار ثلجاً. مطر جمد فصار جليداً. والجليد اجتمع فصار برداً متجانس الأجزاء الداخلة فيه. ثلج تكون ثم ذاب ثم برد ثانياً قبل تمام ذوبانه فصار برداً. هذا ملخص ما جاء في كتاب «علوم للجميع».

والدليل على أن البرد كان أولاً ثلجاً ما ستراه في هاتين الصورتين الجميلتين الحسنتي الشكل البهجتي المنظر المتلألئتين المشرقتين اللتين هما من أعاجيب آيات الله تعالى اللتين رآهما المستر «هـ. ابك» الروسي المغرم بالعلوم، وقد نزلا في أثناء عاصفة قوية في جبال «اثريلث» بالقرب من «بجيلوي كلبتسك» في القوقاز بالقرب من «تفليس» في «جورجيا» في التاسع من شهر يوليو سنة ١٨٦٩، فرسمهما ونشرهما في المجلة الروسية العلمية في تلك السنة، ونقلهما العلامة «روبرت براون» الإنجليزي ومنه نقلتهما. وقد قال في وصفهما: إنهما صورتان بلوريتان هندسيتان مرسومتان بشكلهما في الطبيعة، وهما ربما كانا أبهج وأكثر تأثيراً في النفس من كل ما رآه الناس من أنواع البرد على الأرض إلى اليوم. (انظر شكل ٦ وشكل ٧).







(شكل ٦ وشكل ٧)
صورة البرد الحجري البلوري الشفاف الذي سقط على الأرض في ٩ يوليو سنة ١٨٦٩م بالقرب من تفليس.

ثم قال : إن هاتين الصورتين قد ركبتا من جزأين : القلب والغلاف .

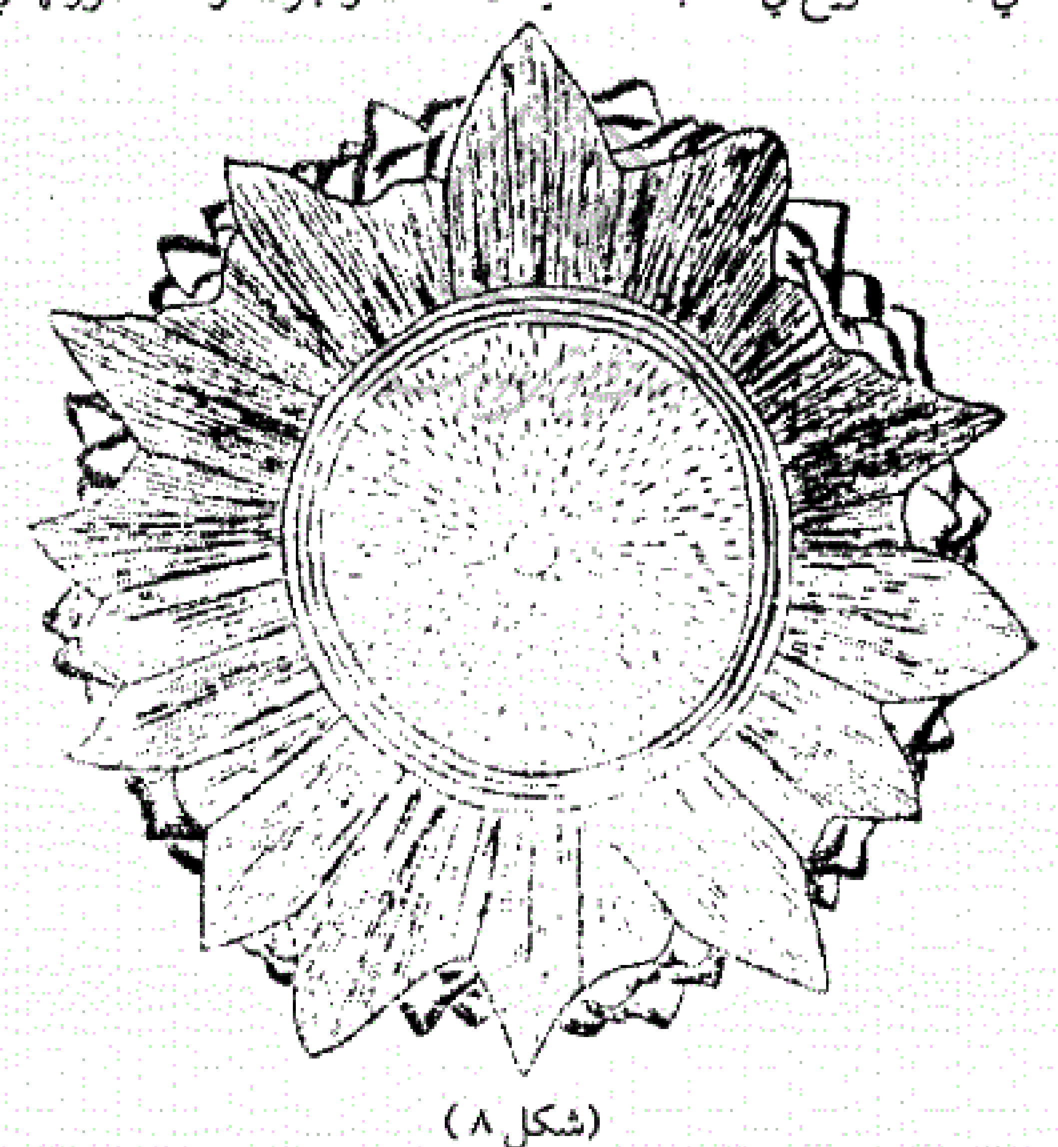
أما القلب أو النواة فهو عبارة عن مادة ثلجية تضامت واجتمعت بهيئتها المسدسة .

وأما الغلاف الخارجي فليس بثلج كالأول وإنّما هو جليد بلوري الشكل طويل الحجم بهيئة صور هندسية منظمة جميلة جداً .

وكثيراً ما نرى لباً صافياً صغيراً من الجليد المسطح الهيئة في داخل البلورات الخارجة . وهاتان القطعتان المرسومتان قد سقطتا في إناء من الحديد والتقطتا وأخذت صورتهما فوراً وهما معتمتان في النواة الداخلية وفي الغلاف الخارجي ، فأما ما بينهما فإنه جليد شفاف ذو خطوط ست متقاطعات على هيئة ست زوايا كل زاوية ستون درجة ، وهذه الخطوط تنعدم عند التقائها بالقلب الداخلي وعند اتصالها بالغلاف الخارجي ، ويحيط بكل منهما أعمدة مسدسات منتهية بأجسام منشورية الشكل ذات زوايا مختلفة وأضلاع يتساوى كل اثنين متقابلين بها .

وهناك قطعتان برديتان أخريان جميلتان .

أما أولاهما فقد رسمها الضابط « الكابتن ديكلوكوز » الأستاذ الفرنسي في الهندسة سنة ١٨١٩ ، ونشرها في ذلك التاريخ في المجلة العلمية الأستاذ « اراجو » ، وهذه صورتها في (شكل ٨) .



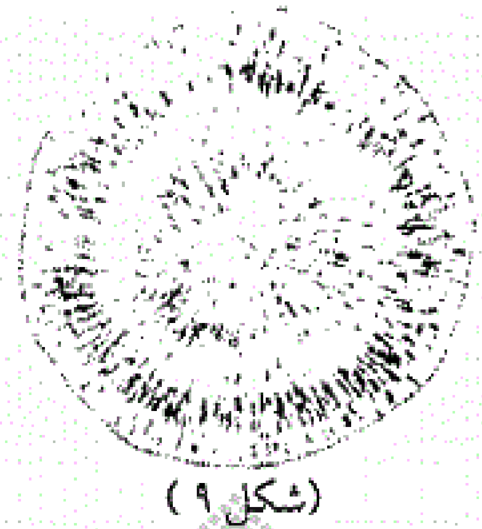
(شكل ٨)

صورة الرسم الهندسي الذي أبان قطعة من البرد الصخري البلوري الذي سقط في كورة « مديرية » من كورات فرنسا الغربية في الرابع من شهر يوليو سنة ١٨١٩ .

ولما سقط ذلك البرد الصخري في تلك المديريات كسر سقوف المنازل والشبابيك وأضر بأغصان الأشجار ودمر مزارع الحقول وقتل الحيوانات وهي ترعى في مراعيها .

وهذه القطعة البردية الحجرية مركبة من جليد أبيض غير شفاف متضام بهيئة بلورية الشكل ذات نواة صغيرة يحيط بها حجم كبير أزرق ذو خطوط لامعة تمتد من المركز إلى محيط الدائرة، وفوق ذلك يحيط بها طبقات متضامات، وهذه الطبقات الخارجية المحيطة ذات أشكال هندسية ظريفة متصلات بأشكال صغيرات بارزات بينهما.

أما ثانيتهما فهي مركبة من طبقات بعضها فوق بعض كطبقات البصلة، طبقة زرقاء صافية تليها طبقة بيضاء غير شفافة من الجليد، وهذه الطبقات المتعاقبات وصفها العالم الألماني في الظواهر الطبيعية «كيمتز» بأنها من جليد وثلج وتحيط بها طبقة من الجليد. وهذه صورتها (شكل ٩).



(شكل ٩)

صورة البرد الصخري ذي الطبقات المتحدات المركز المركبات من جليد أزرق صاف وأبيض غير شفاف الذي رسمه العلامة «ابك» المتقدم ذكره وتاريخ رسمه.

بهجة العلم في البرد الصخري

قال المؤلف المذكور أيضاً: إن بعض القطع البردية التي رآها الناس كانت تزن ثلاثة أرطال إنجليزية تقريباً. ثم قال في صفحة ٢٩٤ من المجلد الثالث: وقد قيل إن برداً صخرياً سقط في «كازورتا» في بلاد أسبانيا سنة ١٨٢٩ كان وزنه أربعة أرطال ونصفا إنجليزية تقريباً. وقال العالم الألماني بالظواهر الطبيعية «كيمتز»: إن قطعة من البرد سقطت سنة ١٨٥٢ فكانت مساحتها ٣٩ بوصة من ناحيتين وسمكها ٢٨ بوصة. انتهى.

وإذ فرغت من الكلام على جبال الثلج وعلى البرد فهاك تفسير الآية بالصورة الطبيعية المرسومة فيما تقدم والتي سترسم الآن.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾[النور: ٤٣]، هذه صورته (شكل ١٠).



(شكل ١٠) صورة السحاب المتجمع من قطع منفصلة. منقولة من كتاب روبرت براون

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾[النور: ٤٣]، هذه صورته (شكل ١١).



(شكل١١) صورة السحاب المركوم منقولة من الكتاب المذكور

وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[النور: ٤٣]، هذه صورته (شكل ١٢).



(شكل ١٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ ﴾[النور: ٤٣]، انظر في شكل (٣ و٤ و٥) فهناك جبال الثلج الدائم في شكل (٣) ونزولها على جبال الأرض من السماء أي أعالي الجوّ شكل(٤) وهذه الجبال تحفظها، واستمداد الأنهار منها تراه في شكل (٥) إذ يخرج منه نهر الرين. وقوله: ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[النور: ٤٣] انظره في شكل (٦ و٧ و٨ و٩) فهناك أشكال البرد المذكور، وقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[النور: ٤٣] الخ.

قد تقدم كيف كان البرد يفتك بالبهائم في مراعيها ويكسر الشبابيك وسقوف المنازل والمزارع، وقوله: ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾[النور: ٤٣] هذا هو الأعم. وأما قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[النور: ٤٤] الخ فهو ظاهر فيما تقدم في التفسير. وهنا جوهرتان:

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ ﴾

قد قدمت لك أن العقول لا تقبل أن يكون في السماء جبال. وأزيدك على ذلك أني حينما كنت أقرأ هذه الآيات أقول: لعل الجبال جعلت مجازاً عن السحاب. أما الآن فقد ظهر أن جبال الثلج دائمة في الجوّ، ولكن العجب أن يقول: ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[النور: ٤٣]، فلم يقل جبالاً من البرد لأن الحقيقة أن الجبال المتقدمة من الثلج لا من البرد، والبرد كما تقدم داخل في الثلج كما شرحه العلماء وأوضحه العالم الألماني في الظواهر الطبيعية فيما تقدم آنفاً. إذن قوله تعالى: ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[النور: ٤٣] لم يتضح إلا في هذا العصر لأن جبال الثلج إنّما يكون البرد محولاً عن بعضها لا كلها. إذن ذكر «من» في الآية قد ظهر سره الآن. انتهت الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية

اللهم إنك أنت ذو الجلال وذو الجمال. خلقت الإنسان من الجمال على الجمال في الجمال، فعالمنا كله جمال ولكننا غافلون. فماذا يفعل الله معنا؟ هو بر رحيم. فتح لنا أبواباً كثيرة وهدانا إلى كل سبيل عسى أن نرى ذلك الجمال. أذكر أني بعد ما كتبت هذا الموضوع خرجت للرياضة مساء على شاطئ النيل، فلمحت الدراري الحسان لامعات في جو السماء ترقص وهي في جلابيب لازوردية مشرقة اللون. فماذا خطر لي؟ قلت في نفسي: عجباً وألف عجب. أنت يا الله حكيم ورحيم. أحطتنا بكرة سميناها سماء وكلها مرصعة بالدراري وهي أثمن من الدر، فلم ندرك الجمال وأغلبنا غافلون، فأخذت تفتح لنا أبواب النظر. ومنها أنك عمدت إلى بخار الماء في الجو فجمعته بالبرودة وصنعت منه حجارة لامعة سميناها برداً وأخذت تكسر بها الشبابيك والسقوف في المنازل وتقتل بها البهائم في مراعيها. لماذا هذا؟ لأنك لم تخلق هذا العالم إلا للبحث والعلم. هذا نتيجة هذه الدنيا، وإذا خرجت بيوت وماتت نفوس وهلكت حقول فذلك باب للعلم. لولا هذه المزعجات ما تنبه الناس لهذه الحوادث ولذلك رسمها العلامة «ابك» الروسي سنة ١٨٦٩، والضابط «ديكلكوز» الفرنسي سنة ١٨١٩، وبقي ذلك للناس ليذكروا. أهلك البرد بعض ما ينفع الناس في الأرض ليوقظهم، فإذا رسموا هذه الصور كما رأيت فقد أتوا بعلم دائم نشره القوم في أوروبا ونحن هنا نفسر به القرآن. إذن كل هذه العوالم إنّما يراد بخلقها في النهاية العلم، ولا حادثة تحدث في الأرض إلا لها قدم في العظة والاعتبار، والاعتبار هنا أكثره علمي كما عرفت، والحمد لله رب العالمين.

إتمام الجمال في هذا المقال

لقد تبين في هذا المقال وفي مواضع كثيرة من هذا التفسير أن جبال الثلج تكون على الأرض عند القطبين، وكلما تباعد الإنسان عن القطبين واقترب من خط الاستواء ارتفعت تلك الجبال، فأعظم ارتفاع لها يكون عند خط الاستواء، أي: إن جبل الثلج الذي تقدم أنه كالقطن المندوف وشاهدت رسمه يكون بعيداً عن سطح الأرض جداً، ولا يزال يقترب منها حتى يكون على سطحها عند القطبين، فأريد أن أزيد هذا المقام جمالاً فأقول:

ورد في كتب الجغرافيا الحديثة أن تكوّن الشواطئ الشمالية القصوى من آسيا وأوربا وأمريكا أشبه بتاج حول القطب الشمالي.

ولقد اتجه العلماء لكشف تلك الأقطار من ابتداء القرن السادس عشر الميلادي إلى الآن، ولم ينالوا من العلم بها إلا قليلاً، لأن الثلج الذي نحن بصدد الكلام عليه يصد السائحين أو يهلكهم، وغاية الأمر أن «دافيس» كشف البوغاز المسمى في باسمه في القرن السادس عشر، وفي القرن السابع عشر كشف «بفان» بوغاز «لنكاستر»، ولكن الثلوج قامت عقبة في طريقه فارتد إلى أوروبا. وفي القرن السابع عشر توجه «جون فراتكلين» إلى القطب الشمالي ومات. وهكذا قصدت بعثة القطب عن طريق «بوغاز بهرنغ» فهلكت بين الثلوج. وفي سنة ١٨٦٩ قصدته بعثة أخرى على سفينة ألمانية، فحطمت الثلوج السفينة وألقت العناية الإلهية بركابها إلى ظهر جزيرة سابحة من الجليد سارت بهم حتى ألقتهم على شواطئ جرونلندة الجنوبية سالمين.

وفي سنة ١٨٧٢ كشف «واير» و«تايرخت» جزائر «فرانسوا جوزيف»، ولم يقدرا أن يجتازا أكثر من الدرجة ٨٢ والدقيقة ٥. وقصد «كان الأمريكي» القطب سنة ١٨٥٨ فصادفته المصاعب فرجع، وقال: هناك بحر سائل في القطب الشمالي. والدكتور «هيس» قصد القطب في مركبات تجري على الثلج سنة ١٨٧١ فمات عند الدرجة ٨٠ والدقيقة ١٦، فرجع أصحابه بعد ما حطمت سفينتهم فتلقتهم جزيرة من الجليد عائمة فلبثوا عليها ستة أشهر وهي سابحة حتى صادفتهم سفينة على شواطئ «اللبرادور» فنقلتهم إليها وقد كادوا يهلكون. وفي هذه الأقطار يرى البحر ذا بياض ناصع لكثرة الثلوج، وترى سطحها مغطى بقطع ثلجية مختلفة الأشكال، وقد يكون شكل جبال بمفاوزها ومضايقها ووديانها وقممها. ومنها ما هو على شكل سهول واسعة لامعة.

وفي الصيف قد يبلغ سطح بعض هذه الثلوج مئات من الكيلومترات المربعة وارتفاعها ينوف على مائة متر وحجمها جملة آلاف آلاف الآلاف من الأمتار المكعبة، ويضطرها ثقلها أن تغطس في الماء، وقد يكون المختفي منها في الماء ثلاثة أمثال ما على ظاهره. وتأتي الرياح والتيارات بهذه الجبال الثلجية إلى بلاد المنطقة المعتدلة فيشاهدها سكان الأرض الجديدة بأمريكا ٤٥ درجة وغيرهم، والبر مغطى بالثلج كالبحر هناك. فترى الرياح تأتي مشبعة ببخار الماء من البحار فيتكاثف بخارها فينزل على الأرض كأنه نديف القطن فيجتمع ويصير جليداً. ومن العجائب أن هذه الأقطار إذا كان الليل فيها ـ ومعلوم أنه ستة أشهر كالنهار ـ تلطف حاستا السمع والبصر فتظهر للعين مناظر غريبة كالسراب والهالات والشموس والأقمار الكاذبة والشفق الشمالي المتقدم ذكره ورسمه في سورة «الكهف»، ويكون لهذا الشفق كما تقدم هناك ألوان بهجة وأشكال عجيبة فيظهر كأنه زينة في الأفق أو باب من نور فتح في السماء. فأما قوة السمع فإنها تكون عجيبة، فإذا سقط حجر كان له صوت كصوت المدفع، وإذا تكلم إنسان سمع صوته وفهم كلامه على مسافة ألف متر.

وليس هناك أبهج من شروق الشمس والقمر، فتظهر أنوار الشمس أولاً شفقاً ثم تعظم بالتدريج ولا تعلو الأفق بل تدور حوله. والقمر يظهر نوره جلياً جداً حتى يستطيع الإنسان أن يرى على مسافة كيلو متر، وسكان تلك الأقطار يحتفلون بظهور الشمس فيوقدون النيران ويقيمون الأعياد. وأما القطب الجنوبي فإن المعروف عن أرضه قليل جداً. وأهم الرحلات إلى القطب الجنوبي كانت في القرن الثامن عشر، فكشف ثلاثة من الفرنسيين بعض الجزائر. وتبعهم «كوك» وكشف جملة أرضين. وأثبت أن

هناك قارة عظيمة، وآخر درجة وصلوا لها (٧٨) والدقيقة (٩) والثانية (٣٠) (١٨٣٩ ـ ١٨٤٣) وقطع الجليد أضخم، وضخامة الطبقة الثلجية أكثف فيه، والضباب هناك مخيم دائماً، والقول العام أن هناك أرضاً بالقرب من القطب الجنوبي واستنتجوا من بعض الظواهر أن هناك جبالاً ورأوا بعض براكين. وكل ذلك يدل على قارة جنوبية، كما عرف علماء طبقات الأرض أن الأقطار الشمالية المتقدمة فيها مناجم للفحم الحجري، مما يدل على أن الغابات كانت في قديم الزمان موجودة بهذه الأصقاع.

بهجة العلم وظهور سر من أسرار القرآن في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ الخ

خرجت من المنزل صباحاً للرياضة منذ شهور هذه السنة ١٩٢٨م، وكانت المطبعة لم تصل في طبع التفسير إلا إلى سورة «الإسراء»، فوقفت على شاطئ نهر النيل بالقرب من جزيرة النيل، وكان نظري مبتهجاً بالأنوار الشمسية المشرقة على سطح ماء النهر المنعكسة على الشاطئ القريب من سطح الماء، فكنت أرى الضوء المنعكس وقت الصباح يعطي ضوء الشمس الأصلي ضوءاً أظهر بياضاً وأحسن إشراقاً. فأما فكري فقد كانت مبتهجاً بمسألة المحار وتناسله في البحر، وأن المحارة تلد آلافاً من صغارها بلا ذكر، وهذه المسألة تناسب مسألة المسيح وأمه، فبينما أنا كذلك إذ قابلني هناك صديقي مصطفى بك منير ذاهباً إلى ديوان التنظيم، فسألني قائلاً: فيم تفكر؟ فأجبته بما ذكرته، فسرّ وقال: هذا أمر لم أسمع من تفكر فيه من قبل. هنالك أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث. فأخذ يقص لي قصصاً عجيباً، قال: لقد اجتمع سنة ١٩٢٥ أي منذ ٣ سنين ببلادنا المصرية باسم الحكومة المصرية نحو ٢٥٠ عالماً من علماء الأمم الأوربية كلهم أعضاء الجمعية الجغرافية التي أنا من أعضائها. ولما التأم جمعهم وتكامل وانتظم الاحتفال ألقى كل واحد منهم خطبة في موضوع جليل جميل. ولما كنت أنا منهم ألقيت موضوعي في أمر النيل وخروجه من خط الاستواء، وأن آية ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[النور: ٤٣] الخ منطبقة على نيل مصر انطباقاً تاماً:

(١) ألم تر أن الله لم يخلق نهراً مبدؤه يمر به خط الاستواء إلا النيل.

(٢) ألم تر أن تلك الأقطار الاستوائية لا تفتأ أنواع البرق تتلألأ فيها بهيئة فوق المعتاد تمتاز عن برق الدنيا كلها بحيث تكاد تخطف الأبصار وتبهرها مدة عشرة أشهر في السنة.

(٣) وأيضاً هناك أخاديد في الأرض غائرة ينزل فيها ماء غزير جداً لا يدري الناس أين يذهب وهكذا.

(٤) يخرج البخار من المحيط الأطلانطيقي والمحيط الهندي، أي من جانبي أفريقيا، فيلتقيان في الجو فيسطران في خط الاستواء. وللأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[النور: ٤٤] ومعلوم أن ذلك التقليب في خط الاستواء لأن حركة الشمس هناك. وللثاني: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[النور: ٤٣]، وللثالث: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾[النور: ٤٣]، وللرابع بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾[النور: ٤٣] الخ. قال: وكانت الخطبة لكل خطيب لا تتجاوز ٢٠ دقيقة، فلما سمعوا هذه الخطبة أمنوا بالإجماع على قولي، واعتبروا هذا نوراً إسلامياً. فقلت له: أيها الصديق كيف تقول: إن نهر النيل هو الوحيد الذي يمر منبعه بخط الاستواء

مع أن هذه المنطقة ينبع منها أنهار كثيرة؟ فقال: تنبع أنهار ولكن ذلك ليس من نفس خط الاستواء، أي إن نهر النيل هو الوحيد الذي يمر في خط الاستواء فعلاً بمنبعه. أما غيره فيميل قليلاً أو كثيرا، ثم تبسم وقال: لا تنس أن هؤلاء علماء الجغرافيا الذين يفطنون لكل ما يقال على علمهم. فقلت له: فماذا عملوا بعد ذلك؟ قال: لما رأوا انطباق نهر النيل على الآية وقد كنت رسمت خريطة رسماً مجسماً بحيث صارت الخريطة أطول من ثلاث حجرات على الأرض وقد رسمتها مجسمة وجبالها مرتفعة وبحيراتها منخفضة وكل ذلك بألوان. وهاهي ذه أريكها الآن في دار الجمعية الجغرافية التي مفتاحها بيدي، فأخذني إليها وتفرجت عليها ودهشت لخريطة عظيمة مرتفعة عن الأرض بقوائم مستطيلة ضخمة وليست في حجرة بل هي في بهو المكان، فقال: انظر، فنظرت السقف ومنه تدخل أشعة الشمس، فقال: إن علماء الجغرافيا الذين أتوا من جميع ممالك أوروبا كما أخبرتك هم الذين نقلوها بأنفسهم من الداخل إلى هنا، إعظاماً لها، وجعلوها ملاقية لأشعة الشمس إشارة لأنها مناط العلم والتقديس، وسموها «الخريطة المقدسة»، وذلك لأن لها آية في كتاب مقدس، وهو القرآن. قال: وقد فرحوا فرحاً عظيماً، فقلت له: يا سبحان الله. أيكون هذا في بلدي وعلى مقربة من منزلي ثم إني أجهله مع أنك أنت صديقي. إن هذه أحسن فرصة أن أقص هذا القصص في التفسير، وأن ترسم هذه الخريطة لي مع بعض المعلومات معها، فتفضل ورسمها وأرسلها لي فشكرته على صنعه ورسمتها هنا، وذكرت ما كتبه على مقتضى ما أفاد به علماء الجغرافيا. ومن عجب أن يجتمع في هذه الصورة ثلاث عجائب: الخريطة المقدسة هنا. ثم خطبة صديقي الأستاذ «جاد المولى» في شرف الدين الإسلامي في جمع حافل من عظماء علماء أوروبا، وقد أقروه ولم يناقشوه، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[الحج: ١٦]، فسأذكرها هناك لأن هذا من التبيين الذي نزل به القرآن. ثم ما كتبته الجمعية الأسيوية الفرنسية على الدين الإسلامي بمناسبة كتابي «نظام العالم والأمم». فلأبدأ بالخريطة المقدسة وإن كان ما فسر به ليس على النهج الذي قدمناه، ولكني أردت أن يقف الناس بعدنا على آراء أهل عصرنا.

الخريطة المقدسة

لما أرسلها لي صديقي مصطفى بك منير قال بعد الديباجة: وبعد، فمرسل معه صورة لوحة «خريطة منابع النيل» التي أبصرتموها في دار الجمعية الجغرافية، ومعها نسخة من مختصر المحاضرة التي ألقيتها في الجمعية على أساتذة المدارس والله يحفظكم ويهدينا إلى العمل بإرشاداتكم.

المخلص

مصطفى منير أدهم

وهذا نص الخطبة المذكورة:

القرآن الكريم ومنابع النيل

من ألطف الخارطات المعروضة في دار الجمعية الجغرافية الملكية المصرية لوحة مجسمة تمثل منابع النيل عند خط الاستواء، فترى جبال «رفنزور» الشاهقة التي ارتفاعها ٥٥٠٠ متر، وفي جنوبها جبال «اريزمبي» وارتفاعها ٤٥٠٠ متر، وفي شرقيها جبال «الجون» وارتفاعها ٤٣٠٠ متر، وقد كساها البرد

طيلساناً أبيض، حتى إذا ما أزجى السحاب وتألفت أجزاؤه وتراكمت خرج المطر من خلالها ونزل من السماء من تلك الجبال الشامخة بلمعان له بريق يخطف الأبصار. وترى على هذه الجبال تجاويف الماء وقد انحدر منها وجرى إلى مجار تنتهي إلى بعض البحيرات وتنصرف عن الأخرى، ترى بحيرة «فيكتوريا نيانزا» ومساحتها ٦٠٠٠٠٠ كيلو متراً مربعاً وارتفاعها عن البحر ١١٤٥ متراً، وقد أصابها ماء تلك الجبال لأن البحيرة وقعت بينها. وترى بعض هذا الماء وقد انصرف من جبال «رفنزور» و«اريزمبي» إلى بحيرات «تنجانيقا» وارتفاعها ٦٧٣ متراً، و«كيفو» وارتفاعها ١٤٥٠ متراً، و«ادوارد» وارتفاعها ٩١٥ متراً، و«البرت» ومنسوبها كمنسوب بحيرة «ادوارد». وكذلك انصرف بعض ماء جبال «الجون» إلى بحيرة «رودلف»، وترى الماء في بحيرة «فيكتوريا» يجري شمالاً إلى مجار تصب في بحيرة «كيوجا» وارتفاعها ١٠٣٠ متراً، ويخرج من هذه البحيرة نهر «فيكتوريا» فيصب في بحيرة «البرت». ثم ترى نهر «البرت» وقد خرج من بحيرة «البرت» وانتهى إلى أول مجرى النيل السعيد. وتجد فوق اللوحة خط الاستواء حيث يستوي الليل والنهار ماراً بالجزء الشمالي من بحيرة «فيكتوريا نيانزا» قاطعاً جنوب جبال «الجون» الواقعة شرقي البحيرة، وجبال «رفنزور» و«اريزمبي» التي في غربيها. اختارت الجمعية لهذه اللوحة أحسن مكان عندها فوضعتها تحت روشن قاعة المحاضرات الكبرى، فترى أشعة الشمس وقد سقطت عليها نهاراً فأكسبتها هيبة ووقاراً. ويخيل إلى الناظر إليها كأنه في طيارة عالية عند خط الاستواء وتحته تلك الجبال الشامخة وقد كساها الثلج وتراكمت عليها السحب وخرج من خلالها المطر ونزل من أعلاها بلمعانه اللجيني الذي يخطف بالأبصار، منتهياً إلى بعض الجهات، ومنصرفاً عن الأخرى، بحسب ما هيأته له يد القدرة من مرتفعات ومنخفضات وأخاديد كانت غامضة علينا، لولا أن كشفها أخيراً المستر «هرست» مدير مصلحة الطبيعيات سنة ١٩٢٧.

هذا المنظر الهائل بل السر الإلهي العظيم يستمر على هذه الحال عشرة أشهر في العام. وضع «بطليموس» سنة ١٥٠ق.م خارطة النيل الموجودة صورتها في دار الجمعية الجغرافية ورسم عليها منبعاً واحداً للنيل فحسب. ثم جاء بعده بنحو اثني عشر قرناً «الإدريسي» ذلك الجغرافي الشهير، وقال: إن النيل يخرج من بحيرتين تصبان في بحيرة ثالثة، وهو أقرب إلى الحقيقة ومطابق للوصف المبين على لوحة منابع النيل المذكورة.

هذا ما أمكنني على قدر طاقتي أن أصفه لك أيها القارئ الكريم عن هذه اللوحة، وأخالك مللت وصفي وإن كان قرّب لك على قدر الإمكان تصوير اللوحة. ولكن انظر إذن إلى ما وصفها الله تعالى به منذ ١٣٤٧ عاماً في كتابه العزيز، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾[النور: ٤٣] المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[النور: ٤٣].

لم تترك هذه الآية الكريمة نقطة واحدة من وصف اللوحة، وما يحصل عند النيل من العوامل الطبيعية من أول ما يزجي السحاب إلى أن يجري ماءه في النيل إلا وذكره. ولا سيما ما يحصل من

الليل والنهار لمناسبة مصادفة خط الاستواء لمكان تلك المنابع، وما ينصرف من الماء إلى تلك الأخاديد التي كشفها المستر « هرست »، وما يحصل لأهل إقليم « فيكتوريا نيانزا » من تأثير لمعان البرق على إبصارهم. وهذا الوصف لا ينطبق على منبع أي نهر آخر غير النيل السعيد، قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٣٨] ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرأ؟. انتهى خطابه. (انظر شكل ١٣).



(شكل ١٣ ـ صورة الخريطة المقدسة لنيل مصر رسم مصطفى بك منير أدهم)

مقال عام في هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٣٥] إلى قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الآية: ٤٥] وبيان أن هذه الآية هي سر ملخص ديانات الأمم القديمة لا سيما دين قدماء المصريين

انظر أولاً في دين الصابئين وهم عباد الكواكب وتعجب لما في لغة العائلة الآرية أو الهند الجرمانية، فإن الله عندهم هو النور أو الشمس، ونجد اللفظة الأصلية للنور « ديف » ومعناها النور أو اللامع، ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله. ففي لغة السنسكريت « ديفاس » أو « ديواس » أو « ديوا »، ويعبرون عن السماء بلفظة « ديوس »، وعند اليونان « ذيوس »، وعند اللاتين « دووس » أو « ديوفيس »، ثم قالوا « جوفيس » ومنه « جوبتر »، وفي الألمانية القديمة « ذيو »، وفي السلان « ديواس »، ولفظة « تير » المشتقة منها معناها إله الحرب عند أمم الشمال، والفرنسيون يعبرون عن الخالق « ديو » مترجمة، والإيطاليون « ديو »، والأسبانيون والبرتغال « ديوس »، وكلها مشتقة من أصل واحد. ولا جرم أن نار الفرس ذات علاقة بالنور، فترى هذه الأمم في مبدأ أمرها لما بهرها من جمال النجوم عشقت مبدعها وعبدته وسمته باسم النور على مقتضى تعاليم أنبيائهم، ثم طال عليهم الأمد فنسوا تلك التعاليم فعبدوا العوالم المنظورة المضيئة ثم عبدوا الأصنام. انتهى من كتابي « أصل العالم » مع إيضاح أتم.

فانظر لتعاليم القرآن وكيف أنزل الله هذه الآية ليدلنا عل أصل فطرنا. إن فطرة الإنسان كلها عاشقة للنور لأن النور جميل والنور مبدأ الحياة. فلولا أنوار السماء والحرارة المنبعثة من الشمس لم يكن على وجه الأرض نبات ولا حيوان. لذلك كان الناس مغرمين بالأنوار سواء أعرفوا الحقيقة أم لم يعرفوها. فإذا أسموا الله بالنور فهي تسمية أقرب إلى الفطرة. فانظر جميع أديان الصابئين التي ذكرتها لك فإنها ترجع إلى النور المذكورة في هذه الآية، فهي آية جمعت ديانات الأمم الفطرية التي تلائم

عقول الناس جميعاً، ثم اعتراها ما يعتري كل حي من البوار، فاختلطت تلك الديانات وعبدوا الشمس والكواكب ثم الأصنام ثم ذهبت وحل محلها الإسلام، ذلك دين الإنسانية جميعها. فانظروا عجب لهذا الدين. نبي أمي في جزيرة العرب تنزل عليه آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] ونفس هذا المعنى هو ملخص كل دين نزل على نبي قبله. وإياك أن يصدك عن هذا المعنى أن الأديان ضالة أو خاطئة أو منسوخة. كلا. ثم كلا. فهذه الديانات كلها كانت في أول أمرها حقاً صحيحة، والله عز وجل أشرق نوره العلمي على كل طير وكل دابة وكل حشرة وهكذا على الأمم الإنسانية.

الله لم يستثن من رحمته أحداً، وكيف يستثني وهو نور السماوات والأرض؟ هو رحم كل مخلوق ورحم الأمم السابقة وأسبغ النعم عليها ظاهرة وباطنة. ولكن كلما اختلط دين وضل أهله أرسل رسولاً آخر، حتى جاء الإسلام فشرح كل دين وقال الله فيه: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[النور: ٣٥] الخ، أي فلا تظنوا أن الله هو الشمس أو الكواكب. كلا. بل هذه ضرب أمثال، ثم ضمن حفظ هذا الكتاب وبقاءه باللغة العربية.

ثم خلط أمم الشرق بأمم الغرب، وقال لهم: أيها الناس لا تخافوا من الضلال فكل من حصل له شك في دينه فوجده غير معقول عنده؛ فهاهو ذا حصن وهو القرآن فاقرؤوه أيها الناس في هذه الأرض. ولقد كنت أرسلت آلافاً من الأنبياء ومئات من الرسل فغيرتم أديانهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[غافر: ٧٨]، ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾[فصلت: ٣٧]، ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾[الجن: ٣-٤].

الكلام على دين قدماء المصريين وظهور أسرار هذه الآية فيه

اللهم إنك قد سحرت بجمالك الذي أشرق في الآفاق عقول العقلاء من جميع الأمم، وأنه يظهر لي في أن لله أناساً في كل جيل وأمة يحنون إليه ويطربون لمنظر جماله الذي أشرق في هذا الكون العظيم. اللهم إن نجومك الجميلة وشموسك المشرقة وأقمارك الباهرة وعلومك الساحرة وبهجتك الساطعة قد امتلأت بها قلوب وقلوب فظهر على ألسنتهم وصف ذلك الجمال. اللهم إن هذه الدنيا كلها مشهد عرس وموسم أفراح قد نصبت فيه الثريات المشرقات وهن يرقصن بتلألؤ ويتواجدن بترنح، حتى إن أرضنا في الحقيقة لا تزال راقصة آناء الليل وآناء النهار، فهي كمن قال اللهم فيهم من الملائكة: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٠]، فهي لا تهدأ ولا تفتر عن الجري بما حملت على ظهرها حول الشمس وحول نفسها، فرقصها مزدوج كأنها في عرس دائم وفرح هائم. تدور الدورتين على نغمات الراقصات الحسان من كواكب السماء وهي فرحة بما حليت به من ثلج كالماس في قطبيها وجبال منه كأنها القطن المندوف في جوها وفوق أعلى جبالها، فهي حسناء وشحت بالماس والجواهر من جميع جوانبها، قد كللت آناً فآناً بقوس قزح والأزهار الجميلة وأرج الزهر وبهجة السحاب ولطف الهواء زينة وبهاء. الكون كله في عرس متى لحظه العقلاء. كله نور عند من يعقلون. ليس يشهد هذا العرس من الناس إلا قليل، أولئك هم الذين يعقلون لم خلقوا ويدركون لمحة من جمال مبدع هذه الكائنات. لذلك ترى جميع الديانات بحسب حقائقها ترجع إلى هذا المبدأ الذي

وصفناه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: ٩]، فهذا الدين شأنه شأن الديانات الحقة السابقة قبل تبديلها. انظر ماذا ترى في دين قدماء المصريين، فإنه قبل أن يشتد فيه التبديل جاءت أناشيد على منهج هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، فانظر ما نقلته لك عنهم في سورة «البقرة» من كتاب «الأدب والدين» عند قدماء المصريين المترجم حديثاً عن كتب الأوروبيين، وذلك في أواخر السورة عند قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾[البقرة: ٢٦١] الخ، فهنالك وصف الله بأنه قد أشرقت شمسه في الأرجاء، وتبع ذلك وصف الشمس ونورها وبهجة الحيوان بها إلى آخر ما هناك. هذا ما كتبته هناك فاقرأه تجد العجب.
وأقول هنا قد جاء في الكتاب المذكور ما نصه: ومن رأي بعض المؤرخين أنه لم يكن اعتقادهم أن «توت» هو الشمس نفسها بل هو الجوهر الذي لا شكل له وهو أصل كل شيء والذي أنزل المحبة على الأرض. وقد مثلوا «توت» على شكل قرص الشمس. انتهى.

أقول: إذن هؤلاء أصل دينهم كديننا. فإننا نقول: إن الله مقدس عن كل الحوادث ولكن هم جعلوا الشمس ضرب مثل له، و«أتون» اسم من أسماء الله عندهم.

وقال في صفحة ٩٢: وقد وصفوا أتون بالرحمة والشفقة وحب الخير والملاطفة مع خلائقه، وأنه أب لهم عطوف جميل يملأ السماوات والأرض بالخير والبركة، ولطيف بخلائقه يأسرهم بمحبته ويلطف بالطفل في الرحم وفي المهد، ويعطف على الفرخ في البيضة، وأجرى النيل وأنزل الأمطار وعمم المنافع لسائر البلاد وجميع العباد. اهـ.

وجاء فيه أيضاً في صفحة ٦٧: إن قدماء المصريين وإن عددوا الآلهة قد وحدوا فعلاً أيام الملك مينا، فالله في مدينة عين شمس «أتوم»، وفي مدينة منفيس «فتاح»، وفي مدينة الاشمونين «تحوت»، وفي مدينة طيبة «أمون». وفي الأقصر «حورس»، وفي جزيرة أسوان «ختوم». وهذا كان سبب تعدد المعبودات عندهم وإلا فالأصل هو التوحيد. انتهى.

وجاء في هذا الكتاب صفحة ٦٧ ما ملخصه: من هنا يتضح أن معبود الجميع في الحقيقة إله واحد، وما هذه الأسماء إلا رموز ومظاهر للإله الحقيقي الواحد الجامع في ذاته كل الصفات الإلهية. وإلى القارئ أنشودتان من أناشيد أهل طيبة للمعبود «أمون»، ومنها يتضح حقيقة عقيدتهم في الله الفرد الصمد وهما:

الأنشودة الأولى

الإله العظيم سيد جميع الآلهة ـ لعل القصد جميع الملائكة ـ أمون رع الأزلي الحق الواحد الخالق لكل شيء السيد المسيطر الذي لم يكن قبله شيء، بل هو الموجود قبل كل شيء، وكان منذ الخليقة هو قرص الشمس الذي يحيا جميع البشر بظهوره. ترجمت من كتاب «نافيل».

الأنشودة الثانية

الإله الذي أوجد العشب للحيوان وثمار الأشجار للإنسان ويسر قوت الأسماك في البحور وهيأ الغذاء للطيور ووضع الروح في البيضة وأطعم البرغوث والبعوض، وحنانه شامل لكل ملتجئ إليه. حمى الضعيف من القوي وهو الممجد المحبوب في السماء والأرض والبحار، وتخضع له الآلهة

ـ أقول: أي الملائكة ـ لمجده تعظيماً لخالقهم وتبتهج بقربهم منه وتمجده الحيوانات الضارية في فيافي الصحراء. بهر جمالك العقول وخلب القلوب. ترجمت من كتاب «أرمن» الألماني. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور.

أفلست ترى أن هذا الهيام وهذا الحب والغرام بمبدع هذا العالم ناشئ من قلوب أدركت جماله في هذا الوجود ورحمته الشاملة. فالأوصاف في هاتين الأنشودتين ترجع للجمال الظاهر الذي أبرزوه بهيئة الشمس وللجمال الباطن الذي يرجع للرحمة الشاملة لما في الأرحام ولكل من على الأرض. ومن عجب أن آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وما تبعها من أن الطير صافات تسبح الله وتصلي له فيها كثير من معاني هذه الأنشودة بل فيها جميع معانيها، لأنه ذكر ما يمشي على رجلين وما يمشي على أربع وما يمشي على بطنه بعدما ذكر الطير، ففي هذه الآيات معاني هذه الأنشودة، والأنشودة التي ذكرتها في سورة «البقرة» فمعانيها تقرب مما هنا، ولولا خوف التكرار لذكرتها هنا، ولكني أقول: إنهم فيها أولاً: وصفوا الليل وظلامه وأن الله يحفظ أرواح الناس وهم نائمون. وثانياً: وصفوا طلوع الشمس وفرح الناس به فيتوضؤون ويلبسون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء. وثالثاً: ذكروا أن المواشي تستقر في مرعاها والأشجار تزدهي والطيور ترفرف تمجيداً لك وتنهض الحيوانات على قوائمها. ورابعاً: أن الشمس إذا أشرقت تسبح الأفلاك في بحارها وتمرح الأسماك في لججها وتتلألأ الأنوار على صفحات الماء. وخامساً: ذكروا تصوير الأجنة كما تقدم وإرضاع الأم لهن بعد الولادة ثم تعليمهم اللغات. ثم ذكروا أنه خلق سائر البلاد لا مصر وحدها، وهكذا ذكروا النيل الذي يحيا به المصريون ونزول الأمطار على الجبال وتقسيم الفصول بأضواء الشمس. وانتهى النشيد بهذه العبارة: خلقت الأرض لأبنائك ـ يريد عبادك ـ ومتى أشرقت علينا تشخص العيون لجمالك. انتهى.

فهذا المعنى الذي تضمنه ذلك النشيد يرجع إلى النور وإلى الحياة وإلى الحيوان والطير وأنه كله مسبح بحمده. إذن هذه الآيات تضمنت هذه المعاني. وهذا عجب أن تتجه الأفئدة في الأمم قديماً إلى المعاني التي نزل بها الوحي حديثاً على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، لهذا ولغيره قال الله له: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

ثم اعلم أن هذه المعاني التي تنشر بها قلوب عقلاء وحكماء الأمم غذاء لهم وبهجة في الحياة الدنيا بل هي السعادة العظمى. اللهم إن أمثال هذه البدائع والدر والجواهر نعم عجلت لأناس أنت اصطفيتهم في الدنيا يحبونك حباً جماً وقلوبهم والهة بك وامقة لك بهجة بأنسك مشرئبة للقائك، ترى الدنيا عروساً أنت جلوتها وكؤوساً أنت أدرتها ونوراً أنت أبدعته وعرساً أنت أقمته وزينة أنت نصبتها. سبحانك اللهم جعلت هذه الدنيا داراً تجمع بين حالين حال الجنة وحال النار. فأما الأمم والدول والممالك وأكثر الناس فكل هؤلاء يكتوون بنارها في احتدام وخصام وجدال وحسد على متاع قليل. وأما الحكماء الذين اصطفيتهم فوالله إنهم مع الناس بأجسامهم وظواهرهم وهم الآن في جنة المعارف فهم في الدنيا معك في أنس وحبور وجمال وبهاء بك يأنسون وبقربك يفرحون، وشموسك وأقمارك ونجومك بهم يطوفون. فهؤلاء هم صفوة الإنسانية ومقر الأنوار الإلهية. فهم مع الناس في شقاء بظواهرهم ومعك في جنة ببواطنهم.

إن الحسد والحقد والغيظ والعداوة والطمع والحرص قد أحاطت بالناس فسلبتهم السعادة. فأما هؤلاء فإنهم غلبت عليهم تلك الأنوار المشرقات فازدانت قلوبهم. فهم في جنة يحبرون. وهؤلاء وحدهم هم الذين يعقلون قولك: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥].

بهجة العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الخ

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم والعرفان وجمال الإتقان وأبدع النظام. هذه الآيات أبانت لنا جمالين: جمالاً يدرك سببه بالأبصار، وجمالاً يدرك سببه بالبصائر. فأما الجمال الذي يدرك سببه بالأبصار فهي هذه الأنوار المشرقات من الكواكب المحيطة بأرضنا كما أوضحناه. فهذه تدرك أسبابها أبصارنا وهي التي ضربها الله لنا مثلاً للأنوار الباطنة التي مصدرها هو الله بلا واسطة هذه المشرقات. وأما الجمال الذي يدرك سببه بالبصائر فهو ذلك الإبداع الذي ظهرت آثاره في جمال الوجود وإتقان الصور والعطف واللطف والرأفة والرحمة، وإلهام الحشرات والأمهات، وخلق الأجنة في البطون، والرحمة التي لا حد لها والتي قد وضحت في هذا التفسير أيما وضوح، وهذه هي التي ضرب الله المثل لها. فالشمس والكواكب وأنوارها ضربت مثلاً للنفحات الباطنة والهامات العجيبة وإحسان التصوير والنقش والإبداع. فقوله: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾[النور: ٣٥] الخ هو الذي ضرب به المثل. وذكره الطير صافات وإزجاء السحاب والتأليف بينه وجعله ركاماً وإنزال الودق منه وكذلك البرد وتقلب الليل والنهار وخلق الدواب كلها وتقسيمها إلى من يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع؛ كل هذا التدبير لا تصلح الشمس ولا الكواكب لإحداثه، كلا. إذن الشمس والنجوم والكواكب أسباب الأنوار الظاهرة. فأما ذلك التدبير والإبداع فأسبابه خفية تدركها العقول والأفهام.

ولقد ذكرت لك آنفاً أن قدماء المصريين ذكروا الأمرين معاً: أمر الأنوار الظاهرة في أناشيدهم من إشراق الشمس وظهور الحركات الحيوانية بها. ومن ظهور اللطف والرأفة والتدبير في خلق الأجنة في الأرحام. وأزيد عليه الآن بأنهم لم يكتفوا بذلك النشيد بل إنهم فوق ذلك أبدعوا رقصاً دينياً في معابدهم. وذلك الرقص ليتشبهوا بالكواكب الجاريات حول الشمس، لأن أظهر الأنوار ما تراه العيون من الكواكب فإذا تشبهوا بها فقد نسجوا على المنوال الرباني في نظرهم، وذلك ليكون ذكر الله قولاً بالأناشيد وعملاً بالرقص الديني وهذا مع وجود الفارق. كما أننا نذكر الله بألسنتنا ونصلي له بحركاتنا في القيام والقعود، والصلاة أقوال وأفعال. فهم كذلك أقوالهم النشيد وأفعالهم ما يشبه الرقص. ولا ندري هل ذلك كان عن أنبياء مثل سيدنا إدريس «سيزوستريس» وغيره، أم من اختراع علمائهم استناداً على دينهم ونصوص أنبيائهم؟ وسيأتي إيضاح هذا الرقص في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الفرقان: ٦١]. ولقد عرف الناس الآن أن تاريخه يرجع إلى ٥٠٠٠ سنة.

جاء في كتاب «الأدب والدين» المتقدم أن ذلك لم يكن خلاعة وشهوة بل جعلوه نموذجاً للحركات الفلكية وتمثيلاً للأنغام الموسيقية. ونقل في هذا الكتاب عن «كستيل بلاذ» أن تمجيد الخالق عند قدماء المصريين أداهم إلى إنشاد الأناشيد المقدسة وإحداث الرقص إظهاراً لسرورهم وأفراحهم

وقياماً بشكر النعم وإظهاراً للعبودية والخضوع لمقام الربوبية حتى اعتبر قدماء الشعوب أن الرقص جزء جوهري من دياناتهم، بل اعتقد المصريون أنه من التعاليم المنزلة. انتهى ملخصاً.

ثم انظر ماذا جرى في الأمم الإسلامية في هذا المقام فإنك تجد الرئيس «ابن سينا» في كتاب الإشارات يقول ما ملخصه: إن مما يعشق النفوس الإنسانية في الحضرة الإلهية ويجذبها إليه العشق العفيف والصوت اللطيف والعبادة مع الفكر. وقال شراحه: إن المراد بالعشق عشق الشمائل لا عشق الصور، فإن عشق الصور موجب للفسوق والهيام بالمحسوسات. أما عشق الشمائل فهو الذي يدعو إلى الجمال الإلهي. وأضرب لك مثلاً الآن فأقول: إننا نرى الزهرة والشجرة والكواكب فلا تهيج شهواتنا، ونفرق طبعاً بين هذه وبين الصور الجميلة الإنسانية. فالزهرة نحبها ولكنها لا تثير شهواتنا مباشرة بخلاف منظر النساء فإنه مثير للشهوات مباشرة، فحبنا للشمائل بعقولنا أشبه بحبنا للزهرة المبصرة. ثم إن الصوت اللطيف الذي ذكره «ابن سينا» شرحه العلامة الغزالي في الإحياء في «كتاب السماع» في الجزء الرابع منه، فأباح السماع ولم يحرمه، ولكنه شرط له شروطاً كلها ترجع إلى أمر واحد وهو أن لا يثير الشهوات، فقد ذكر شروطاً في السامع وشروطاً في المغني وشروطاً في نفس القول المسموع، وأبان أن السامع لا يكون فتى يهتاج بالسماع، وأن المغني إذا كان امرأة هيج الشهوة، وأن القول إذا كان فيه خلاعة كذلك، وقد أطال لك ذلك وفصله تفصيلاً فارجع إليه. ومن عجب أن العلامة «ابن الطفيل» في نحو القرن الخامس على ما أذكر في كتابه «حي بن يقظان» الذي لخصته لك في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ ﴾[الآية: ٢٦٠] الخ، قد ذكر أن «حي بن يقظان» لما ترعرع في الجزيرة ونظر الكواكب مشرقة مغربة أدهشه جمالها، وقلدها في حركاتها ودورانها وصار يدور على نفسه تشبهاً بها حتى يغشى عليه لأنه لم يجد من يقتدي به في حب خالقه وعبادته إلا هذه السيارات الجاريات ودورانها حول الشمس هو عين عبادتها لله. وهذا التخيل جعله يقلدها في القرب من ربه.

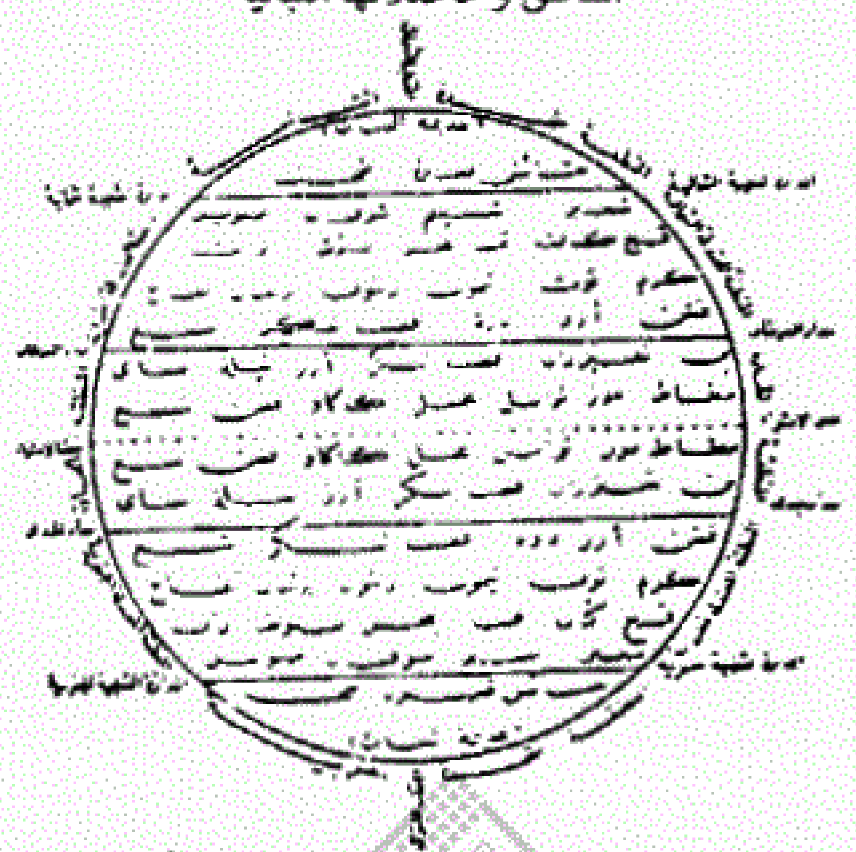
أفلا تعجب معي أيها الذكي كيف رأينا علماءنا السابقين قد بحثوا في العالم العلوي والسفلي ودققوا وكتبوا لنا آراءهم فلم يذروا باباً من أبواب العلم إلا ولجوه وبحثوه. وإنما كتبت لك هذا لتعلم أن آباءنا لم يكونوا نائمين وأن سلسلة العلم قد انقطعت بيننا وبينهم، وآراؤهم قد خبئت في كتبهم، وأن قراء هذا التفسير وأمثاله سيحدثون للشرق نهضة لم يحدث مثلها من قبل. ثم انظر قول العلامة «ابن سينا»: إن العبادة مع الفكر عند الفلاسفة موازية للعشق العفيف والصوت اللطيف. وذلك في أواخر كتاب «الإشارات»، وكيف كان الناس إذا لم يجدوا نبياً يعلمهم العبادة قلدوا الكواكب كما حصل لحي بن يقظان. هذا ما أردت ذكره في هذا المقام استطراداً.

الأنوار الظاهرة والأنوار الباطنة التي ازدانت بها أرضنا

لقد ذكرت في هذا المقال أن أرضنا قد أحاطت بها أنوار الكواكب والشمس والقمر وهكذا الهواء اللطيف والثلج والبرد والسحب. ثم أقول أيضاً: هنالك أنوار الماء المتلألئة في البحار الاستوائية التي تلمع أنوارها بأشكال كالقمر وهالته والبرق وأنواره المشرقات بما هنالك من الفسفور المتحلل من الحيوان البحري، وهذه هي الأنوار الظاهرة التي صارت مناطق تمنطقت بها أرضنا.

أما مناطق الأنوار الباطنية فهي الحيوانات والنباتات التي أحاطت بالأرض من جميع جهاتها كما في شكل ١٤ و١٥ و١٦ و١٧ . هذه الأشكال الأربعة وما يليها إلى شكل ١٦ منقولة من « الأطلس الحديث » المقرر في المدارس المصرية ، تأليف الأستاذين « لبيب أفندي العسال » و« محمد أفندي حمدان » .

المناطق وحاصلاتها النباتية



(شكل ١٤ ـ صورة مناطق النبات حول الأرض)

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : ٦٠]



(شكل ١٥ ـ صورة مناطق الحيوان حول الأرض)

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة عبس]



(شكل ١٦ ـ نبات أفريقيا)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ١٦٤]



(شكل ١٧ ـ حيوان أفريقيا)

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]

ففي شكل ١٤ مناطق فيها أسماء النبات حول الأرض وهي ثلاثة أقسام: نبات في المناطق القطبية ونبات في المناطق المعتدلة ونبات في المناطق الحارة. وفي شكل ١٥ مناطق فيها أسماء الحيوان حول الأرض وهذه تقسم الأقسام السابقة بعينها. والشكل السادس عشر فيه صور وأسماء نباتات أفريقيا. والشكل السابع عشر فيه صور وأسماء حيوانات أفريقيا. وسيأتي في أشكال (١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦) صور وأسماء نباتات وحيوانات أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا.

فانظر كيف زين الله أرضنا بزينتين: زينة أهم أسباب أنوارها ظاهرة وهي الكواكب السماوية، وهي الثلوج والسحب والأنوار وهكذا. وزينة أهم أسباب أنوارها باطنة، وهي صور الحيوانات والنباتات التي أحدثت مناطق حول الأرض زينة لها. وإنّما قلت: إن السحب والثلوج وأمثالها أهم أسبابها ظاهرة لأن حرارة الشمس سبب لها، ولكن هناك إحكام في الصنع ونظام في الوضع أسبابه خفية فلا يشتبه عليك. ثم إن المناطق الحيوانية والنباتية التي جعلها الله محيطة بأرضنا زينة لها بديعة. فظاهرها جميل ولكن باطنها أجمل لما فيها من التدبير والإحكام في إدراكاتها ومنافعها فضلاً عن صورها والإحكام في تعقلها أمور معاشها وتدبير ذريتها مما ظهر كثير منه في هذا التفسير. وفي هذا المقام خمسة فصول:

الفصل الأول: في ذكر أنواع الحيوان بطريق أوسع وبيان أجمل نهجاً على طريق تقسيمه في الآية.

الفصل الثاني: بهجة العلم. إن الإنسان محبوس في عاداته تاركاً عقله كما حبس الحيوان في غرائزه، وهو في ذلك أقسام على منهج القرآن الكريم.

الفصل الثالث: في عجائب هذه الحيوانات وآثارها في الإنسان، وأن الأرض كراقصة بما حملت حول الشمس.

الفصل الرابع: في أن الحيوان كتاب مفتوح للناس قاطبة. وفيه بيان نعيم الحرية وجحيم الاستعباد.

الفصل الخامس: في أن ما كتبناه هنا نسجناه على طريقة أكابر المتقدمين.

الفصل الأول

في ذكر أنواع الحيوان بطريق أوسع وبيان أجمل نهجاً على منهج التقسيم في الآية

هاأنت ذا أيها الذكي رأيت بعض صور الحيوانات في أفريقيا وأمريكا وتقيس عليها ما سواها. سبحانك اللهم أنت ضربت نور القناديل أمامنا مثلاً لنورك الذي أشرق على قلوبنا وعلى كل حيوان ونبات وسماء وأرض، ثم قلت: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. نعم أنت تعلم كل شيء لأنك تعلم ما خلقت، أما نحن فإنك تضرب لنا الأمثال وليس ضرب الأمثال قاصراً على ما ضربته لنا في القرآن. كلا. إن النجوم التي نراها مشرقة في أكناف السماء والقمر والشمس لم نر حقائقها وإنّما رأيناها مصغرة جداً. فكوكب الجوزاء الذي نراه في السماء أصغر من البرتقالة أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة، والكواكب الثابتة كلها كبيرة كشمسنا أو أكبر أو أقل. فهذا الذي نراه في الجو المحيط بنا ليس نفس الكواكب بل هو ضرب مثل لها. فإذا كان القنديل في مساجدنا ضرب الله به المثل لنوره، فكم ضرب لنا مثلاً لمخلوقاته بتصغير صورها في أعيننا. ذلك لأنه يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

ﭐلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥] والعلم بضرب الأمثال علم قليل. فإذا قيل لنا: فلان كالبدر، فليس في هذا معنى إلا أنه وجهه مشرق ولم نعرف صفاته. ولقد قرب الله عز وجل العلم للناس اليوم بإكثاره ضرب الأمثال بالصور الشمسية، مثل الصور التي رأيتها هنا « شكل ١٥ و١٦ و١٧ الخ »، فما هي إلا صور للقرد وعجل البحر والنمر الأمريكي والببغاء وأضرابها، ولكنها لا تعطينا إلا ضرب مثل وهو علم قليل، فقوله تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ﴾[النور: ٣٥] يفتح لنا باب الكواكب والحيوانات والنباتات التي ترسم لنا صورها في عصرنا. ذلك العصر الذي امتاز بأن الله يرينا آياته فيه، إذ قال: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[غافر: ٨١]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، فنحن الآن مأمورون أن نحمد الله لأنه أرانا آياته بالعلوم المنتشرة اليوم. ولا معنى للحمد إلا بالعلم بالمحمود عليه بقدر طاقتنا. فلنقرأ علوم هذه الحيوانات والنباتات. ولنعجب من تقسيم الحيوان إلى ماش على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع. وهذه الطريقة هي التي سار عليها علماء الطبيعة في عصرنا. إذ يقولون: إن الحيوان أدناه خلق قبل أعلاه. فالماشي على بطنه قبل الطيور، والطيور قبل ذوات الأربع.

تفصيل الكلام على الأقسام الثلاثة
الماشي على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم المدقق الذي اعتاد أن يحاورني في المسائل الهامة في هذا التفسير، فاطلع على هذا فقال: ما هذا التطويل؟ أتريد أن تجعل هذه الآية كتاباً ضخماً؟ فما هذا الإكثار. إن هذا يورث السآمة والملل.

فقلت له: أنا أسألك في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[النور: ٥٦] فهل تجد في القرآن تفصيل الصلاة والزكاة؟ قال: لا. قلت: فمن الذي فصلهما؟ قال: النبي صلى الله عليه وسلم فقد بينت السنّة الصلاة، فقال صلى الله عليه وسلم: « صلوا كما رأيتموني أصلي »، وهكذا بيّن الزكاة فقال: « في كل أربعين شاة شاة واحدة »، وهكذا. قلت: ألم يؤلف علماء الإسلام في ذلك كتباً شتى؟ قال: بلى ولو جمعت كتب المذاهب من الشيعة وأهل السنة في الصلاة والزكاة وحدها لملأت مكاتب عظيمة تملأ مساحات واسعة. قلت: الصلاة والزكاة فرض عين، وعلم الحيوان والنبات يكونان فرض كفاية، بحيث يكون في الأمة من يكفيها بحيث يضارعون في علمهم بهذه العلوم في كثرتهم من يعلمون هذه العلوم في أوروبا والصين واليابان وأمريكا أو أكثر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى: لا يقتصر الوجوب على الكفائي بل هناك وجوب عيني على كل قادر متفرغ لذلك للتوحيد وللشكر. فشكر الله واجب وكل يشكر على مقدار وسعه، لا تكلف نفس إلا وسعها. ولا معنى للشكر بغير علم بنعمة المشكور.

إذن هذه العلوم تجب وجوباً كفائياً على مجموع الأمة وعينياً على أفراد ممتازين ذكاء وفراغ بال لمعرفة الله ولشكره، ومعرفة الله بهذه العلوم وهكذا شكره وازدياد المعرفة واجب كازدياد الشكر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، فهذا من ازدياد العلم الذي يجب علينا بنص الآية، لأننا أمرنا أن ندعو الله بالازدياد ولا معنى للدعاء بأمر نحن لا نطلبه ولا نتوجه إليه، فنحن

أمرنا بالاستقامة كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾[هود: ١١٢]، وأمرنا بالدعاء بالاستقامة فقلنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، وأمرنا بالعلم قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ ﴾[الحديد: ١٧] الخ، وهكذا آيات كثيرة. فقال صاحبي: هذا القول موضح في مواضع أخرى من هذا التفسير ونحن سلمنا به ولكني أقول: إني أخاف سآمة القارئ. فقلت: قد ذكرت لك أن الصلاة والزكاة واجبان. فالصلاة على الجميع والزكاة على من عنده مال، فمن ليس عنده مال لا تجب عليه الزكاة، هكذا من ليس عنده قدرة على دراسة علم الحيوان لا تجب عليه. فأما القادر على الدراسة فعليه التعلم للشكر. إذن فلماذا نرى المسلمين ملؤوا خزائنهم بالعلوم العملية ولم يملؤوها بالعلوم العلمية الي عليها ينبني أصل العقيدة أصل الحياة الدنيا. فهذه العلوم تنفع من جهة ثبات العقيدة وازدياد الشكر. ومن جهة أخرى أنها تزيد الناس ثروة وغنى وسعادة في الحياة الدنيا. وقد قال إمام الحرمين وبعض العلماء: إن هذه العلوم أفضل من علوم فروض العين لأن نفعها أعم. فلماذا اقتصر المسلمون على ما ينفع نفعاً خاصاً وتركوا ما ينفع نفعاً عاماً.

الصلاة تنفعني وحدي، والزكاة تنفعني في الآخرة وتنفع أناساً فقراء محدودين في الدنيا. أما هذه العلوم فإنها تنفع الأمة كلها، وعليه يكون قول إمام الحرمين ومن نحا نحوه وجيهاً، ويكون بعض المسلمين هم وحدهم الأمة المقصرة النائمة الجاهلة الغافلة المسكينة الغارقة في بحر لجي من الجهالة وهم ساهون.

فقال صاحبي: إن هذا القول حق وأحس بآثار في نفسي منه. ولا بد من نتائج له تحصل في الإسلام. قلت: إذن لا يسأم الإنسان من بيان الحيوان، ولماذا لم يسأم من معرفة أركان الصلاة وتبيان الزكاة؟ قال: إنه لم يسأم لأنه يسمع ذلك من النبوة؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم الذين شرحوا الصلاة والزكاة ونحوهما، فلذلك أقبل الناس عليها وألفوا كتباً جمة فيها. قلت: والبيع والإجارة والرهن والقضايا. قال: كذلك فهذه قد نقل الناس أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فرغبوا وحققوا ودققوا. أما هذه العلوم فلم يجدوا فيها نصوصاً. قلت له: قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١]، ألم يقل الله تعالى في القرآن: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾[النحل: ٤٣-٤٤]. قال: بلى. قلت: إذن الله لم يوجب علينا أن نقتصر على قول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كل شيء بل في الشرائع وحدها. أما النظر في هذه الدنيا فهذا علم عام. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١]، فنحن ننظر وإذا جهلنا سألنا أهل العلم، ألم تتذكر ما قلته لك في سورة «البقرة» عند آية النسخ أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بقول سلمان الفارسي في حفر الخندق ولم يبال بأخذ العلم عن المجوس، لأن حفر الخندق إنما كان من عمل الفرس. فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل بعمل عباد النار وسمع كلام أهل العلم بالحرب في واقعة خاصة. أفلا يسعنا ما يسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وندرس هذه العلوم ونأخذها عن أربابها ما دامت ليست شرائع، كما أن حفر الخندق ليس من الشرائع. قال: حقاً يجب علينا الأخذ عن أهل العلوم في

كل علم وهم أهل الذكر فيه . قلت : وأيضاً يقول الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[الزمر : ١٧-١٨] . إذن المؤمنون المبشرون هم المسلمون بعدنا الذين يقرؤون علوم الأمم ويتبعون أحسنها ، وهؤلاء هم أولو الألباب وهم المهديون ، وهؤلاء يكونون أرقى من المسلمين الذين في زماننا وفي القرون المتأخرة . فقال : نعم هذا حق . قلت : إذن فلنفصل هذا المقام بعض التفصيل بحيث لا يكون مكرراً مع ما تقدم في علم الحيوان من هذا التفسير .

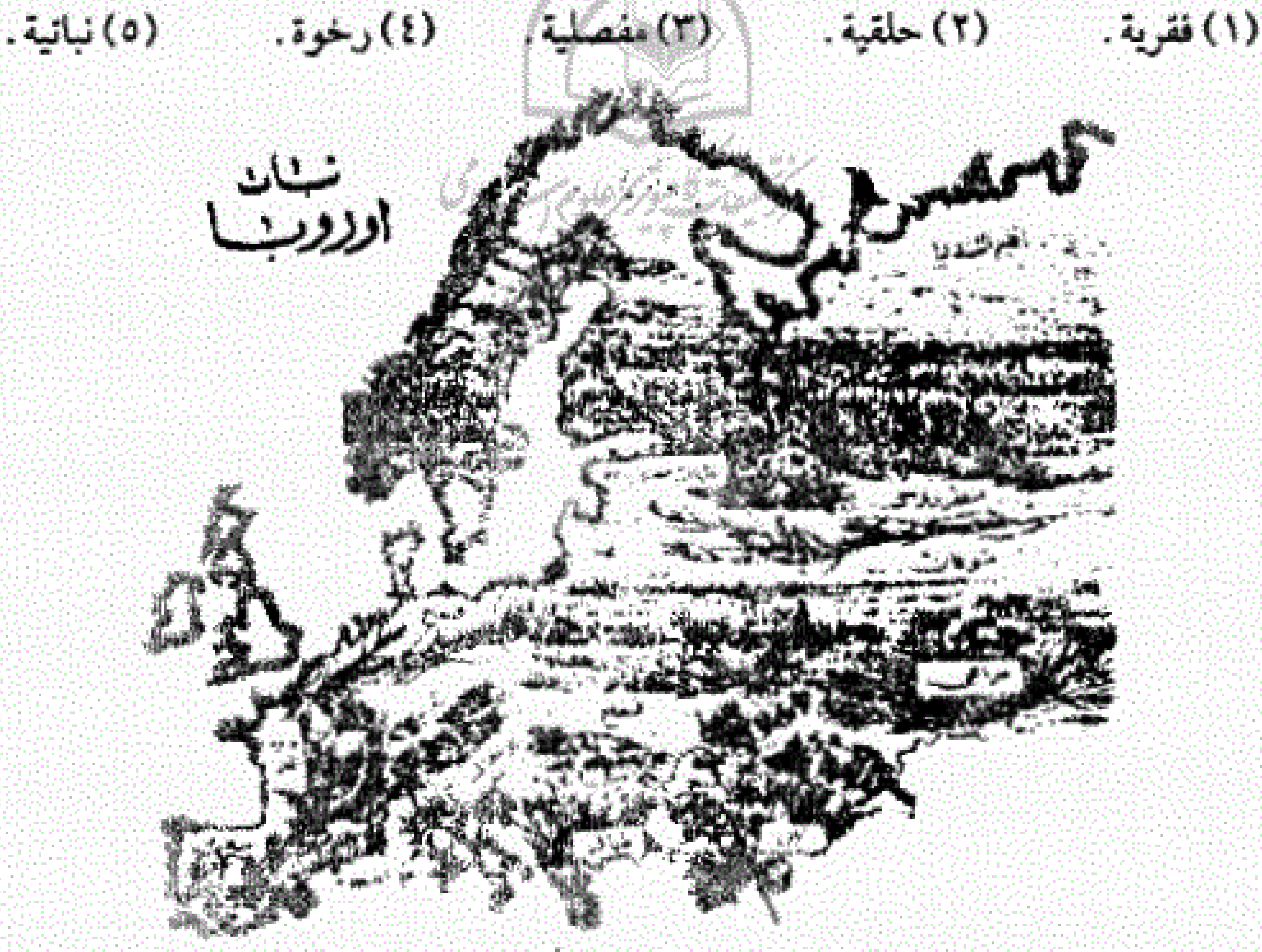
أقسام الحيوان

إن الآية كما قدمنا جعلت الحيوان ثلاثة أقسام :

(١) ماش على بطنه . (٢) ماش على رجلين . (٣) ماش على أربع .

إني أذكرك أيها الذكي بما تقدم في سورة « الحج » عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا ﴾[الحج : ٧٣] الخ . فقد تبين هناك أن الذبابة بدراسة جسمها أمكن تقسيم الحيوان إلى قسمين : قسم له دم وعظم وهي الحيوانات الفقرية . وقسم لا دم له ولا عظم وهي الحيوانات الحلقية والمفصلية والرخوة والنباتية . فقال صاحبي : ليس هذا عين ما هناك بل هنا بعض تغيير في اللفظ . فقلت له : إن القول هنا سيكون أوضح ، إنما أحب أن تقرأ ما هناك ثم تقرأ ما هنا ليحصل عندك من جمال العلم ما به ينشرح صدرك . فقال : سأفعل إن شاء الله . فقلت : إذن الحيوانات هكذا :

(١) فقرية . (٢) حلقية . (٣) مفصلية . (٤) رخوة . (٥) نباتية .



(شكل ١٨ ـ نبات أوروبا)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام : ٩٩]



(شكل ١٩ ـ حيوان أوروبا)

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[الأنعام: ١٤٢].

الحيوانات الفقرية فيها الأقسام الثلاثة في الآية ممن يمشي على أربع وممن يمشي على رجلين وممن يمشي على بطنه. فهذا القسم استوفى أقسام الآية. قال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن فيه ١٢ قسماً: الأول: الحيوانات ذات اليدين وهو الإنسان الذي قسموه إلى الصنف القوقازي وهو الأبيض، وإلى الصنف المغولي وهو الأصفر، وإلى الصنف الأفريقي وهو الأسود، وإلى الصنف الأمريكي وهو الأحمر، وإلى الصنف الأينير بوري وهو ساكن القطب الشمالي الإسكيمو. القسم الثاني: ذو الأربعة الأيدي وهي القردة، وهي أصناف الحيوان والأورانج أوتان والغوريلا والشمبانزي. القسم الثالث: الحيوانات آكلة اللحوم وهي تشمل الحيوانات الكاسرة كالأسود والنمور ولها أسنان تامة وهي القواطع والأنياب والأضراس. والقسم الرابع: الحيوانات الثديية البحرية وأطرافها قصيرة ولها أرجل قصيرة كفية كأنها المجاديف تعينها على السباحة، وغذاؤها اللحوم وتخرج إلى الشاطئ للراحة ورضاعة أولادها، وهذه نوعان: العجول البحرية، والبقر البحري. القسم الخامس: الحيوانات ذوات الأيدي الجناحية وهو حيوان واحد وهو الخفاش يرضع أولاده وهو ليلي، ويتغذى بالحشرات وهو يطير بسبب غشاء عريض ممتد بين أطرافه المقدمة والمؤخرة، وكذا أصابعه المستطيلة على شكل أجنحة يطير بها ويقضي الشتاء وهو نائم. القسم السادس: الحيوانات الثديية آكلة الحشرات ومنها القنفذ والفأر الغيطي، وغذاؤه الحشرات ولها أنياب وأضراس. القسم السابع: الحيوانات الثديية: القراضة لا أنياب لها وأضراسها كحجر الطاحون مفرطحة، وتعيش في الأجحار وتتغذى بالنبات وبالثمار وهي تشمل ذوات الترقوة كاليربوع والسنجاب والكاستور، وهذه تتسلق على الأشجار. وما لا تر قوة له ومنه حامل الشوك والأرانب وهذه لا تتسلق على الأشجار. القسم الثامن: الحيوانات الثديية عديمة الأسنان ومنها آكل النمل والكسلان وأم قرفة وهو نوع مغطى بصفائح كقشور السمك وبعضه له درع مثل «التاتو». القسم التاسع: الحيوانات التي لا أظافر لها ذات الجلد الثخين وتتغذى بالنبات، وهي: (١) ذات الظلف الواحد كالفرس والحمار وحمار الوحش والخرتيت. (٢) وذوات الأرجل المشقوقة وأطرافها تنتهي بأصابع من اثنين إلى أربعة مثل الخنزير وجاموس البحر. (٣) وذوات الخرطوم وهو الفيل. القسم العاشر: الحيوانات المجترة، ليس لها ترقوة وتتغذى بالحشائش والنبات من غير مضغ، ومعدتها أربعة أقسام تقدم رسمها وشرحها في سورة «النحل»، وليس لها قواطع في الفك العلوي ولا أنياب لها إلا حيوان المسك الذي تتميز ذكوره عن إناثه بنابين طويلين في الفك العلوي، وتحمل تحت بطنها كيساً فيه مسك، وعدد الأضراس ست من كل جهة لطحن الغذاء والفك يتحرك حركات جانبية،

ولبعض هذه معدة خامسة لخزن الماء كالجمل واللاما. ويدخل في هذا القسم الجاموس والبقر والغنم والماعز والزرافة وحيوان المسك والمها واللاما.



(شكل ٢٠ ـ نبات آسيا)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١]



(شكل ٢١ ـ حيوان آسيا)

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]

القسم الحادي عشر: الحيوانات القيطسية وهي حيوانات بحرية تتنفس في الهواء آنا فآناً وتضع أولادها أحياء، وهي إما تتغذى بالنبات مثل اللامنتين، وإما أن تتغذى باللحوم مثل القيطس والكشلو والدلفين، أما القيطس فهو الذي يستخرج منه زيت يصنع شمع شفاف، وهو يتغذى بصغار الحيوان ويصعد الماء من أنفه كالنافورة. وأما الكشلو فهو كالقيطس ورأسه مقدار ثلث أو نصف جسمه، ويستخرج منه العنبر السنجابي وهو في الأعور في هذا الحيوان. وأما الدلفين فهو الدرفيل المشهور، يتغذى بالسمك، والحكومات حرمت صيده لأنه ينقذ الناس من الغرق. القسم الثاني عشر: الحيوانات ذوات الرحمين وهي في هونلاندة الجديدة، وهي تضع أولادها وهي أجنة، لا تتحمل أحوال الجو فتضعها في جيب خاص في مؤخر البطن والثدي أمام هذا الجيب واللبن يسيل من ذلك الثدي بغير اختيار لتغذية الصغار، وبعد أمد معلوم تترك أولادها ذلك الجيب وترجع إليه متى رأت خطراً. ومن هذه الحيوانات «القنقر» وهو كالأرنب الكبير إذا جلس معتدلاً. وهو في أستراليا وتسمانيا. هذه أنواع الحيوانات الثديية التي هي قسم من أقسام خمسة للحيوانات ذوات الفقرات.

القسم الثاني من الحيوانات: ذوات الفقرات الطيور

وهي: (١) إما دجاجية مثل الدجاج والطاووس والحجل والسمان والحمام واليمام. (٢) وإما ذوات أرجل كفية مثل البط والإوز والبجع. (٣) وإما شاطئية مثل أبي قردان واللقلق وأبي مغازل والنعامة والبشاروش. (٤) وإما دورية مثل البلبل والعندليب والخطاف والقنبر والغراب والهدهد. (٥) وإما متسلقة مثل الببغاء ونقار الخشب. (٦) وإما جارحة مثل النسر والحدأة والبوم والمصاص والعقاب والصقر.

القسم الثالث من ذوات الفقرات: الزواحف

وهي السلاحف والورل والثعابين. فالسلاحف لها درق على جسمها، والورل مستطيل له ذيل وأربع قوائم قصيرة، والثعابين مستطيلة أسطوانية عديمة الأطراف. ومن الثعابين ذو الجرس إذ له آلة رنانة في ذنبه يعيش في أمريكا وهو سام. ومن الثعابين ما لا اسم له مثل «البوا»، وهو كبير جداً ويتغذى بالحيوان بالضغط والازدراد ومثل الثعبان ذي الطوق، وهو يتغذى بالسمك والدود والحشرات.

القسم الرابع من الحيوانات ذوات الفقرات

الضفادع.

القسم الخامس

السمك.

انتهى قسم الحيوانات ذوات الفقرات.

هاأنت ذا أيها الذكي إذا تأملت في هذا النوع من الحيوان تجده مرسوماً أمامك، والرسم مثل من الأمثال التي ضربها الله لنا، فتجد في حيوانات أمريكا الجنوبية مثلاً الغنم وهي من ذوات الأربع، والأفعى وهي من التي تمشي على بطنها، والببغاء وهي من التي تمشي على رجلين، وبقية الحيوانات الفقرية المتقدمة ملحقة بهذه.



(شكل ٢٢ ـ نبات أمريكا الشمالية)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٧-٥٨]



(شكل ٢٣ ـ حيوان أمريكا الشمالية)

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٥-٧]

القسم الثاني من أنواع الحيوان
الحيوانات الحلقية

ومنها ما يسكن البحار وما جاورها مثل « السربيل »، له خياشيم ذات ألوان زاهية، ومثل « السابيل » وهو يسكن أجحار الشواطئ ويعيش فرقاً. ومثل « الامفتريت »، ومثل « السكولوبندر البحري »، وهو الذي يبحث عنه الصيادون ليستعملوه طعماً للسمك. ومثل « دودة السباخ » وتسمى دودة الأرض جسمها أبيض يميل للحمرة لماع لمعاناً معدنياً. ومثل « دود العلق » يسكن في المياه العذبة، ويقرب من هذا الدود: (١) الدود الذي يعيش في أجسام الخنازير والأرانب والإنسان وهكذا. (٢) والدود الكلوي وهو يعيش متطفلاً على الحيوانات المختلفة وفي كلى الإنسان. وهكذا أنواع كثيرة من الدود التي تسبب أمراضاً مختلفة كما وضح كثيراً في هذا التفسير، فكلها من أنواع الديدان وكلها من الحيوانات الحلقية كالتي تحدث « البهارسيا » و« الانكلستوما » وغيرهما. انتهى القسم الثاني من أقسام الحيوانات العامة وهي الحلقية. وهذا القسم دمه إما أحمر أو أصفر أو أخضر، وهي خنثى فلكل حيوان عضوا التذكير والتأنيث معاً وبعضها يحتاج لجماع متبادل. ومنها ما يتولد بطريق الأزرار كأزرار النبات.

القسم الثالث: الحيوانات المفصلية

وهي العنكبوتية والقشرية وذوات الأرجل الكثيرة والحشرات، فالأولى منها العنكبوت والعقرب وأبو شبت والقراد وحيوان الجرب. والثانية منها أبو جلمبو والسرطان والجمبري، فلكل منها ٨ أرجل وهيكلها صلب وتعيش في الماء. والثالثة لها أرجل كثيرة وتعيش على الأرض، ويدخل في هذه ذات المائة رجل وأم أربعة وأربعين وذات الألف رجل. وأما الحشرات فهي معروفة في هذا التفسير وتقدمت كثيراً فلا نعيد الكلام عليها فانظرها في آخر سورة « الحج » وغيرها.



(شكل ٢٤ ـ نبات أمريكا الجنوبية)

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [النحل: ١٠-١١]



(شكل٢٥ـ حيوان أمريكا الجنوبية)

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾[النحل: ٨-٩]

ومن الحشرات ما لا جناح له. ومنها مستقيمة الأجنحة كالصرصار والجراد وفرس النبي والحفار. ومنها نصفية الجناح كالبق والقمل. ومنها ما أجنحتها غشائية مثل النحل والزنبور الأصفر والأحمر وزنبور الطين. ومنها غمدية الأجنحة مثل الجعران وخنفس الفول. ومنها ما لها جناحان فقط مثل البراغيث والزعقومة. انتهى الكلام على القسم الثالث وهي الحيوانات المفصلية.

القسم الرابع: الحيوانات الرخوة

مثل المحار وصدف اللؤلؤ وأم الخلول، وبعض هذه مشروح شرحاً وافياً في سورة «مريم» في أولها. شكل٢٦.

نبات استراليا   حيوان استراليا

(شكل ٢٦ ـ نبات وحيوان أستراليا)

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝ ﴾[الزخرف: ١٢-١٤]

القسم الخامس:الحيوانات النباتية أو الشعاعية

ومنها الزيوفيت وتقدم شكلها في آخر سورة « الحج » بهيئة خمسة أشعة منتظمة جميلة. انتهى الكلام على أقسام الحيوان.

وبدراسة هذه الحيوانات يعلم المسلمون معنى قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[النور: ٤٥]، فهذا هو الذي يفهمنا القدرة، أي: قدرة الله على التنويع، فهو ينوع الحيوان أنواعاً لا حد لها ويعطي كل ذي حق حقه. وهذا هو الذي نزل لأجله القرآن وفتح باب علم الحيوان وتقسيمه بهذه الآية.

أما النبات فلم نذكره في هذا المقام إلا استطراداً لأنه غذاء الحيوان، ولقد تقدم الكلام عليه في سورة « البقرة » عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ١٦٤] إلى آخره عند مسألة إبراهيم والطير، وفي سورة « الأنعام » عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[الآية: ٩٥] وعند قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[الآية: ٩٩]، وفي سورة « الحجر » عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الآية: ١٩]، وفي سورة « الحج » عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[الآية: ٦٣].

هذا ما أردت شرحه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[النور: ٤٥]. فيا أيها المسلمون أذلكم خير بحيث يرى الطالب حكمة الله واضحة له كأن يقرأ ذلك الحيوان المتقدم الذي ينزل اللبن له ليسقيه لضعفه لأنه لا يزال جنيناً، لأن أمه ذات رحمين كما تقدم، أم نضيع زمانه في حفظ القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر وكونه قادراً وكونه مريداً وكونه عالماً وكونه حياً الخ، لا لا أيها المسلمون، هذا لا ينفع أطفالنا، وأنا الآن أكتب هذا وعندي اعتقاد تام أن تعاليم المسلمين ستكون على النهج الذي يوافق منهج أمثال هذا التفسير. ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨]، والحمد لله رب العالمين. انتهى يوم الخميس ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٨.

محادثة مع أربعة فضلاء من رجال المعارف:مفتش وناظر مدرسة ومدرسين

ضحى يوم الأحد ٩ من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨، أوردها هنا لغرضين:

الأول: أنها إيضاح لهذا المقام.

الثاني: أن خير العلم ما أخذ من نتائج آراء المفكرين المجربين.

قال المفتش بلطف وأدب ـ وهو ممن أتموا علومهم في أوروبا: أيها الأستاذ لقد حمل كثير من المفسرين القرآن ما لا يحتمل، وأدخلوا فيه ما لا سبيل لدخوله، حتى إن بعضهم أخذ يستنتج من الآيات أن الفحم موجود في القرآن. ولا جرم أن أمثال هذا التمحل ترفضه العقول وتنفر منه النفوس. ولقد رأيتك اليوم ترسم هذه الخرائط في التفسير مبيناً حيوانات ونباتات أفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا والأوقيانوسية، وهذا لا سبيل إلى إدخاله في القرآن إلا بتكلف. فقلت له: هناك فارق بين إثبات الفحم في القرآن وبين أن الحيوان مقسم على القارات في الأرض. فقال: أين البيان؟ فقلت: إن الله يذكر لنا أن الحيوان منه ما لا أرجل له ومنه ما له رجلان ومنه ما له أربع. هل هو يريد أن تقف على

تعداد الأرجل، كلا بل يقول العلماء إن العدد لا مفهوم له، وإذا عددنا للحيوان أربعة أرجل فهناك ما له ٦ وما له ٨ وهكذا. فقال: أنا لست أعارض في إتمام مبحث الأرجل ولكني أعارض في ادعاء أن معرفة تفرق هذه الحيوانات على القارات يطلبها القرآن. فقلت: إن هذا تقسيم للحيوان من حيث عدد أرجله وهو فتح باب للتقسيم. ولا جرم أن معرفة العلوم كلها ـ كما نص عليه علماء المنطق ـ ترجع إلى أربعة: تحليل وتعريف أو رسم وتقسيم وقياس. فالتحليل للأشخاص كهذه التفاحة أو هذه النخلة لا يجوز أن تقول: عرف هذه النخلة ولا قسمها ولا برهن عليها، وإنما تقول: حللها، فالتحليل كتحليل الماء إلى الأكسوجين والأدروجين هو السبيل إلى معرفة الأشخاص والتعريف وهو الحد، ويتبعه الرسم وهو التعريف الناقص يعرف بهما الأنواع كما تعرف الإنسان بأنه حيوان ناطق أو تأتي له برسم فتقول هو حيوان عريض الأظافر يمشي على رجلين وهكذا، وأما القياس كالبرهان والجدل فهو للأجناس كما تستدل بأن للعالم محدثاً، وأما التقسيم فهو لتمييز الكليات المختلفة، كأن تقسم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، وتقسم النبات إلى نجم وهو ما لا ساق له وإلى شجر وهو ما له ساق وهكذا، والتقسيم مستعمل في جميع العلوم، فالتقسيم الذي ورد في الآية إليه يرجع ربع العلم. وهنا نقول: هل الله يريد أن ننظر تقسيم الحيوان من حيث عدد أرجله فقط؟ أم يريد أننا نفكر في أمره، والتفكير في أمره يحتاج إلى دراسته كله بقدر طاقتنا، فلنقرأ علم الحيوان ونقسمه من كل جهة من جهات التقسيم. فنقسمه من حيث موطنه في البحر وفي الهواء وعلى الأرض، ومن حيث منافعه ومضاره وهكذا كما تقدم. فقال: هذا حسن ولكنك قد استعنت بعلم المنطق على إيراد هذه الخرائط في التفسير وفيه بعض التكلف، فخير من هذا أن يكون نفس القرآن هو الذي يصرح بالتقسيم الذي أوردته هنا بلا احتياج لعلم وضعه الناس. فقلت له: إن الله ذكر المشي، فهل يمشي الحيوان على الهواء أو في الأثير، بل هو يمشي على الأرض. فإذا رسمنا الماشي رسمنا أرضه معه. وإذا رسمنا بقعة من قارة لم يكن لها فضل على الأخرى، وإذا رسمنا قارة يقال لنا: ولماذا لم ترسم القارات الأخرى؟ فخير لنا أن نرسم الجميع. فقال: هذا أحسن مما قبله ولكن فيه بعض تكلف.

فقلت له: يقول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝﴾ [الجاثية: ١-٤] فهاهو ذا سبحانه جعل الإيقان وهو أرقى من الإيمان مرتبطاً بمعرفة الدواب المفرقة في الأرض. فقال: هذا أقرب ولكن أريد ما هو أبين من هذا. فقلت: إذن تريد أن تسمع قوله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [الآية: ١٦٤] فذكر الأرض وذكر أنه فرق الدواب فيها. فهاهي ذه الأرض مرسومة أمامك وهذه هي الدواب، وهل هذا غير القرآن؟ وهل الآية التي بصدد الكلام عليها فيها غير هذا. ألست ترى الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ [النور: ٤٥]، فهاهنا ذكر الكل، والكليات لا تعرف إلا بالتقسيم، وهاهي ذه قسمتها على المناطق تارة وعلى القارات تارة أخرى، وهكذا يقول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [الشورى: ٢٩]. أفكفاك هذا البيان؟ فهذه هي الأرض أمامك في

الرسم، وهذه هي الحيوانات عليها. فقال: نعم لقد انشرح صدري له. فأقر الحاضرون على ذلك البيان وهم مستبشرون.

فقال: لقد كنت في أوروبا ورأيت القوم يجعلون قصص أنبيائهم في مسارح السينما، وهو يظهرون لهم قصص الأنبياء كموسى وعيسى عليهم السلام، والرجال والنساء والأطفال يتأثرون مع الوقائع والحوادث ويبكون. فبالله كيف يثبت الدين في القلب إلا بنقشه في النفس من الصغر كمثل ما رأيناه هناك. أما المسلمون فهم لذلك محرمون ومنه محرومون. فقلت: التصوير الشمسي قد نشر في هذا التفسير وتلقاه المسلمون بالقبول؛ وقد ذكرت في سورة «يونس» فتوى علماء المذاهب بالأزهر، وأبنت أن ذلك يكون واجباً إذا كان للتعليم. فهاهو ذا التصوير الشمسي أصبح في نفس التفسير، وقد قلت هناك: إن من حرمه فقد انخلع من دينه وعقله، لأنه ظل مصور بتصوير الله، صوره هو بشمسه، ومن حرم الظل والنظر إليه فقد أصبح مجرداً من العقل ومن الدين، وأما إظهاره بطريق «السينما» وهي الصور المتحركة فليس يزيد شيئاً عن ظهوره في هذا التفسير، إلا أن التفسير يقرؤه آحاد.

وأما في مجال الصور المتحركة فإنه يقرؤه مئات مجتمعون، وإذا جاز ظهورهم الصور للآحاد جاز للآلاف، فهذا التحريم لا معنى له الآن. فقال آخر: إن المرحوم الشيخ محمد عبده قال: إن التصوير المجسم لا يحرم في هذا الزمان لأنه منع بالحديث الشريف في الأزمان الأولى حينما كان الناس أقرب إلى الوثنية.

أما الآن فقد تنور الناس فلا يخاف عليهم ذلك. فقلت: إني لم أطلع عليه ولست الآن مضطراً لهذا المبحث فقد اكتفيت بما أحتاج إليه في هذا التفسير وهو التصوير الشمسي، فأما كون قصص الأنبياء تظهر في الصور المتحركة عند الفرنجة فقد ألف قدماء المسلمين كتباً شتى فيها روايات تحبب المسلمين في الدين، مثل ما جاء في كثير من حكايات «ألف ليلة وليلة» وخرافات سيف بن ذي يزن وأمثالها، فقد جعلوها روايات تحبب المسلم في الدين وما أكثرها، فلتهذب تلك الكتب وينشر أمثالها بين العامة، وإذا كانت في الصور المتحركة لم يضر ذلك شيئاً كما قدمناه. فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. اهـ.

هذا التفسير وأمثاله بأمثال هذه العلوم يرجع المسلمين إلى العصور الأولى

لما أتممت هذا المقال قابلني صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في المسائل المهمة في التفسير مرة أخرى، فقال: ما أجمل ما اخترت هنا من الرسم الجميل والبهجة. ولعمري لم أجد روضة أجمل ولا مجلساً أبهى من مجلس أطلع فيه على عجائب هذه الصور البديعة الحسنة. ما شاء الله كان. فبينما أنا أطالع منظر الصحراء في أفريقيا وجمالها وشجر جوز الهند وحقل القمح وشجر النخل والقطن إذا أنا أرى الخرتيت والتمساح والفهد وفرس الماء وأنواع القرود والنمر قوي العنق حاد الأسنان خشن اللسان مبطن الأقدام طويل الذيل يبلغ طوله على الأرض نحو ٣ أمتار. ذلك الذي يسبح في البحر فيعلو السفينة في النهر ويهاجمها، وتقف الماشية أمامه حائرة إذا نظرها، ومع ذلك كله يخاف من الصوت الغريب عليه كالخشخشة والجلجلة إن لم يكن جائعاً.

الأسد

ولما نظرت الأسد تذكرت أنه سيد السباع ، رملي اللون ، عظيم القوة حتى إنه ليقصم ظهر ثور حي ، وهو قنوع . حافظ للجميل ، معجب بنفسه كريم ، ولا يفترس إلا إذا جاع ، ينام النهار كالنمر ويسعى للقوت ليلاً ، شديد البطش عظيم المهابة .

الثعلب

ولما رأيت الثعلب تذكرت أنه عدو الطيور والدجاج ، مشهور بالمكر والخبث والحيل مثل أن يتظاهر بالموت ليتخلص من الصياد ، وهو يجول للصيد ليلاً ويختفي بالنهار ، ويحفر له حجراً منفرجاً قريباً من جذور الأشجار العتيقة ، وهو سريع العدو ، وإذا لم يجد نحو الدجاج تغذى بالفيران والضفادع ، وهو يأكل الفواكه كالعنب ولذلك يتلف الكروم .

الذئب

ولما رأيت الذئب تذكرت أنه هو الجبان الذي لا يسوقه إلى الافتراس إلا الجوع ، وهو لجبنه يدخل صوامع الدجاج برجليه الخلفيتين ، وهكذا لا تصيد الذئاب غالباً إلا وهي قطعان ، فتفترس الغنم والحيوان الأضعف وقد تصيد الخيل والبقر والإنسان ، وقطعان الذئاب إذا جاعت لا تهاب خطراً ، والذئب قوي ماكر كالثعلب . وإذا تعرض للإنسان وعجز عنه استعان بالذئاب . وإذا رمى الإنسان ذئباً أكلته الذئاب ولم تأكل الإنسان ، وهكذا إذا مرض واحد منها افترسته ، ولذلك إذا مرض واحد منها اعتزل الباقي .

الجمل

ثم لما رأيت الجمل تذكرت صبره على العمل وعناده إذا أهين ، وحقده وانتقامه ممن ظلمه ، وتذكرت أنه يعيش ٢٥ يوماً بلا شرب ماء إذا كان الورق الذي يأكله مملوءاً بالعصير النباتي ، وهو لا يعيش إلا في البلاد الحارة .

وهكذا تذكرت صفات البقر والجاموس والغنم والمعز المجترة التي لها أربع معدات ، تأكل الحشائش وتبلعها فتنزل في الكرش ، ثم تذهب إلى تجويف يسمى القلنسوة ، وتذهب إلى الفم وتمضغ ثانياً ، ثم تذهب إلى تجويف ثالث يسمى أم التلافيف . ثم إلى تجويف رابع يسمى الأنفحة . كل ذلك تذكرته لما رأيت هذه الأنعام في هذه الصور وهي مرسومة في مراعيها .

بذلك ذكرت قدرة الله وحكمته ، وكيف خلق لكل حيوان ما يليق له . فلم يعط القرود ولا الإنسان ولا الآساد هذه المعدات الثلاث ، لأن هذه ليست في حاجة إليها ، ولم يعط الطير أسناناً بل جعل له القانصة والحوصلة يهضمان الطعام عوضاً عنها وعن المعدة والأمعاء . وجعل الحيوانات آكلة الحشائش طعاماً لآكلة اللحوم ، وقلل هذه وأكثر تلك ، ولم يخلق سبحانه عضواً إلا لمنفعة ، فترى الأنياب القوية في السباع للحاجة إليها ، ومنعت المجترات ذلك لعدم احتياجها إليها . هذه هي المعلومات الأولية التي تعلمتها في الصبا تذكرتها الآن بهذه الصور المرسومة أمامي .

تم الفصل الأول .

الفصل الثاني: بهجة العلم في صور هذه الحيوانات وما أعد لها من النبات في هذه القارات وغرائزها، وفي عادات الإنسان التي جعلته في سجين

جمل ملكك يا الله وابتهج حيوانك بنباتك. وابتهج كل مخلوق بنعمك فحرستهم برحمتك وحفظتهم بنعمتك، لا إله إلا أنت ذو الجلال والجمال الذي ظهرت آثاره في الآفاق فعمرت بها القارات كلها آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا والأوقيانوسية. هاهي ذه الحيوانات راتعة في بحبوحة النعم وأظللتها في كنفك وأبحت لها الحشائش والمراعي والأشجار وهي رافلات في حلل السعادة والنعيم. هذه نعمك ماثلة أمامنا نحن قراء هذا التفسير التي أنعمت به علينا بعد شوقنا إليه آماداً طويلة، وألهمت أناساً رسموا خرائط أرضك بأقسامها وآخرين رسموا حيوانك ونباتك، ثم هيأت هذا كله وجعلته تفسيراً لكتابك المنزل. الله أكبر. أحاطت آيات القرآن بالقارات وبحيوانها ونباتها إحاطة السوار بالمعصم.

أصبحنا يا الله نشاهد بعض اليأس آيات القرآن معانقات قاراتك وحيواناتك ونباتاتك. يحيط كتابك المنزل بعجيب كتابك المبدع في الطبيعة. نعم ظهر الآن كيف كان الإسلام دين الفطرة. حار هذا الإنسان المسكين منذ أزمان في أمر دينه وفي أمر دنياه. ظن المسلم وغير المسلم أن الطبيعة شيء والدين شيء آخر. ظنت الأمم كلها ذلك الظن لما رأوا مخالفة الديانات للعلوم وللطبيعة، ولكن هذا الدين الإسلامي لكونه لم يتغير كتابه المنزل وأخذ الناس يوضحون علوم الطبيعة أصبحت هي تفسيراً له، وهذه هي الحجة القائمة والآية البالغة. آيات قرآنية يكون تفسيرها نفس العلوم الطبيعية، وإذا لم يتم هذا تكون الديانات مفتراة أو مغيرة، لأن القائل ينطق بما يعرف، فإذا خالف القول العمل دل على أحد أمرين: إما أن القائل كاذب، وإما أن غيره كذب عليه. وهذه كانت فكرتي في أول حياتي، فكنت أقول: إن لم يكن دين الإسلام ملائماً للطبيعة فهو غير حق. هذه كانت فكرتي من غير معلم، وأخذت أبحث في الطبيعة وفي القرآن، فامتزاج الآيات القرآنية بالعلوم الطبيعية أجلّ نعمة عليّ وعلى قراء هذا التفسير. هي سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وخير سعادة لي ما شاهدناه اليوم من ازدواج آيات الوحي وآيات الكون. فهاهي ذه آيات القرآن تحيط بالحيوان والنبات والناس يشاهدونها في هذا التفسير وستصير هذه أمراً شائعاً بين المسلمين، وسيكتبون هذه الآيات على حيطان حدائق الحيوان في الحكومات المختلفة على طراز ما كتب هنا. وهكذا في الحدائق العامة النباتية ويكون ذلك ديدناً للمسلمين.

جهل أكثر هذا النوع الإنساني وغفلته بالتقليد الأعمى

اللهم إن أهل هذه الأرض من أنواع الحيوان والإنسان عيالك في ملكك. إن ملكك واسع وأرضنا كما عرفناه من آراء علماء الفلك ذرة ضئيلة ليست في العير ولا في النفير. نسبتها إلى ملكك كله كنسبة الجواهر الفرد الذي يدق عن أن نراه بالمناظير المعظمة إلى ألف مليون أرض كأرضنا هذه. لذلك كان علمنا وإدراك حيواننا ضئيلاً ضعيفاً. فأما الحيوان فإنك أنت ألهمته منافعه فعاش بها وهو يسير بإرشادك ووحيك على قدر ما قسمت له، فالغريزة هي التي توجهه مدة الحياة. فأما الإنسان وإن أعطيته العقل وهو به حر فهو مسكين مني بالتقليد. ذلك أنه وإن أعطيته ملك الأرض وأبحتها له ومنحته العقل والحرية قد حبس نفسه في محابس التقليد وضل وغوى، فقال في نفسه: بدل أن أفكر

وأضني عقلي وجسمي فما لي وما للنصب والتعب؟ فلأقلد الآباء فأنا لست خيراً منهم. هنالك هام الإنسان أكثره على وجهه ووقع في هاوية الجهالة. فرأينا أهل هذه القارات المرسومة في هذه الآيات من نوع الإنسان قد اتخذت كل أمة من الأمم فيها عادات وديانات وأخلاقاً بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، واتبع الأول الآخر في الضلال، وقلت أنت فيهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٤-١٢٦]، عيرته بالتقليد وأبنت محاجة الرؤساء والمستضعفين، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[غافر: ٤٧] الخ. وأوضحت قيمة التمسك بآراء الآباء، إذ قلت: ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، فطبائع الإنسان تكاد تشبه طبائع الحيوان. فالحيوان بالغريزة لا يتزحزح عنها، والإنسان لكونه في عالم متأخر مثل هذه الأرض أخذ يشابهه فدار في مدار واحد بتقليد الرؤساء أو الآباء كأنه إذن اختط لنفسه خطة تشابه خطة الحيوان فالحيوان بالغريزة والإنسان بالتقليد. هذا هو السبب في أن الحيوان من نوع واحد يرى متشابهاً في أفعاله شرقاً وغرباً كالذئاب والآساد. أما الإنسان فلا تشابه بين عاداته، بل هناك اختلاف شاسع لأن العادات التي اتبعها والتقاليد التي رسمت له غير متفقة، بل هي مختلفة اختلافاً بيناً. فزئير الآساد في الشرق والغرب واحد، ومكر الثعالب في هذه القارات كلها لا يتغير، لأنها جارية كلها على ما رسمت أنت لها بخلاف هذا النوع الإنساني، فقوم تراهم يتزوجون بناتهم وأمهاتهم، وآخرون يحرمون ذلك، وقوم يأكلون مرضاهم وموتاهم، وآخرون يدفنونهم، مع أن الغربان مثلاً جميعها تدفن جثث موتاها. فالفرق الشاسع بين أكل الآباء والأمهات عند المتوحشين في أواسط أفريقيا وبين احترامهم وإعظامهم ودفنهم وإجلالهم عند الأمم المتمدينة، ليس مثل اتحاد الأعمال عند الغربان في دفن الجثث الذي لا يختلف فيه أنواعها، ولا مثل اتحاد الذئاب في أكل ما مرض منها، ولا مثل اتحاد النمل في العطف والرأفة على ضعفائها ومرضاها. إذن هذا الإنسان قد ضل عن فطرته لأن فطرته أن يفكر لا أن يكون ذا غريزة تسيره، فهو حبس نفسه في سجن التقليد وكان من آثار هذا التقليد أن الناس أشتات كما قال شاعرهم:

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم ... لا يستوون كما لا يستوي الشجر

هذا له ثمر حلو مذاقته ... وذاك ليس له طعم ولا ثمر

وهذا وإن كان مراداً به أخلاقه الفردية فهو منطبق على عاداته القومية التي طبع عليها بالتقليد فأنسته ملكة العقل والتفكير، فانحط كثير من هذا النوع من صاحب الغريزة وهو الحيوان. ومن آثار التقليد أن أهل الأرض الآن لما كان هذا دأبهم إذا اطلع غير المسلم منهم على ما كتبته الآن؛ ورأى هذه القارات وعليها الآيات وفي داخلها الحيوان والنبات؛ ورأى أن الطبيعة هي نفس الوحي المنزل؛ وأن القول السماوي موافق للعلوم الطبيعية؛ لا يستطيع أن يكتبه في كتاب ولا يرى في قلبه قبولاً له ولا يحبه مع أن فكرته شاهدة، وأن كل قول منطبق على الطبيعة مناسب لها موافق لحقائقها يكون مقبولاً، لأن الإنسان جزء من الطبيعة والطبيعة محبوبته ومنها وبها وعليها خلق وتغذى وتجمل وحمل، فهو

بذكرها مغرم ولعلمها محب، ولكن التقليد الذي أخرجه عن دائرة عقله يمنعه من كتابه هذه الآيات أو الاستشهاد بها، أو أعارته التفاتة فلا يصنع كما صنعت في هذا التفسير، بل يراه جريمة ودليله التقليد. ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، بل كثير من المسلمين الذين تعلموا نصف تعليم يأنفون أن ينطقوا بهذا لأنهم يريدون أن يتظاهروا بأنهم أعظم من الأنبياء، فيعظمون في أعين ضعفاء الأمم الشرقية الذين أخذوا الآن يقرؤون بعض العلوم فيوهمهم رؤساؤهم بأنهم صاروا كرجال الأمم الأخرى الذين غلبوا الشرقيين بالمدافع، ولا حيلة لهم في هذا الادعاء إلا أن يتظاهروا باحتقار الدين تظاهراً بالعظمة أمام صغار الأمم الشرقية. إذن أمثال ما كتبته الآن حول القارات من الآيات تختلف فيه الأمم، ولا ينحو نحوه إلا المسلمون ومن على شاكلتهم وهم قليل، بخلاف الشعر فإن الشعر بأي لغة كان يفرح به جميع الأمم. فشاعر الشرقيين من مسلمين وبوذيين ويهود وغيرهم يسمعه كل غربي، وشاعر الغربيين من أي أمة كان يسمعه ويفرح به كل شرقي، وحكماء الشرق وحكماء الغرب كشعرائهم كلهم محبوبون مقبول كلامهم عند جميع الأمم. فهذا «شكسبير» شاعر الإنجليز، وهذا «سبنسر» فيلسوفهم. وهذا «هوميروس» شاعر اليونان. وهذا «أرسطاطاليس»، وهذا ابن رشد والغزالي وابن سينا. كل هؤلاء يسمع شعرهم وفلسفتهم كل أمة سواء أكانت على دينهم أم خلافه. أما الدين فلما كان له رجال يحملونه وكان لهم في تأييده وارتقائه وشيوعه في الأرض منفعة مادية؛ كأن يزيدهم جاهاً ومالاً لكثرة أتباعهم؛ وكثرة الأتباع لا تتم إلا باحتقار كل دين سواه؛ لذلك كانت أهل الديانات الأخرى إذا قرؤوا ما أكتبه الآن لم يحلوه المحل الذي يجعلونه للشاعر أو للفيلسوف الشرقي. إذن التقليد في أمم الأرض يمنعهم عن فطرهم، وهذا الدين الإسلامي الذي ينطبق على الفطرة كما نطقت به هذه القارات وحيواناتها، وكما ستسمعه قريباً هنا في كلام فلاسفة أوروبا في تقريظ كتابي «نظام العالم والأمم»، أن الإسلام بهذا التأليف ثبت أنه دين الفطرة لا يعيره غير المسلمين أدنى التفات، مع أن فطرهم شاهدة به ولله الأمر وله الحول والقوة، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[الأنعام: ١١٢]، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم السبت ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨.

الفصل الثالث: في عجائب هذه الحيوانات وآثارها في الإنسان وأن الأرض أشبه براقصة حول الشمس بما حملت

فإذا رأيت الأرض راقصة حول الشمس بحركتيها اليومية والسنوية لا تفتر ولا تهدأ، والنجوم حولها والكواكب كأنها تصفق لها وهي دائرة، فإنها وهي في رقصها قد حليت بالمناطق الهوائية والسحابية والثلجية والنباتية والحيوانية. فهي أبداً راقصة، وهي أبداً عليها حليتها، وحولها نغماتها وفيها قلت صباح يوم الجمعة ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ما يأتي من الأبيات:

الأرض ترقص حول الشمس من فرح	بنورها وبنور الشهب في الظلم
تنأى وتقرب أحياناً بما حملت	من ناضر النبت أو من باهر النسم
فالنور مؤتلق والطير مخترق	والنبت متسق يهدي إلى النعم
والحوت في لجج الأمواج يقطعها	ويقطع الليث قفراً وهو في قرم

والأرض أمهم طـراً تسير بـهـم خوفاً عليهم وإشفاقاً من العدم
في الصيف تدفئهم بالنور محترقاً وفي الشتاء يرون السحب من أمم
سوطان حـر وبـرد سيق بينهما ما في الخلائق بين الحوت والرخم
والريح هزهزت الأشجار مائلة تشدو مع الطير في الروضات والأجم
في كل أرض وفي كل البحار وفي جوّ السماء أفانين من النغم
من كل مائسة الأغصان والهة تختال في حلل الأزهار كالعنم

نظرة في قوله تعالى

﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ الخ

فوق ما تقدم

(١) إن كون الحيوان يمشي على رجلين وكونه يمشي على أربع وكونه يمشي على بطنه؛ هذه أمور يشاهدها الجهلاء والعلماء في الإنسان مع الطير وفي ذوات الأربع وفي الحيات. واعجب من ذكر القرآن هذه الثلاثة التي يعرفها الخاصة والعامة.

الله يرشدنا إلى أن الأشياء المشاهدة غض الناس عنها الطرف لأنهم في هذه الأرض حكم عليهم بالسجن في البحث عن أقواتهم وعن المال والولد. فإذن هم في غفلة ساهون. فقال الله: كلا، أيها الناس إن باب العلم هو التقسيم والتحليل.

أما التحليل فقد جاء في سورة «البقرة» عند ذكر الطير وإبراهيم فاقرؤوه هناك، وهو الذي يعرفه تلاميذ المدارس النظامية في العالم كله في علم الكيمياء.

وأما التقسيم فهو الذي فتح بابه القرآن هنا. اللهم إنا نحمدك على العلم وعلى الحكمة. أنت الذي فتحت لنا باب التقسيم. الله أيها المسلمون فتح باب التقسيم فقسّم الحيوان إلى الأقسام المذكورة.

(٢) فانظر تقسيمه على المناطق في صورة ١٥، فهو ثلاثة أقسام: قسم في المناطق الحارة. وقسم في المعتدلة. وقسم في الباردة. وهكذا يقسم من حيث الأخلاق الإنسانية.

(٣) إن للإنسان شهوة وله غضب وله حكمة وعقل، فالحيوانات التي تأكل النبات تمثل فينا القوة الشهوية، والحيوانات التي تأكل أمثال الغزلان والأرانب كالأسود والنمور تمثل فينا القوة الغضبية، والقوة المودعة في العالم علوية وسفلية التي بها رتبت هذه الأنواع وحفظت وبقيت بحيث لا تفنى أنواع الأنعام وأمثالها بأكل الحيوانات التي تغتذي منها، بل يبقى الآكل ببقاء المأكول ولا يفنى المأكول مع تمادي الآكل في التغذية به. فهذه القوة المنظمة قد أودع نور يشبهها في عقول بني آدم سميناه عقلاً. إذن عقولنا أشبه بالملائكة، وقوتنا الغضبية أشبه بالآساد ونحوها، وقوتنا الشهوية أشبه بالبهائم ونحوها. فهذه ثلاث مراتب كمراتب الأرجل في الآية وكمراتب المناطق فوق الأرض. فهذا يشير له القرآن، ولهذا نزل الكتاب، ولهذا وأمثاله جاء أمثال هذا التفسير من الكتب التي تؤلف في عصرنا. تباركت يا الله في نظامك وعجائبك في هذه الدنيا.

(٤) ويلحق بهذا أمر اللذات فهي ثلاثة أقسام: لذات دنيئة سفلى، ولذات وسطى، ولذات عليا. فأما اللذات السفلى فهي ما يزاوله الحيوان من السفاد وضروب النزوان. فالإنسان وهو يزاولها

قد شارك الحيوان فيها وهي أدنى اللذات . ألا ترى أن هذه اللذة عمت النبات وسائر الحيوان ، واللذة كلما كانت أعمّ كانت أدنى منزلة ، وكلما كانت أخص كانت أرفع منزلة ، وأما اللذة الوسطى فهي لذة الغلبة والقوة والسطوة ، وهي التي تمتعت بها الآساد والنمور والصقور ، فلها الحكم على الحيوانات الآكلة النبات ، ولها عليها فضل لأنها وإن أكلت من القطيع الذي يبلغ ٥٠٠ نعجة مثلاً واحدة كل جمعة أو شهر أو سنة قد كانت سبباً في إحداث ارتباط المجموع بروابط المحبة والإخاء والاتحاد ، لأن الخوف من المهاجم يجمع القطيع كله على رأي واحد ، فإذا آنست أسداً فرت الجموع من وجهه ولا يقع فريسة إلا الضعيف . هكذا جعل الله في الناس من هم أولو قوة وأولو بأس شديد ، فيحفظون الأمم والدول والممالك ويساعدون في ارتباط المجموع واتحادهم بالقوانين والأوامر ، فهؤلاء الملوك وهؤلاء الأمراء لذتهم إذا خلت من الشهوات البهيمية أرقى من لذة الفتيان بالمطاعم والملابس والتزوج المقتصرين على ذلك . وإنّما كانت هذه وسطى لأنها خاصة بطائفة من الحيوان ولم ترتق إلى المرتبة العليا ، وهي اللذة العلمية . وهي اللذة التي لا يعرفها إلا الحكماء والأنبياء والملائكة . فالإنسان إذن إما بهيم وإما أسد وإما ملك .

فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

(٥) تقسيم الحيوان على حواس الإنسان وحاجاته :

(أ) فمنه ما ينفع الإنسان من حيث حاسة اللمس فيلبس الجلود والأوبار والأشعار والأصواف كالإبل والمعز والغنم .

(ب) ومنه ما ينفعه من حيث حاسة الشم كحيوان المسك في البر وحوت العنبر في البحر .

(جـ) ومنه ما ينفعه من حيث حاسة الذوق وحصول الغذاء بالألبان واللحوم وهذا معروف .

(د) ومنه ما ينفعه من حيث حاسة السمع كالطيور المغردة من الفواخت ونحوها .

(هـ) ومنه ما ينفعه من حيث حاسة البصر كالطيور الجميلة من أمثال الطاووس ، وهناك منافع عقلية لأنواع الحيوان تكسبه حكمة وعلماً ، وذلك كالألوان التي شرحتها لك في أول سورة «المؤمنون» . فهذه تدهش عقل العقلاء وتدعوهم للتفكر والتأمل والإعجاب بما أبدع الله فيها .

(و) انظر ألوان الحيوان وصوره هناك تر العجب العجاب . ترى الحيوان أعطي لوناً خاصاً لحفظه هو ، فانظر هناك حشرة تعيش على البقدونس كيف لونت بلون أزهاره حتى لا تمتاز عنها . وانظر هناك صورة لحشرة أشبهت غصناً من نفس الشجرة قد قطع حديثاً ، وهي بذلك قد حفظت من الهلاك ، وكيف يكون بعض الحشرات مشبهاً في الشكل زرق الطيور الآكلات لها حتى لا تقع عليها فتفترسها . وهكذا مما شرحته لك هناك . ثم انظر من جهة أخرى صور أجسامها وتركيب أسنانها وجهازها الهضمي تجدها مفصلة بحساب متقن على حسب مصلحة نفس الحيوان لا على مقتضى الوسط ، فلم يكن لون سواد الفأر ولا اللون الزاهي في الزنبور رمية من غير رام كما أقرّ به فلاسفة القرن العشرين .

إذا علمت ذلك في النظرات الست المتقدمة هنالك تعرف لماذا يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا

وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨]، وتعرف قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢].

هذا هو الذي نزل له القرآن، وهذه العلوم التي أظهرها الله في زماننا هي التي بها يفسر القرآن الذي جعل اختلاف الألوان لا يعرفه إلا العلماء، ولا يدرك أمثال هذا إلا العلماء به لا عموم العقلاء، والحمد لله رب العالمين. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع

في أن الحيوان كتاب مفتوح للناس قاطبة، وفيه بيان نعيم الحرية وجحيم الاستعباد

اعلم أن الله عز وجل خلق الحيوان قبل أن يخلق الإنسان وألهمه معايشه وعلمه صنائعه وقسمه أقساماً، وكل ذلك قبل أن يخلق هذا الإنسان في الأرض. إن الله قد فعل مع الإنسان ما فعله مع الطفل من إحضار ما يحتاجه قبيل الولادة، حتى إذا وضعته أمه وجد القابلة التي تساعده في وضعه والثدي واللبن واللفائف وجميع أنواع الراحة له حتى يعيش في الأرض. هكذا الإنسان كله خلق له قبل أن يخلق الحيوان، وخلق للحيوان النبات كذلك، حتى يدرس الإنسان هذا الكتاب المفتوح، فضلاً عن أن يكون غذاء له ومركباً وزينة ومتاعاً إلى حين. ولقد مر في سورة «طه» أنواع الصناعات التي تعلمها الإنسان من الحيوان في شؤون الحياة فقلده فيها، فانظرها هناك فإنك تجد الإنسان ما صنع مركباً في البحر ولا طيارة في الهواء ولا حصناً لمدينة ولا سرداباً تحت الأرض فيها إلا وقد سبقه إليها الحيوان.

وأقول الآن: إن الحيوان على قسمين: قسم يعيش في الخلوات والغابات حراً طليقاً سعيداً قوياً معززاً. وقسم يذله الإنسان ويستخدمه ويكون مساعداً له.

فالأول كالغزلان والآساد، والثاني كالكلاب والغنم. فالأول بحريته صار أعز نفساً وأشرف وأجمل وأكمل وأقدر على التدبير من الثاني الذي حرم قوة الحيلة والتدبير، لأن الإنسان قام بحاجته وتكفل بغذائه فانحطت ملكاته وساءت حياته ففرق بين العنز والغزال.

هكذا أنتم على الأرض قسمان: قسم اعتاد التواكل والكسل، فألهم الله من هم أقوى عقولاً وأحسن تدبيراً فاحتلوا بلادهم وساموهم سوء العذاب، وقالوا لهم: أيها الناس عليكم العمل وعلينا التدبير فعيشوا كما تعيش الأنعام وكونوا خاضعين. وكما انقسم الحيوان إلى ذليل وعزيز حرّ، هكذا انقسم إلى ما أعطاه الله صناعة وإلى ما لا صناعة له. فالأول كالنحل والعنكبوت فترى النحل عزيزاً أينما حل في البدو والحضر، فهو معظم مكرم، حتى إن الإنسان إذا استأنسه قام له بكل خدمة وعظمه وأكرمه، ذلك لصناعته العجيبة، فأما العنكبوت فإنه لقوته الصناعية يحتل كل مكان في الحقول والمنازل ويصطاد الحشرات.

إشارات القرآن لهذين التقسيمين

اعلم أن الله عز وجل لم يسم في القرآن السورة باسم «البقرة» وهي مما استذله الإنسان إلا وقد ذكر معها الذبح، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾[البقرة: ٦٧]، ثم قال: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[البقرة: ٧١]، هكذا الأمم التي تركت مواهبها وعقولها سلط الله عليها من الأمم

من يقودونها ويقومون بشؤونها، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فهؤلاء المسلمون المستضعفون في الأرض قد ضرب الله لهم مثلاً في الأنعام أمامهم، فإنهم يعرفون الفرق بين الأسد والكلب وبين الغزال والعنز، فالغزالة أنقى لوناً وأجمل شكلاً وأوفر ذكاء وأوسع حيلة من أختها العنزة التي استذلها الإنسان. ذلك هو كتاب الله الذي أنزله للناس قبل أن ينزل كتاباً واحداً من السماء، وهكذا لم يذكر الحيوانات الصانعة في التقسيم الثاني إلا مقرونة بما يشرفها ويعظمها. ألم تره لم يذكر النمل في سورة «النمل» إلا وقد شرفها بأن سمعها نبي من الأنبياء وهو سليمان ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[الآية: ١٩]، وقال الله في النمل: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[الآية: ١٨]، كما أنه لما خاطب الهدهد وهو من نوع الطيور الحرة في التقسيم الأول هنا بعد أن توعده بالذبح أو التعذيب الشديد لم يهنه ولم يذله لأنه سمع منه الجواب المحكم والعلم، إذ قال له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[النمل: ٢٢]، بخلاف البقرة فإنها لم تفد العلم بالقتيل إلا بعد الذبح. يقول الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[البقرة: ٧٣]، فالميت لم يخبر بقاتله إلا بعد ذبح البقرة، وهو هدد بالذبح ولكن لم يذبح وأتى بعلم وهو حي. ذلك فرق ما بين الحر وغير الحر. الحر لا يذبح فتفيد حياته وغير الحر يكون طعاماً للآكلين. فلذلك أفاد الهدهد سليمان بما لا يحيط به علماً. هذا تشبيه ظاهر لأمم الإسلام أن سمو الفكر والحكمة وعلو القدر والعظمة كلها تابعات للحرية التي يتبعها صفاء الذهن وحضور البديهة والصدق في العمل، ولم ينزل القرآن لنا للتفكه بل نزل للحكمة، ولم يختر الله الهدهد في حكاية سليمان رمية من غير رام. كلا. ثم كلا. بل الهدهد رمز للنفوس الصافية التي ليست تحت إمرة غيرها حتى يكتموا أنفاسها ويذلوها، ولو كان علماء الإسلام فكروا في هذا قبلاً ما ذل المسلمون ولا ضعفوا ولا استكانوا، ولكن الله عز وجل هو الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، ولقد كان من الجائز أن يذكر الله بدل الهدهد حمامة، فالحمام هو المعهود لتبليغ الرسائل في السلم والحرب قديماً وحديثاً، ولكن الله عز وجل يريد أن يعلمنا بطريق ضرب الأمثال بالحيوان، فذكر الهدهد لهذا وأمثاله والله هو الفتاح العليم. ثم تأمل كيف ذكر الله الهدهد والنمل مع سليمان حتى يكون ذلك شاهداً على القسم الأول في هذا المقال، وعلى القسم الثاني فيه، حتى يكون هذا المقال كله مقتبساً من سورة «النمل» مرتبطاً بآية النور هنا عند تقسيم الحيوان إلى الماشي على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع وهكذا. ولا جرم أن التقسيم العام هنا يدخل فيه ذلك التقسيم الخاص في سورة «النمل» الذي تضمنه حديث سليمان مع الهدهد وتبسمه من سماع النملة، فهنا عموم وهناك خصوص، وهذا المقال خاص دخل في العام. فأنا أحمدك يا الله على نعمة العلم وبديع الحكمة إنك أنت اللطيف الخبير. وهكذا لما ذكر الله العنكبوت أردفها بقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، وقال في النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[النحل: ٦٨].

فهاهو ذا سبحانه أفادنا أن في ذكر العنكبوت ونحوها ضرب أمثال وأن تلك الأمثال لا يعقلها إلا العلماء، وأفادنا في النحل أنه يوحي إليه، كما أنه في سورة «المائدة» أفاد أن الغراب معلم للإنسان

إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[المائدة: ٣١]، وعلى مقتضاه: يقول يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الهدهد والغراب فأكون حراً طليقاً قوي العزيمة أخاطب ملكاً عظيماً كسليمان فلا أخشاه لعلمي ولصدقي ولقوة عقلي ويقيني ولحريتي، وأيضاً: أعجزت أن أكون كالنحل وكالنمل وكالعنكبوت في الصناعات حتى أستخرج مواهبي الكامنة فيّ وهنالك يلهمني الله رشدي ويزيدني علماً بما أزاوله، كما أوحى إلى النحل لما زاولت عملها، وإلى العنكبوت لتتقن نسجها، وإلى النمل لتربي أولادها. هذا ما فتح الله به صباح يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٢٨، والحمد لله رب العالمين.

حفظ القوة الشهوية في الإنسان حسن كما حفظها الحيوان

ولعمري ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر: ٢-٣]، الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[العصر: ٢]، لماذا؟ لأنه جهول ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢].

اللهم إننا نحن سكان هذه الأرض أسرى التقليد والأوهام والجهالة، أفكر يا رب في هذه السن فأرى أنك قويت صحتي وأتذكر أيام شبابي فأجد الأمراض كانت تحيط بي. ولما فكرت في ذلك وجدت أن المرض في الشباب كان بالجهل بعلم الصحة، وأن الصحة اليوم بسبب أنك عرفتني بعض علم الصحة وعملت بشيء منه. وكلما رأيت في صحتي اعتدالاً قليلاً أو كثيراً بعد أن أكون عملت ببعض ما أكتب في هذا التفسير من قوانين الصحة؛ أقول: يا سبحان الله وسعدانه. إذن أمراض الناس بجهلهم ومرضي بجهلي، وكل انحراف عقلي أو صحي أو خلقي عندي الآن أو من قبل ليس له سبب إلا جهلي. إذن شقاء الناس كلهم بالجهل.

ومن عجب أن أرى عظماء الأمم وكبراءهم في عصرنا يتبجحون بالإعلان عنهم في الجرائد أنهم شربوا المرطبات أو الحلوى في مجالسهم العامة وهكذا، فإذا سمعت هذا الإعلان أقول في نفسي: يا عجباً، ما لي أرى هذا الإنسان ساهياً لاهياً؟ شرب القوم المرطبات، شربوها جميعاً. هل كانوا عند الشرب جميعاً مسوقين له بالعطش أم ذلك شهوة لا غير. فمن شربها للعطش فبها ومن شربها للذة أورثته مرضاً دفيناً واختلالاً، وهكذا مرة بعد أخرى حتى يظهر أمره بعد حين. فلماذا لا ينظر الناس إلى الحيوان. ذلك الذي لا يأكل إلا إذا جاع ولا يشرب إلا إذا عطش، والإنسان لغباوته وجهله يشرب لغير سبب إلا اللذة، وهذا له عقاب عظيم في هذه الحياة. هكذا في أمر التناسل ولذة الوقاع، يقول الأطباء: إن حفظ هذه القوى يقوي الجسم والعقل، وبضدها تتميز الأشياء. ومن عجب أن الناس يشاهدون الأنعام لا يقرب الذكر أنثاه ما دامت حاملاً، كأنها قرأت نظام العالم وعرفت منه أن هذه الشهوة ليست مقصودة لذاتها، لذلك حفظت قوة تلك الحيوانات. أما هذا الإنسان المسكين فهو أسير شهواته يواقع كثيراً لغير ما سبب إلا الشهوة وهي ترديه. نعم أنا لست أقول إننا نقلل الوقاع كما تقلل الأنعام أي عند إرادة الحمل فقط، ولكن أقول الأفضل أن يكون ذلك تابعاً لعلم الصحة، حتى نقرب من حكمة الله في أرضه التي أظهرها لنا في الأنعام التي اقتصرت على طلب الولد، والله

أشار لذلك فقال في سورة «البقرة»: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾[الآية: ٢٢٣]، بعد قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾[الآية: ٢٢٣].

اللهم إننا على الأرض أمامنا كتابان: كتاب منظور وكتاب مسموع، والكتاب المسموع الذي أوحيته وجه عقولنا إلى كتابك المنظور. فلتوجه برحمتك عقول المسلمين من الآن إلى نظامك في كتابك المنظور حتى يعقلوه فيفرحوا بجمالك. وليتخلقوا بأخلاقك العالية الشريفة، وليقفوا عند حد أدبك الذي فرقته على حيواناتك في أرضك وقلت: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾[يونس: ١٠١]، فهانحن أولاء يا رب نظرنا فوجدنا أن النوع الإنساني حاد عن الجادة في تصرفه واتبع العادة ولم يفكر منه إلا الأقلون، يشربون وهم لم يعطشوا، ويأكلون وهم لم يجوعوا، والحيوان لم يفعل ذلك، وأكثر ما يكون ذلك منهم في ولائمهم وأفراحهم ومجتمعاتهم العامة.

ويدخلون دخان التبغ في أفواههم يدور في دورة الدم فيؤذيهم، ويشربون المواد المتخمرة التي تضر أجسامهم، ويفعلون ما به يستضرون. وقد تمتحننا بالجوع الكاذب بين الأكلتين أو العطش الكاذب بين المرتين من الشرب، فنطيع تلك الداعية فنستضر وإذ ذاك تضل القوة العقلية ويفتر الذهن وتقصر الآجال على حسب الأقدار الجارية. ولقد قلت في كتابك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى: ٣٠]، فهذا مما كسبناه بأيدينا. وقلت أيضاً: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام: ١١٦]، وسبيلك يا رب في كل شيء بحسبه، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[هود: ٥٦]. وقد ذممت التقليد فقلت: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]. إن هذه الأمة سيكثر فيها المفكرون في أمر هذا الحيوان والاقتباس مما جبل عليه ليرجع المسلمون إلى الفطرة، ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠]. انتهى صباح يوم الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨.

نداء إلى أمم الإسلام

تذكرة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وازدياد لليقين

إن من أعجب العجب أني بعد ما كتبت ما تقدم اطلعت على محاضرة مسهبة ألقاها الأستاذ «فينج فيشر» الأمريكي الأخصائي في علم الصحة، أظهر فيها بالبرهان الجلي المحسوس أن الناس في القرآن الحادي والعشرين سيكون متوسط أعمارهم ١٠٠ سنة على الأقل، وقال: إننا الآن نقصر أعمارنا باستعمال الكحول والتبغ والشاي والقهوة فضلاً عن أننا نكثر من تناول الأطعمة ونقلل من ممارسة الألعاب الرياضية وننام قليلاً ونرتدي ملابس غير صحية، وإن علم الصحة يقود إلى إطالة العمر ولا يأتي الموت إلا إذا فقد الجسم النشاط الحيوي عندما تصبح الحياة كعقرب الساعة المكسور. وختم محاضرته بقوله: إن أحفادنا وأولادهم سيعيشون جيلاً أو جيلين لأنهم سيدركون أكثر منا ويحافظون على الوسائل الصحية وينبذون استعمال المواد المهلكة لتلك الأجسام. انتهى.

أقول: عجبي أن تنشر هذه المقالة في بلادنا عند كتابة هذا الموضوع، ولعمر الله كم من علم ينشر والناس به يستهزئون، وليعلم المسلمون أن دين الإسلام سيأتي زمانه أما هذا الزمان فإنّما هو

مقدمة لا غير. إن المسلمين قرؤوا آيات الخمر وتحريمه والربا وتحريمه، ولكن كان الخمر هو أجل ما يفرح الأمراء ورؤساء الدول الإسلامية فضلاً عن الفساق وأصحاب الخلاعة. كل ذلك لأنهم لم يدركوا السر في هذه المحرمات، ولم يعلم كثير منهم أن ذلك التحريم لإسعادهم في الحياة الدنيا قبل الموت، وصار شعراؤهم يتغنون بالخمر، ويقول أبو نواس شاعر العباسيين أيام صولتهم ومجدهم والقوم لا يزالون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة ولم يبلغ الترف منهم مبلغاً عظيماً:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وكتاب «الأغاني» بما فيه من أحاديث الخلاعة والفجور المنقولة زوراً عن الرشيد وأمثاله قد انتشر في دولتهم ودولة الأمويين في الأندلس، فأفسد أخلاق القوم فساء صباحهم ومساهم وخلت منهم الديار وبئست عاقبة الغافلين. فيا ليت شعري أي أثر يتركه أمثال ما نكتبه الآن من النظرات في الحيوان وعاداته، وأنه كتاب مفتوح كتبه الله بيده لنا وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ [يونس: ١٠١]. وقسمه إلى زاحف وماش على رجلين وأربع، وتبين لنا أنه مترفع عن الدنايا في مطعمه ومشربه وملامسة أنثاه. هنالك يكون الخجل من الجهل ومن المرض وقصر الأعمار الذي كسبناه بأيدينا وسوء التربية والملكة، فإذا انضم إلى ذلك قراءة أمثال ما ألقاه الدكتور «فيشر» الأمريكي من إظهار جهل هذه الأجيال، هنالك يعلم أبناؤنا بعدنا أننا ما كان لدينا علم ولا دين، اللهم إلا ألفاظ القرآن محفوظة ننقلها لمن بعدنا بأمانة، كأن الله سخرنا لهم وهم الرابحون. أنت يا الله خلقت الحيوان وقلت: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ [يونس: ١٠١] وأنزلت القرآن وقلت: افهموا، وخلقت أمماً وأمماً ففكر الجميع، فعرفت الروسيا ضرر الربا وأمريكا الخمر بعقولهم فأدوا بعض ما جاء به القرآن والمستقبل أجمل وأكمل وسيرتقي المسلمون، والحمد لله رب العالمين.

أيتها الأمم الإسلامية اسمعي، هذه هي صحيفة الحيوان أنزلها في الأرض لتدرسوها، وقال لكم إنه مقسم إلى زاحف وماش الخ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، كأني بكم قرأتم هذه الصحيفة وأخذتم تعجبون من نظام وضعها وبهجة حكمتها، فتقولون: إن في الحشرات كالدود والجراد والنمل والنحل لعبرة، وكذلك في الطيور كالحمام والغربان، هكذا في الأنعام في الآساد والفيلة. إننا نرى هذه الأنواع تجري على وتيرة واحدة، فكلما كانت أنقص مرتبة كان عملها قاصراً، وكلما كانت أعلى مرتبة كان عملها متحدياً.

فإذا كانت الجرادة والذبابة والناموسة لا تربي ذريتها؛ والنحل والنمل يعطف الفرد منها على المجموع ويربي ذريته ويحفظ دولته؛ هكذا نرى هذين النوعين في الطيور. فإنا نرى الدجاجة والبطة والحمامة تربي أبناءها ولكن لا علم لها بنظام الغربان وأمثالها من كل ما لها به نظام عام يجمع طائفة ويساعد الفرد المجموع. هكذا نرى البقرة والشاة والعنز والجمل لا يعرفن إلا أنفسهن وذريتهن إلى أمد معلوم، ولكن الفيلة والذئاب والقرود وأمثالها قد كونت لها أمة وأقامت حكومة وانتظمت منها الجماعات. ثم يقولون: إن الشرف يتبع الفضل والمنفعة العامة، فنحن نرى النحل والغربان والقرود أفضل وأشرف من الجراد والحمام والأنعام، ثم ينظرون في هذا الإنسان نظرة فيقولون: إن الطفل منه والشيخ الهرم كلاهما لضعفه يشبه الدود والجراد، إذ لا هم له إلا حفظ حياته.

والأقوياء من هذا الإنسان يرتقون فيلدون الذرية وتكون لهم أسرات ثم جماعات ثم أفخاذ وبطون وقبائل، وهؤلاء أرقى ممن يقتصرون على أسراتهم، وقياساً على جماعات الحيوان يكون الإنسان كلما ازداد جمعه ازداد شرفه. فإذا رأينا أمم أوروبا كالجرمان والإنجليز وأهل فرنسا؛ وإذا رأينا أهل الشرق الأقصى كاليابان والصين؛ ووجدنا أن هذه الأمم كلها يحافظ الفرد منها على المجموع؛ قلنا: لقد أحسنوا، وهم أعظم شرفاً ممن صغرت جماعاتهم بأن حافظوا على نظام القبيلة ولم يرتقوا عنه. ثم يقولون: إن هذه الأمم جميعها لم تزد عن الغربان وعن الفيلة وعن النمل والنحل.

اللهم إنك أنت الذي ألهمت النحل وألهمت النمل وألهمت الغربان وألهمت هؤلاء جميعاً نظام جماعاتهم، وقلت لنا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كالفيلة والقرود ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ كالغربان والنحل ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام: ٣٨] فلهم نظام ولكم نظام. إنك تريد بذلك أن توجه عقولنا إلى دراستها. هانحن أولاء درسنا هذه الحيوانات باعتبار التقسيم كما قسمتها أنت هنا بالمشي على البطن وعلى الرجلين، فلما درسناها ووازناها بالإنسان وجدنا أمماً في الشرق ارتقت كما ترقى الحيوان ولكنا لم نرها ارتقت عنه.

أيها المسلمون. هذه مبادئ التفكير عند أبنائكم في المستقبل. ثم هم سينظرون ويقولون: ما بالنا نرى آباءنا ـ يريدون أمثالنا وأمثال آبائنا وأجدادنا ـ لم يرتقوا في الأسباب ولم يعقلوا ما عقلته الأمم في الشرق والغرب؟.

لماذا نرى الأمم كلها قد أدركت هذه الحقائق من نفوسها وخطت خطوات واسعة في الاجتماع وهم بقوا جامدين على القديم العتيق البالي من نظام الجاهلية الأولى، حتى إن الأمم العربية مثلاً متفرقة متشاكسة يجهل بعضها بعضاً. فهم في شمال أفريقيا متقاطعون متدابرون. فالمصري والطرابلسي والتونسي والجزائري والمراكشي كل هؤلاء يجهلون أنهم أمة واحدة كأمة الصين واليابان والألمان والإنجليز. لا لا، إن آباءنا كانوا غافلين نائمين لم يدرسوا الحيوان ولم يدرسوا الأمم، فلا هم عرفوا كيف يؤلفون أممهم كالغربان والفيلة والنحل ولا كالألمان والإنجليز والصين واليابان. فهم إذن أقرب إلى طباع الصبيان والشيوخ الهرمين الذين يحافظون على أقل أنواع الحياة.

آراء فلاسفة المستقبل في أمم الإسلام

إلى هنا تقف آراء أهل العلم ورجال السياسة في الأمم الإسلامية المستقبلة. أما فلاسفتهم وحكماؤهم فيرمون لغايتين: إحداهما أبعد من الأخرى. الغاية الأولى: أن كل أمة من أمم الشرق تجمعها لغة أو دين أو وطن تحافظ على مجموعها، وهذه تضارع نظام أرقى الحشرات والطيور وذوات الأربع، وهكذا أرقى نوع الإنسان الآن. الغاية الثانية: التي هي أبعد مدى أن يجعلوا أهل الشرق كله أمة واحدة بحيث يكونون متعاونين بينهم اتحاداً أشبه بالممالك المتحدة في أمريكا الشمالية. وإنّما يرون ذلك لأنهم يقولون: إن الجماعة كلما كانت أكبر كانت أشرف، والشرف لا حدّ له، والأمم الحاضرة في الشرق والغرب لم يزيدوا جميعاً عن الحيوان شيئاً. فأي فرق بين جماعات اليابان والصين والألمان ونحوهم وبين جماعات النحل والغربان. فنحل الشرق لا اجتماع له مع نحل الغرب لصوره، وغربان الشرق لا صلة بينها وبين غربان الغرب.

لا لا ، هذه الأمم الحاضرة لم يترقوا عن الحيوان ولكن نحن أرقى وأرقى منهم ومن الحيوان معاً . ذلك لأننا أعطينا نعمتين : نعمة العقل ونعمة الدين . أما نعمة العقل فإنها هي الموهبة التي بها أدركنا أن آباءنا قصروا عن أعلى الحيوان وعن الأمم المحيطة بهم شرقاً وغرباً ، فنحن أعظم من أن نسير على منهج آبائنا الذين لم يجدوا من علمائهم من يوقظونهم ويخرجونهم من الظلمات إلى النور . من ظلمات الذل إلى نور الحرية . من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان . من ظلمات الاقتصار على نظام الأسرات والقبائل البدوية المتفرقة إلى نظام الأمم الكبيرة والجماعات العظيمة الوفيرة ، ونحن سمعنا الله يذم التقليد للرؤساء وللآباء إذا كانوا مخطئين إذ قال : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٧-٤٨] ، وسمعناه يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، فهذان البابان أقفلناهما ، فكل ما يضر بنا من آراء أبنائنا ورؤسائنا نرفضه ولا نقبله لأنه ينزلنا عن مصاف أرقى الحيوان وأرقى الإنسان في زماننا ، ولكننا نحافظ على كل شرف ورثناه من المتقدمين . وأما نعمة الدين فإنا سمعنا الله كما أنه قال لنا : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨] ؛ قال لنا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فهاهو ذا كتابنا المقدس في الآية الأولى جعل الإنسان أمماً كأمم الحيوان سواء بسواء ، والإنسان الذي نعيش معه قد وصل لهذه المرتبة ، وإن لم يصل لها آباؤنا المسلمون بعد العصور الأولى حين فرقت جموعهم وخضدت شوكتهم وملكتهم البطنة ومالوا للذة وشرهوا في المال ونسوا مجدهم القديم وعزهم الموروث لما غرّهم فتوح البلدان وحقت عليهم كلمة التفريق والهوان التي أشار لها حديث : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ . فإن ما خافه نبينا صلى الله عليه وسلم قد تم فعلاً وأيقنا به ووقعنا فيه تبعاً لآبائنا في نحو ألف سنة بعد العصور الأولى . وفي الآية الثانية أرانا علماً فوق علم أرقى الحيوان وأرقى الإنسان الحالي ، إن الإنسان في هذا العصر لم يرتق عن أرقى الحيوان كما قررناه . إذن إنسانيته ضعيفة حقيرة ، والقوى الإدراكية التي في أرضنا ثلاثة أنواع ، فهي : إما غرائز كغريزة الحشرات وغريزة الأطفال والشيوخ وسائر الحيوان ، وإما فكر وروية كما هو شأن نوع الإنسان ، وإما قوة ملكية قدسية تسمو على قوى الحيوان وقوى الإنسان .

فهذا الإنسان اليوم بفكره لم يصل إلى أرقى مما وصل له الحيوان ثم وقف ، فأين الفضل له إذن إذا كنا نجده لا يزال طفلاً في هذه الأرض بالنسبة لما ينتظر منه غداً . هاهو ذا يحارب بعضه بعضاً كما يحارب النمل ، ويتخذ الأسرى مثلها ويسخّر غيره لنفسه كتسخير النمل ، إذن هذا الإنسان اليوم جد جاهل ، فوالله لا فرق بين قبيلتين بدويتين في الصحراء تفتخر كل واحدة منهما بمجد آبائها الغافلين وبين أمتين في الشرق أو الغرب تمجد كل منهما السابقين فيها وتقتصر على ذلك . إن مفاخر الآباء محمدة لا مذمة وأتباعها شرف لا منقصة ، ولكن الاقتصار على ذلك والوقوف عند حدّه صغر في النفوس وحقارة في الإنسانية . فلتحافظ على شرف أسرتك الموروث وعلى فضل أمتك المعهود ، ولكن الوقوف عند

ذلك نقص ومذمة وعار. ثم يقولون: إن ذكاء الإنسان لم يرق به في النظام العام عن نظام أرقى الحيوان، فإنه يقبل موهبة أعلى أما الحيوان فلا. فغربان الغرب لا ينتظر منها أن تتصل بغربان الشرق ولا نمل الغرب بنمل الشرق لأنه لا مصلحة في ذلك. أما أمم الغرب وأمم الشرق فمن مصالحهم جميعاً أن يكونوا ممالك كالممالك المتحدة في أمريكا الشمالية.

هذا هو الحق الصراح. هنالك تكون هذه هي الإنسانية الحقة. ثم يقولون: علم الله أن عادات الإنسان وتقاليده تمنعه عن الارتقاء عن الحيوان، فاصطفى رجالاً قديماً وحديثاً حكماء تارة وأنبياء أخرى، فذكروا الناس بما قررناه الآن وقالوا لهم: أيها الناس أنتم ضالون ليخدم المجموع المجموع. وقامت في الأمم الغربية جماعات اشتراكية ومن بعدها البلشفية، وكل هؤلاء يحاولون الارتقاء عن هذه الأمم التي لم ترتق عن نوع الحيوان، ولكن هذه المحاولات لم نعرفها ولم ندرسها وليست منزلة بوحي، أما الوحي فهو الذي يؤثر في النفوس وهو الذي يكون نوراً تهتدي به العقول.

إن عقول الناس في الشرق والغرب مستعدة لقبول الفكرة ولكنها تحتاج إلى أمرين: أمر وحي جاء من قوة فوق العقل حتى تسوقه إلى هداه وإلى حكمة وعلم. أما الحكمة فهانحن أولاء درسنا العلوم التي عند الأمم المحيطة بنا من علوم الرياضة والطبيعة وغيرها، لا سيما بعد ما نشرت كتب تحث على العلم والحكمة كما في هذا التفسير. وأما أمر الوحي فإنا سمعنا قرآناً عجباً. سمعناه يقول: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهاهو ذا القرآن يقول لنا: إياكم والعصبية الناقصة بل اذكروا الله. ثم سمعناه يقول: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلم يذكر شرقياً ولا غربياً ولا عجمياً. وسمعنا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، وسمعناه يأمر بلالاً وهو غير عربي أن يؤذن في الكعبة، والعرب يسمعون ويعون ويرون القديم كله ينسخ مرة واحدة ويحل محله نظام جديد وهو نظام التقوى والكفاءة، إذن مستقبل الأمم سيكون هكذا كل أمة تعمل فيما استعدت له، وكل قوة من قوى النفوس لا بد من استخراجها، والله يقول: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. إذن جميع النفوس يجب توجيهها إلى الأعمال التي تناسبها فلا يكون في الأرض كسل ولا بطالة، ولا تبقى في الأرض أو الهواء أو الماء قوة يمكن استخراجها إلا وجب على الإنسان استخراجها، وهذا كله لا يتم إلا بأن جميع الأمم في المستقبل يراقب بعضها بعضاً بهيئة مشكلة من حكماء مصطفين منهم، ويحكمون على الأمم المقصرة في استخراج المواهب العقلية والمنافع المادية من الطبيعة، لأن الله يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، فإذا كان بنو آدم لا يستخرجون قوى نفوسهم ولا ما كمن في المادة فهم لا يزالون يلعبون، وقد خالفوا حكمة من أنعم عليهم بهذه الحياة، وتكون نتيجة ذلك أن يقول أبناؤنا في نهاية مباحثهم: لا بدّ لنا من أمرين: الأول: أن نجد في تعليم كل ذكر وكل أنثى في بلاد الإسلام العلوم والصناعات، هذا أصبح فرضاً لازماً، ويكون شعارنا: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٤]، و﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

ومتى أتممنا هذه الخطوة وهي قريبة المنال لا يعوزها متى صدقت العزيمة أكثر من عشرين سنة، نوجه

همّمنا إذ ذاك إلى نظام النوع الإنساني كله، ونتفاهم مع جميع الأمم ونضع معهم النظام العام لإصلاح الأمم كلها شرقاً وغرباً. هذا هو الذي جاء له دين الإسلام. وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾[النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٧]، وقوله: ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب: ٤٠]، لأنه إذا جعلت الأمم كلها نظاماً واحداً فأي حاجة إلى رسول؟ إن الرسول يأتي بوحي والوحي أرقى من الغريزة ومن العقل والفكر. والوحي يحرك العقول ويخرجها من قيودها، ومتى خرجت من قيود العادات وصلت إلى ما ذكرناه وكان السلام العام.

تذكرة

ولقد أومأ الحديث الشريف لهذا المعنى في رواية البخاري ومسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة فلا يجد أحداً يأخذها منه». وورد أيضاً: «تصدقوا فيوشك الرجل أن يمشي بصدقته فيقول الذي يعطاها: لو جئتنا بالأمس قبلتها منك فأما الآن فلا حاجة فيها، فلا يجد من يقبلها منه» رواه البخاري ومسلم والنسائي.

فيا ليت شعري هل ذلك هو الزمان الذي ستظهر فيه الأمم الإسلامية بالمظهر الذي ذكرناه بحيث يقومون بنظام هذه الدنيا مع عموم التعليم وحفظ الصحة ومعرفة قدر نعمة الحياة، ويكونون مع الأمم إذ ذاك في حال أحسن من هذه بحيث يقل الطمع ويعرف الناس ما المقصود من المال.

عجيبة من عجائب أخبار اليوم

أليس من العجائب النادرة أن أقرأ اليوم عن «البلاغ السماوي» في بمباي بالهند أن المسلمين في شمال البرازيل كانوا سنة ١٩٢٥ ثلاثة آلاف، وهم الآن أضعافهم نحو ١٧ مرة، أي ٥٠ ألفاً، وهم الآن يبنون جامعاً كبيراً، وأن الإسلام انتشر انتشاراً سريعاً في أمريكا وله مبشرون ما أكثرهم هناك.

وقرأت أيضاً أن المستر «ولز» الكاتب الإنجليزي الكبير كتب يقول: كل دين يسير مع المدنية فاضرب به عرض الحائط، لأنه يضر المستمسكين به، وأن الديانة الحقة هي الإسلام، فالقرآن كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي تاريخي حتى قيام الساعة. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»، وهذا هو الأساس القوي لعلم الصحة، ولم يستطع الأطباء أن يأتوا بخير من هذه النصيحة، وصاحب الشريعة الإسلامية استطاع في ربع قرن أن يقهر فارس والروم. انتهى.

وإنّما ذكرت هذا هنا لأبين أن الإسلام كما انتشر في أمريكا ومدحه بعض علماء أوروبا فربما كان ذلك مبدأ نهضة الأمم ورقي الإسلام، فيتعاون المسلمون في أوروبا والشرق على إصلاح الأمم كلها، وإذ ذاك بحسب ما كتبناه هنا ترتقي العقول والأخلاق والصحة التي يطلبها علماء العصر.

وهنالك لا يجد الناس من يأخذون الصدقة، وذلك لأنهم جميعاً يعملون، لأن الفكرة التي هنا تؤذن بأن الناس جميعاً يعملون والمادة تستخرج منها منافعها. فإذن يكون الناس جميعاً إخواناً يساعد بعضهم بعضاً كما في كتابي «أين الإنسان».

كل ذلك لمناسبة تقسيم الحيوان الذي أصبح درسنا في هذا المقال، ومن هذا الدرس شرحنا مواهبه، ومن مواهبه استخلصنا درجاته في العمل لنفسه ولذريته، وانتقلنا من هذا إلى أن الإنسان الحالي لم يرتق عن الحيوان، ثم زدنا عليه أن نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: المدار على التقوى لا على النسب. ومن هذا كله استخلصنا زبدة المقال المصطفاة منه كله، وهو استخراج جميع قوى العقول ومنافع المادة، وإذن يصبح الناس إخواناً في العمل والحياة بفضل الإسلام لا بفضل البلشفية والاشتراكية، لأن التعاون العام إذ جاء من طريق الدين عم انتشاره، وإذن يكون نشر الإسلام بالإقناع وبالعقل، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة، صباح يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨

في الأرض أشرق نوران: نور ظاهر ونور باطن، أشرقت الكواكب وأشرقت أرواحنا، بنور الكواكب ازدان الأفق، وبنور أرواحنا ازدانت قوانا الباطنة بالخيال والقوة المفكرة والذاكرة وأمثالها. في الجو الذي نراه حول أرضنا صور النجوم صورت مرصعة فيه، وفي نفوسنا نفس هذه الصور. نحن نتخيلها ونتخيل كل ما حولنا. كل ما رأيناه أو سمعناه أو لمسناه أو ذقناه نجد له صوراً في نفوسنا، إذن هناك عالم واسع نفوسنا كالعالم الذي نراه حولنا. النور المبصر والنور الذي لا يبصر كلاهما من السماء. لا نور حول الأرض إلا من السماء بالشمس والقمر والنجوم، فهكذا ما الأنوار في نفسي وفي خيالي وفي قوتي المفكرة إلا من السماء. أبصرت يا رب حولي صوراً جميلة في جوك وفي سمائك ولكن هذه الصور لم تظهر لي إلا بأنوار أشرقت من السماء لا من الأرض. هكذا أحسست في نفسي بصور تماثلها بنور آخر، إذن هو حقاً من السماء، وعلى ذلك تكون هذه النفس لها إشراف عام على هذه العوالم المحيطة بي، وإذا كنت أرى نور المشرقات مسيطراً على الأرض وأهلها فهكذا نور نفسي الذي هو من السماء مسيطر على هذه الأرض وما حولها بل على سائر الكائنات.

هذا مخبوء في نفسي أحس به من إبان صغري، وهو ملازم لها وقد ازدراه أكثر الناس. إن أكثر الناس يحقرون ويزدرون ما لم يتعبوا في تحصيله. فهم لا يعبؤون بما حولهم من هواء وماء وأنوار، ولا يعدونها نعمة، هكذا لا يعدون قواهم الباطنة نعمة ولا يحسون بأنها كرامة. إن الكرامة محصورة عند أكثر هذا الإنسان فيما منع عنهم. فشربة ماء وكسرة خبز أعطيا لهم بعد المنع أعظم نعمة يحمدون الله عليها وقنطار من ذهب لم يتبعوا في تحصيله يبذرونه تبذيراً، ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. والدليل على ذلك أن نفسي فيها آلاف الآلاف من الصور ولا قيمة لها عندي، ولكني إذا رأيت مصوراً صور عصفوراً أو شجرة أو إنساناً أعظمته جداً وأخذت أتفرج عليها بشغف عظيم. ذلك لأنها جاءت بكد ونصب وجاءت بعد منع فلها قيمة عندنا. فأما صوري المرسومة في نفسي فلا قيمة لها لأنها مبذولة لي ولجميع الناس. إن نفسي من عوالم غير عالم الأرض نزلت إليها لتدرسها ولتدرس نفس قواها. ودراسة العوالم المحيطة بي تعينني على درس قواي الباطنة التي هي المقصود الأعظم. إذن هذه الأرض لوح كتبه الله وأظهره، وقال: اقرأ وارق، فأنا أقرؤه اليوم ولكني ما كدت أشرع في القراءة حتى رأيت العقبات تحول بيني وبين نفسي، فمنها ما هي صحية، ومنها ما هي منزلية، ومنها ما هي سياسية تعم أمتي كلها، ولكني مع هذا كله أحس بأن نفسي ليست

من هنا بل هي من السماء . ونور السماء الظاهر الذي جاء لنا من الشمس إذا حجبه سحاب ساعة فإنه يضيء بعدها . إذن روحي لا حدّ لرقيها ولا مانع لإسعادها ولا نهاية لإشراقها . وإذا كانت الشمس وهي النور الحسي لا حدّ لأنوارها فكيف تقف أنوار نفسي؟ إذن فلأبحث في قواها ولأستعد لإسعادها ولأعلم علماً ليس بالظن أني واصل إلى ما أريد . أما العقبات التي تقوم بين نفسي وبين مطلوبها فأنا لا أبالي بها . وأهم العقبات ما جاء من طريق الوراثة والتقليد ، ورثت بعض آبائي الأولين وبعض الأشياخ الغابرين أن الأعمال الدنيوية لا تقرب العبد من ربه ، وأن أكثر من رأيتهم في بلاد الإسلام لا يتقربون إلى الله إلا بالذكر وحده أو بقراءة الأوراد . ورأيت شيوخاً في كل قطر من أقطار الإسلام يوجبون على تلاميذهم أن يقرؤوا أوراداً في أوقات خاصة وأكثرهم شغلوا عن معاني القرآن . أنا لا أذم الأوراد فهي تشغل الشرير عن الشر ، ولكن الروح أوسع من هذا . إن حصر الفكر باب من أبواب الجهل . إن روحي لا حدّ لها فكيف تقف عاكفة على ورد خاص قانعة بالجهل منتظرة أن يفتح لها العلم بالعوالم جميعها من غير تعلم . الإسلام أوسع من ذلك فاقرأ هذا المقام في سورة « الكهف » ففيها بيان ما يقوله الشيخ الخواص والشيخ الدباغ في قيمة الأوراد وحصر التلميذ فيها ، وكذلك في سورة « الإسراء » فهناك ترى هذا المقام مشروحاً شرحاً مستفيضاً فلا نعيده هنا . وعلى ذلك أنا لا أقف عند حد في النظر والفكر ، ولا أحصر فكري في عالم واحد ، بل أطلق نفسي لتعرف العوالم كلها ، ولكن نفسي وحدها لا تستطيع أن تعرف كل شيء ، ولا أن تعمل كل شيء . فالعلوم لا حدّ لها ، والأعمال الدنيوية كثيرة ، فماذا أصنع إذن؟ هنالك ظهر لي أن هنا في الأرض معي نفوساً أخرى ، فنفسي ونفوسهم أشبه بجسم واحد . والدليل على ذلك أن كل علم من العلوم أكتبه في هذا التفسير ظهرت مساعدة الناس لي فيه ، فأنا أستمد من الشرقي والغربي وأصطفي من علوم الشرقيين وعلوم الغربيين ما أراه جميلاً وأكتبه . هنالك تبين لي أن هذه الروح المرسلة من السماء التي أمدها الله بنوره لا يتم لها هذا النور إلا باتحادها مع الأرواح المرسلة معها إلى الأرض . وإذن عرفت لماذا دعا الأنبياء أممهم إلى العلم وهكذا العلماء والحكماء فإني رأيت كل عالم وكل حكيم وكل نبي مغرمين بتعليم غيرهم ، لأنهم يعلمون أن النوع البشري أشبه بجسم واحد شاؤوا أم أبوا ، بدليل أن الدولة القوية تغتصب حقوق الضعيفة وتحاربها ، ولكن العلماء في الأمتين ينقل بعضهم عن بعض ، فالتعاون طبيعة في الإنسان وليس يمنع هذا التعاون إلا نقائص وجهل يورث طمعاً واغتيالاً لحقوق الضعفاء .

ملخص هذا كله أن الأعمال والعلوم لا بد فيها من اتحاد المجموع وتعاونهم ، وأن اقتصار الشيوخ على تلقين المسلمين أوراداً خاصة وحجبهم عن العلم وعن الأعمال العامة خسران مبين . الأرض التي نسكنها قد خبئت فيها المعادن . خبأها الله عنهم فلم يعطها إلا لمن بحث عنها ، والإنسان عاش على الأرض كما يقال ثلاثمائة ألف سنة ولم نره أخرج من الأرض للناس نعمة إلا بعد بحثهم عنها وذلك ليعرفوا قيمتها . فالذهب والنحاس والحديد والكهرباء والمغناطيس عرفها الناس بعد الدأب على استخراجها ، ولذلك لم يتركوا استعمالها مع أن أكثر العمر الذي عاشه هذا الإنسان على سطح الأرض لم يستعمل إلا الحجري ، فالعصر الحجري هو الأصل ، أما عصور المعادن وما بعدها من الكهرباء والمغناطيس فهي قليلة . ذلك لأنه لا يريد أن يعطيهم إلا بجدهم ليعرفوا قيمة ما يعطيهم ، لأن

ما أعطوه من غير نصب لا يشكرون عليه، كهذه الروح وقواها الجميلة التي هي أعظم من هذا العالم المادي، فهم لا يهتمون إلا بما نصبوا في تحصيله.

القرآن والعالم المادي

وهنا نظرت في أمر القرآن وفي عالم المادة كأرضنا هذه، وقلت: إن الأرض صنع الله وهكذا كل عالم المادة، والقرآن كلام الله، والمسلمون الذين نزل القرآن لهم قد ناموا حقيقياً، والأمم استيقظت الآن، فهل خبأ الله لهم في القرآن ما يثير عزائمهم بحيث لا تقوم قائمتهم إلا إذا استخرجوه، كما خبأ في الأرض المعادن ولم يعطها للناس عموماً إلا بعد استخراجها. وإذا علمنا أن القرآن والمادة من عند الله فليكن في الكلام من الحكم المخبوءة مثل ما في المادة بل أعظم، فلنبحث عنها الآن كما بحث الإنسان قديماً في الأرض فاستخرج المعادن فماذا نرى؟ رأينا الله عز وجل لما أنزل القرآن ومضى له ١٣ قرناً نظر أكثر المسلمين للقرآن نظرة ضئيلة، فهم قالوا: إن القرآن جاء للأحكام الشرعية، والأحكام الشرعية قام بها الأئمة المجتهدون، ولا مجتهد بعدهم، بل الذين عندهم مجتهدون كالشيعة، يكون المجتهد هناك مراعياً عادات الأمة لئلا ينبذوه.

وعليه أصبح القرآن يقرأ لمجرد التبرك والعبادة والإعظام. أما الاقتباس منه فلا، والمقتبس إنّما يتبع صاحب مذهبه فيما يقتبسه لا غير، وتلاميذ الصوفية يتبعون شيوخهم في بعض الآيات التي يسمعونها من شيوخهم، مثل أن يقولوا لهم: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنعام: ٩١]، ويفهمونهم أن يذكروا الله ويتركوا ما عدا الذكر، ومثل أن يقولوا لهم: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[النجم: ٥٨]، ويرجعونها للذكر وحده، والله لم يقل ذلك وإنّما يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[آل عمران: ١٩١]، فهو سبحانه جعل الذكر مقدمة للفكر، ولكن الجهلاء من هذه الطائفة وغيرها وقفت عقولهم عند آراء شيوخهم وأكثرهم جاهلون.

في القرآن قصص وفي القرآن مواعظ وفي القرآن حكم. فلأذكر الآن ما فتح الله به الليلة حتى إذا قرأه العقلاء أيقنوا إيقاناً تاماً أن الله لما أنزل القرآن فعل فيه ما فعله في العوالم المادية، لأن المادة منه والوحي منه، فهو خبأ في مادته معادن فبرزت فانتفع بها الناس قبل أن ينزل القرآن، وخبأ في القرآن حكماً وسينتفع بها المسلمون بعد انتشارها في أمثال هذا التفسير. فاعلم أن أعمال الإنسان في هذه الدنيا أربعة: زراعة وتجارة وصناعة وإمارة. هذا هو النظام المدني وبه يكون نظام الأمة كلها. وإذن روحي باتحادها في هذه الأعمال مع الأرواح الأخرى ترقى معهم ما دمنا في هذه الأرض، فإذا فارقناها طرنا معاً إلى عوالم أخرى لا ندري ماذا نفعل فيها. نرى الله في سورة «النمل» أسمع سليمان عليه السلام النملة، فلما سمعها ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾[النمل: ١٩].

جلّ الله وجلّ العلم وجلّت الحكمة. إذن أنت يا الله أسمعتنا هذه القصة لمقصد أشرف ومقام أعلى مما يفهمه الجهال في أمة الإسلام الحالية. إذن هذه القصص ما تليت في القرآن لمجرد البركة أو العبادة. هذا رأي خطأ.

يا الله أدركنا أن هذه القصص لأمر أعلى . غاية الأمر أن بعض أفراد الأمم الإسلامية تنظر إليها نظر الديك إلى الجوهرة ، فإن الديك يطلب الحب ولا يطلب الجوهرة . ولا جرم أن هذه الآية يراد بها العلم والمعرفة والحكمة . سليمان يقول : إن سماع كلام النملة أوجب عليّ الشكر ، بل قال في مسألة العرش واستقراره عنده : إنه من الله ، لأن العلوم إذا أعطيها الإنسان ولم يفهم قيمتها دلّ ذلك على حقارة قدره وأنه ليس أهلاً لها ، فيسلبها كما سلب الله الملك ممن ليسوا أهلاً له والمال ممن ليسوا أهلاً له . هكذا سمع سليمان كلام النملة فعرف قيمة هذا السماع ، فإن هذا إدراك للحقائق ، وإدراك الحقائق أعلى ما في هذا العالم ، وطلب من ربه أن يلهمه الشكر ، وشكر النعم لا يتم إلا بمعرفتها أولاً ثم قبولها والعمل لها ثانياً ، كما استخرج الناس المعادن وعرفوا قيمتها واستعملوها .

قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد

ولما أرسل الهدهد إلى بلقيس ثم جاءت وجاء عرشها ورآه مستقراً عنده ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] ، فمسألة الهدهد انتهت بالفوز السياسي كما أن مسألة النملة كانت فوزاً علمياً . إذن النملة والهدهد مع سليمان انتهيا بفوز علمي وفوز سياسي أوجبا الشكر ، وذلك بمعرفة أن هذه نعمة ، وجهل النعمة يوجب عدم قبولها وعدم العمل بها وإلا سلبها الله تعالى ، ولذلك لما خطرت لي هذه المعاني كتبتها اليوم خيفة أن تسلب مني إذا تركتها ، لأنها أعطيت لي الليلة ، وهذا من الله ليبتليني أأشكرها بالكتابة والنشر أم أكفرها فلا أعيرها التفاتاً ؟ كما أني إبان صغري لم أعر هذه النفس وقواها التفاتاً ولم أشكر نعمتها بالبحث عنها ولم أشكر على نعم الأنوار والجمال في العالم المحيط بي .

إن سورة « النمل » متصلة بـ « سبأ » اتصالاً علمياً لا قرآنياً لأنهما غير متجاورتين في الترتيب . وذلك لأن مسألة الهدهد متعلقة بأمر الملكة بلقيس وهي من سبأ ، والهدهد يقول : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ٢٢] . إذن نظرنا في سورة « سبأ » فرأينا الله يذكر أن الشياطين ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ١٣] لسليمان ﴿ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ : ١٣] ، ثم ختم القول بهذه الآية : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، ثم ذكر بعد ذلك أمة سبأ وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [سبأ : ١٥] ، وأعقبه بقوله : ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] . فهاهنا ذكر الشكر في موضعين : في موضع أبان فيه الصناعة وإتقانها ، وموضع أبان فيه الزراعة في الجنتين اللتين كانتا لسبأ وسيأتي بيانهما هناك . إذن شكر الله عز وجل جاء في القرآن مقروناً بالعلم وبالسياسة في سورة « النمل » ، وبالصناعة والزراعة في سورة « سبأ » .

الله أكبر . جل الله وجل العلم . أيها المسلمون هاهي ذه أعمال الناس في الدنيا والآخرة لا تخرج عن هذه الأربع : العلم والزراعة والصناعة والإمارة ، والله قد ابتلانا بالأمور السياسية وبالأمور العلمية وبالأمور الصناعية وبالأمور الزراعية . ولقد قدمت ذكر التجارة ولم يذكرها لأن التجارة ما هي إلا تقليب المال لأجل الربح ، ولكن أصول الصناعة وأصول الزراعة هما اللذان بهما حياة الأمم .

أيها المسلمون، هل من سميع. هذه بعض المعادن التي خبأها الله في القرآن وأذن باستخراجها اليوم وأرانا أن نفوسنا نفوس سماوية قد جاءت إلى الأرض ولن تستطيع العروج منفردة، فلا بدّ من تعاونها مع الأمة التي تكون فيها، والأمم كلها متعاونات، وبهذا التعاون يقتسمون العلوم والزراعة والصناعة والإمارة، وهذه هي التي بها الحياة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

أيها المسلمون، تبسم سليمان ضاحكاً لما سمع كلام النملة، وطلب من الله أن يلهمه شكر هذه النعمة، وإنّما طلب من الله لعلمه أن النوع الإنساني محجوب بالعادات يحتقر ما يصل إليه، ومتى احتقره جهله، ومتى جهل أصبح أدنى من الحيوان، وعلم النملة وعلوم الحيوان كلها مزدراة عند الأمم الإسلامية المتأخرة التي نزل لها القرآن، فأسمعهم دعاء نبي عظيم يطلب من ربه أن يلهمه شكر نعمة معرفة خطاب النملة. وبعبارة أصرح: إن أكثر هذا الإنسان جاهل لا يهمه أمر هذه الحيوانات ولا يدرسها، وليس يعرف الإنسان قيمة هذه العجائب إلا إذا ألهمه الله، وقد ألهم الله اليوم كثيراً من المسلمين أن يتعلموا هذه العلوم، فإذا جاء لهم أيضاً من طريق القرآن لا سيما من قصة سليمان وسبأ كان ذلك أقوى وأوسع مدى.

استقر عند سليمان عرش بلقيس فلم يفرح بالنعمة ويبطر، بل قال: هذا امتحان من الله، فإن عرفت النعمة وحافظت عليها كنت شاكراً، ومن لم يفعل ذلك فقد كفرها. وسبأ أعطوا سد العرم وأعطوا جنتين هناك فماذا فعلوا؟ تركوا السد فلم يحافظوا عليه، ولم يدرسوا العلوم التي درسها آباؤهم، ولم يتحدوا للمحافظة على هذه النعمة، فسلبها الله منهم وقال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾[سبأ: ١٩].

هذا بعض السر في قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، وقد اتصل بآية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥] الخ من وجهين: وجه أمر الروح التي هي نور من الله، ووجه الطيور والدواب التي تشمل هدهد سليمان والنملة التي سمعها وتبسم ضاحكاً والهدهد متصل بسبأ، وفي هذه جماع نظام الأمم.

أيها المسلمون، في هذا المقال مجامع العلم في الأمم التي حولنا، ففيه الصناعات والعلوم والسياسة، فكل من نظم سياسة أمته وإمارتها فهو قائم بشكر الله، وكل من رقى صناعتها فهو قائم بشكر الله، وكل من نشر العلوم فهو قائم بشكر الله، وكل من رقى زراعتها فهو قائم بشكر الله. هذه هي بعض كنوز القرآن. خبأها الله لكم وأبرزها الآن لما استعددتم لقيادة أهل الأرض بعد نوم آبائنا نحو ٨٠٠ سنة. فهاهو ذا اليوم الموعود لإسعاد أمم الإسلام وإخراجهم من سجون الجهالة التي حبسهم فيها شيوخ غافلون ومنعوهم من التفكر في القرآن ومن التفكر في الأمم المحيطة بنا، وفي الأرض التي سخرها الله لهم. فهانحن أولاء الآن عرفنا أن مقومات الممالك من زراعة وصناعة وسياسة وعلم؛ كل هذه تركها كفر للنعمة وإقامتها شكراً لها، والله يقول: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر: ٧]، ويقول: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة: ١٥٢]. ويقول علماء الأصول: شكر المنعم واجب. فالشكر بأنواعه المتقدمة واجب على المسلمين، وإن لم يشكروا حلّ بهم ما ذكره الله في نفس قصة بلقيس مع سليمان التي جر إليها ذكر الهدهد الذي هو من الطيور المسبحات المصليات في هذه الآيات

في سورة « النور » إذ يقول الله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[النمل : ٣٤] . إذن ذل بعض الممالك الإسلامية اليوم إنّما جاء من جهلهم بشكر النعم ، وأجل النعم هي ممالكنا التي سلمها الله لنا كما سلم العرش لسليمان فلما رآه مستقراً عنده قال : إن هذا ابتلاء من الله لي وامتحان ، هكذا نحن بإعطاء الملك لنا ممتحنون فإن قومناه بما يلزمه من صناعة ـ أشار لها بالصرح الممرد من قوارير ، وبصناعة المحاريب والتماثيل ، وبزراعة أشار لها بالجنتين في قصة سبأ ، وبسياسة تحفظ البلاد وبعلم أشار لهما لما تبسم ضاحكاً بقوله : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[النمل : ١٩] إلخ ؛ أبقاه لنا ، وإن أهملناه وتركنا مقوماته أدخل الملوك والأجانب فاستولوا على عروشنا وأفسدوا بلادنا ، ﴿ وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[النمل : ٣٤] . وأنا واثق أن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس إذ أقبل زمن نصر الله والفتح ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم في هذا المقال

في يوم الجمعة ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٨

أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والحكمة ، وأحمدك على الإلهام وعلى ما شرحت به صدري وما أفضته من نورك للأمم الإسلامية التي يعوزها الصدق في القول والجد في العمل . لقد ذكرت في المقال السابق أن الشكر في الإسلام يرجع إلى جميع الأعمال في هذه الحياة وإلى جميع العلوم ، وأقول الآن إنه من أعجب العجب أن المسلم في كل صباح يخاطب ربه ويناجيه ويدعوه بنفس ما كتبته فيما تقدم . يناجي المسلمون ربهم في صلواتهم بهذه العلوم التي أكتبها في هذا التفسير . نعم يخاطبون الله العظيم ولكن أكثر الناس يخاطبون ولا يعلمون بماذا يخاطبون . نعم أنا الآن في تفسير سورة « النور » وهي الآن مقدمة للطبع ، وطال المقال في آية : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور : ٣٥] الخ ، وطال في مسألة تقسيم الطير إلى ماش على رجلين وعلى أربع وعلى بطنه . نعم هو طال ولكن الحمد لله لم أخرج عن الموضوع كثيراً لأن المقصد هو الهداية . وبهذا التقسيم أي تقسيم الحيوان على منهج القرآن وصلنا إلى كل ما يمشي وكل ما يطير وكل ما يدب ، وانتهى بنا المقال إلى الهدهد والنمل وأمرهما مع سليمان عليه السلام . فنحن على حق إذا بحثنا في هذه الحادثة لأن النمل يمشي على الأرجل والهدهد يمشي على رجلين ولهما حادثة تاريخية مع نبي عظيم له ملك لا ينبغي لأحد من بعده . نحن مهما طال بنا المقال لم نخرج عن نمط القرآن . لم نخرج عنه كما لم يخرج أصحاب المعلقات بوصفهم الناقة ـ التي تحملهم إلى محبوباتهم من النساء ـ بأوصاف ربما تصل إلى ٢٩ بيتاً في بعض القصائد . هذا أسلوب العرب والقرآن كتاب عربي . فنحن إذا بحثنا في حادثة الهدهد مع سليمان عليه السلام لسنا خارجين عن سنن النظام والقرآن ، لا سيما بعد ما سمعناه صلى الله عليه وسلم يقول : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » ، فالقرآن كله جوامع كلهم ومختصر ، وهكذا الأحاديث الصحيحة ، وقد سمعنا الله يقول : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة : ١٩] ، وسمعناه يقول : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل : ٩٣] . فالآن أشرع في شرح ما فتح الله به في هاتين الليلتين . ذلك أن المسلم يقول في صباح كل يوم : « اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت » ، فهو ليس مهدياً وحده ولا معافى وحده بل مع غيره ، ثم يختم الدعاء بقوله : « ولك الشكر على ما أنعمت به

وأوليت »، فما هذا الشكر؟ أليس هذا هو المذكور في علم الأصول: « إن شكر النعم واجب »، أليس هو الشكر المذكور في قصة سليمان الذي ذكرته في المقال السابق؟ سبحانك اللهم يا الله أنت القائل: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود: ١١٦-١١٧].

أنت يا الله قد ضمنت بقاء الأمة ما دامت مصلحة. فيا ليت شعري ما هو الإصلاح؟ الإصلاح يرجع إلى ما تقدم من نظام الأمة الذي اشتملت عليه قصة سليمان مع بلقيس، وقصة سبأ، والمحافظة على العروش أن تزول، وعلى العلم وعلى الصناعة وعلى أمر الزراعة، ومن لم يحفظ هذه النعم كأهل سبأ جعلهم حديثاً ومزقهم كل ممزق.

الله أعطى آل داود صناعاً يعملون لهم ما يشاؤون من محاريب الخ، فقال لهم: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾[سبأ: ١٣]، وسليمان شكر الله على نعمة العلم إذ سمع كلام النملة، وعلى نعمة الملك في حديث الهدهد، وأهل سبأ مزقوا لأنهم لم يشكروا نعمة الجنتين وذلك بعدم المحافظة عليهما. جمع الله ذلك كله في قول المصلي صباحاً كل يوم: « فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت »، وأنا أقول: أيتها الأمم الإسلامية، هلا كان من القرون المتأخرة من قبل عصرنا من شرحوا للخاصة والعامة معنى هذا الشكر الذي يقول المصلي كل يوم وهو يناجي ربه؟ لماذا أيها العلماء لم تشرحوا للناس معنى الشكر كما شرحه الله في سورة « سبأ » وفي سورة « النمل ».

نعم بعض القائمين بأمر الأمم الإسلامية مترفون فكأنهم اتبعوا ما أترفوا فيه، وهذه الآية التي جاءت في « يونس » خاطب الله بها المسلمين يريد بها توجيه الهمم إلى النهي عن الظلم الذي يقوم في أمتنا بتوجيه الذم إلى الأمم السابقة. يقول: لماذا لم يقم فيها هادون علماء حكماء ينهون عن الفساد في الأرض؟ ثم وبّخ تلك الأمم قائلاً: إن الظالمين في تلك الأمم مترفون واتبعوا الترف وتركوا النصيحة والتعليم.

الله قرن الظلم بالترف والمترفون ظالمون. إن التنعم وحب الراحة هو الذي أضر بأمتنا الإسلامية كما أضر الأمم السابقة، وأنا أقول الآن: ألا فليقم في الأمم الإسلامية من يقولون لهذا المجموع الإسلامي: أيها المسلمون الشكر الذي تكررونه كل صباح وكل مساء هو القيام بحفظ النعم التي أنعم الله بها عليكم جميعاً، وهي نعمة الأرض التي تسكنونها والممالك التي سلمت لكم، فلا تعطلوا نعم المزارع والأنهار بترفكم وتنعمكم وإهمالكم وجهلكم بالعلوم والصناعات التي تحفظ تلك الأرض، بل تعلموا كل علم وكل صناعة حتى تصير بلادكم كبلاد الأمم التي تعيش معكم رقياً وإلا فأنتم ظالمون مترفون، والله يعطي أرضكم لمن هم أقدر منكم على نفع عباده بها. وأيضاً هو القيام بأمر الصناعة التي لا تتم حياة إلا بها أمر آل داود أن يشكروا الله عليها. وأيضاً هو القيام بأمر الصناعة التي لا تتم حياة إلا بها. وأمر آل داود أن يشكروا الله عليها. وأيضاً هو القيام بأمر الدولة التي منحكم الله إياها وعرش الملك الذي سلمت إليكم مقاليده، والله ما سلمكم هذه الممالك إلا اختباراً لكم فحسب، فإن قمتم به حق القيام أبقاه، وإن أنتم قصرتم في نظامه أخذه منكم وسلمه لغيركم، وإذا كان سليمان

الذي أعطي ملكاً لم يعطه الله لأحد بعده وقد وعده الله بذلك يقول: أنا مبتلى والله يختبرني أأشكر أم أكفر، فمن هو المسلم الذي ليس بنبي هو مختبر من باب أولى. لهذا أنزل القرآن ولهذا أنزلت أمثال هذه الآيات، بل ما نذكره الآن من أعجب ما جاء به القرآن. يقول سليمان الذي هو نبي وهو موعود من الله بالملك وأن هذا الملك لا يعطاه أحد بعده: إنني مبتلى هل أشكر نعمة الملك بالمحافظة عليه أم لا؟.

فأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي

فإذا كان الأنبياء يخافون وهم أنبياء فما بالك بالمسلم المسكين. من هذا تعلم السر في قول المسلمين: يا رب نحن مسلمون وموحدون، ولماذا أخذت ممالكنا وأعطيتها لغيرنا في بلادنا؟ فيقال لهم: لأنكم غير شاكرين، ولو كنتم تفهمون ألفاظ الصلاة ما ضاعت ممالككم. أظننتم أن قول المصلي: «ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت» أمر بسيط وذلك أن تنطق بها وكفى. الله لا يقبل إلا طيباً. وإلا فما معنى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، أليست الصلاة مذكرة؟ أليس الشكر المذكور في دعاء الصبح هو الذي يقوله علماء الأصول وهو الذي جاء في قصة سليمان وقصة سبأ؟ وكله راجع لحفظ الدولة كلها زراعة وصناعة وإمارة إلى آخر ما تقدم. هذا بعض معنى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، فما الفحشاء والمنكر خاصين بالذنوب الفردية. إن الذنوب العامة بترك المنافع العامة أعظم جرماً. وتجد الله يقول في سورة «هود» يعبر بلفظ ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الآية: ١١٦] كما عبر في الصلاة بلفظ ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾[العنكبوت: ٤٥] الخ.

إن الصلاة ذكر فيها الحمد. والشكر والحمد لا يكونان إلا بالقيام بحق النعمة، والقيام بحق النعمة يوجب حفظها فلا يترك الإنسان مواهبه ولا النعم العامة، وهذا كله واضح في قول المصلي: «اللهم اهدني فيمن هديت»، وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٦-٧] لا صراطي وحدي، وفي قوله: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، إنه لا سلام في بلاد الإسلام أو في أي بلاد أخرى إذا أهمل رقيها بالعلوم والصناعات، لأننا قد أوضحنا في كتاب «أين الإنسان» أن الأرض يجب أن تستخرج منها جميع ما يمكن من النعم ومن مواهب عقول بني آدم. فالأمة التي تهمل من أمم الإسلام تتحد الأمم التي حولها على اقتسام أرضها. ذلك أمر لا مفر منه. فكيف يكون فيها سلام ولا سلام إلا بمحافظة الأمم الإسلامية على أن تكون بلادهم مساوية لمن حولهم في الرقي. فمتى انحطت عنهم جاء غيرهم وأخذ أرضهم.

فإذن لا يسر النبي صلى الله عليه وسلم من أمة الإسلام ولا يسر الصالحون. فقول المسلم في الصلاة: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» يلزمه حفظ بلاده ورقيها، فإن لم يتم ذلك وتركت وضعفت عما جاورها من الأمم فلا سلام علينا ولا على عباد الله الصالحين، وكيف يتم السلام إلا للشاكرين الذين حافظوا على تلك النعم الجسمية والعقلية والدولية والمدنية؟ حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يتألم في البرزخ لأجل أمته، فكيف نخاطبه بالسلام عليه وأعمالنا ترفع له ناقصة لا شكر فيها بالمعنى الذي ذكرناه.

إن المسلم يستعيذ في الصلاة من فتنة المحيا، وأي فتنة أعظم من فتنة الجهل التي أوقعت المسلمين في الذل، وكيف يستعيذ من فتنة المسيح الدجال وقد أحاط الدجل في السياسة وفي الدين بنا. وكيف يقرأ المسلم في القرآن: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: ٧٤]، وهو عينه مستعد للإمامة مع جهله ما تقدم من أنواع الشكر ونظام الدولة.

سبحانك اللهم وبحمدك. أنت الذي علمت وأرشدت وأوليتنا نعماً لا تحصى، فألهمنا اللهم شكرها حتى نقوم بما يجب علينا، ولا تجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[إبراهيم: ٤٤،٤٥].

اللهم إنا نحن معاشر المؤمنين اليوم سكنا في مساكن أمم قبلنا فيجب علينا أن نتبين ما فعلت بهم، ولا يكون ذلك إلا بالعلم. فكل قطر من أقطار الإسلام اليوم حل المسلمون فيه محل أمم سبقت وهذه الأمم لن تسقط إلا بالظلم والظلم مقرون بالترف كما في آية «هود». والترف والتنعم مورثان ترك العلوم والصناعات ونظام الدول. اللهم ألهمنا الصواب، وأرشد هذه الأمم أن تدرس نظم الأمم السابقة عليها، بحيث يعقلون ما وصلوا إليه من الرفعة، ثم ما حصل لهم من الترف فظلموا أنفسهم فهلكوا، وبناء على ذلك يعتبرون، والسعيد من وعظ بغيره.

اللهم إن الشكر لك المذكور في الصلاة وكذلك الحمد موجبان حفظ جميع النعم التي أشارت لها قصة الهدهد مع سليمان وقصة سبأ، وهذا الشكر لك أنت، والمسلم إذا عرف ذلك وجه قصده لله وحده، وعلى المسلمين جميعاً أن يعلم ذلك حكماؤهم، وبعبارة أوضح وأصرح: يجب على العلماء بعدنا أن يقولوا لشعوبهم الإسلامية: إن الهندسة والحساب والفلك والطبيعة وعلم طبقات الأرض ونظام الترع والجسور، كل ذلك دين إسلامي عليه ثواب، وتركه يوجب غضب الله على الناس في الدنيا والآخرة، وإن قصص الأنبياء موجهة لهذا المقصد وحده، وإن غضب الله على الناس في الدنيا بسبب التقصير في هذا، والله هو الذي يتوجه إليه المسلمون بهذا كله، كما أن صلاة الوتر ١١ ركعة وختامها ركعة واحدة إشارة إلى أن جميع الأعمال ترجع إلى واحد وهو الله.

إذا عرف المسلمون ذلك وشاعت فيهم هذه الآراء لم يقعوا فيما وقعوا فيه في القرون الأخيرة. ذلك أن أمراءهم إذا كانوا صالحين تراهم في ناحية والشعب كله في ناحية. فالأمراء الصالحون يعلمون مصالح الدولة، وصغار العلماء يجهلون ما قلناه الآن، فيفهمون الشعب أن هؤلاء ظلمة فجار وأنهم هم والصوفية والذين ينقطعون للصلاة والقراءة هم الصالحون وحدهم. بهذا وحده انحطت أمة الإسلام في القرون الأخيرة، إذ أصبح الشعب في ناحية والأمراء في ناحية، بهذا وحده ضاعت هذه الأمة.

لقد ذكرت لك أيها الذكي في سورة «الحجر» أن أمان الله خان ملك الأفغان قد كان في مصر وأنه سافر إلى الأقطار الأخرى، وأنا قلت لك هناك ما ملخصه عند آية: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[الحجر: ٧٥] أنه يريد الإصلاح، وأن علماء الدين ربما يقاومون إصلاحه، وذكرت النسبة بين ضعف أمم الإسلام ورقي أمم أوروبا، وأن علماء الدين إذا قاوموه تأخرت الأمة.

ألا تعجب معي أني أنا الآن في تفسير سورة «النور» وبين طبع السورتين حوالي سنة. فانظر ماذا جرى؟ رجع إلى بلاده بعد أن طاف أقطار العالم، وعرف أن الترك قد قتل فيها بعض العلماء لأنهم يقفون في طريق الإصلاح. فانظر ماذا جرى. وقف العلماء في طريق الإصلاح الذي رآه «أمان الله خان» فقتل منهم طائفة، مثل ما حصل ببلاد الترك سواء بسواء، فأشاعت الجرائد في العالم والتلغرافات «البرق» أنه أتى بأشياء خلاف الدين، وفي هذه الأيام بل في هذا اليوم نفسه أشاعوا أن الثورة قد طغت في بلاده وعمّت، وأنهم قد طلبوا منه أن يتنازل عن العرش. وهاهي ذه الجرائد أمامي وفيها ما نصه:

يبعث الموقف الحالي في أفغانستان على القلق في الدوائر العلمية في لندن. وآخر الأنباء الواردة من كابل مؤرخة بتاريخ مساء السبت، وفي ذلك الحين وصل الثائرون إلى ضواحي العاصمة واحتلوا موقعين، وأذيع حينئذ أن الملك أمان الله والملكة ثريا سالمان في قصرهما الخ.

ثم جاء نبأ آخر مقتضاه أن العصاة قاتلتهم الحكومة ففازت عليهم، فأسر فريق منهم وقتل آخر. هذا ما جاء يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٨، وأنا أكتب هذا يوم ٢١ ديسمبر، أي بعد ٣ أيام من وصول هذه الأخبار.

أفلا تنظر إلى ما ذكرت لك في سورة «الحجر» وما توقعته، إذن ظهر لك صدق قولي أن تعاليم الأمم الإسلامية محرفة خاطئة، وأن هذه الطرق يجب تغييرها حالاً.

اللهم إني أحمدك إذ وفقتني لهذا التفسير. يا الله هذا ما في طاقتي. إني ألفت هذا التفسير بإعانتك، وهو يساعد المصلحين في الأمم الإسلامية على رقيها. فأما القتال والحرب والضرب في هذه الأمم الجاهلة وقتل صغار العلماء فهو لا يفيد بل يضر ضرراً بليغاً. فعلى من يطلعون على هذا التفسير أن يسرعوا بتربية ناشئة جديدة على هذا المشرب، فأولئك يكون عامتهم وعلماؤهم وملوكهم على مشرب واحد، وحينئذ يرجعون لعصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

إن هذه الأيام مبدأ لنهضة تقوم بها الأمم الإسلامية. فليخلع المسلمون ذلك الخلق وليلبسوا ملابس جديدة، وهل أتاك نبأ ما ذكرته الجرائد في هذه الأيام أيضاً؟ فإنه بينما تأتي بأخبار ثورة الأمة الأفغانية وقيامها على ملكها لأجل الإصلاح؛ نجد جرائدنا المصرية تذكر تاريخ مصر منذ مائة سنة أيام محمد علي باشا بمناسبة وضع الحجر الأساسي لمدرسة الطب بالجزيرة لمدرسة قصر العيني، لأنهم أزمعوا أن يوسعوها، ولهذه المناسبة ذكروا الطب إذ ذاك، وكيف قام العلماء واعترضوا على محمد علي باشا، لأنه أجاز للأطباء أن يكشفوا على المرضى بالطاعون، وأن يكون للبلاد محجر صحي كما تفعل الأمم كلها، وكما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد روى له أبو عبيدة الحديث الدال على ذلك، وقد تقدم ذلك الحديث في سورة «الحج» عند آية: ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾[الآية: ٣٦] الخ. فأجابهم محمد علي باشا بأن الأمم الإسلامية عملت هذا الحجر الصحي فقل الموت بالطاعون عندهم، ومن رفع صورته بعد ذلك غربته عن البلاد.

فانظر لأمم الإسلام كيف يتبع السابقون اللاحقين يقرؤون قليلاً من الدين ويعترضون على ما لم يعلموه من نفس الدين. فالحجر الصحي في حديث عمر وفي الإسلام وعند الأمم كلها والعالم علماً ناقصاً ينكره، ثم الرجل الذي لا يعرف الدين وهو محمد علي يأتي لهم بالحقيقة الموافقة لنفس

الدين ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[البقرة: ١١٨]، فعلماء مصر منذ مائة سنة هم علماء الأفغان في أيامنا هذه.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

كل هذا من سوء التقليد وضعف التعليم والجهل العام في أمة الإسلام. ومن عجب أن محمد علي باشا أرسل للعلماء خطاباً يقول فيه: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، فعرف ما لم يعرفه أكثر علماء زمانه. فالحمد لله على نعمة العلم وعلى أن قيض الله للأمم الإسلامية نهضة حديثة بها سيكونون كلهم أمة مفكرة. وسينقرض ذلك الجيل الجاهل وتحل محله أجيال أعلى مراماً وأوفى ذماماً، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الخامس

في أن ما كتبناه هنا نسجناه على طريقة أكابر المتقدمين

سألني صاحبي قائلاً: هذه هي العلوم التي يدرسها الناس للتلاميذ وهم صغار فهل تعتبر ديناً إسلامياً؟ وإذا قلت نعم كما هي طريقتك فهل تسمعني ما يناسب من كلام القدماء؟ فقلت له: قال الإمام الغزالي في الإحياء: قد كان يطلق لفظ العلم على العلم بالله وبآياته وبأفعاله وخلقه، حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمة الله عليه: لقد مات تسعة أعشار العلم. فعرفه بالألف واللام ثم فسره بالعلم بالله سبحانه، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص الخ. إلى أن قال: ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وبصفاته الخ.

وقال أيضاً: إن أنس بن مالك قال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه، يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرداً، إنما كنا نقعد فنتذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقهاً. قال الإمام الغزالي: فسمى تدبر القرآن تفقهاً. فلما سمع صاحبي ذلك قال: أريد من كلامهم أبين من هذا بحيث تكون الطريقة التي اتبعتها أنت سلكها بعض العلماء قبلك. فقلت: اسمع ما قاله الغزالي في الإحياء في باب التفكر قال ما نصه:

ومن آياته أصناف الحيوان وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشر وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع.

فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر وإلى البهائم الأهلية، فإنك ترى فيها من العجائب ما لا تشك في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة والنملة والنحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها، لم نقدر على ذلك. فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر، فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه، حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً، ويجعل بعد ما بينهما متناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقد القمط

ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق أو الذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علّق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولفّ خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله ـ أقول: وستراه في سورة «العنكبوت» مفصلاً تفصيلاً ـ ثم قال: وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى.

أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكون بنفسه أو كونه آدمي أو علمه أو لا هادي له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوان، وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنّما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهد، ثم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد عجبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب من الحيوانات وليس يتعجب من نفسه، ولو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم؛ وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم؛ ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة؛ لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها، فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير، فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته. انتهى.

هذا نص كلام الإمام الغزالي في هذا المقام. وقد جاء في «كتاب التفكر» الذي ذكر فيه كما تقدم ما نصه أيضاً: قد أثنى الله على المتفكرين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾[آل عمران: ١٩١]. وذكر في حديث عائشة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم بكى وهو يصلي بالليل حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة آية: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران: ١٩٠]، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها». ونقل عن الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال إبراهيم: الفكر مخ العقل.

ونقل عن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي. وقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: ١٤٦]، قال الغزالي: معناه أمنع قلوبهم التفكر في أمري. وقال عمر بن عبد العزيز: الفكر في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة. وقال الغزالي بعد ذلك: إن ذكر القلب خير من عمل الجوارح. إذن التفكر أفضل من جملة الأعمال، بل هو أشرف العمل، ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة. انتهى.

فلما سمع الأستاذ ذلك قال: هذا القول يدل دلالة واضحة على أن التفكر أشرف من العمل. فقلت: نعم، وهذا إجماع العلماء، إن العلوم أفضل من الأعمال. فقال: ولكن قولهم: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، مبالغة، ثم حديث عائشة الذي ذكرته هل هو صحيح؟ فقلت له: أنا الآن لست في مقام تصحيحه وتحسينه. إنك طلبت حتى آراء المتقدمين هل كانوا يجعلون أمثال ما كتبناه الآن ورسمناه بالتصوير الشمسي في هذه الآية علوماً دينية؛ فأجبتك بما كتبوه أنفسهم وأنهم يقولون: إن هذا أفضل من العبادة، هذا هو إجماعهم، فأما كون كلامهم فيه مبالغة أو أن الحديث صحيح أو ضعيف فهذا ليس مقام الكلام فيه، وإنما ملخص ما فيه أن هذا رأي المتقدمين، فأما الحديث فتشهد له الآيات كلها، فإذا لم يصح فالآيات تدل عليه، وعليه أصبح ما نكتبه في هذه الآية وأمثالها إتماماً لما ابتدأه علماء الإسلام منذ نحو ٩٠٠ سنة، فهم ابتدؤوا يرقون المسلمين بهذه العلوم، ثم سلط عليهم أعداء من الداخل وهم صغار العلماء وصغار المتصوفة، وأعداء من الخارج كأمة التتار وغيرها، ثم لما أراد الله إنقاذ المسلمين من الذل وأنه سيرفعهم إلى العلا ألهم الأمم الإسلامية الحاضرة، فهاهي ذه الآن تريد إرجاع مجدها، وكان من جملة نهضتها المباركة هذا التفسير الذي ليس بدعاً في هذه السبيل. فإذن نحن الآن نريد إعادة مجد ذهب وعلم ترك، وهذه نعمة أنعم الله عز وجل بها عليَّ أنا وعليك أنت أيها الذكي وعلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

موازنة بين آراء المسلمين وعلماء أوروبا في هذا المقام

أذكرك بما مضى أيها الذكي في أول سورة «المؤمنون»، فإني نقلت لك هناك عند ذكر خلق الإنسان عشرين قولاً من أقوال علماء القرن العشرين وهو القرن الذي نحن فيه. إن أكثر علماء القرن التاسع عشر كانوا بالنسبة لعلماء القرن العشرين أطفالاً في العلم. فقد أثبتوا بالبرهان أن التعليلات التي عللوا بها ألوان الحيوان واختلاف أشكاله مقضي عليها بالفشل، بل صرح بعضهم بأن تعليل أولئك العلماء بالانتخاب الطبيعي أو نحوه لا يعلو عن قيمة أقوال المرضعات والعجائز، وأثبتوا إثباتاً تاماً أن هؤلاء العلماء قد أثبتوا عجزهم عن تعليل الغرائز المودعة في الحيوانات، وأبانوا أن الكون محكم الوضع، وإحكام الوضع لا بد له من عقل يدركه، وأجمع على ذلك أكابر علماء الألمان والفرنسيين والإنجليز وأبطلوا آراء صغار العلماء التي انتشرت في الشرق، ولم يصل لهم أمثال ما نقلناه عن العلماء المعاصرين لنا فهم مقلدون لمن ماتوا، ولم يعلموا بعلوم من بعدهم من المعاصرين الذين يقولون: إن الحشرات التي تنتقل من دودة إلى شرنقة إلى فراشة وتنتقل من عالم الماء إلى عالم الهواء مرة واحدة تكذب مذهب القائلين بالتحول التدريجي الذي لا مستند له إلا بالوهم، لأن البط خلق

منسوج الأرجل أولاً ثم مشى ، لا أنه مشى على شاطئ البحر ثم خلق له النسيج بين الأرجل . فارجع إليه هناك فهو واضح أشد الوضوح . أوليس من العجب أنك ترى ما يقوله الإمام الغزالي هنا ونقلته لك عنه آنفاً هو بنصه وفصه ما يقوله علماء أوروبا .

فقل لمن يدعي علماً ومعرفة　　　عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وقل لأبناء الشرق : إما أن تقرؤوا العلم كله وإما أن تبقوا مقلدين ، فأما الاطلاع الناقص فهو ضار ، وهاهو ذا أصبح علماء الشرق وعلماء الغرب على اتفاق تام في أمر نظام العالم وعجائب الخلقة وحكمة الخالق ، والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأربعاء ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

إيضاح أتم لما تقدم

قال الإمام الغزالي في الجزء الأول من الإحياء ما نصه :

وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله تعالى عز وجل وصفاته ، إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها ، وأما أفعاله فكذكره خلق السماوات والأرض وغيرها ، فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل ، إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل على عظمته ، فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ، فهو منه وإليه وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لا أنه سيبطل في ثاني الحال إن اعتبر ذاته من حيث هو ، إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته ، فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض ، وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة ، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾[الواقعة : ٦٣] ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾[الواقعة : ٥٨] ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾[الواقعة : ٦٨] ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾[الواقعة : ٧١] ، فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني ، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها . ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ، ثم ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة ، فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى أعجب العجائب وهو الصفة التي صدرت منها هذه الأعاجيب ، فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

أقول : وهنا أذكرك أيها الذكي بما تقدم قريباً هنا من ذكر قطرة الماء وأنها عبارة عن ذرات تعد بمقدار آلاف الآلاف وبينها مسافات هائلة ، ثم نفس هذه الذرات عبارة عن كهرباء مضيئة ، والضياء حركات في الأثير ، والحركات أعراض لا غير .

إذن المادة غير موجودة بنفسها ، فاعجب لقول الصوفية كالإمام الغزالي ولأقوال علماء العصر الحاضر . لقد تشابه القوم وإن لم يجتمعوا زماناً ومكاناً . ومن هنا تعرف تقارب العلماء في الأمم . ونرجع إلى كلام الإمام الغزالي ، فنقول :

ثم ذكر أن المانع من الفهم في القرآن قد يكون :

(١) بسبب انصراف الهم إلى إخراج الحروف من مخارجها وهناك يتولاه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم القرآن .

(٢) أو بسبب أنه مقلد لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليل حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله . ولهذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب . وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم . والتقليد قد يكون باطلاً كما يعتقد في الاستواء على العرش والاستقرار والتمكن ، فإن خطر له مثلاً في القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه ، ولو استقر لأنجز ذلك إلى كشف ثان وثالث ولتواصل ، ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل ، وقد يكون حقاً ويكون أيضاً مانعاً من الفهم والكشف ، لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن ، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن ، قال كما ذكرناه في الفرق بين العلم والظاهر والباطن ، وأشار إلى أن الإصرار على الذنوب أو التكبر أو اتباع الهوى كل ذلك يمنع وصول الحقائق للقلوب ، وذكر أن الذي يفهم ذلك هو المنيب ، كما قال تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق:٨] ، وقال : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[غافر:١٣] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الرعد:١٩] .

(٣) أو بسبب أنه قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أن معاني كلمات القرآن لا تتناول إلا ما نقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، قال : فهذا أيضاً من الحجب العظيمة ، مع أن ذم التفسير بالرأي لا ينافي قول علي رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن ، ولو كان المعنى هو الظاهر المنقول ما اختلف الناس فيه ، ثم أثبت هذا الفهم بقوله تعالى : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء:٨٣] ، فأثبت لأهل العلم استنباطاً ، ومعلوم أنه وراء السماع ، وذكر قول أبي الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة:٢٦٩] يعني الفهم في القرآن ، ثم أعقب ذلك بالأخبار التي ورد النهي فيها عن التفسير بالرأي .

ثم قال : إن أريد الاقتصار على المنقول والمسموع وترك الاستنباط فهو باطل ، لأنه يشترط أن يكون مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا يصادف إلا في قليل من القرآن ، وأما تفسير الصحابة كابن عباس وابن مسعود فهو من أنفسهم ، فإذا أردنا أن كل ما لم يقله النبي صلى الله عليه وسلم فهو بالرأي ؛ وجب أن نقول : إنه بالرأي أيضاً لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قائل به ، وأيضاً إن الصحابة اختلفوا في بعض الآيات بأقوال لا يمكن الجمع بينها ومحال

أن يكون الجميع مسموعاً من النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان أحدها مسموعاً لرد الباقي. إذن تفاسيرهم باستنباط منهم كما استنبطوا في ﴿ الٓر ﴾ أنها حروف من الرحمن، أو أن « الألف » الله و« اللام » لطيف و« الراء » رحيم وهكذا.

والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً. وأيضاً قد دعا صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال: « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ».

فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك. ثم بين أن النهي عن التفسير بالرأي يرجع لأمرين اثنين:

أولهما: أن يقصد مبدع التلبيس على خصمه وهو يعلم أن الآية لم يقصد بها المعنى، أو نجهل ذلك، وعلى كلا الحالين يميل فهمه إلى الغرض الذي يرمي إليه، فهذا حتماً أتبع القرآن هواه. وقد يكون غير مبتدع وله غرض صحيح فيطلب دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم: « تسحروا فإن في السحور بركة » ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول: قال الله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[طه: ٢٤]، يشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون، ويستعمله الوعاظ في المقاصد الصحيحة وهو ممنوع، وتستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به. هذا هو الرأي الفاسد الموافق للهوى.

وثانيهما: أن يفسر القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة، وما فيه من الحذف والاختصار والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه. انتهى ملخصاً.

فيا أيها الذكي إنّما أوردت لك هذا بناء على سؤالك لتطلع على طريق التفكير في التفسير عند أسلافنا الكرام وعلمائنا الفخام، وما هو التفسير بالرأي وما التفسير بالفهم وما التفسير بالنقل. ولست أكتب هذا لآخذ بكل ما فيه، ولكن لتقف عليه وتعرف الحقائق وطرق المتقدمين، فينشرح صدرك وتبلغ أملك.

ففز بعلم تعش حيّاً به أبداً   الناس موتى وأهل العلم أحياء

فصل في قوله تعالى
﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[النور: ٤٦] إلى آخر السورة

وهذا الفصل مفصل إلى أربع جواهر:

الجوهرة الأولى: في تقريع قوم وتوبيخهم، من قوله: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[النور: ٤٦] إلى قوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[النور: ٥٤].

الجوهرة الثانية: في وعد الله المؤمنين بالتمكين في الأرض ونحو ذلك، من قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[النور: ٥٥] إلى قوله: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[النور: ٥٧].

الجوهرة الثالثة : في آداب عامة كالاستئذان في الدخول ، وذم التبرج من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً ، وكالإذن بالأكل من بيوت بعض الأقارب ، من قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾[النور : ٥٨] إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[النور : ٦١] .

الجوهرة الرابعة : الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوجب عليهم أن يستأذنوه وأنهم إذا دعوه فليكن ذلك بأدب خاص الخ ، وذلك من قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾[النور : ٦٢] الخ .

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يقول الله تعالى بعد أن أبان جمال صنعه وبديع حكمه وحسن إبداعه وباهر نقشه ورقشه وأحاسن خلقه من الأنوار الباهرات والمحاسن الظاهرات وأضواء الكواكب وجمال الشموس وسناء البرق وأنوار القلوب وجمال العلم وبهاء الأفئدة العامرة بالمعارف الساطع إشراقها وزينتها بالعلوم العالية وكيف كانت النفوس الإنسانية مشتملة على جواهر هذه العوالم مقتطفة ما فيها من المحاسن وكأنها قائمة مقام المادة بحيث تحمل كل ما حملت من صور ونقوش وكأن الناس في الأرض خلفاء ربهم قد كلفهم أن يعملوا ويعلموا متخلقين بأخلاق من خلقهم ، لما ذكر ذلك كله سبحانه وتعالى شرع يذكرنا بأنه أنزل هذه الآيات مبينات للحقائق ودلائل الخالق وأنه يهدي من يشاء بتوفيقه للنظر فيها والتدبر في معانيها ، وكأنه عز وجل يقول : إن هذا المثل المضروب للمؤمن والمضروب للكافر وعمله وهذه العجائب في الطير والسحاب والبرق كل ذلك ليس لكل إنسان فهمه ، بل الناس فريقان : فريق لا يرفع عقله إلى هذا المستوى الرفيع ولا يعقل ذلك المعنى البديع ، وفريق استحق رتبة العلم فألهمه الله وعلمه ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته لأنه على استعداد للهداية ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو دين الإسلام وإدراك الحقائق . ثم أخذ سبحانه يوبخ طائفة كبشر المنافق الذي خاصم يهودياً في أرض ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال المنافق : بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فإن محمداً يحيف ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ يقولونه بألسنتهم من غير اعتقاد ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ أي : يعرض عن طاعة الله ورسوله ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد قولهم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وهم يدعون إلى حكم غير حكم الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالمصدقين ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : ليحكم النبي صلى الله عليه وسلم الذي حكمه في الحقيقة حكم الله ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي : فاجأ من فريق منهم الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم أنك لا تحكم إلا بالحق ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي : منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾ أي : شكوا ، وهذا استفهام للذم والتوبيخ ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ فالأمر يرجع في صدودهم إلى النفاق أو الريب في أمر النبوة أو الخوف من الحيف ، ثم أبطل هذا الأخير بقوله : ﴿ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي : لا يخافون ظلمه صلى الله عليه وسلم ولكنهم يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يأبى عليهم ذلك ، فلذلك لا يريدون أن

يتحاكموا إليه . ثم ذكر أخلاق المؤمنين في مثل هذه الحال فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، « قول » : خبر « كان » ، و« أن يقولوا » : اسمها ، أي : سمعنا قولك وأطعنا أمرك ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وأما من قبلهم فهم ليسوا بمفلحين لأنهم ظالمون ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما يأمران به ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ ﴾ لما صدر منه من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقي من عمره ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي بالنعيم المقيم ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ « جهد » مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي : يجهد اليمين جهداً ، ثم حذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول فقيل : جهد اليمين ، أي : جاهدين أيمانهم ، فهو منصوب على الحال . يقول الله : حلف المنافقون بالله جهد اليمين ، أي : بذلوا فيه مجهودهم أي أقصى وسعهم ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي : أقسموا لئن أمرنا محمد بالخروج إلى الغزو لخرجنا ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ﴾ لا تحلفوا كاذبين لأنه حرام ، إنّما المطلوب منكم ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ لا اليمين والطاعة الكاذبة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلا يخفى عليه سرائركم ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي : بقلوبكم وصدق نياتكم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ على الرسول ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ أي : ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي : ما كلفتم به من الإجابة والطاعة ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ تصيبوا الحق في طاعته ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي : التبليغ الواضح المبين .

لطيفة في قوله تعالى

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

إن تبيين القرآن قد ظهر اليوم أشد الظهور عند علماء الغرب ، ولأكشفه الآن هنا بموضوعين :

الموضوع الأول: محاضرة في القرآن الكريم وأثره في اللغة والعلم والاجتماع والأخلاق

ألقاها في مؤتمر المستشرقين بأكسفورد الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف العمومية ومندوب الحكومة المصرية ، والمؤتمر كان فيه ٧٠٠ منهم ٢٠٠ تمثل الحكومات والجامعات العلمية والباقون أعضاء . والمحاضرات التي ألقيت بشأن مصر والإسلام ٤٤ محاضرة والمراد بمصر قديمها وحديثها ، وحضر من الألمان نحو ٧٠ عالماً . والخطبة ألقيت يوم الجمعة آخر أغسطس سنة ١٩٢٨ في مدينة أكسفورد بإنكلترا ، وكانت العادة أن كل محاضرة تتلوها مناقشة في موضوعها ، فكان من المعجزات أنها قوبلت بالاستحسان العام . إذن علماء أوروبا الرسميون أقروا ما في هذه الخطبة بالإجماع ، وهاك نصها بالحرف لتعرف مقدار اعتراف علماء أوروبا بفضل الإسلام وبعظمة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهاهي ذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين

القرآن الكريم

(١) وصفه . (٢) محتوياته . (٣) أثره في اللغة العربية . (٤) أثره في الأحوال الاجتماعية والخلقية والعلمية .

١ ـــ وصفه

القرآن الكريم ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: ١] آية الله الدائمة وحجته الخالدة ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾[فصلت: ٤٢] .
﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[البقرة: ١-٥] .

٢ ـــ محتوياته

احتوى القرآن ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، ويمكن حصر ذلك فيما يأتي :

(١) العقائد : وهي مبينة في الآيات التي توجب الإيمان بإله واحد وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾[الإخلاص: ١-٤] ، وقوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[البقرة: ٢٨٥] .

(٢) الفرائض الدينية : وهي موضحة في الآيات التي توجب الصلاة والصوم والحج الخ ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ ﴾[البقرة: ١١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: ٩٧] .

(٣) الأوامر والنواهي الخلقية : وهي مفصلة في الآيات التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل قوله تعالى : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٤] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٩٠] .

(٤) الإنذار والتبشير : في الآيات التي ذكر فيها ما أعد للكافرين والمؤمنين ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[النساء: ١٤] .

(٥) الجدل والتحدي: في الآيات التي دعي فيها المخالفون إلى الإتيان بآيات ولو مفتريات فعجزوا، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٣-٢٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[هود: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨].

(٦) القصص: كالذي ورد في تاريخ الأنبياء والرسل وذي القرنين وأصحاب الكهف، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سبأ: ١٠-١١]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[مريم: ١٦-٣٤].

(٧) التشريع الاجتماعي: وهو في الآيات التي توجب الزكاة وإخراجها لمستحقيها، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٥].

(٨) التشريع السياسي: وهو في الآيات التي توجب الطاعة لأولياء الأمور والوفاء بالعهود والمواثيق، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

(٩) التشريع الجنائي: وهو ما جاء في الآيات المبينة للحدود والقصاص، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ ﴾ [المائدة: ٤٥].

(١٠) التشريع المدني: وهو ما تكفلت به آيات الربا والميراث وما أومأ إليها، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١١-١٢].

(١١) التشريع الحربي: وهو في الآيات التي تؤذن بالقتال وتشير بالسلم وتبين معاملة الأسرى وتوزيع الفيء، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٥٨-٦١].

(١٢) المواعظ والإرشاد: وهي في الآيات المشتملة على الأمثال والحكم، مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ

أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[الإسراء: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[النجم: ٣٩-٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

٣ ـــ أثره في اللغة العربية

(١) كان لقريش عظيم الأثر وكبير الفضل في توحيد لهجات اللغة العربية، لأنها كانت تسكن بلاد الحجاز التي كانت محط رحال الحجاج والتجار، فكان يجتمع فيها أكثر أشراف العرب والشعراء والخطباء من الرجال والنساء للمفاخرة بالشعر والخطب في الحسب والنسب والفصاحة وغير ذلك، فأخذت قريش المستعذب من لهجات العرب، حتى لطفت لهجتهم وجاد أسلوبهم واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام، وكان طبيعياً أن ينزل القرآن بلغة قريش لأنها خلاصة اللغة العربية ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قرشي، وليكون هذا الكلام زعيم اللهجات كلها، قد امتازت قريش بكثير من خصائص الزعامة وأقر لهم العرب بذلك، فأولى لهم أن يقروا مثل ذلك في كلام الله تعالى.

(٢) لو نزل القرآن بغير لغة قريش التي ألفها النبي صلى الله عليه وسلم ما كانت تستقيم الموازنة بين أساليب القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولكان ذلك مدعاة إلى أن قبائل العرب تجد كل واحدة منها مذهباً للقول فيه فتنشق الكلمة.

(٣) ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرؤوه بلحونهم مع بقائه على فصاحته في الوضع التركيبي وتلك سياسة لغوية جمعت العرب على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة.

(٤) من أجل ذلك كان للقرآن الكريم الأثر البين في توحيد اللغة ونشرها وترتيبها من حيث أغراضها وألفاظها وأساليبها وفوق ذلك ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلاً.

(٥) قد جمع القرآن العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن هذه اللغة، فأصبح عندهم مثلاً كاملاً ومن شأن المثل الكامل أن يجتمع عليه طالبوه مهما فرقت بينهم الأسباب المتباينة. وقد كانوا قبل ذلك تتوهم كل قبيلة منهم أنها أسلم فطرة في اللغة وأوضح مذهباً في البيان لعدم وجود مقياس عام يرجعون إليه، ولم يكن في طوق إنسان أن يقيس قدرة أقوام وعجزهم في أمر معنوي كاللغة إلا إذا كان بالغاً حد الكمال، ولما كان الكمال لله وحده كان كلامه جل شأنه هو المثل الكامل.

(٦) لولا القرآن الكريم لما وجد على الأرض أحد يعرف كيف كانت تنطق العرب بألسنتها وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها ، فتواتر أداء القرآن الكريم حفظ لنا كيفية الأداء العربي .

(٧) إن الشعوب العربية في مصر وسورية وبلاد المغرب وغيرها يتكلمون باللغة العربية ولكن تختلف لغة كل شعب منهم عن لغات الآخرين اختلافاً قليلاً أو كثيراً بنسبة البعد بينهم والاختلاف في أحوالهم ، ولولا القرآن لاستقلت لغة كل شعب حتى لم يعد الشعب الآخر يفهمها كما حصل في فروع اللغة اللاتينية « الفرنسية والإسبانية والطليانية وغيرها » ، ولكن محافظة المتكلمين في اللغة العربية على لغة القرآن الرجوع إليها فيما يكتبون ويخطبون جعل في لغاتهم المولدة مرجعاً يجمع لغاتهم إلى أصل واحد .

٤ ـ أثر القرآن في الأحوال الاجتماعية

جاء القرآن والعرب قد وقعت بينهم الفرقة وتشتت الألفة واختلفت كلمتهم واضطربت أحوالهم فكانوا إخوان دبر ووبر . أذل الأمم داراً وأجدبهم قراراً لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها ، فأحوالهم مضطربة وأيديهم مختلفة وكانوا في بلاء عظيم من جهل مطبق وبنات موؤودة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة . فلما استضاؤوا بنور القرآن الكريم اجتمعت أملاؤهم واتفقت أهواؤهم واعتدلت قلوبهم وترادفت أيديهم وتناصرت سيوفهم ، وعقد بملته طاعتهم وجمع على دعوته ألفتهم ، وأصبحوا ينعمون في ظل سلطان قاهر ثابت وصاروا حكاماً على العالمين وملوكاً في أطراف الأرضين ، قد ملكوا لأمور على من كان يملكها عليهم وأمضوا الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم .

جاء القرآن وقد تمكنت من العرب عصبية الجاهلية فما عدا أن سفه أحلامهم ونكس أصنامهم وذهب بحلّ ما ألفوه حتى كأنما خلقهم خلقاً جديداً ، وكأنهم على آدابه نشؤوا وهم أغفال وأحداث بل كأنهم كانوا سلالة أجيال كان القرآن في أوليتهم المتقادمة وكانوا هم الوارثين لا المورثين ، مصداقاً للحديث الشريف : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » .

كان من أثره فيهم أن أذهب عنهم العصبية المقوتة وأحل محلها التعصب لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور وخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكف عن البغي والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد في الأرض .

لهذا كله انعقدت عليه قلوبهم وهم يجهدون في نقضها ، واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها ، فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه . ذلك بأنه قد جاءهم بما لا قبل لهم به مما يشبه أساليب الاستهواء في علم النفس ، فغلب على طباعهم وحال بينهم وبين قديمهم .

ولعمري لو كان القرآن غير فصيح أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم لخلا منه موضعه الذي هو فيه ، وكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص ، ولنقضوه كلمة كلمة وآية آية دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم .

بين القرآن لهم أن الطبيعة مسخرة لهم فعليهم كشف ما فيها واستخراج أسرارها ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١]، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]، ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]، ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[الحجر: ٢٢].

نادى فيهم القرآن الكريم أن النبي صلى الله عليه وسلم ابن يومه وابن عمله وعقله. فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر، وخاطبهم بالآية الكريمة التي هي روح الثبات في أمم العلم والعمل، ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[يونس: ٤١].

قد وصل العرب قبل نزول القرآن الكريم إلى هاوية الانحلال الاجتماعي بما لم يعهد له مثيل في تاريخ الأمم، فكانوا في جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية، ولم يكن لهم فن يذكر أو صناعة تنشر ولم يكونوا يعرفون شيئاً من العلاقات الدولية، وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها تتحفز لشن الغارة على جارتها، فما لبثوا أن جاءهم الكتاب الكريم حتى خالطت أحكامه قلوبهم وأيقظت أرواحهم وجعلتهم يتلمسون الحق وتصبو نفوسهم إلى رفع مناره ونشره في أطراف الأرضين.

قد بلغوا في العبادة مبلغاً بذوا به أهل الرهبنة والتنسك، وصاروا أولي قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وحرص في علم وعلم في حلم وقصد في غنى وخشوع في عبادة وتحمل في فاقة وصبر في شدة وطلب في حلال ونشاط في هدى وتحرج عن طمع. ومع بلوغهم هذه الدرجة الروحية العالية لم يهجروا الدنيا وشؤونها بل عملوا لها بصدق وإخلاص، فأبدلهم الله العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً وأئمة أعلاماً.

وإن تعجب فعجب أن يتم ذلك المجد العظيم للعرب في أقل من مائة سنة. وفي هذا برهان قاطع على أن أحكام القرآن خير طريق إلى تنمية الملكات الإنسانية وإعدادها لكسب الحياتين الدنيوية والروحية، فقد جعل الأمة العربية تضع أعناقها للحق الذي لم تألفه حقاً، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها وتسلم له في تاريخها وعاداتها.

إن نظرة بإمعان فيما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات تدل على أنه ليس هناك في الإنسان من نقص إلا والقرآن كفيل بإصلاحه، فهو طبيب الإنسانية وليس أحذق الأطباء من يدعي هذه الصفة لنفسه فحسب بل من يستطيع مداواة أعظم الأدواء في أكثر الحالات، وكذلك فعل القرآن فقد بلغ من أثره في العرب أنه حوّل طبائعهم وغيّر أخلاقهم فلم يشهد التاريخ جيلاً اجتماعياً مثل الجيل الأول في صدر الإسلام حين كان للقرآن هو المنار الذي يهتدى به، ولم تستطع الفلسفة على اختلاف ضروبها في أي عصر من العصور أن تنشئ جيلاً من الناس كالذي أخرجه القرآن الكريم فكانوا مثلاً حسناً في علو النفس وصفاء الطبع ورقة الجانب ورجاحة اليقين وطهارة الخلق وشدة الأمانة وإقامة العدل والخضوع للحق وما ماثل إلى ذلك من أمهات الفضائل.

محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مصلح ظهر

أما وقد بان أن الكتاب الكريم أحدث أوفر قسط من الإصلاح في أقصر زمن عرفه التاريخ فلا بدع أن كان الذي نزل عليه ذلك الكتاب أعظم مصلح، وإليك البيان:

(١) اقتضت حكمة الله أن يرسل إلى كل أمة آناً بعد آن هادياً يرشدهم ويصلح حالهم، فيدوم النور الذي جاء به زمناً ثم يخبو قليلاً قليلاً حتى إذا كاد ينطفئ أنقذ الله هذه الأمة برسول بعده يجدد لها الهداية.

وقد توالت الدهور والأحقاب والأمم منفصلة عن بعض زاعمة كل واحدة أن العالم كله لها وأنها أفضل من سواها لأن الله خصها بالرسالة والهداية، فنجم عن ذلك القول بأن الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً، حابى بعض الأمم وخصها بمزايا لم يمنحها غيرها.

من أجل ذلك أرادت الحكمة الإلهية أن تقضي على ما خالج نفوس بعض الأمم من أنها أفضل من غيرها جنساً وخلالاً وديناً، وأن تجعل من الإنسان جسماً واحداً، فمن الله على الخلق جميعهم برسول عام ومعه رسالة عامة، وهكذا كانت رسالته عامة لا يخصصها زمان ولا مكان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ: ٢٨].

كان مثل من سبقه من النبيين صلوات الله وسلامه عليهم مثل المصابيح، كل منها وضع في حجرة لا يضيء سواها، فلما ظهرت شمس الرحمة من البلاد العربية لم يبق هناك من حاجة إلى هذه المصابيح المحدودة المدى وليس في مقدور أي نور آخر أن يخلف هذه الشمس.

بعث كل رسول ممن تقدموا المصطفى صلى الله عليه وسلم لتهذيب أفراد أمته وجعلهم صالحين لتكوين أمة متجانس، ولعمري هذا عمل جليل. غير أن محمداً وهو خير المرسلين أرسل ليجمع هذه الأمم ويجعلها أمة واحدة متكافئة مرتبطة برابطة الإخاء. جاء كل رسول لتقويم خلق معين في أمته فكانت حياته أسوة للخلق الذي أرسل لتقويمه.

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء لتنمية الفطرة الإنسانية جميعها واستخدام ملكاتها وتقويم غرائزها، وكانت حياته العملية صلى الله عليه وسلم ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بتقويم أخلاق بني الإنسان جميعها، ولذلك كان مثلاً كاملاً للإنسانية اجتمعت فيه الفضائل التي كانت في أنبياء بني إسرائيل وغيرهم. تجمعت فيه شجاعة موسى وشفقة هارون وصبر أيوب وإقدام داود وعظمة سليمان وبساطة يحيى ورحمة عيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

(٢) إن كانت العظمة تتحقق بإصلاح أمة قد وصلت إلى غاية الانحلال الاجتماعي، فليس هناك من يباري محمداً في أنه أنقذ الأمة العربية من هاوية الدمار وجعلها مصابيح الحضارة والعرفان. وإن كانت العظمة تتحقق بجمع شمل أمة قد تأصلت فيها الفرقة وتمكنت منها العداوة والبغضاء فمن يجاري محمداً في أنه جمعهم تحت ظل الإسلام إخواناً متساندين ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[آل عمران: ١٠٣]. كان مثل العرب في تفرقهم كمثل رمال بلادهم فلاءم الإسلام بينها وجعلها من القوة بحيث لا تؤثر فيها الزلازل العنيفة.

إن كانت العظمة تتحقق بإقامة ملك الله في الأرض فمن يطمح إلى منافسة محمد صلى الله عليه سلم في أنه نكس الأصنام وأبطل عبادة الأوثان وطهر الجزيرة العربية من الشرك وملأ القلوب بالتوحيد والنور.

إن كانت العظمة تتحقق بحسن الأخلاق فمن ذا الذي ينكر على محمد أن أعداءه وأصدقاءه أجمعوا على تسميته بالأمين.

إن كانت العظمة تتحقق بالفتح وبسط الملك فالتاريخ أصدق شاهد على أن أحداً غيره لم يبلغ مبلغه، فقد نشأ يتيماً لا قوة له ثم صار فاتحاً عظيماً أسس أعظم دولة لبثت ترد مكايد الأعداء أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

إن كانت العظمة تتحقق بما لصاحبها من رفعة الاسم وانتشار الصيت فمن يجاري محمداً في ارتفاع اسمه الذي تحبه قلوب أربعمائة مليون من الناس منتشرين في أطراف الأرضين مرتبطين برابطة الإخاء مع اختلاف قوميتهم وألوانهم وألسنتهم.

أثر القرآن الكريم في الأحوال الخلقية

لما كان المنزل هو المربي الأول الذي يتعلم فيه الإنسان الآداب الخلقية ويألفها أوجب القرآن الكريم طاعة الوالدين ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[الإسراء: ٢٣-٢٤]، ولم يرخص في عصيانهما إلا إذا أرادا أن يحملاه على الإشراك بالله ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[لقمان: ١٥].

هذا الاحترام العظيم للوالدين هو الأساس الذي بنيت عليه فضيلة الطاعة لأولياء الأمور ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[النساء: ٥٩] وليس المراد بأولي الأمر الحكام فقط بل يشمل كل من أعطي سلطاناً ونفوذاً يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته ».

ومن هذا يتبين أن دين الإسلام يطالب الناس جميعهم بالطاعة لمن فوقهم ليجتث بذلك أصول الفوضى والمخالفة ويثبت دعائم الطاعة. بنى القرآن الكريم الأخلاق على فضيلة واحدة هي التقوى، وقد دل تصفح الآيات الكريمة التي وردت فيها هذه الكلمة وما اتصل بها من المشتقات على أن المراد منها أن يتقي الإنسان كل ما كان فيه من ضرر لنفسه أو إضرار لغيره لتكون حدود المساواة قائمة في المجتمع الإنساني لا تحصل فيها ثلمة ولا يطرأ عليها وهن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣]، وقد جاء في الحديث: « لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى »، والآية صريحة في أن الغاية الاجتماعية للناس شعوباً وقبائل هي التعارف وتلك كلمة لا تشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ولا يمكن أن تدخل في مدلولها رذيلة اجتماعية. وفي هذه الآية الكريمة أقام القرآن الأساس الخلقي العظيم فجعل أكرم الناس المتساوين في الحالين الفردية والاجتماعية هو أتقاهم، أي: أعظمهم خلقاً، لا أوفرهم مالاً

ولا أكثرهم رجالاً ولا أنقبهم فكراً ولا أعظمهم علماً ولا شيئاً من ذلك مما لا يصح أن يكون سبباً للتفاضل إلا في إدبار الدول واضطراب الاجتماع وفساد العمران، فالحقيقة أن التقوى هي الخلق الكامل، ومن أجل ذلك كان العدل في رأي القرآن أقرب شيء إلى التقوى، إذ يقول الله جل شأنه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة: ٨]. وقد ورد في القرآن مظاهر التقوى إلى ثلاثة أشياء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله. وهذه الأشياء الثلاثة هي المبدأ والنهاية لكل قوانين الأدب والاجتماع، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، والمعروف كل ما يعرفه العقل الصحيح حقاً ولا يتأتى الأمر بالمعروف إلا إذا توافر استقلال الإدارة «كذا» وقوتها، والمنكر هو ما ينكره العقل الصحيح، ولا يمكن النهي عن المنكر إلا باستقلال الرأي وحريته، والإيمان بالله هو الاعتقاد بوجوده ووحدانيته، ولا يتم ذلك إلا إذا استقلت النفس من أسر العادات والأوهام بالنظر والفكر في مصنوعات الله، وهذا هو الإيمان الذي يبعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع التي تعتري الناس من ضعف الطباع الإنسانية كالجبن والنفاق وإيثار العاجلة وما إليها، فإن هذه الصفات لا تتحقق مع صحة الإيمان بل هي أنواع من العبادة للقوي والمستبد وللشهوات والنزعات وما شابهها، وذلك لا يتفق والإيمان الصحيح بالله. ما تدبر أحد القرآن إلا وجده يمنح كل إنسان إرادة اجتماعية أساسها الحرية ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩]، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[يونس: ١٠٨]. ولذلك لما اتخذه الجيل الأول في صدر الإسلام مثالاً لهم واتخذوا آدابه الخلقية شعاراً لهم حقق لهم هذه الإرادة الاجتماعية.

ولو أن العلوم كلها والفلسفة وأهلها كانت لأولئك العرب مكان القرآن ما أغنت عنه شيئاً، لأن الفضيلة العقلية التي أساسها العلم لا توصل حتماً إلى الإرادة العملية.

أما الفضيلة الخلقية التي جاء بها القرآن فإنها تسوق إلى الإرادة العملية لأن هذه الإرادة مظهرها ولا سبيل لظهورها غير العمل. ومتى صحت إرادة الفرد واستقامت له وجهته في الجماعة فقد صار بنفسه جزءاً من عمل الأمة، والأمة التي تتألف من مثل هذا الفرد تشغل مكانة سامية في تاريخ الاجتماع.

والمتأمل في القرآن الكريم يرى أن جميع آدابه وعظاته ترمي إلى بث الروح الاجتماعية في نفوس أهله، فكانت هذه الروح هي السبب الأول في انتشاره حتى بين أعدائه الذين أرادوا استئصاله كالتتار والمغول وغيرهم ممن اشتدوا عليه ليخذلوه، فكانوا بعد ذلك من أشد أهله في نصرته والغضب له.

ليس للقرآن طرائف للدعوة إليه إلا الأسوة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب: ٢١]، فالأسوة أو القدوة مظهر آدابه، ولذلك كان كلما وجدت طائفة من أهله وجدت الدعوة إليه وإن لم ينتحلوها ويعملوا لها، وما استحث أحداً بالعطايا لأنه الدين الطبيعي للإنسان تأخذ فيه النفس عن النفس بلا وساطة ولا حيلة في الوساطة. وما أفصح ما ورد في صفة القرآن من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل».

أثره في الحال العلمية

من يدرس تاريخ العلم الحديث لا يسعه إلا أن يستنبط أن القرآن الكريم كان أصل النهضة الإسلامية، وأن النهضة الإسلامية هي التي لها الفضل في حفظ علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها. وهي التي أوسعت المجال للعقل يبحث ويناظر ويستدل. وبذلك كانت هذه النهضة أساس التاريخ العلمي في أوروبا. انفرد القرآن بأنه هو الذي حرر العقول البشرية من أصفاد الجمود والرق وحفز النفوس البشرية وساقها إلى قراءة صحف الكائنات وتدبر ما فيها من الصنع البديع.

القرآن هو الذي ساق النفوس إلى تقصي غوامض الكائنات والتنقيب عن دفائنها، وبين لهم أنهم لم يؤتوا من العلم إلاّ قليلاً ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، ثم دلهم على مواطن التفكير والبحث، وبين للناس بضرب الأمثال فيم يفكرون، فقال جل شأنه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩]، ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس: ٣٦]، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[الأنبياء: ٣٠]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[الطلاق: ١٢]، ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٣]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الفرقان: ٦١]، ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[القمر: ١١]، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ ﴾[الفرقان: ٢٥]، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[النبأ: ٦-٧] ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[ق: ٧].

القرآن هو الذي أعد العقول لفهم الفلسفة الإغريقية ودراسة العلوم الكونية، فتصافى العلم والقرآن بضعة قرون لم يقع بينهما نفور ولا مشادة، فقد كرم العلم ونوه بالعقل وذم الذين يعطلون عقولهم ويتبعون أهواءهم، إذ يقول في شأنهم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩] ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[الأنفال: ٢٢]، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[يونس: ٤٣]، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦]، ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾[هود: ٢٨] ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥]، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾[الشورى: ٤٨]، ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[البقرة: ١١٨]، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[البقرة: ٢٥٦]، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية: ٢١-٢٢].

القرآن هو الباب الذي خرج منه العقل الإنساني الكامل بعد أن كان طفلاً، فقد هداه إلى النظر والاعتبار والاستنباط إذ يقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩٠-١٩١]، ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية: ٤]، ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الجاثية: ٥]، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[الأنعام: ٣٨].

كانت هذه الآيات وأشباهها سبباً في إطلاق الحرية العلمية للعقول البشرية، فلما اقتبست منها أوروبا نهضت وأصبحت تسوس العالم وترشده إلى ما فيه صلاحه.

القرآن هو الذي أوجد العدد الجم من أعاظم المؤلفين في العلوم الشرعية والرياضية والطبيعية والفلكية وغيرها. ذلك بأن العلماء لما نظروا فيه تشعبت طرق تفكيرهم، فمنهم قوم عنوا بضبط لهجاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه، وهؤلاء هم علماء القراءة. وقوم عنوا بالمعرب والمبني وما إلى ذلك، وهؤلاء هم علماء النحو. وقوم شغفوا بما فيه من الأدلة العقلية، وهؤلاء هم علماء الكلام. وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص ومنها ما هو مطلق ومنها ما هو مقيد ومنها ما هو مجمل إلى غير ذلك، وهؤلاء هم علماء الأصول. وتلمست طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، وهؤلاء هم أهل التاريخ والقصص. وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ، وهؤلاء هم الخطباء والوعاظ. وأخذ قوم علم الفرائض وحسابه من آيات المواريث. ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وهؤلاء هم علماء الميقات.

من هذا يتبين أن القرآن الذي نزل في البادية على أمي وقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت فنون القول التي يذهبون فيها مذاهبهم لا تتجاوز ضروباً من الصفات وأنواعاً من الحكم، مكن العلماء من أن يخرجوا من كل معنى علماً برأسه، وعلى مر السنين أخرجوا من كل علم فرعاً حتى وصلت العلوم إلى ما وصلت إليه في الحضارة الإسلامية التي أنجبت الحضارة الحديثة.

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

لا يزال الباحثون في القرآن الكريم يستخرجون منه ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[الأنبياء: ٣٠]، مما يؤيد ما حققه العلماء من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي، وقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[النحل: ١٥]، مما يدل كما أثبته العلماء على أنه لولا الجبال لمادت الأرض ببحارها واضطربت بأمواجها ولما طاب للإنسان بها مستقر.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[نوح: ١٦]، ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[النبأ: ١٣] مما يؤيد ما حققه العلم من أن الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلها إلى سياراتها المرتبطة بها.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[الرحمن: ٣٣] مما يشير إلى حدوث الطيران وأنه سيكون منه نصيب للإنسان.

وقصارى القول أن العقل هو القائم على فهم القرآن واستنباط ما فيه من الأسرار على اختلاف الأحقاب والدهور، لأن الذي جاء بهذا القرآن كان آخر الأنبياء من الناس، ولا حاجة بالكمال الإنساني لغير العقول ينبه بعضها بعضاً، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣]. فلو محصت جميع العلوم الإنسانية ما خرجت في معانيها عن قوله تعالى: ﴿ فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[فصلت: ٥٣]، وكلما تقدم النظر وتوفرت طرائق البحث ظهرت حقائق الكائنات ناصعة وتجلت الإشارات التي انبثت في ثنيات القرآن ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١]. اهـ.

هذه هي الخطبة التي تضمنها قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ ﴾[النور: ٤٦]، فهذا هو التبيين القرآني الذي به أقر ٧٠٠ عالم من أوروبا في هذه السنة أن القرآن سبب نهضة أوروبا وأنه صلى الله عليه وسلم أعظم العالم. انتهى الموضوع الأول.

الموضوع الثاني

هو ما نشرته «المجلة الأسيوية الفرنسية» من إعظام هذا الدين وإقرار هؤلاء العلماء بأنه دين الفطرة بمناسبة تقريظ كتابي «نظام العالم والأمم»، وأنا اخترت أن أثبته هنا قبولاً لنعمة الله وقياماً ببعض الشكر له سبحانه على نعمة العلم ونعمة الحكمة والتأييد العظيم. ذلك أن هذا التقريظ الذي سأكتبه هنا إنما كتب سنة ١٩٠٨ أي منذ عشرين سنة، وفي ذلك الزمن لم يكن لي تفسير للقرآن وإنما هو كتاب «نظام العالم والأمم»، وهو عبارة عن ملخص للعلوم العصرية ممزوج ببعض الآيات القرآنية، فلقي من هؤلاء العلماء الآتية أسماؤهم إعظاماً وإجلالاً للقرآن وتقريظاً للكتاب. أفلا أحمد الله عز وجل إذ عشت حتى وفقني هو لهذا التفسير؟ فلأثبت مقالتهم هنا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ ﴾[النور: ٤٦] فهذا التبيين في خطبة صديقي «جاد المولى بك» وإجماع علماء أوروبا الرسميين على عظمة التبيين في القرآن، والتبيين الذي جاء في كتابي «نظام العالم والأمم»، كلاهما مصداق لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: ١٩]، وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[فصلت: ٥٣]. وهاك نص هذه المقالة:

تقريظ كتاب نظام العالم والأمم

الجمعية الأسيوية الفرنسوية والشيخ طنطاوي جوهري والإسلام

دهشت الجمعية الأسيوية الفرنسوية من ظهور الحقائق في كتاب «نظام العالم والأمم» فلذلك نشرت الجمعية المذكورة التي تدار بجمع من فحول الدكاترة العظام والفلاسفة الكبار من بينهم حضرات الآتي أسماؤهم: (١) المسيو باربيه منار. (٢) أ. بارت. (٣) ر. باسي. (٤) شاقاية. (٥) كليزمون جانو. (٦) هالفي (٧) هيارت. (٨) ماسبيرو. (٩) رينس ريفا. (١٠) سيتار بمجلتها التي صدرت في شهري يناير وفبراير سنة ١٩٠٨ نمرة ١، مقالة ضافية الذيول تحت العنوان الآتي:

الشيخ طنطاوي جوهري أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الخديوية بالقاهرة ونظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا « المجلد الأول » وعدد صفحاته ٤٣١ نشر في القاهرة سنة ١٩٠٥م

إن كتاب « نظام العالم والأمم » الذي ظهر المجلد الأول منه هو أحد كتب عدة ألفت للنشأة الحديثة الإسلامية، وهذه الكتب بناها المؤلف على نظريتين اثنتين: أولاهما: أن الدين الإسلامي دين الفطرة أي ملائم للعقول الإنسانية وموافق للطباع البشرية. ثانيتهما: أن هذا الدين على مقتضى ما قرره المؤلف يسوق إلى استكناه جميع النواميس العلمية وسائر القوانين الطبيعية الشاملة لهذا الكون كله الناظمة لعقده.

ولقد وضع المؤلف قبل هذا الجزء ملخص الكتاب كله في مؤلف صغير سماه « الزهرة »، وأبان فيه أغراض الكتاب بجزأيه وهي تسعة مباحث، شرحها شرحاً وجيزاً في زهرته التي هي خلاصة الكتاب حتى تشمل الفائدة من لم يتسع له الزمن لدراسة الكتاب. ونبتدئ الآن بإيراد ما في الكتاب من المباحث باختصار، فنقول: إن مباحثه تسعة: الأول: أن الإنسان مسوق بغريزته للعلوم عاشق للحكمة وكيف أن هذا الميل العجيب أوحى إليه معرفة الأعداد المنطوية في نفسه، وقاده إلى استنتاج مضاعفات الأعداد وترتيبها من الواحد وإيصالها إلى أبعد غاية بل إلى ما لا يتناهى، مع ما اندرج فيها من عجائب الجبر والأعداد المتوالية، ثم طبق ذلك على حساب الخطوط والسطوح والأجسام، وانتهى به إلى الفلك فحسب الأجرام السماوية بهذا الحساب، ثم طبقها على النواميس الطبيعية، وانتهى منه إلى الله عز وجل مبدع الخلائق كلها والنفس المتضمنة ذلك كله. الثاني: بحث واسع في علم الفلك الحقيقي والهيئة. الثالث: درس علم الطبيعة مع إيضاح قوانين « نيوتن » و« كيبلر ». الرابع: مبحث واسع في علم النبات وأعجب الخواص الغريبة لحياة النباتات. الخامس: مبحث مسهب في الحيوان وسلسلة ارتقائه مقارناً بين مذهب اليونان والعرب وبين مذهب « داروين » من علماء الإفرنج في ذلك وشرح فيه مسألة ترتيب الحيوان شرحاً وافياً جداً، حتى إنه لم يأل جهداً في إيضاح ما يسميه « داروين » بقاء الأصلح والأوفق للوجود والارتقاء الذي تسميه العرب دائرة الوجود، وترتيب المواليد وارتقاء بعضها عن بعض بنسبة عجيبة. وقد ذكر المؤلف أن مذهب « داروين » كان معروفاً قديماً عند علماء العرب واليونان، وأنه كان يسمى دائرة الوجود، وأنهم كانوا يقولون العالم مرتب هكذا: « المادة الأثيرية، العناصر، المعدن، النبات، الحيوان، الإنسان، الملك »، والله فوق الدائرة. وكانوا يربطون الإنسان بالحيوان في القرد والفيل والبلبل والحصان، ولكنه ليس بالاشتقاق الذي يذهب إليه « داروين »، ويقول المؤلف: إن مذهب « داروين » محصور في الإنسان والحيوان فقط، فهو لذلك قوس من الدائرة التي شرحها العرب، وأن داروين ربط ما بين الإنسان والحيوان بالقرد وحده، فاستنتج من ذلك قصور « داروين » عن العرب من وجهين: الأول: ضعف الرابطة. الثاني: قصور البحث على قوس من الدائرة. السادس: علم التشريح أي تشريح الجسم الإنساني. السابع: علم النفس وفيه شرح فوائدها وملكاتها وتأثيرها في العالم في جميع الأزمان. الثامن: الوحدة العامة في العالم وهي ظاهرة في هيئة الأمة ونظام الكون، بمعنى أن هيكل الأمة منطبق تمام الانطباق على هيئة نظام هذا الكون المتقن. وقد أثبت ذلك بإيراد آيات قرآنية وبآراء قدماء الفلاسفة كفيثاغورس والعلامة الفيلسوف الفارابي.

التاسع : في العمران الإسلامي والسعادة والحرية وجدول للعلوم والفنون التي يراها المؤلف موافقة لأن تعرض على بساط البحث والتمحيص لتنتشر في هذا العصر الحاضر بين المسلمين، وواجبات المعلمين الذين يخصصون أنفسهم لهذا التعليم. وأهم هذه الواجبات هو الرجوع دائماً إلى القرآن والسنة. وقد ختم هذا المبحث بالغاية العظمى التي تنشأ عن السياحات شرقاً وغرباً طلباً لدراسة أحوال الأمم شرقية وغربية. وقد أنشأ المؤلف نظرية في التوحيد أي « الوحدة العامة » عجيبة بفطنة وحكمة وذكاء عجيب ومهارة فائقة ودراية تامة منطبقة تمام الانطباق على مبادئ القرآن وملائمة كل الملاءمة لما شرحه العرب من دائرة الوجود والنظريات الإفرنجية والدورة الفلكية وسلسلة المواليد الثلاثة في الطبيعة، وهي نظرية الترقي من البسيط إلى المركب ومن الجزء إلى الكل التي بنى عليها المؤلف طريقة الوحدة العامة. وكما أن الواحد نشأ عنه جميع الأعداد التي لا تتناهى فهكذا نشأت الأنواع التي لا تنتهي من فعل الله عز وجل « صفحة نمرة ٩٠ وما يليها »، ولا جرم أن هذه منطبقة تمام الانطباق على دوران الأفلاك ومذاهب العرب والإفرنج في سلسلة الموجودات الطبيعية والمواليد الثلاثة. وللمؤلف عناية كبرى برد كل اعتراض يمكن وروده عليه فهو بهذا دائم الاحتراس.

ولقد أنحى المؤلف على جملة من العلماء المسلمين لا المحققين « صفحة نمرة ١٨ » ورماهم بجهل مقصود القرآن وفحواه لقصورهم واقتصارهم على علم الفقه الإسلامي، إذ ظنوا أنه وحده ينجي في الحياة الدنيا والآخرة، وذكرهم بأنهم فاتهم أن المسيحيين بنبوغهم في العلوم العقلية والنواميس الطبيعية والحكمة والأدب قد سبقوا المسلمين شوطاً بعيداً، مع أن ما صرفوا فيه عنايتهم وأفرغوا فيه جهدهم هو مقصود القرآن والغرض الحقيقي منه. إن القارئ لهذا الكتاب يصادف عجباً عجاباً فيه وأمراً مدهشاً غريباً.

يرى أن المؤلف يقارن ما بين معجزة خليل الله إبراهيم المذكور في القرآن وهي آية الطير وإبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٠].

يقارن المؤلف بين هذه القصة وبين التحليل والتركيب الكيماويين للماء « صفحة نمرة ١٢٤» ذلك أن خليل الله إبراهيم طلب من الله دليلاً ليطمئن قلبه ويصدق بطريق الحس والمشاهدة بمسألة البعث، فأمره الله بذبح طيور معلومة فذبحها ثم قطعها ثم أمر بندائها فحييت، فكان ذلك اطمئناناً لإبراهيم عليه السلام، فمن مهارة المؤلف المدهشة مقارنته لهذا بالتركيب والتحليل الكيماويين. وحقيقة أنه لا فرق بينهما، وبذلك صار علم الكيمياء من دلائل اليقين في التوحيد الإسلامي، فصار طلبه من أهم علوم التوحيد والقرآن يأمر به.

وبالجملة فإن المؤلف بتفسيره العجيب الدال على حكمة عالية وعلم غزير واقتدار تام لآيات القرآن يثبت اتحاداً تاماً بين الاكتشافات المتجددة العصرية ومعاني القرآن، ويستدل على ذلك بآيات من الكتاب المقدس « القرآن ».

صرح المؤلف في « صفحة نمرة ٦١ » بأن من عرف تفسير القرآن والعلوم العصرية ولم يبين للناس اتحادهما ويفهمهم تلك الحقيقة فذلك آثم أشد الإثم لشدة حاجة المسلمين لذلك. وأكد في « صفحة ١٢٤ » أن المسلمين الذين يظنون تنافي القرآن والنواميس العلمية هم أجهل الناس بالأمرين وأبعدهم عن كلا الحقيقتين، ثم تمنى المؤلف أن تغرس بذور الفضائل الإسلامية في عقول المسلمين بعناية تامة حتى يتجنب الشبان المسلمون ما أورثته المدنية الغربية لأبنائها والمفاسد الناشئة من إطلاق العنان للنفس وترك حبلها على غاربها بلا لجام يكبحها ولا زاجر يردعها.

وقد شبه المؤلف مجموع الأمة بآلة ميكانيكية لن تظهر نتائجها ويدوم عملها إلا بصلاح كل جزء منها أولاً وحسن تركيبها وانتظامها ثانياً. فكما أن الآلة لا تدوم إلا بقوة كل جزء منها وبحسن تنظيمها وتركيبها فهكذا الأمة لا دوام لها إلا بصلاح أفرادها أولاً وبالنظام الشامل والدستور المنظم لأجزائها المبني على العلم، وبالحكومة العادلة ثانياً. هذا مقصود كثير من تعاليم الكتاب.

نحن لا يسعنا إلا الاعتراف للشيخ طنطاوي جوهري بسعة المدارك. والاطلاع الواسع المقرون بعقل رزين وحكمة وذكاء، فانظر كيف أتى بالفلسفة العالية والنواميس الطبيعية وفنون الآداب العربية الواسعة وأبرزها بمهارة وعبارة عالية ثمينة وبلاغة باهرة تترقرق حسناً وتتيه عجباً تكاد تسيل سلاسة ورقة كالماء الزلال سهولة وانسجاماً مملوءة حياة وحكمة. وليس إجلالنا لهذا الأستاذ لما تقدم فقط بل لأنه أيضاً ترجم آراء مؤلفي الإنكليز مثل « أنبري » و« سبنسر » و« داروين »، وبحث في الفلسفة الإغريقية واللاتينية وجمع زبدة آراء جميع العصور المختلفة وحصرها في كتاب صغير بعبارة جميلة دقيقة كما وصفناها واتبع الفائدة أينما وجدها.

الشيخ طنطاوي جوهري رجل فيلسوف حكيم بمقدار ما هو عالم بالدين، وبهاتين الصفتين قد فسر القرآن الذي أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة للطباع البشرية وموافقة للحقائق العلمية والنواميس الطبيعية أيما موافقة، بخلاف فريق من العلماء الغابرين الذين وقفوا على القشور وجمدوا على الألفاظ جموداً معيباً أدى إلى انحطاط المدارك الإسلامية في الأعصر المتأخرة فانحطت بذلك الأمم الإسلامية. فبهذه المباحث يخاطب المؤلف الأمم الإسلامية عموماً وعشاق البحث من كل أمة ويحاول إزالة الغشاوة عن أعين الأمم الإسلامية وتحرير عقولهم من الجمود المخيم عليها في جميع الأقطار وسائر الممالك على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم، حتى إنه لا يخص مذهباً دون مذهب ولا مملكة دون مملكة، بل إنه فوق ذلك يخاطب كل عاقل يريد الحياة والاطلاع على الحقائق من أي دين وأي نحلة ببلاد الشرق، لأن بحثه عام في الكائنات ونداءه عام حتى يلتحق الشرق الأدنى بالأمم الغربية في المعارف والعلوم والمدنية والحضارة. انتهى.

بعد أن انتهت المجلة من تقريظها كتاب « نظام العالم والأمم » كتبت كلمة عن كتاب « التاج المرصع » ترجمنا منها ما يأتي: هذا المؤلف أهدي إلى « الميكادو » ليقدم إلى مؤتمر الأديان الذي انعقد في سنة ١٩٠٦ م باليابان. إن إحالة المؤلف بالإشارة ولسان الحال للقارئ على كتاب « نظام العالم والأمم » في كثير من مباحث الكتاب يدلنا على أن الكتابين يرميان لغرض واحد، وأن الكتاب « التاج المرصع » كمتمم لـ « نظام العالم والأمم ».

وقد وعد حضرة محمود سالم بك المؤلف أن يترجمه إلى اللغات الأوروبية في حين أن شاباً قازانياً ترجمه فعلاً إلى اللغة التركية ونشره في فارس والروسيا وختم مقدمته بنشر صورة الجواب الذي أرسله إلى « الميكادو » وذكر موضوعه وسبب وضعه. إن القارئ لهذا الكتاب يستنتج أن من اطلع على الحقائق العلمية ودرس غوامض الفلسفة وخلا من الغرض والتعصب فإنه يجدها منطبقة تمام الانطباق على الدين الإسلامي. انتهى التقريظ. وقد ترجم من الفرنسية بقلم محمد أفندي عبد العزيز والمرحوم صالح بك حمدي حماد.

أنواع تبيين القرآن في الإرشاد خاصة

اعلم أن ما تقدم من الخطبة التي ألقيت في جماعة المستشرقين وما ذكرته الجمعية الأسيوية الفرنسية إنّما ذلك في التبيين العام. أما التبيين في الإرشاد خاصة فإنه على ثلاثة أقسام: تبيين هو موعظة، وتبيين هو مجادلة، وتبيين هو حكمة، كما قال تعالى في سورة « النحل »: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[الآية: ١٢٥].

فهل تحب أيها الذكي أن أحدثك عن هذه الثلاثة؟ نعم أحدثك لأنه الله اختصر الكلام في القرآن، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد: « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً »، فإذا أطلت الحديث فهو جميل وبيان، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩].

أما الموعظة الحسنة فمثل: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[النور: ٣٥] الخ ومثل آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[البقرة: ٢٥٥] الخ، إذ ملخصها بيان عظمة الله من حيث قدرته ومن حيث علمه، فعظمته من حيث قدرته في قوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وعظمته من حيث علمه في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[البقرة: ٢٥٥] الخ، وهذه تكفي للعموم.

وأما المجادلة بالتي هي أحسن فمثل قوله بعدها: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فإن ملخصها محاجة إبراهيم عليه السلام للنمروذ ببابل. ولما كان الجدال يجب أن يكون في موضوع يقر به الخصم إذا سمعه والقوم كانوا صابئين يعبدون الكواكب؛ ذكر له إبراهيم عليه السلام الشمس فأعجزه إذ قال له: إذا قتلت رجلاً مجرماً وعفوت عن آخر واعتبرت أن هذين إماتة وإحياء فماذا تفعل بالشمس إذ أتى الله بها من المشرق فلتأت بها أنت من المغرب. فهناك بهت الذي كفر. وهذه المجادلة ترجع لإلزام الخصم. وقد قال العلماء: إنها لا تكون إلا من المعاندين وهم ليسوا في الدرجة العليا من التفكير ولم يبقوا مع العامة يؤمنون بالتقليد. أما أهل الحكمة فالحجة تقام لهم، فاعجب كيف ذكر الله ذلك في سورة « الأنعام » فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام: ٧٥]، فذكر الكواكب والقمر والشمس، وانتهى بقوله: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[الأنعام: ٧٩]، وإنّما وجهه له لأنه وجد الكوكب آفلاً والقمر آفلاً والشمس آفلة فقال: أنا ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾[الأنعام: ٧٦]، لأن الآفلين متنقلون والمتنقل حادث، فكيف أحب من يغيب عني والله لا يصح أن يغيب عني لأنه يمسك

السماوات والأرض أن تزولا ، وذلك لأن المادة كلها عبارة عن عناصر ترجع إلى ذرات كهربائية ، والكهرباء والنور حركات في الأثير والحركات أعراض ، فلولا أن هناك ممسكاً لها يدمجها ويثبتها لم يكن لنا وجود ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص:٨٨] ، فكيف أحب ما حركته وانتقاله دالان على أن وراءه من له الحكمة والجمال والعلم والقدرة والتصرف ، والحب إنّما يتوجه إلى القوة والجمال والعلم ، وأي قدرة أعظم وعلم وأحكم وجمال أبهى وغنى أوسع مع الدوام في ذلك كله إلا في الله . لذلك وجهت وجهي إليه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام:٨٣] ، فهذه الحكمة المذكورة في « الأنعام » هي المعبر عنها بالحكمة في سورة « النحل » ، ولم يقل الله في محاجة النمروذ ذلك ، فلا ذكر أنها حجة ولا قال بعدها : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾[الأنعام:٨٣] ، بل قال : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[البقرة:٢٥٨] ، وهذه من أعجب وأبدع ما جاء في القرآن من اللطائف ، وإنّما لم أكتبها في سورة « البقرة » أو في سورة « الأنعام » لأن الله يفتح علي بها إلا الآن في هذه الآية ، مع أنها بالبقرة والأنعام أولى وأحق والله هو الهادي القائل في هذه السورة ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣] فلنسر على هدايته ونكتب ما فتح الله به ، والحمد لله رب العالمين .

ومن الحكمة التي لا تعرف إلا بعد البحث والاستقصاء والتي لم تظهر ثمرتها في زماننا إظهاراً لمعجزات القرآن الحكيم ؛ وقد كانت مجملة غير مفصلة في الأزمان الغابرة ؛ ما جاء في سورة « البقرة » أيضا بعد آية الكرسي ببضع آيات ، إذ يقول الله في ثنايا الكلام على الإنفاق والتحريض عليه : ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[البقرة:٢٦٨-٢٦٩] . فاعجب للقرآن الذي يبين للناس أموراً دقيقة مثل هذه المسألة ، ألم تر أن زماننا ظهر فيه بأجلى بيان . اقرأ كتابي « أين الإنسان » الذي أرسلته لمؤتمر الأجناس . ألم تر أن البرهان قام على أن سعادة الناس كلهم بأن تكون العقول كلها قد وصلت إلى أقصى ما يصل إليه الإمكان ، وبأن الأرض كلها تستخرج منافعها ، وأن المجموع الإنساني يكون كله متعاوناً ، وأن التقصير في هذا ضار بالمجموع .

إذن إنفاق المال للفقراء الوارد في شريعتنا الغراء جزء من المساعدة العامة للإنسانية ، فالشرقي والغربي بظهور آثار عقولهم وآثار منافع أرضهم يصبحون في سعادة لم يحلم بها الأولون ، وهناك يظهر سر قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[محمد:٤] ، وسر أنه صلى عليه وسلم رحمة للعالمين ، وأي رحمة أعظم من أن تنزل آيات محرضات على بذل المال للمنافع العامة ، ثم يدخل في غضون تلك الآيات ما يفيد أن الحكمة هي الخير الكثير ، وأن هذه الحكمة لا يتذكرها إلا أولو الألباب ، فالحكمة أجل شيء يبتغى ، ولماذا يذكرها الله عند التحريض على الإنفاق ولم يذكرها في موضع آخر من القرآن ، مع أن الصلاة أفضل من الزكاة وقد قال في الصلاة : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[العنكبوت:٤٥] ، ولم يذكر الحكمة بعدها كما صنع في آية الإنفاق ولم يقل : إن الحكمة خير كثير ، ولم يمدح أولي الألباب بعدها .

فلعمرك ما ذاك إلا لما اندمج في مسألة الإنفاق من المساعدة العامة، والشيطان من عادته أن يفهم الإنسان أن المدار على سعادته وحده وعلى منفعته الخاصة، والله يحب منا منفعة العموم، ومنفعة العموم ترجع لإسعادنا أيضاً. فالنفع العام أدخل في إصلاح الأفراد من اقتصار الأفراد على النفع الخاص. وملخص هذا أن الناس قسمان: قسم لا يحب إلا نفسه فيسعى لها وهو لا يبالي بالمجموع، وقسم يسعى للمجموع مع محافظته على نفسه، فالأول خال من الحكمة والثاني متصف بها.

والأول تعاليمه شيطانية والثاني تعاليمه حكمية، والإسلام جاء للحكمة العامة لا الخاصة، وقد نشر في الشرق والغرب في مدة قليلة، ولكن لما اعتنق الإسلام أمم لا تعرف أسرار اللغة العربية خرج منهم ملوك وعلماء قنعوا من الدين ببعضه وعكفوا على شهواتهم وسخروا الأمم لها. فقال الله لهم: كفوا أيها المسلمون ودعوا حكم عبادي وسأنشر الإصلاح في الأرض على يد من أشاء، فظهرت حركة الإصلاح في أوروبا وأمريكا واليابان، وهناك جمعية تسمى جمعية الأمم بأوروبا، وقد قدمت لك أن هذه لم تقم بالواجب لأنها جمعية لفظية لا معنوية، وقد ذكرت هذا المعنى في أول سورة «الأنفال»، وقد طابق ذلك ما أعلنه محافظ كابول من أفغانستان في خطبة له بمصر، ذكرتها عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[المؤمنون: ٥١] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾[المؤمنون: ٥٢-٥٣]، فارجع إليه في سورة «المؤمنون».

فهاهو ذا الزمان قد آن أن يستدير ويرجع الأمر للمسلمين ومن معهم، ويقومون بإصلاح النوع الإنساني ومن معهم من الأمم. وهنالك تظهر الحكمة في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[الآية: ٢٦٩] الخ، الذي هو قسم من أقسام الحكمة المذكورة في سورة «النحل» الداخلة في قوله تعالى هنا: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[النور: ٤٦]. فهذا هو التبيين في القرآن. ففي القرآن تبيين ولكن الله ادخر كثيراً منه لأمم تعقله وتلك الأمم ترجع الدين لحاله في العصر الأول، أولئك الذين كانوا يراعون المنفعة العامة حتى إنهم إذا حاربوا أهل الكفر وقاتلوهم لم يراعوا إلا المصلحة العامة، فقتل صناديد قريش في واقعة بدر وأمثالها يرجع إلى إصلاح آلاف مؤلفة بقتل أفراد قليلة، كما أن نهر النيل والفرات والهواء والنار والشمس نافعات للعموم ضارات للقليل، كإغراق ناسك وموت صبي بهواء فاسد وإحراق عجوز وموت شيخ بضربة الشمس، فهلاك هؤلاء لا يقدح في إسعاد المجموع.

ومن عجب أن «بنتام» الإنكليزي مؤلف «أصول القوانين» قد نحا نحو هذا، فجعل القوانين مبنية على أن العموم مقدم على الخصوص، وأن قتل القاتل وإن آذى أهله فقد سر الناس كلهم، والمسرة العامة خير من الخاصة، ولم يكن هذا الإهلاك مقصوداً بذاته من خلق الهواء والماء والشمس، كلا، بل المقصود النفع العام. هكذا قتل بعض الكفار في بعض الحروب قصد منه الحكمة التي قصدت في خرق السفينة وقتل الغلام، كلاهما لإصلاح أعم فخرق السفينة لتبقى في يد أصحابها الأيتام فلا يأخذها الملك غصباً، وقتل الغلام لأن العلم بمصلحة أعم لذويه أوجب قتله، وقد راعى المصلحة عمر رضي الله عنه فلم يقطع اليد أيام المجاعة بالسرقة في قصة سرقة الإبل المذكورة في سورة «الكهف»

راجع هذا المقام كله هناك فسترى كلام علماء الإسلام وما كتبته مع كلامهم هناك، لتعلم أن دين الإسلام جاء للحكمة العامة وأن فيه أسراراً بينها الله في هذا الزمان. وهذا هو الذي فتح الله به قبيل فجر يوم الخميس ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وفي نفس صلاة الصبح عند قراءتي في الصلاة: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام: ٧٩]، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية: من قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾[الآية: ٥٥] إلى قوله: ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[الآية: ٥٧]

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته، وأقسم ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم، ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مثل بني إسرائيل إذ استخلف داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء وأورثهم هم وقومهم بني إسرائيل أرض الجبابرة وديارهم، ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من الأعداء ﴿ أَمْنًا ﴾ منهم. ثم استأنف لبيان المقتضى للاستخلاف، فقال: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ الجملة حال من «الواو» في «يعبدونني»، أي: يعبدونني غير مشركين ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي: كفر هذه النعمة ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد الوعد أو حصول الخلافة ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون في فسقهم إذ كفروا تلك النعمة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ في سائر ما أمركم به ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول على رجاء الرحمة ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: لا تحسبن يا محمد الكفار معجزين الله عن إدراكهم وإهلاكهم، و«في الأرض» متعلق بـ«معجزين»، ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا معجزين ومأواهم النار ﴿ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي: المأوى الذي يصيرون إليه. وهنا أربع لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾[الآية: ٥٥] الخ

قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين، ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه، فقال أحد منه: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فأنزل الله هذه الآية. ومعنى «ليستخلفنهم» والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها، وقد أنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض، روى البخاري عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها ولقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد. ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة

لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فليقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب. فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم، قال عدي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة». قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، قال: ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهباً الخ، وعن حفينة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً، ثم قال: أمسك. ولقد كانت خلافة أبي بكر سنتين وتسعة أشهر، وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، فتكون خلافة الخلفاء الراشدين إذن تسعاً وعشرين سنة وستة أشهر، وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن هي ستة أشهر ثم نزل عنها لمعاوية.

اللطيفة الثانية

قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ إن أول من كفر بهذه النعمة وجحدها ولم يقم بواجبها أي بواجب نعمة النصر والتمكين في الأرض والأمن الذين قتلوا عثمان، فلما قتلوه غير الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً.

اللطيفة الثالثة

أين وعد الله للمسلمين اليوم وهم في الأرض خائفون وجلون؟ لأذكر لك ما كتبته في كتاب «القرآن والعلوم العصرية» على هذه الآيات تحت العنوان الآتي:

الإسلام دين علم وعمل

أيها المسلمون الإسلام دين علم وعمل. ولما ضلت الممالك الإسلامية الكبرى سواء السبيل فجهلت العلوم الكونية والعقلية لم يصلحوا لهداية العالم المتعلم، فنبذهم الإسلام فلم ينصروا على أعدائهم من الأوروبيين، وأصبح المسلمون يلتمسون العلوم من الأمم الأوروبية ويستضيئون بأنوارهم ويهتدون بهديهم ويرتوون من مواردهم ويكرعون من مشاربهم. أوليس ذلك دليلاً على أن الأمم الإسلامية الكبرى جهلت الحقائق وظنت أن المسلم لا يعنيه العلم، والجهل يكفيه والقوت يرضيه وهو غافل عما أبدع الله في الأرض والسماوات، وبرأ فيهما من البدائع وأحسن فيهما من صنع وأبدع وأجاد وذرأ من كل زوج بهيج. لهذا السبب ذهبت الأمم الإسلامية فأصبحوا لا ترى إلى آثار آبائهم لأن الجهل بالعلوم خيم فيما بينهم وضرب عليهم سرادقاته، فضربهم الدهر ضرباته فذل العزيز وعز الذليل وخضع العظيم وعظم الحقير، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦].

كنا الجهابذة الكبار ... كم قائد سلك القفار

وبجيشنا قطع البحار ... وطغى على أعدائنا

إنا ملكنا المشـرقين إنا ملكنا المغـربين
إنا قرأنا الحكمتيـن العلـم والإيمانـا

ألستم أنتم السواد الأعظم في الكرة الأرضية؟ ألم يأمركم الله أن تأخذوا حذركم وتبنوا مجدكم وترفعوا رؤوسكم وتتعلموا ما نشر الله في الأرض من علم وما أنعم به من صناعة؟.

فصل

في وعد الله للمسلمين بالتمكين في الأرض والاستخلاف فيها

ألم يقل لكم في كتابكم الكريم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

أليس هذا كلام ربكم المنزل على نبيكم وأنتم المخاطبون به؟ فبالله عليكم يا معاشر المسلمين في أقطار الأرض أنتم اليوم أكثر عدداً وأعظم مدداً فماذا جرى حتى عجبنا كل العجب من أنا مسلمون وقد تخطانا هذا الوعد بأن يستخلفنا الله في الأرض ويمكن لنا في الأرض ويبدلنا من بعد خوفنا أمناً، والتمكين فيها وتبديلنا من بعد خوفنا أمناً وعد من الله لنا والله لا يخلف وعده قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١١١].

يعجب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها. المسلمون الذين يبلغون ٣٥٠ مليوناً من بني آدم يعجبون ويقولون: نحن مسلمون ونحن نعمل الصالحات فأين استخلافنا في الأرض؟ ونحن أينما توجهنا فالقتل على رقابنا والذل محيط بنا وأمم الفرنجة يطاردوننا.

فصل: في أن المسلمين ينقصهم أمران: الاتحاد والعلم

أقول: على رسلكم يا معاشر المسلمين، لا تظنوا أن عمل الصالحات قاصر على ما تعملون فإنكم ينقصكم أمران: الاتحاد فيما بينكم عربيكم وعجميكم وأبيضكم وأسودكم وأصفركم، والعلم بما ذرأ الله في السماوات والأرض من عجائب الخلقة وبدائع الحكمة ونظام البرية، وما أبدع في السماوات والأرض من كوكب، وما بث في الأرض من دابة ونبات. ودليلي على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٥]. بهذا أنذركم الله إذ قال: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[الأعراف: ١٨٥] فكأنه وعد بالاستخلاف المتقدم للأمة الإسلامية الناظرة في ملكوت السماوات والأرض المفكرة فيما خلق الله المتعلمة كل صناعة وحرفة حتى لا يفوتها صنعة من المدفع إلى الإبرة ومن القطار إلى المنشار ومن علم الطبيب والبيطار إلى صناعة الموسيقار. نعم وعدنا الله بالاستخلاف في الأرض إذا فقهنا وعقلنا كلامه.

أوَليس من العار أننا غفلنا عن السير في الأرض والأخذ بما هو أجمل وأحسن وقد عقلت الأمم وتعلمت وجهلنا وارتقوا وانحططنا، فلذلك جاء القرآن موبخاً ومنكراً على الجاهلين بما أبدعت الأمم من الصناعات وما أنشأت من المصانع وما أحكمت من بناء وما عممت من زراعة وما أحسنت من صناعة وما أقامت من سياسة وما نظمت من طرق وما أرسلت من قطار وما أطارت من بخار وما سيرت في الجو

من طيارات ومناطيد وما بنت من مدارس وما علمت من تلاميذ وما رفعت من صروح. فقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[الحج: ٤٦].

ولما كان المسلمون كثيراً ما يسيحون في الأرض ويرجعون إلى أوطانهم بخفي حنين ثم هم لا ينذرون قومهم إلا قليلاً ولا يعتبرون بما رأوا ولا يرسلون جماعات منهم تتعلم إلا قليلاً أردفه الله بقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

أيها المسلمون إنه لينقصكم أمران: الاتحاد والعلوم، فإذا اتصفتم بهما تم وعد الله لكم في الأرض بالاستخلاف والتمكن في الأرض وأن يبدل خوفكم أمناً في الآية المتقدمة، وهاأنا ذا سأشرح لكم كيف تتحدون وكيف ينشر العلم بينكم.

ضرب مثل لحال المسلمين مع غيرهم

ألا إنّما المسلمين المستبصرين وغيرهم كمثل جماعة سفروا في طريق طويل فأخذ جماعة يركبون الإبل والبغال والحمير والخيل، وأخذ جماعة آخرون يركبون القطار فتخلف الأولون وفاز الآخرون، وحجة الأولين أنهم يتبعون ما سن آباؤهم ويتغنون بحدائهم ويترنمون بأشعارهم فوق إبلهم. وحجة الآخرين أن العقل أن نأخذ بالأحسن والأقوى والأسهل، ويقولون: قال الله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[الزمر: ١٧-١٨]، فالله عز وجل بشر العباد الذين يتبعون أحسن القول. ولا جرم أن القول بركوب القطار أحسن من القول بركوب الإبل، أفليس من العار علينا أن يسبقنا الأمم ونحن غافلون مفكرون.

معنى الجهاد

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[الصف: ١٠-١٣].

هذه الآية ذكر فيها الله لنا تجارة ودلنا عليها وجعل تلك التجارة تنجينا من عذاب أليم. ما هي التجارة؟ هي أن نؤمن بالله ورسوله ونجاهد في سبيل الله بأموالنا وأنفسنا، وضمن لنا بذلك أمرين: الجنة في الآخرة، والنصر في الدنيا. طلب الله منا أمرين وضمن لنا أمرين. طلب الإيمان والجهاد، وضمن الجنة في الآخرة والنصر في الدنيا. أما الإيمان فمعلوم. وأما الجهاد فأنا أشرحه لكم. يظن الجهال أن الجهاد إنّما هو حرب الكفار وحده. كلا، إن الجهاد كما نص عليه علماء الفقه لا يخص حرب العدو بل يشمل سائر الأعمال العامة، فترقية الصناعة والزراعة ونظام المدن وتهذيب النفوس وإعلاء شأن الأمة كل ذلك جهاد لا ينقص عن توجيه البندقية والمدفع إلى صدر العدو.

إن الصف المجاهد المحاذي للعدو لن يقدر على هذا الموقف إلا إذا كان وراءه حكومة في بلاده منظمة فيها صناعات محكمة، لتصنع له المدافع والبنادق، ولتزرع الأرض ولتسمدها، ولترسل له الذخيرة، فمن ظن أن زارع الأرض المستخرج ما فيها والحداد والصانع للمدافع والقطار والنجار المكمل

لكل منهما والخباز الخابز لهما وللجندي، من ظن أن هؤلاء أقل أجراً في الآخرة من الجندي الذي أحضرت له أعمال هؤلاء وهو في معمعة القتال، فقد جهل الدين وطاش سهمه وهو من الغافلين.

إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من إحدى غزواته قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس». أفليس ذلكم يا معاشر المسلمين دليلاً على أن جهاد النفس أرقى من جهاد العدو؟ وجهاد النفس بترك الكسل وبإحكام الصنعة وبترقية شأن الأمة وبالسياحة في الأرض وبترك الشر وتهذيب النفس، فالمهذب لنفسه مجاهد، والمحكم لصنعته مجاهد، والمسافر ليعلم المسلمين ما شاهد مجاهد، والعالم مجاهد. ولقد ورد ما معناه أن مداد العلماء كدم الشهداء. ولعمري لقد عظم أمر العالم وفاق شهيد المعركة. ذلكم العالم الذي يزرع العلم والبركة في نفوس آلاف من الناس هو خير من آلاف من الشهداء.

هاأنا ذا قد بينت معنى الجهاد، والإيمان واضح من نفسه. ولا جرم أن الله ضمن لمن جاهدوا هذا الجهاد أن يدخلهم الجنة وينصرهم على عدوهم. فليجاهد المسلمون وليعرفوا جميع العلوم والصناعات التي منها العدد الحربية والآلات الصناعية والخدع الحربية والسياسات المدنية، فإن الله ضامن لهم النصر.

هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً. وليس النصر مضموناً لنا ونحن غافلون. إن الله أمرنا بالنظر والتعقل والتفكير. أوليس هو سبحانه القائل للمسلمين وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب: ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢]، فإذا كان الله يقول لنا ونحن في الصلاة وقت الحرب: خذوا حذركم، خذوا أسلحتكم، فإن الكفار ربما مالوا عليكم ميلة واحدة فقتلوكم، فهل منزل هذا يرضى عن أمة تنام عن العلوم والمعارف والصناعات؟ هل ينصر الله أمة غافلة؟ إن الله وعدنا النصر بعد الجهاد الكامل بالعدد التي تناظر ما عند العدو التي صرح بها في قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ولقد أطلت في هذا المقام لتبيين السبيل، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: إيضاح قوله تعالى:

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

ليعجب المسلمون من هذا القرآن الحكيم كيف أخبر أن الله سيمكن للمسلمين في الأرض وقد تم هذا كما تقدم، وكان الخلفاء الراشدون وغير الراشدين، ثم كيف ملكوا أكثر المعمورة قديماً وهذا معروف مشهور، ثم انظر كيف كان الأمر بالعكس في القرون الأخيرة، وكيف أخبر أيضاً بذلك إذ قال: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]. يخبرنا الله بما هو حاصل اليوم في بلاد الإسلام. ولعلك تقول: هل المسلمون كفروا؟ أقول لك: هذه النعمة هي السبب في الجهل العام في الإسلام. يحمل الناس الكفر على كفر الدين. ولكن الكفر هنا كفر النعمة. ألا ترى كيف قال المفسرون رحمهم الله تعالى: إن أول كفر للنعمة كان بقتل عثمان، ولو أن الصحابة والتابعين رأونا في

العصر لقالوا: قد كفر المسلمون بنعمة ربهم لأنهم قد تركوا الملك الذي أعطاه الله لهم. تركوه وما حفظوه، لم يحفظوا الملك أي: لم يحفظوا النعمة، أي: تركوا بلاد الله فلم يعمروها وتركوا ما فيها من الكنوز والمنافع وناموا على بساط الراحة، فيا عجباً للمسلم، أيظن أن الله يعطيه الأرض ويملكه إياها ثم هو ينام ولا يصلحها ولا يقوى على عمرانها ويبقيها في يده؟ كلا إن الله قيوم، أي: قائم بتدبير الملك، فمن لم يكن متخلقاً بخلقه خلعه من ملكه وأقصاه، وهذا هو معنى قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[النور: ٥٥].

سيقول جهول من الذين ينتمون للإسلام: حينئذ قد حكمت على أمة الإسلام اليوم بأنهم فاسقون. أقول: أنا لم أحكم وإنّما أذكر أمثال هذا بما قاله علماؤنا. إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والمسلمون اليوم عالة على أوروبا فلا كفاية لديهم من هذا القبيل، وفرض الكفاية متى ترك كانت الأمة كلها آثمة لهذا الترك، فإذن المسلمون اليوم آثمون بترك العلوم والصناعات، وهذا الإثم قد عاقبنا الله عليه باحتلال الأمم الغالبة بلادنا وإذلالنا، وهذا عذاب معجل وسنكون جميعاً في الآخرة ملومين. فهذا معنى كفر النعمة الذي سمى الله المتصفين به فاسقين. ولم يسمهم كافرين كفراً مطلقاً. فالمسلمون اليوم متمتعون بنعمة الإيمان الساذج وليسوا متمتعين بنعمة إصلاح الأرض، والله عز وجل حكيم لا يعطي الشيء إلا لمستحقه، ومستحقه هم العاملون لارتقائه، فأصبحت الآية فيها معجزتان، فصدرها لصدر الإسلام وعجزها للأمم المتأخرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ولكم في هذا القرآن من عجائب وغرائب، وما كان ليدور بخلدي قبل كتابة هذا التفسير أن فيه كل هذه العجائب ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

وقبل أن أترك هذا المقام أشير إلى أمر آخر، ذلك أن الحديث أبان فيما تقدم كيف يكون الأمن في الإسلام وقد تم ذلك كما تقدم. وبقي هناك أمر وهو الذهب والفضة اللذان يعرضان فلا يقبلهما أحد فذلك لم يتم إلى الآن ولعل المستقبل كفيل به، فإن النوع الإنساني إذا أصبح وقد ترك النقود كما يقول «البلشفية» وأصبح التعامل بالمبادلة فإن النقود إذن لا لزوم لوجودها. أقول: ربما اضطرت الدول الحالية إلى الاتحاد شرقاً وغرباً، فقد تنبه الشرق وتعاملوا بالسوية وألغوا النقود كدولة البلشفيك، وهناك يتم معنى الحديث، إذ لا فائدة للذهب والفضة بل الرجل يعمل لمصلحة الجميع ويأخذ ما يكفيه. انتهى الكلام على الجوهرة الثانية.

الجوهرة الثالثة: من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

روي عن ابن عباس قال: وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عند ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

وروي أيضاً أن أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله هذه الآية. وملخصها أن العبيد والإماء والأحرار الذين لم يبلغوا الحلم ولكن عرفوا أمر النساء وهم في سن

التميز يجب وقيل يسن أن يستأذنوا لأجل الدخول في ثلاث أحوال، وهي: من قبل صلاة الفجر، وفي منتصف النهار حين يضع الناس ثيابهم للقيلولة، ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. فهذه أوقات ثلاث عورات لأن كل واحد من هذه الأحوال عورة، لأن الإنسان يختل تستره فيها.

ومعنى العورة: الخلل، ومنها: الأعور المختل العين وهذا هو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾، وهذا القول رجوع لتتميم الأحكام السالفة بعد ما ذكر من الإلهيات ما يشرح الصدور ويوجب الإذعان ويفتح الأذهان. والذين ملكت أيماننا هم العبيد والإماء ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ﴾ يعني الأحرار الذين ظهروا على عورات النساء ولم يبلغوا الحلم وهم في سن التمييز، وبلوغ الحلم يكون بالاحتلام، فإن لم يحتلم وبلغ خمس عشرة سنة فقد بلغ عند الشافعي، ولا يرى أبو حنيفة بلوغ الجارية إلا إذا بلغت سبع عشرة ولا الغلام إلا إذا بلغ ثمان عشرة سنة.

فأما أبو يوسف ومحمد وأحمد فقد وافقوا الشافعي في أن الغلام والجارية يحكم ببلوغهما متى بلغا ١٥ سنة، وقوله: ﴿ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾ أي: ليستأذنوا في ثلاث أوقات هي ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ ﴾ إلى قوله: هي ﴿ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ أي: هي ثلاث أوقات يختل تستركم فيها ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾ بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان، ولا تظن أن هذا ناسخ لآية الاستئذان لأن هذا في الصبيان والمماليك المدخول عليه وتلك في الأحرار البالغين. هم ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم ﴾، هذا مستأنف لتبيان العذر المرخص في ترك الاستئذان، وهذا التعليل يبين أن الأحكام تعلل ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ طائف ﴿ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي يطوف بعضكم على بعض ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي: الأحكام ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشرع لكم. واعلم أن هذه الآية غير منسوخة وإن تهاون الناس بالعمل بها. ويقال: إن ثلاث آيات تهاون الناس بها، وهي هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والناس يقولون: أعظمكم بيتاً، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء: ٨] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ أي: الاحتلام، يريد الأحرار الذين بلغوا ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ ﴾ في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: الأحرار الكبار ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ من الدلائل والأحكام ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأمور خلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بما دبر وشرع، وهذا يوجب أن يستأذن الرجل على والدته وعلى جميع محارمه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي: اللاتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن ﴿ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي: لا يطمعن فيه لكبرهن، ولأن الرجال يستقذرونهن. فأما من كانت فيها بقية جمال فهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الآية ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي: الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار حال كونهن ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أي: غير مظهرات زينة، يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق، أي: لا يقصدن بوضعها التبرج. والتبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ أي: يطلبن العفة عن الثياب

فيسترن ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لما يعلن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يقصدن. قال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم وكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فنزل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ كلام غير ما تقدم، فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[البقرة:١٨٨] قالوا: لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾، ﴿ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم، ويدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيت الولد كبيته لقوله صلى الله عليه وسلم: «أنت ومالك لأبيك»، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه»، ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته، فلا بأس عليه أن يأكل من ثمرة ضيعته، وأن يشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر. وقيل: بيوت المماليك. والمفاتح: جمع مفتح ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي: أو بيوت صديقكم، وهو الذي صدقك في المودة، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط.

واعلم أن هذا إنّما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة، وخصص هؤلاء لأنهم اعتادوا التبسط بينهم، فرجع الأمر في الحقيقة إلى الرضا. وإذن لا فرق بين هؤلاء وبين غيرهم، فالمدار على الرضا، ولم يذكروا في الآية إلا لأن الرضا فيهم غالباً محقق. والحنفية لما رأوا ما جاء في هذه الآية حكموا بأن لا قطع في سرقة مال المحرم.

هذا ولقد كان بنو ليث بن عمرو بن كنانة يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة. ويقال أيضاً: إن قوماً من الأنصار إذا نزل بهم ضيف كانوا لا يأكلون إلا معه. وأيضاً قد تحرج قوم عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطباع في القزازة والنهمة، لذلك أنزل الله هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ مجتمعين أو متفرقين ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا ﴾ من هذه البيوت ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: ليسلم بعضكم على بعض. هذا في دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن في بيته.

قال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته.

حدثنا أن الملائكة ترد عليه، وقال ابن عباس: إذا لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾، قال: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقوله: ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ثابتة بأمره مشروعة من لدنه.

ويصح أن يقال: «من عند الله» متعلق بـ«تحية» التي هي منصوبة بـ«سلموا» لأنها مصدر بمعنى التسليم والتحية في معنى طلب الحياة، وهي من عند الله تعالى. وقوله: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ أي ترجي بها زيادة الخير والثواب. وقوله: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي: يطيب بها قلب المستمع.

وعن أنس رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين». وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ كرره لمزيد التأكيد وإعظام أمر هذه الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الحق والخير في الأمور. انتهت الجوهرة الثالثة.

الجوهرة الرابعة:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾[الآية: ٦٢]

إلى آخر السورة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيماناً صادقاً ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة الأعياد والحروب والمشاورة في الأمور. وإنما وصف الأمر بأنه جامع مع أنه سبب للجمع لا أنه هو الجامع للمبالغة، ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي: حتى يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن لهم.

ولما كان الاستئذان أمراً عظيماً أكده فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فالمستأذن مؤمن لا محالة، والذاهب بغير إذن إذا استحل ذلك كان كافراً ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: ما يعرض لهم من المهام ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فوض الله الأمر إلى رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذن يكون بعض الأحكام مفوضاً إلى رأي الرسول صلى الله عليهم وسلم وبعضهم يقول: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذا وثقت بصدقه في العذر. وهكذا الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن.

ولقد كان المنافقون يوم الخندق يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان. وقال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده.

قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بالإذن. وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن، وهذا كله إذا لم يكن حدث سبب يوجب عليهم الخروج، وإلا فلا حاجة إلى الاستئذان. ثم قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن، فإن الاستئذان ولو لعذر قصور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرطات العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم. ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، فلا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا نبي الله، أو: يا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض. وأيضاً لا يجوز الإعراض عند دعائه لكم ولا المساهلة في الإجابة ولا الرجوع بغير إذن.

إذن المبادرة إلى إجابته صلى الله عليه وسلم واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ ﴾ أي: ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة ﴿ لِوَاذًا ﴾ ملاوذة بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج فيروغ أحدكم في خفية فيذهب. وقال ابن عباس: يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ أي: يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي: لئلا تصيبهم فتنة، أي: بلاء في الدنيا ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: وجيع في الآخرة.

هذا ثم إن الله ذكر في هذه الآيات أنه يعلم الذين يتسللون لواذاً، وذكر العلم هنا إيذان بالمجازاة على ما يفعلون، فأعقبه الله بذكر أن علمه عام فكيف لا يعلم أحوالكم الخاصة، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ من الإيمان والنفاق والإخلاص وضده ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ من الخير والشر ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ لا يخفى عليه خافية. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة.

خاتمة

هذه هي سورة «النور» ولقد تبدى لي بعد ما أتممت الكلام عليها أن أذكر كلاماً عاماً يرجع لعموم هذه السورة، فأقول:

انظر أيها الذكي كيف ذكر الله في هذه السورة الحد والقذف ورمي المحصنات الغافلات وملاءمة أخلاق الطيبين للطيبات والخبيثات للخبيثين والملاعنة والعفة وتحريم النظر للأجانب وحله للمحرم والاستئذان عند الدخول وغير ذلك من الأحوال العارضة للإنسان. ولا جرم أن ذلك يدخل في علم القضاء فإن الملاعنة وحد الزنا وحد القذف وما أشبه ذلك لا يكون إلا بأمر القاضي الذي نصبه الخليفة للحكم بين الناس. فانظر كيف فصل هذه الأحكام بما هو غريب عنها وأدخل في خلالها ما ليس منها وفاجأ القارئ بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، وبين كيف يكون الكافرون وأعمالهم كظلمات البحار المائجات فوق موجهن سحاب، ثم أتبع ذلك بذكر عجائب السحاب والبرق، وكيف اختلف الحيوان في عدد أرجله وفي سيره فوق الأرض أو طيرانه في الجو، أما الذي لا بصيرة له فإنه يرى أن ذلك مجرد اتفاق، وأن وضع هذه الآيات أمر لا يرجع إلى مقصد خاص وإنّما هو من الآيات التي توضع وضعاً لم يقصد فيه إلا مجرد الانتقال من حال إلى حال، ولكني أقول لك ما أعلمه:

اعلم أن الله عز وجل لما خص هذه السورة بالأحكام الشرعية أراد عز وجل أن يبين لنا أن هذه الأمور العادية المحيطة بنا لا ينبغي أن تكون هي المقصد الأسمى عندنا، وكأنه يقول كيف تكون هي المقصد الأسمى وما هي إلا أمور يستوي فيها الكافر والمسلم والجاهل العالم.

وما الأحكام في القرآن إلا مهذبات لنفوس الناس حتى يعتدلوا في شهواتهم ويقفوا فيها عند حد خاص، فلا يقذفون المحصنات الغافلات ولا يرمون زوجاتهم إلا إذا تحققوا، ولا يتركون أبصارهم ترتع في شهواتها وتنظر لكل غادية ورائحة من النساء حتى تحفظ قواكم العقلية، فإذن هذه النفوس الإنسانية أشبه بشمعة قد جعل فيها فتائل كثيرة، وكلما زادت الفتائل فيها واتقدت كان ذلك أسرع

ذهاباً وأبلغ ضياعاً وأقرب نفاذاً لها . وكلما قلت السرج المتقدة منها كانت أطول عمراً . والناس إذا لجوا في طغيان شهواتهم وزادوا في غلوائها واتبعوا خطوات الشيطان وأطلقوا لألسنتهم العنان ولعيونهم النظر وما أشبه ذلك كان أذهب لرجحان عقولهم وأضيع لنور أفئدتهم وأسرع هلاكاً لأبدانهم . فليحفظ الناس الألسنة وليغضوا الطرف الذي يشغل العقول بالصور الجميلة فتتحول القوة العاقلة إلى صور مضمحلة فيقل الإدراك ويذهب نور الفطنة وتضمحل القوى العاقلة .

وهكذا يجب على الناس أن يستأذنوا إذا دخلوا البيوت وأن يسلموا على أهل الدار وعلى أهل منزلهم هم أنفسهم ، لتزول الوحشة ويدوم الأنس وتحصل الألفة فيقوم العقل بما خلقه الله له من التفكير . وهكذا لتزوجوا الصالحين والصالحات للنكاح أحراراً وعبيداً لتصرف الشهوات إلى ما هو نافع وليقوم الناس بما أعدوا له من النسل وإكثاره لتسعد الجمعية الإنسانية .

هذه هو المقصود من هذه السورة ، وفي أثناء ذلك قال الله تعالى : إياكم أن تشغلكم هذه الأمور عن العلوم والحكم والنظر في جمالي وحسن صنعتي ، فإن ما ذكر في هذه السورة وغيرها من حفظ الفروج والآداب وحفظ النظر وما أشبه ذلك إنّما هو لحفظ مدنهم وحسن معاشرتكم .

وهذه ما هي إلا مقدمات لما هو أعلى ، وبعبارة أجلى : إن هذه آداب ، والآداب مقدمات للعلوم لأن العلم لا يكون إلا إذا صفت النفوس ، ولا صفاء للنفوس والعقل مضطرب بالجدال والخصام ونفور الجيران وشقاء النظرات وتفرق الخواطر بما تجلبه النواظر ، فإذا أنزلت عليكم ما به تهدأ الخواطر وتقر النواظر ويستتب الأمن فما أحراكم أن تنظروا فيما زوقت وأبدعت وزينت ورقشت ونقشت فذلك هو المقصود وما سواه فإنّما هو تمهيد ومقدمات والمقدمات غير المقاصد .

إياكم أيها الناس أن تظنوا أن القضاء وعلوم الشريعة كافيات لكم . كلا . إن هذه العلوم إنّما أنزلتها لحفظ النظام ، ولقد حفظت نظام النحل في خلياتها والزنابير في بيوتها والغربان في أعشاشها وطيور الكراكي في أسرابها والآساد في آجامها والحمر الحبشية في جبالها ، ولم أذر صغيراً ولا كبيراً في الخلق إلا جعلت له ناموساً معلوماً وصراطاً مستقيماً يسير عليه ، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ ﴾[الأنعام : ٣٨] ، علمتها أمور معاشها وأفهمتها كيف تلد وكيف تبيض وكيف تبني لها الأعشاش ، وأفهمتها كيف تكون سبل الحياة ، فإذا ظننتم أيها الناس أنكم بمعرفة هذه الآداب قد زدتم عن هذه الحيوانات فإنكم واهمون ، فوَعزتي وجلالي لن تفرقوها كمالاً ولن تعلوها إلا بنظركم في جمالي واطلاعكم على بهائي وكمالي .

إني أنا نور السماوات والأرض ، ولن تعرفوا تنويري لهما إلا بأمثال ضربتها لكم وآيات بينتها فاتخذوا من ظلمات الحياة نوراً ومن الآلام المتراكمة في دنياكم نعيماً ، واقرؤوا وجوه الكائنات وسطور المخلوقات ، وافهموا من السراج المتقد في المساجد أمثلة تضيء لكم مشكلات الدجنات فتعرفوا أنواري في ملكوتي ، فلا القضايا ولا البينات ولا الملاعنات ولا الحدود مقصودة من حياتكم ، وإنّما هذه آداب أوجبت أن تكون لتتفرغوا لمعرفة آياتي في خليقتي . ومن ظن أن المقدمات مقاصد فقد جنى على عقله وعلى الجنس البشري أعظم جناية ، فإن الناس بهذه الشرائع لم يصلوا إلى ما وصل إليه الحيوان في حسن نظامه ، فكيف يظن الناس أن ذلك هو مقصود الحياة .

إن الإنسان عليه واجب عظيم هو النظر والفكر وأن يطير بأجنحة الحكمة وطيارات العلم إلى جو من النور بهيج . إني أشتق النور من الظلمات . ألم أجعل النور البرقي يلمع من خلال السحاب ذلك السحاب الذي جعلته متمماً لظلمات البحار في دجنات الحياة؟ السحاب الذي زاد ظلمات الأمواج ظلمات قد أمرت البرق فلمع من خلاله ، وأشرقت أرجاء الأرض بأنواره ، هكذا حياتكم المملوءة بالأخطار المدلهمة في البر والبحر . إني لقادر أن أجعل النور يلمع من خلالها كما لمع البرق من خلال ظلمات السحاب .

إياكم أن تشغلكم الأحوال المنزلية والشهوات البهيمية والقضايا في المحاكم الإسلامية عن اطلاعكم على جمالي وحسن صنعتي وجمال أعمالي الباهرات في هذه الدنيا وبديع نظامها وحسن تقديرها وبهجتها ، فإن السحب المظلمات يلمع النور من خلالها . فلم لا تشرق أفئدتكم بنور المعرفة في وسط هذه الظلمات الإنسانية والحدود الشرعية والقضايا الإسلامية والعلوم الفقهية؟ .

أيها الفقهاء ، لماذا أجزتم التأليف في الملاعنة والحدود وأطلعتم تلاميذكم على حقائق القضايا وأنتم أجهل الناس بعلم السحاب والحيوان واختلاف أنواعه والطير صافات في جو السماء . فلماذا أيها الفقهاء أجزتم تلك القضايا ووقفتم عندها مع أن القضاء فرض كفاية ، وتركتم النظر في معرفة أن ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور : ٣٥] ، وتنوع الحيوان والطير الخ . أليس هذا كله كلام الله؟ أليس العلم بهذه العجائب واجباً على كل مسلم إذا كان قادراً لازدياد الإيمان وللشكر كما أوضحه الإمام الغزالي وذكرته في سورة « المائدة »

إن علم القضايا ليس بواجب إلا على فئة قليلة . إن علوم الجمال الإلهي غذاء للأرواح والعقول ، وعلم الشريعة أشبه بدواء ، فكيف جعلتم الدواء في محل الغذاء والغذاء في محل الدواء؟ .

أما آن للمسلمين أن ينظروا فيما كتبناه؟ أما آن لهم أن يتدبروا ما ذكرناه؟ أما آن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يرجعوا عن النهج الذي نهجوه؟ أما آن لهم أن يكفوا عن الجمود ويوقفوا الأطفال على عجائب ما صنع الله في الأرض والسماء؟ أما آن لهم أن يقووا أنفسهم بأجنحة من العلم والحكمة ليطيروا بها في جو السماء الصافي؟ . إن الله قد أذن للمسلمين اليوم أن يتبوؤوا منزلتهم بين الأمم وينالوا مكانتهم ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة : ٣٣] .

الجمال والنور في سورة « النور »

تناسبت السور الثلاث « الحج » و« المؤمنون » و« النور » في إظهار الحقائق العلمية والبدائع الحكمية . فيها جاء ذكر خلق الإنسان وأنه من نطفة فعلقة فمضغة الخ .

ذلك جاء في سورة « الحج » وفي « المؤمنون » . فأما في سورة « النور » فقد فصل ما يحفظ حواسه وآدابه .

وبيانه أن هذا الإنسان خلق من طين مغموراً في الهواء والضياء ، الأرض تحته والهواء يحيط به والضياء فوقه فكان من الحكمة أن لا يخلو عالم من هذه العوالم من فائدة له . فمن الأرض أغذيته وفاكهته ، ومن الماء شرابه وطهوره ، وبالهواء تطهير دمه بواسطة النفس وإعطاء دمه لون الحمرة بما يخالط من مادة الأكسوجين التي يجلبها النفس من الهواء ، وحاسة اللمس تشعر بالحرارة والبرودة

اللتين يتصف بهما الهواء، وحاسة الأذن قد اتخذته آلة توصل الصوت إليها من اللسان. فمن اللسان حركات في الهواء، وبالهواء وصول تلك الحركات إلى الأذن.

الإنسان لم يذر عالماً مما أحاط به إلا انتهز الفرصة للانتفاع به، فلا أرض ولا ماء ولا هواء ولا ضياء إلا كان منه له منفعة لولاها لم يكن هذا الإنسان ولا الحيوان. فترى الفم للغذاء وللماء، فهو إذن معد لاستعمال ما يصل من الأرض، والماء والأنف للهواء، وهكذا الأذن للهواء أيضاً من حيث حركاته بأنواع الأصوات، والعين معدة لعالم النور الوارد من الكواكب ومن الأرض.

اللهم إن هذا العالم جميل، ومن أعظم إنعامك علينا أنك أريتنا هذه العجائب التي يجهلها أو لا يقربها كثير من العقلاء لأن أكثرهم غافلون. يعيش الإنسان في الأرض ويرى الشمس والقمر والماء والهواء ولا يريد أن يدرس هذا الوجود ليعلم مركزه فيه وليعلم نعمك علينا في هذا الوجود العجيب. مخلوق طوله ثمانية أشبار استخدم الأرض والماء والهواء والكواكب. فرقت هذه العوالم على أعضاء حسه. ينظر الإنسان للشمس إذا هي معدة للإبصار في العين، كما أن الهواء معد لحاسة اللمس والشم والسمع، وعالم الأرض الذي منه أغلب الأغذية جعلت له حاسة الذوق التي تميز الخبيث من الطيب في الطعام والشراب.

هذه الحواس الخمس كأنها نوافذ وفتحات منها يطل الإنسان على هذا العالم كله. كل ذلك تضمنه ما جاء في سورة «الحج» من خلقه من نطفة فعلقة الخ. وما جاء في سورة «المؤمنون» كذلك. وقد جاء في آخر وصف خلقه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الآية: ١٤]، فأحسن الخالقين هو الذي خلق الإنسان على هذا النمط بحيث يجعله مستفيداً من كل ما حوله من العناصر والمركبات.

ولقد كان من إحكام صنعه أن خلق له لساناً واحداً يعبر عما لديه من القوى، فهو ترجمان لكل ما يحس به ويعلمه ويزاوله ترجمان السمع والبصر والذوق واللمس، وكان له آلة الإبصار بها يدرك كل صورة تقع عينه عليها، وكان له أداة للتناسل وهي العورة في الذكران والإناث. إن أكثر الآثام في نوع الإنسان يحدثها اللسان بالشتم والذم وإذاعة الفاحشة والتعيير وقذف المحصنات ويحدثها الفجور بالزنا.

ومما يعين عليه ويدعو له طموح العين لما تراه من محاسن النساء. فكأن الله يقول في أول «النور»: أيها الناس أنا صورتكم على أحسن صورة وأكمل تكوين. فهذه الحواس جعلتها أدوات صالحة لأن تتخذوها وسيلة للهدى بأضواء الشمس والكواكب والقمر، ولتتناولوا ما يصلح لأغذيتكم وإقامة بنيتكم، وتشعروا بما حولكم من أصوات وصور وعوالم تحيط بكم، ولم أحرمكم منها كما حرمت الدود الذي ألزمته أن يقنع بما حوله من الرطوبات. وهذا اللسان لم أجعله وسيلة للذم والقدح، بل خلقته لينشر العلم بينكم وأنواع المحبات. وهذه البنية زوقتها وهندستها وأكملتها وجعلتها صالحة لإحداث ذرية تبقى بعدكم حفظاً لذكركم وعمراناً لأرضنا. فليس من الحكمة أن تجعلوا الشهوة البهيمية مقاصد، وكيف تجعلون الوسائل مقاصد وما هذه الشهوات مقاصد؟ فمن فعل ذلك ذلت نفسه وباء بالوبال.. فإياكم والزنا بل وإياكم وكثرة تعاطي هذه الشهوات باتباع خطوات الشيطان. ولم أخلق الأعين فيكم لتقصروها على هذه الشهوة الضئيلة. إنما خلقت العين لتعرفوا بها أنواري

وتدركوا جمالي وبهائي ومحاسن أرضي وسمائي، فغضوا الطرف عن النساء واقنعوا بمن عندكم من الحلائل اللاتي يلدن منكم الذرية.

أي عبادي أنتم فريقان: فريق الأصفياء وفرق الأغبياء. أما فريق الأصفياء فهم أولئك الذين عرفوا أني نور السماوات الأرض فبهرهم الجمال والبهاء في مشرقات الدجى والإصباح. أما فريق الأغبياء فهم أهل النار، أولئك الذين أعطوا الأعين والعقول الآذان فظنوا أني أطلقتهم في أرضي كما أطلق الدواب، فعكفوا على جني اللذات التي لم أخلقها فيهم إلا لغاياتها، فسارعوا إليها ووقفوا عندها، وكلما نظروا في جمال النجوم وجمال الشمس وجمال القمر وجمال الثمار والأزهار والأشجار والأزهار لم تحدثهم نفوسهم بأكثر مما يعرفه الحيوان في البرية. وكلما سنحت لهم سانحة نحو العلا سلطت عليهم زبانية العذاب الجاثمين في جبلتهم، فضربوهم بمقامع الشهوات والعادات الحديدية، فارتدوا على أدبارهم وعادوا لما نهوا عنه ورجعوا بخفي حنين، فكانت نظراتهم لشهواتهم وألسنتهم عاكفة على أذى قومهم من رجال ونساء، كأصحاب الإفك الذين ذموا أم المؤمنين وبعض صلحائهم.

أي عبادي أنا كلفتكم بالصلاة، وفي الصلاة تسبيح وتحميد. والتسبيح تنزيه والتحميد ذكرى بنعمي، فنعمي تحيط بكم في الأرض وفي السماء. أنا نور السماوات والأرض والأنوار ظاهرة لكم وباطنة في قوى الحيوان والنبات، فأينما تولوا فثم جمال ونور. ترون في السماء بهجة النجوم وفي الجو قوس قزح وفي الأرض أنواع الجمال في كل حيوان ونبات.

أنا لم أحسن الصور في نوع الإنسان لأجل التناسل فحسب، كلا ألم تروا أن شهوة التناسل تفتر بعد الوقاع، وعند الفتور تذهب نشوة اللذة بجمال الوجوه. إني نصبت ذلكم الفتور الذي يعتوركم بعد فراغكم من تلك اللذة علماً ليهديكم إلى المقصد الأعلى من جمال الوجوه الإنسانية والجمال في العوالم العلوية والسفلية.

إن بواهر الجمال في تلكم العوالم داعيات تحثكم أن هلموا إلي وأقبلوا علي، هذا ما تقوله الشمس عند إشراقها والقمر عند بزوغه والنجم عند طلوعه والنهر وهو يجري والطير وهو يطير. كل أولئك يا عبادي يدعونكم إلى العروج إلى العلا، ولن ينال هذه المنقبة منكم إلا أناس أدركوا مقاصدنا في حواسهم وغاية ما خلقت له، فنحن لم نخلق العين لتعكف على النظرات الحيوانية والشهوات البهيمة. إذن لمن زينت النجوم ولمن عممت الأشعة النورية ولمن نصبت الجبال ومحاسنها والأنهار وجواريها والحقول وأزاهرها؟ أنا قرنت التسبيح بالتحميد في صلواتكم لتتذكروا ولتعلموا أنكم إن لم تنزهوا اللسان عن النطق بالقبيح، والفرج عن الفاحشة، والعين عن النظر المحرم، فلا سبيل إلى أن تعرفوا وتفقهوا أني نور السماوات والأرض.

إن عقولكم خزنت فيها صور كثيرة لا تحصرونها فإذا أخذتم تحدثون بكل ما لديكم شغلكم ذلكم الحديث عن مواقع النجوم ومناهج العبر. هكذا إذا ظللتم تفكهون بشهوة الفرج صرفتم عقولكم وأضعفتموها بسبب النقص الدائم المتوافر في صحة أجسامكم بما تصرفونه لهذه الشهوة الضالة. ومتى ضعفت القوة العاقلة عجزت عن أن تدرك الجمال. لذلك شرعت لكم أن تقولوا في

الصلاة في الجلوس بين السجدتين: «رب اغفر لي وارحمني»، والمغفرة التامة إنّما تكون بحفظ الألسنة وحفظ الشهوات، فلا تصرف إلا بحساب إبقاء لصحتكم وحفظاً لعقولكم فتكونون متخلفين بأخلاقي، فأنا منزه عن الحوادث وأنتم منزهون بقدر الاستطاعة عن العيوب. هنالك تتوافر الأسباب لإدراك ما يحيط بكم من النور والجمال.

أنا لم أحرم عليكم النظر إلى المحرمات حرماناً لكم أو بخلاً عليكم، ولم أمنعكم من مقارفة الشهوات بخلاً عليكم بخزائن ملكي، كلا أنا أعطيتكم عقولاً وأعطيت لحيوان البرية غرائز، وأودعت في غرائزه أن لا يكون الوقاع إلا للولد، ولم أجعل ذلكم في غرائزكم بل أعطيتكم عقولاً وحرمت عليكم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأطلقتكم في الأرض، فيقول قائل منكم: لم منع ربنا عنا لذاتنا وأطلق الحيوان يتمتع بما شاء، وهو يشاهد أن الحيوان ممنوع بغريزته، ولولا ذلك المنع لمات وضعف وهلك بكثرة الوقاع. ذلكم حاصل في بعض الحيوان في البرية. فأنا حرمت عليكم الفاحشة، بل طلبت منكم عدم الإسراف في جميع أحوالكم، وجعلت عاقبة الإسراف ضعف أبدانكم وخسران عقولكم التي لا تستطيع عند الضعف أن تدرك الجمال الأعلى الدائم.

ومن حفظ جوارحه من العين واللسان والفرج المذكورات في سورة «النور» فإني أحفظ له عقله وجميع قواه وأجعلها ذخيرة له في هذه الدنيا يزداد بها علماً ويدبر أمروه ويكون ذكي الفؤاد قوي الذاكرة. إن في إفلات ما أخزنه في عقولكم بلا فائدة أشبه بمن يطلق ماء النهر فيغرق القرى ويضرها، وحفظها أشبه بحفظ الماء في الأنهار حتى يصرف ماؤها عند الحاجة إليها. لهذا كان الإنسان مسؤولاً عن عقله، كما أنه مسؤول عن أهله، وعما يملكه من المال، وما يلده من الولد، وعما يدبره من الممالك، بل ذخيرة الإنسان المكنونة في نفسه أقرب إليه مما عداها، فإن عجز عن حفظها وتركها تتسرب إلى الخارج بلا ضابط يضبطها ولا حافظ يحفظها تركته ملوماً محسوراً. إن آراء الإنسان والصور المخزونة في عقله إن هي إلا أجنحة يطير بها إلى سماء الكمال وباحات الجمال فإذا أهملها بقي مقصوص الجناحين ضائع القوى خاسر الصفقة، فيرى بعيني رأسه أناساً مثله قد ارتقوا في أعمال دنياهم وأعمال آخرتهم بحفظ قواهم الباطنة، بترك ما لا يعني والانكماش في الجد وحفظ القول، فلا ينطق إلا بما يفيد ولا يتكلم إلا بما ينفع. هنالك يكون قوله حكمة وإشارته غنماً وسكوته فكراً، فلا يسكت ولا يتكلم إلاّ لفائدة تامة.

إن الجنة والنار يتبعان الفكر والاعتبار كثرة وقلة. ألم تسمعوا قول الكفار: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك: ١٠].

أي عبادي المسلمين، ربما يظن أحدكم أنه خارج عن هذا القانون، كلا، ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦] أنتم جميعاً مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد، فالقلب أمانة أودعتها عندكم، وما العقل إلا نور انبعث من سماء الجمال وهو من نوري الذي انبعث مني في السماوات والأرض، فإياكم أن تعطلوه أو تشغلوا أنفسكم بالحديث عما خزن فيه إلا لفائدة نافعة، فأنتم عنه مسؤولون. والبصر جعلته باباً تلج منه الصور الواردات عليكم بنور المشرقات عليكم، فإذا شغلتموه فيما يضعف قواكم البدنية من الصور الحسان لغير فائدة أو فيما لا

فائدة فيه حرمتم النظر إلى بهجة جمالي في سماواتي وأرضي، فيكون أحدكم أيها المسلمون إذ ذاك قد خسر اللذة الدنيا وهي الحيوانية، واللذة العليا وهي اللذة الملكية بالنظر إلى جمالي، فيصبح الغافل منكم بالنسبة للعلم أشبه بالذرات «المكروبات»، والحشرات التي تطؤونها بأقدامكم، فهي وإن كانت تشارككم في الحياة لم تشارككم في مزايا عقولكم وفضائل علومكم وبهجة نجومكم، هكذا المفرطون في أسماعهم وأبصارهم وشهواتهم.

يبصر الناس جمالي وهم لا يبصرون، ويبتهجون بمحاسن سمائي وهم لا يبتهجون، فلهم أسماع ولكن لا يعقلون ولهم أبصار ولكن لا يبصرون.

فإذا ظننتم أيها المسلمون أنكم بمنجاة من الحجاب وأن الحجاب إنّما يدل على الكافرين فقد أخطأتم المرمى ورجعتم بخفي حنين.

ألم تقرؤوا في كتابي: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[العنكبوت: ٢-٣].

أي عبادي أنا لم أنزل القرآن وقفاً على اللعان المذكور في آية النور ولا على إقامة الحد على الزاني والزانية. إن هذه الأحوال تعرض لكم مانعات من نظراتكم لجمالي فإذا جاوزتموها فهنالك أفتح لكم أبواب ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥]، وأعرفكم معاني ما تسمعون وما تبصرون. هنالك تفقهون تسبيح الطير في جو السماء وتدركون عجائب الحيوان وأسراري التي أودعتها في غرائزه وبهذا تفرحون، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨]. انتهى.

هذا ما فهمته في سورة «النور» يومي الخميس والجمعة وليلة السبت قبيل آخر سنة ١٩٢٨، والحمد لله رب العالمين.

سورة الفرقان مكية
وهي سبع وسبعون آية
وهي ثلاثة مقاصد

المقصد الأول: في إثبات النبوة وفي جزاء المكذبين من هذه الأمة والأمم السالفة، من أول السورة إلى قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الآية: ٤٤].

المقصد الثاني: في العجائب الكونية، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الآية: ٤٥] إلى قوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الآية: ٦٢].

المقصد الثالث: في الآداب والأخلاق، من قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الآية: ٦٣] إلى آخر السورة.

المقصد الأول

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ

أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ
خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ
ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن
نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا
﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ
نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ
وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾
۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا
﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ
عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا
﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ
ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ
ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ
وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ
سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ
وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ
وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟
عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا
رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ
أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ

إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

تكاثر خير الله وتزايد على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ودام، وكل هذا معنى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾، وهو القرآن مصدر فرّق بين الشيئين إذا فصل بينهما، فإنه نزل مفرقاً وهو يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام، و« تبارك » كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعمل منه الماضي وحده، والبركة تتضمن معنى الزيادة كما تقدم، ورتبه على إنزاله القرآن لما فيه من كثرة الخير، أو لدلالته على تعاليمه. ويقال أيضاً: دام، كما تقدم من بروك الطير على الماء، ومنه البركة لدوام الماء فيها، ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ ﴾ أي: العبد أو الفرقان ﴿ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ للجن والإنس ﴿ نَذِيرًا ﴾ منذراً ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هو المتصرف فيهما كيف يشاء ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ رد على النصارى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ رد على الثنوية وعلى عباد الأصنام ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أحدثه ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ هيأه لما أراد منه من الخصائص. وقد تقدم في هذا التفسير من عجائب الخلقة وبدائع الحكمة ما يدهش الألباب، ومن الخصائص العجيبة للإنسان والحيوان والنبات والكواكب ما يظهر به إبداع الخالق وعجائب صنعه جل جلاله وعز كماله ولا إله إلا هو.

ولما أثبت التوحيد والنبوة بما تقدم أخذ يرد على منكريهما، فقال في المشركين: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾، وذلك لأن العابدين لهم هم الذين ينحتونهم ويصورونهم ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا ﴾ دفع ضر ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ ولا جلب نفع ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ ولا يملكون إماتة أحد ولا إحياءه ولا بعثه ثانياً. وقال في منكري النبوة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ كذب مصروف عن وجهه ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ وهم اليهود أو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن أو جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب، فقال المشركون: إن محمداً صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أي: فقد جاء قائلو هذه المقالة بظلم وزور إذ سمعوا كلام الله تعالى بالإفك والافتراء، ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ما سطره المتقدمون ﴿ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ليحفظها، فإنه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ألا ترون أنه أعجزكم جميعاً بفصاحته وإخباره بمغيبات مستقبلة وأشياء لا يعلمها أحد، أفمثل هذا يكون أساطير الأولين؟ ولولا عفوه ورحمته لعاقبكم ولكنه حلم عليكم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

ثم أخذ يذكر الرد عليهم فيما اعترضوا به على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ ما لهذا الذي يزعم أنه رسول ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ كما نأكل ﴿ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ كما نمشي لطلب المعاش. يقولون: إن صح دعواه فما باله لا تخالف حالنا حاله، ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ أي: داعياً، وبذلك نعرف صدقه ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ فيستغني عن تحصيل المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي: إذا لم يلق إليه كنز أفلا يعيش عيشة المترفين أهل اليسر في الدنيا فيكون له بستان كما لهم بساتين، وهذا يستلزم أن يكون في عيش رغد وسعادة جسمية وخدم وحشم حتى يكون ممتازاً، ولما لم يكن متصفاً بأحد هذه، لم يكن ما يدعيه من النبوة صدقاً، فإنّما هو رجل سحر عقله وغلب عليه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً للظلم عليهم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ الأشباه التي لا فائدة منها وادعوا عليك الأحوال الشاذة النادرة ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن الطريق الموصل لما يجب أن يكون عليه الأنبياء، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى النيل منك ولا إلى سبل الرشاد، ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تكاثر خير ﴿ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ وهب لك في الدنيا خيراً مما قالوا، وهو أن يجعل لك ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور، وقوله: ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ بدل من «خيراً» ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ بيوتاً مشيدة. ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب»، وفي رواية أخرى: «لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهباً» الخ. وهؤلاء قوم لا يعرفون إلا الحياة الدنيا فقصرت أنظارهم عن الآخرة ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ فقصروا أنظارهم على ما ظنوه سعادة وهي الثروة في الدنيا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ ناراً شديدة يبتدئ بها في الدنيا سببها، وهو قصر النظر على الأمور العاجلة، فيحبسون في سجن الأعمال والآمال المحدودة ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ أي: إذا قابلتهم النار وكانت بمرأى الناظرين في البعد ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي: سمعوا صوت غليانها كأنه صوت المتغيظ والزافر ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾ من النار أي فيها ﴿مَكَانًا﴾ في مكان ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب عليهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي: مسلسلين مع الشياطين ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المكان ﴿ ثُبُورًا ﴾ هلاكاً يتمنون الهلاك، وينادونه ويقولون: يا ثبوراه، أي: تعال فهذا حينك، ويقال لهم: ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ هلاكاً واحداً ﴿ وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ لأنه كلما نضجت جلودكم بدلتم جلوداً غيرها، ولأن أنواع العذاب كثيرة ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي: الذي ذكرت من صفة النار خير الخ، ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ أي: كانت لهم في علم الله جنة الخلد ثواباً ومرجعاً ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أي: إن جميع المرادات إنّما تحصل في الجنة، وهناك لا تشتهي طائفة إلا ما يناسب حالها حال كونهم ﴿ خَٰلِدِينَ كَانَ ﴾ ما يشاؤون ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ موعوداً مسؤولاً سأله الناس في دعائهم، إذ قالوا: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾[آل عمران: ١٩٤]، والملائكة إذ قالوا: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ [غافر: ٨]، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يفيد معنى امتناع الخلف، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للبعث ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

وهم المعبودون من الملائكة والمسيح وعزير والأصنام، وغلبها في التعبير بـ«ما»، وسينطقها الله الذي أنطق كل شيء كما ينطق الأيدي والأرجل، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ للمعبودين: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ لإخلالهم بالنظر والاعتبار بالعقول والإعراض عن الهداة. وقوله: ﴿ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي: عنها، وقد تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق والأصل إلى الطريق ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم أو تنزيهاً لله عن الأنداد وإيذاناً بأنهم مسبحون إما بالقول كالملائكة والأنبياء وإما بلسان الحال كالأصنام ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ ﴾ ما كان يصح لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: أن نوالي أعداءك بل أنت ولينا من دونهم ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ بطول العمر والصحة والنعمة في هذه الدنيا ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ تركوا توحيدك وطاعتك والمواعظ والإيمان وغفلوا عن ذكرك ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ أي: كذبكم المعبودون أيها المشركون ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ﴾ دفعاً للعذاب عنكم ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ يعينكم عليه. ومعلوم أن المحارب تكون نجاته إما بالهرب وإما بالنصر على عدوه، وهؤلاء لا نصر لهم ولا انصراف فهم معذبون لا محالة.

ثم خاطب الله الناس كلهم قائلاً: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ وهي النار الخالدة. وهذا القول عام لكل ظالم بكفر أو فسق. ولكن العلماء يختلفون في الفاسق، فمنهم من يجعله كالكافر وهم الخوارج والمعتزلة، وبقية العلماء يقولون: «إن الفاسق بالتوبة يغفر له بشروطها كلها وكذا بالعفو». ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ الخ. يقول الله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ يا محمد إلا رسلاً ﴿ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ الخ، فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه، أي أن هذه عادة مستمرة من الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن «وما أنا إلا رسول» ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] وهم كانوا بشراً مثلي يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء، فابتلينا الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم، ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ أي: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لنعلم أيكم يصبر، وفيه حث على الصبر على ما افتتنوا به ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ لمن صبر ولمن جزع. في البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم» لفظ البخاري. ولمسلم: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي: لا يأملون الوصول إلى جزائنا ﴿ لَوْلَآ ﴾ هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ رسلاً دون البشر أو شهوداً على نبوته صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ جهرة فيخبرنا برسالته ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: أضمروا الاستكبار عن الحق ﴿ وَعَتَوْ ﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي أنهم بلغوا غاية الاستكبار إذ عاينوا المعجزات الظاهرة فأعرضوا عنها وطلبوا ما تشتاق إليه الأنفس القدسية. واذكر ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ وهو يوم الموت، ثم أخبر

فقال: ﴿ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي: لهم، وإنّما وضع الظاهر موضع المضمر لوصفهم بالإجرام ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي: الملائكة ﴿ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ حراماً محرماً عليكم البشرى. أي: جعل الله البشرى حراماً عليكم، وإنّما البشرى للمؤمنين. وهذا من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها، ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ ﴾ أي: وعمدنا إلى ما عملوا من أعمال البر التي عملوها في حال الكفر ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ باطلاً لا ثواب له. والهباء ما يرى في الكوة كالغبار إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدي، ولا يرى في الظل. والمنثور المتفرق، وكذلك ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار يقال له هباء، ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا ﴾ أي: خير مكاناً يستقر فيه من هؤلاء المشركين المستكبرين ﴿ وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ أي: مكاناً يستروح فيه بالأزواج والتمتع بهن، وذلك مجاز من مكان القيلولة، وفي ذلك رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وغيره من المحاسن، ويقال: إن أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر ما هو من أول النهار إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة. ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ ﴾ بسبب طلوع الغمام منها، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[البقرة: ٢١٠]، ﴿ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ في ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد فتشق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الإنس والجن، ثم تشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والإنس. ثم كذلك حتى تشق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي تليها، ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش، ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ أي: الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن يوم القيامة، فلا ملك يقضي غيره يوم القيامة ﴿ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴾ شديداً ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ ﴾ عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة، لأن عض اليدين من روادف الحسرات، و«الـ» في «الظالم» للجنس، فيتناول عقبة بن أبي معيط الذي كان سبب نزول الآية وغيره ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ ﴾ في الدنيا ﴿ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾ طريقاً إلى النجاة والجنة وهو الإيمان ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ ﴾ وقرئ «يا ويلتي» لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته، يقول لها: تعالي فهذا أوانك، ﴿ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾ «فلان» كناية عن الأعلام، والمراد كل خليل يصد عن الهدى ويوقع صاحبه في الردى. فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه. ومن الأخلاء الشياطين فلا فرق بين شياطين الإنس وشياطين الجن، ومن هؤلاء الأخلاء أبيّ بن خلف، و ذلك أن عقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل، وكان أبيّ بن خلف صديقه فعاتبه، فقال: صبأت، فقال: لا والله. ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له. فقال: لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك. فقال صلى الله عليه وسلم: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله. وأما أبيّ بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد.

ثم قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى ﴾ أي: الخليل ﴿ عَنِ ٱلذِّكْرِ ﴾ أي: عن ذكر الله أو القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ من الله ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: خليله، لأنه واحد من شياطين الإنس والجن ﴿ لِلْإِنسَٰنِ ﴾ المطيع له ﴿ خَذُولًا ﴾ يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أو في الدنيا يبث شكواه إلى الله: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ﴾ قريشاً ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ بأن تركوه وصدوا عنه. مأخوذ من الهجران، وفيه تخويف لقومه، وما شكا نبي قومه إلا حل بهم العذاب، ثم أقبل الله عليه مسلياً فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي وكما جعلت لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي الخ، والعدو يحتمل الواحد والجمع، أي: لا يكبرن عليك ذلك، فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فصبروا، فاصبر أنت كما صبروا فإني ناصرك وهاديك، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ إلى طريق قهرهم ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ لك عليهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ يقول الله إجابة لهم: أنزل كذلك، أي: مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ لنقوي به قلبك فتعيه وتحفظه، فإن الكتب السابقة نزلت على أنبياء يقرؤون ويكتبون، وهذا القرآن نزل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ، فلو ألقي عليه جملة واحدة لم يستتب له، فإن التلقف لا يأتي إلا شيئاً فشيئاً. وأيضاً نزل القرآن بحسب الوقائع فذلك يوجب زيادة البصيرة وغوصاً في المعاني، وبنزوله منجماً يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته فيزيده ذلك قوة في قلبه، ومن ذلك معرفة الناسخ والمنسوخ. ولقد عرفت حكمة الناسخ والمنسوخ في هذا التفسير في سورة «البقرة» فاقرأه هناك.

ثم قال تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ قرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تؤده وتمهل، والترتيل التبيين في ترسل وتثبت، ويقال: فرقناه تفريقاً آية بعد آية ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان، أي: يضربونه لك في إبطال أمرك ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الدافع له في جوابه ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ وبما هو أحسن بياناً، أو معنى من سؤالهم، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أي: يساقون ويجرون على وجوههم الخ، مبتدأ خبره ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي: أخطأ طريقاً، وكأنه قيل إنه ما حملهم على هذه الأسئلة إلا تحقير مكانه صلى الله عليه وسلم وتضليل سبيله وهم لا يعلمون حالهم فليعلموا أنهم ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ الخ قد ورد في الحديث ما يناسب ذلك، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم، قيل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الذي أمشاكم على أقدامكم يمشيهم على وجوههم».

ولما كان من عادة الله تعالى أن يذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأمم السالفة مع أنبيائهم ليكون ذلك أنساً لقلبه ونبراساً للمصلحين من أمته، أردف ذلك بذكر موسى ونوح وعاد وقوم هود وثمود وقوم صالح وأصحاب الرس قوم شعيب، وذلك لأنه ذكر أنه جعل ﴿ لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

وأن الله يهدي الأنبياء وينصرهم. فهاهنا أخذ يبين كيف نصرهم الله على أعدائهم وهداهم إلى ذلك النصر ولإرشاد أممهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة مع مشاركته له في النبوة؛ والشريكان في النبوة متوازران فيها ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ وهم فرعون وقومه ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أي: فذهبا إليه فكذبوهما فدمرناهم. هكذا هؤلاء أرسلتك إليهم يا محمد، فإن كذبوك فإني أدمرهم تدميراً، وقد تم كل ذلك. ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ لأنهم بتكذيب نوح قد كذبوا سائر الرسل لأن دعوتهم واحدة ﴿ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالطوفان ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ عبرة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ من كل أمة ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ كما عذبنا هؤلاء ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ عَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ هم قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حول الرس: البئر المطوية، انهارت فخسف بهم وبديارهم ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ قُرُونًۢا ﴾ أي: أمماً ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ كَثِيرًا ﴾ لا يعلمها إلا الله. أرسل إليهم أنبياء فكذبوهم فأهلكوا، قيل: القرن سبعون سنة، وقيل: مائة وعشرون سنة. ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وأعذاراً فأصروا على الاستكبار والكفر فهلكوا، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ فتتنا تفتيتاً، ومنه: التبر، لفتات الذهب والفضة ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ ﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام ﴿ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ وهي سدوم التي هي أعظم قرى لوط وقد أمطرت عليها الحجارة ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ﴾ إذا مروا بها في أسفارهم فيعتبروا ويتعظوا. ولا جرم أن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم في ممرهم إلى الشام ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ لا يخافون بعثاً أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ما يتخذونك إلا موضع هزؤ أو مهزوءاً به، إذ كان أبو جهل إذا مر مع أصحابه قال مستهزئاً: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ ﴾ أي: إنه كاد ﴿ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ليصرفنا عن عبادتها ﴿ لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي: على عبادتها، أو: لو لم نصبر على عبادتها لصرفنا عنها ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ في الآخرة عياناً ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي: أخطأ طريقاً ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي: من أطاع هواه فيما يفعل وفيما يترك فهو عابده وجاعله إلهه. يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتحفظه من متابعة هواه وعبادة ما أدى إليه هواه فتكون عليه موكلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى؟ فما عليك إلا البلاغ، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ يقال: إن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد حجراً، فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني. وقال الحسن: هذه الآية في كل من اتبع هواه.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي: بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تقول سماع طالب الإفهام أو يعقلون ما يعاينون من الحجج. وهذا الذم أعظم مما تقدم فكأنهم لا سمع لهم ولا عقل حتى شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر، بل هم أضل من الأنعام لأنها تهتدي لمراعيها

ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعاهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طرق الحق ولا يطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم، ويقال: إن الملائكة روح وعقل، والبهائم نفس وهوى، والآدمي مجمع الكل، فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام، وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الأول من السورة، وفيه لطائف:

(١) في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[الآية:١] الخ.

(٢) وفي قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الآية:٢].

(٣) وفي قوله: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[الآية:٣].

(٤) وفي قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾[الآية:٧].

(٥) وفي قوله: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[الآية:٧].

(٦) وفي قوله: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[الآية:١٧-١٨].

(٧) وفي قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[الآية:٢٠].

(٨) وفي قوله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الآية:٢٣].

(٩) وفي قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾[الآية:٢٥].

(١٠) وفي قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾[الآية:٢٧] الخ.

(١١) وفي قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[الآية:٣٠].

(١٢) وفي قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الآية:٣١].

(١٣) وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾[الآية:٣٤].

(١٤) وفي قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[الآية:٤٣].

(١٥) وفي قوله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الآية:٤٤].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾

تقدم أن معنى «تبارك» يشمل تكاثر الخير والدوام والتعالي على كل شيء، فهو عال في صفاته وأفعاله ودائم. فانظر إلى الصفات التي ذكرت في حيز هذا الفعل إذا هي:

(١) أنه نزل الفرقان على النبي صلى الله عليه وسلم لينذر الناس. (٢) وأنه له ملك السماوات والأرض. (٣) ولا ولد له. (٤) ولا شريك له. (٥) وأنه خلق كل شيء. (٦) وأنه قدره تقديراً وجعله على أبدع وأتقن الأوصاف.

فهذه الأوصاف هي الخير والبركة من نور ينزل إلى الأرض وهداية الناس، وملك يعم سائر الكائنات، وجميع الملوك خاضعة له، وليس له ضد ولا ولد، لأن الولد لمن يفنى فيقوم مقامه، والشريك يدل على قوة مقاومة، وليس الانفراد بالملك وعدم المنازع وعدم الفناء الذي دل عليه أنه لا ولد له بمغن عن أنه قادر على خلق كل شيء، فربما كان مالكاً لكل شيء دائم الوجود لا ضد له ومع ذلك لا

يقدر على خلق شيء ، بل ربما كان هذا الملك قد أخذه اغتصاباً ، فقال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الفرقان : ٢] فكل ما يملكه في السماوات والأرض هو خلقه لا أنه أخذه عن غيره ، ولم يخلق الأشياء اعتباطاً ، بل جعل لكل شيء قدراً مقدوراً وحداً محدوداً ونظاماً ثابتاً ، وهذا هو السبب في بقاء ملكه ودوامه ، لأن دوام الملك على مقتضى النظام . فكلما اختل النظام كان زوال الملك أسرع ، وكلما كان النظام أتم كان الملك أدوم . ولذلك يقال : إن العدل أساس الملك . ويدل على ذلك الدائرة المشهورة المثمنة الكلمات التي أرسلها « أرسطاطاليس » إلى الإسكندر المقدوني تلميذه لما فتح بلاد فارس ، ورأى أن الناس تقدم للإسكندر الهدايا المالية والتحف الغالية والذخائر الثمينة من الجواهر والأحجار الكريمة ، فرأى أن هديته إلى تلميذه الملك يجب أن تكون أرقى من كل شيء ، وذلك هو العلم ، فكتب له دائرة فيها ثمان كلمات يرجع آخرها إلى أولها وأولها إلى آخرها كما يرجع هذا الكون كله إلى دائرة يتوقف أولها على آخرها وآخرها على أولها ، وهذه صورتها .



وقد تقدمت هذه الدائرة في سورة « آل عمران » وأعدناها هنا لما تراه من الشرح عليها . ويقال أيضاً : إن « أرسطاطاليس » أوصى أن تكتب له هذه الكلمات الثمان على مدفنه في جهاته الثمان . هذه هي الكلمات الثمان ، وهذه هي الوصايا التي عرف الناس قديماً أن لا بقاء للملك إلا بها . فتأمل أيها الذكي وانظر وتفكر وقل لي : ألست ترى أن الملك مضطر إلى شريعة وإلى جيش ، والجيش إلى مال ، والمال إلى رعية ، والرعية إلى العدل ، والعدل إلى دولة ، والدولة إلى سلطة وقوة ، والسلطة والقوة تحتاج إلى قانون ، والقانون إلى الملك . فانظر ألست ترى أن الفلاح محتاج إلى رئيس الدولة ، ورئيس الدولة محتاج إلى الفلاح . ألست ترى أن الناس في الحقيقة كجسم واحد . وكما أن العين لا بد لها من

رجل ويد فاليد لا تعمل والرجل لا تتنقل بلا عيون مبصرة. إن الأمم لا حياة لها إلا بنظام تام، ودوام الملك على حسب ثبات النظام، ولذلك نجد الأمم كلما اختل نظامها أسرع فناؤها.

هذا في ممالكنا الأرضية. ولتعلم أيها الذكي أننا لم نكوّن دولاً ولم نقم ممالك إلا على مقتضى القانون الإلهي، فإن الأدنى تبع الأعلى. ولما كنا عبيداً لله وضع في نفوسنا قوانين الحياة والنظام، ولكنه أعطانا القوانين على حسب قابليتنا. فكلما ارتقت العقول والأخلاق كان نظام دولنا أكمل. وكلما ضلت العقول والأخلاق كان نظام دولنا أضعف وأقرب إلى الزوال. انظر بعقلك إلى نظام النمل والنحل والزنابير وكلاب البحر والغربان وكثير من الطيور والسمك في البحر وكثير من الحشرات. ألم تر أن الله أعطاها نظاماً ثابتاً بإلهام لا بتعليم، فدام نظامها على مقتضى إلهامه. أما الإنسان فإنه الوحيد الذي أمر أن يقتفي آثار الحكماء والعلماء ويفكر، فإن شاء صار أقل من تلك الحيوانات، وإن شاء صار قريباً من الملائكة.

اعتراض على المؤلف

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع بعض الفضلاء على هذا، فقال: يا عجباً كل العجب! نحن في مقام أن الله له ملك السماوات والأرض وليس له ولد ولا شريك، وأنه خلق كل شيء فقدره تقديراً. فما لنا وما لأرسطاطاليس ونظام دول الأرض، ونظام النمل والحشرات والطيور. يا عجباً كل العجب! إن الناس يقولون فيك إنك مغرم بالبحث في الحيوان وفي الكواكب. فأنت في كل مقام وبأدنى مناسبة ولأقل سبب ترجع إلى ما اعتدته، ويظهر أن مسألة التفسير وغيرها ترجع إلى أذهان المفسرين والمؤلفين لا إلى القرآن، وإلا فلماذا نراك دائماً تخوض في مواضيع لا علاقة لها بتفسير القرآن.

فأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي

غيره:

سارت مشرّقة وسرت مغرّباً شتان بين مشرّق ومغرّب

فقلت له: يرحمك الله لا تعجل علي قبل أن أبين لك ما أريده. هاأنا ذكرت لك نظام الدول وأنها كلما كانت أقوى نظاماً كانت أدوم. وأقرب شاهد على ذلك كلام «أرسطاطاليس» وهذا ملكنا الصغير، فانظر إلى ملك الله الكبير. ألست ترى أنه دائم. أوَلست ترى أن الشمس والقمر والكواكب والنجوم والإنسان والحيوان بين يديك. ألست تقرأ في الكتب أن هذه الدنيا كانت من أزمان قديمة مسكونة بأمم، وأن هذه الشمس وهذه النجوم كانت موجودة. قال: بلى. قلت: فهذا الدوام ناشئ من حسن النظام، وقد جعلنا الدوام راجعاً لحسن النظام، فلولا حسن النظام في هذا الوجود لاختل، ولانهدمت الأرض والسماوات كما تخرب الدولة بسوء سياستها. فكيف يمكننا أن نعرف أن نظام الله لا يضارعه نظام إلا بهذه الموازنة، إذ أننا نرى دولاً تسقط سريعاً بسوء نظامها، وأمماً تبقى مئات السنين لحسن نظامها، والتاريخ وعلوم السياسة كافلان بذلك.

ثم إننا نجد نظاماً ثابتاً لا يتدهور ولا يتداعى ولا يسقط، فإذا هو نظام الله تعالى. فقلنا: إن هذا النظام بديع فوق كل نظام. إننا ونحن على هذه الأرض ضعاف مساكين جهال، فإذا ادعينا أن نظام الله عظيم يقال لنا: وكيف تحكمون بذلك وأنتم عبيده قصار الأعمار؟ فلنحكم بالنتائج ونوازن ملكه

بملكنا ونظامه بنظامنا، فإذا وجدنا دولنا تتسارع إلى الفناء وملكه قائم شامخ لا ينقضي ولا ينهدم ولا يتساقط ووجدنا شمسه وقمره وكواكبه سائحة رائحة غادية دائرة ساهرة جادة لا تنام ولا تغفل، عرفنا أن ذلك الملك الدائم دل على نظام فوق كل نظام، وبهذا وحده تفهم هذه الآية. فإذا قيل: إنه له ملك السماوات والأرض ولا ولد له ولا ند له وأنه خلق كل شيء، فهذا كله لا يعطينا أن الملك دائم، فلما قال: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾[الفرقان: ٢] عرفنا دوامه، ولا يستبين لنا ذلك إلا بما قدمناه، وبهذا نعرف قوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾[الملك: ١]، فهذا معنى تكاثر خيره ومعنى دوام خيره.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد أحسنت صنعاً وأجدت معنى وأريتنا ما لم نكن لنتوقعه، وكأنك بذلك ترينا أن مثل هذه الآية داعية إلى النظر في أمور الأمة. قلت: ولم لا يكون ذلك ونحن أمرنا أن نتخلق بأخلاق الله؟ وقد جاء في القرآن: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[هود: ٥٦] فهذا من صراطه المستقيم، وقد أمرنا أن نقول في الصلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، والنكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول، فكأننا أمرنا أن نسير على صراط الله المستقيم. ولقد صرح بذلك في آية أخرى فقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾[الأنعام: ١٥٣]، فهذه الآية تدعو حثيثاً إلى أن نحذو حذو خالق العالم في حسن النظام والتقدير.

واعلم أن فهم مثل هذه الآية يحتاج إلى علوم الأولين والآخرين، فإن قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾[الفرقان: ٢] تدعو إلى البحث في كل شيء. تدعو إلى البحث في الأنهار. في المزارع. في أضواء الشمس. في نفس الشمس وفي القمر وفي الكواكب. انظر وتعجب! انظر إلى الدائرة التي سبق ذكرها في كلام «أرسطاطاليس»، فانظر كيف جعل الأمة قد ارتبط بعضها ببعض، وأنت متى تأملت العالم كله وجدته على مثل هذا النظام والتقدير، ترى ضوء الشمس يحرك البخار من البحار ويحرك الهواء في الجو فيصير الهواء ريحاً هابة، ويحمل البخار ويسير به بين جبلين ليحفظه وهو جار، حتى يحمل البخار إلى عشرات الأميال بعيداً عن البحر فيسقط مطراً على الأرض، ويكون هناك الحب فينبت. والشمس التي أثارت البخار وحركت الرياح هي بعينها تلح على الحبة وعلى الأرض فتنبت وتخرج حباً آخر، والشمس لا تزال تلح بأشعتها فيخرج الحب فيأكله الناس. ولا حياة للناس ولا للنبات ولا للحيوان إلا بالماء والرياح التي تهب من وقت لآخر، ثم يصير الماء الذي في أرض الزرع وفي أجسام الناس بخاراً يصعد إلى الجو فيرجع مطراً، وهكذا تلك الرياح لا تزال دائرة. ولقد تقدم أن تنفس الحيوان لا بد منه في بقاء النبات وتنفس النبات لا بد منه في بقاء الحيوان، فهناك تبادل سبق إيضاحه بحيث لا يعيش الحيوان ولا يعيش النبات إلا إذا كان كل منهما موجوداً على الأرض. وهكذا أيضاً غذاء الحيوان لا بد من أن يكون نباتاً وإلا هلك. وسماد النبات يكون من الحيوان والإنسان متوقف عليهما، والجميع متوقفون على الرياح والماء، وهما متوقفان على الشمس، والشمس لا بد من سيرها، وسيرها متوقف على شمس أخرى تدور حولها، والشمس الأخرى تدور حول أخرى، وهنا انقطع علم الناس. فإذا قال «أرسطاطاليس» هنا ثمان كلمات. قلنا هناك كلمات لا تحصى ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾[الكهف: ١٠٩].

بمثل هذا فليدرس القرآن وليدرس الناس هذا النظام العجيب وإلا فلا معنى للحياة . فبمثل هذا فليعرف الناس تقدير الله للملك ، وكيف قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] فالتقدير يعرف في الكليات وفي الجزئيات . فأما الجزئيات فقد تقدم في هذا التفسير ما فيه مقنع للبيب . ولقد ذكرنا فيه نظام الإنسان والحيوان والكواكب ، وكتبنا فيه من كل فن ، ولم نذر النحل ولا النمل ولا العنكبوت ، إلا كتبنا في عجائبها ، فبعضها قد كتبناه فيما مضى ، وبعضها سيكتب إن شاء الله إن دامت الحياة في حينه متى وصلت إليه ، ومن درس الدوائر التي في الإنسان من دائرة العقل إلى دائرة التنفس إلى الدائرة الدموية إلى الدائرة الغذائية ، رأى تعاوناً بديعاً جداً ، فإن العقل يدار به نظام الجسم فإذا مست النار الجلد أسرع الإنسان إلى مجانبتها ، وذلك بالحواس وهي هنا حاسة اللمس ، وإذا جاع الإنسان احتال في طلب الغذاء وذلك بالعقل والحواس والجوارح . ثم إن دائرة التنفس تدخل الهواء في الرئتين فيصلح الدم ثم يخرج من الفم حاملاً الكربون أي المادة الفحمية ليدفعها إلى الهواء ، وهذه المادة الفحمية تذهب إلى النبات فتغذيه ، فهي ضرر في الإنسان منفعة في الحيوان .

ثم إن الدائرة الدموية التي أصلحها التنفس عبارة عن دم يجري في الأذين الأيمن والبطين الأيمن والأذين الأيسر والبطين الأيسر في القلب ، فالقلب عبارة عن أربعة تجاويف : اثنان أعليان واثنان أدنيان ، ويقابل في الرئتين الهواء الجوي فيصلح ويرجع للقلب ويتفرع للشرايين الممتدة في أعلى الجسم وفي أسفله لكل منهما بعرق غليظ مفرع إلى فروع تمتد وتغور في سائر أطراف الجسم . فانظر كيف احتاجت الأعضاء إلى الدم لتأخذ منه ما يعوض ما من فقدته من المواد التي صارت فحماً ، وكيف احتاج الدم إلى الهواء لينقى من المواد الفحمية ، وكيف احتاج الهواء في دخوله إلى أن يكون في الرئتين ، وكيف كانت الرئتان لا يدخلهما الهواء إلا بعد مروره بالقصبة الهوائية ولا يمر بها إلا بعد دخوله في الحنجرة ولا يدخل فيها إلا بعد دخوله من الخيشوم ، ثم إن الدم لا يكون إلا من خالص الغذاء ، وخالص الغذاء يكون في الأمعاء ، وخالص الغذاء في الأمعاء يكون آتياً من المعدة والغذاء في المعدة جاء من المريء ، والمريء أخذه من الفم ، والفم قد مضغه بالأضراس ، وقد تلقاه عن الشفتين وهما عن اليد ، واليد تناولته من المائدة ، والمائدة مدينة للخباز والطباخ ، وهما مدينان للفلاح ، والفلاح يزرع الأرض ، فالزرع متوقف على الفلاح المتوقف على الطعام ، فصار الطعام متوقفاً على الطعام ، والفلاح متوقفاً على الفلاح ، وهذه الدائرة هي عينها التي قالها « أرسطاطاليس » ، إنّما هذه أطول وأطول . وقد قدمنا لك أن هذه الدائرة لا نهاية لها ، بل هي متسلسلة تسلسلاً يفوق إدراك البشر . فدوائر الناس في مدنهم على مقتضى دوائر الله في نظام ملكه .

بهذا فلتفهم كيف قال تعالى هنا : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : ١] الخ ، ثم قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفرقان : ٢] ، كأن الله يقول لنا : أنا أنزلت القرآن على محمد ليفرق بين الحق والباطل والحرام والحلال ، وإذا كنت أنا الذي أنزلت القرآن على محمد فأنا الذي قدرت كل شيء تقديراً ووزنته بميزان العدل ، فأنا الذي وزنت السماوات والأرض فلتزنوا نظامكم على نظامي . فأنا إذا أنزلت الفرقان على عبدي فإني أقصد أن تجعلوا نظامكم على وفاق نظامي ، أي : أن تجتهدوا أن يكون نظامكم أكمل نظام على قدر الإمكان . ألست أنا القائل :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧-٩]، فأنا وزنت السماوات والأرض لأجل أن تسيروا على نظامي في الوزن والعدل، أي لأجل ألا تطغوا في الميزان، أي: لا تزيدوا فيه، وليكن وزنكم بالحق ولا تنقصوه على مقتضى نظامي. هكذا هنا يقول الله تعالى: أنا أنزلت القرآن على عبدي ليكون للعالمين نذيراً. ثم وصف نفسه سبحانه بصفات الملك الدائم الذي هو على أحسن تقدير، وبهذا تجلى المعنى على أحسن زي وأبهى جمال وأبدع صلة وأوفى بيان.

حكاية عجيبة بديعة سارة شارحة للصدور في اللطيفة الثانية وهي قوله تعالى:﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الآية: ٢]

لقد سبق الكلام على التقدير في اللطيفة الأولى بما لا مزيد عليه. ولأذكر لك حكاية بديعة شارحة لصدرك وإن كانت دقيقة المعنى، فأقول:

بينما أنا أكتب في هذا التفسير إذ قرأت في الجرائد المصرية يوم الثلاثاء ٣ فبراير سنة ١٩٢٥ الموافق ٩ رجب سنة ١٣٤٣ هجرية خبر رجل إفرنجي ألقى محاضرة في بلادنا المصرية وهو ألماني الجنس، وتلك المحاضرة مناسبة لهذه الآية، فأردت أن أثبت المقصود منها لتكون من عجائب العلم وبدائع القرآن والمصادفات التي تدهش القارئين الأذكياء، فأقول:

إن هذا العالم اسمه البارون «ولدميراوسكول» ألماني الجنس وهو روسي المنشأ، وقد ساح العالم وألف كتباً عن بلاد شتى. وقد دعاه أهل القوقاز وهم مسلمون فعاش بينهم أمداً طويلاً فأعجب بهم، ثم توجه إلى «إسوج» ووقع في يده كتاب في جامعة «استوكهلم ولوند» عن مصر مشتمل على حكم «توت» المعروف باسم آخر هو «هرمس تريس ماجستس»، والحكم التي وردت في هذا الكتاب جاءت في اثنتين وعشرين صورة رمزية كانت مرسومة على جدران هيكل بمنفيس تهدم ولكن بقيت أوصافه، فألقى محاضرات شيقة من هذا الكتاب في «إسوج» وفي ألمانيا وفي الدانمارك وجعلها في كتاب، ولهذه الصور اتصال بعلم الأرواح، والمهم ما ذكره في إحدى محاضراته بمصرنا مما يوافق هذه الآية. قال:

إن المصريين القدماء كان عندهم من الحساب نوعان: نوع عام يعرفه الناس، ونوع خاص لا يعرفه إلا رجال الدين. أما النوع العام فهو الجمع والطرح والضرب والقسمة. وأما الذي يختص برجال الدين فهما الجمع المقدس والطرح المقدس. وبيان ذلك أن واحداً ليس من الأعداد وإنما هو خاص بالله تعالى، لأن العدد كلمة دالة على التعدد والواحد لا تعدد فيه، فهو خاص بالله تعالى، وجميع الأعداد مركبة من الواحد، فإذا زال الواحد زال العدد، وإذا زال العدد لم يزل الواحد، وهكذا الكسر لا يكون إلا بالواحد فلا نصف ولا ربع ولا جزء من ١١ ولا جزء من مئات الألوف إلا إذا كان الواحد، فالواحد هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن وهو كل شيء. ثم إننا إذا أضفنا إلى الواحد ٣ ثم ٣ على طريقة المتوالية العددية التي تكون بزيادة ٣ فنقول: ١، ٤، ٧، ١٠، ١٣، ١٦، ١٩.

هذه المتوالية العددية فيها تكوين سر هذه الدنيا عند قدماء المصريين، بل فيها سر المبدأ والميعاد. فيها سر الأولين والآخرين. فيها سر الدنيا والآخرة. فيها الرفع والخفض والموت والحياة والعمارة

والخراب. فيها سر الله وسر الخلق. فيها سر كل شيء. وبيانه أنك إذا أضفت ٣ إلى واحد بطريق الجمع المقدس فإن ذلك إشارة إلى آثار الله في الطبيعة. فترى الفصول الأربعة، وترى الصبح والظهر والعصر والمغرب يكون من مجموعهما الليل والنهار. وترى أكثر الحيوان الظاهر على أربعة أرجل. وترى هناك جهات أربعة ورياحاً أصلية أربعة وهكذا من كل ما هو أربع. فإذا أضفنا ٣ أخرى صار العدد ٧ وهو الكمال في كل شيء في الفرد وفي المجموع. فأما عشرة فهو رمز إلى متقلبات الحياة من رفع وخفض في الأفراد والأمم، ورقم ١٣ إشارة إلى الموت موت الأفراد وموت الأمم، ورقم ١٦ إشارة إلى الدمار والهلاك التام، ورقم ١٩ إشارة إلى الحياة التامة ورجوع جميع الأحياء إلى حياة كاملة. هذه هي الرموز التي كانوا يقولون إنها تدل على هذه المعاني، وكأنها صور رمزية دينية تقرب المعاني البعيدة.

وأنا أزيدك على ما قاله أن هذه المتوالية العددية إذا أضفنا أولها إلى آخرها صار المجموع عشرين نصفها عشرة، أي أن الحد الأول والحد الأخير منها يساويان الحد الأوسط مضروباً في اثنين إن كان واحداً، أو الحدين الأوسطين مجموعين معاً إذا كانا اثنين، كما إذا ابتدأنا بواحد وختمنا باثنين وعشرين فإنك تضيف الواحد فيكونان ٢٣ وهما يساويان الحدين ١٠ و١٣ متضامنين إلى بعضهما، لأن الحدود في هذا عددها ثمانية، فيكون الوسط حدين، فأما فيما قبله فإن عدد الحدود سبعة ووسطها عدد ١٠ فيضرب في اثنين. ولعلك تقول: ما للآية ولهذه المحاضرة؟ أقول: إن الآية أفادتنا أن الله واحد لا شريك له وأنه لا ولد له. وكل هذه المعاني يرمز لها بعدد واحد لأن الواحد منه كل شيء، وأما قوله: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[الفرقان: ١] فقد رمزوا له بآثار الله في الطبيعة. ومعلوم أن لله أثرين: أثراً في الخلق والتقدير، وأثراً في الهداية، فهذا له الرمز عندهم بعدد أربعة. وأما كونه تعالى له ملك السماوات والأرض وخلق كل شيء فقدره تقديراً، فذلك رمزوا له بالعدد سبعة كما تقدم، وبالعدد ١٠، لأن الخفض والرفع من أنواع التقدير، وبعدد ١٣ وبعدد ١٦، لأن الهلاك والدمار من نوع التقدير، وأما عدد ١٩ فهو المرموز له بإعادة الخلق بعد العدم.

بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾
إلى قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾
وفيه ثلاث ياقوتات

الياقوتة الأولى: في قوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الآية: ١] مع قوله: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾[الآية: ٢].

الياقوتة الثانية: في نظام الآية من حيث ترتيب جملها إذ قدم تنزيل الفرقان في الذكر على خلقه للسماوات والأرض مع أن الترتيب العملي يخالف ترتيب نظام الآية.

الياقوتة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الآية: ٢].

الياقوتة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الآية: ١]
مع قوله: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾[الآية: ٢]

اعلم أن الحكماء من الأمم العظيمة أجمعوا أن الله لا يحكم عليه زمان ولا مكان، وبرهنوا على ذلك بأن الزمان إنّما جاء من دوران الشمس والكواكب، والمكان إنّما حصر بترتيب هذه العوالم.

إذن الزمان يحكم علينا، أما خالق العالم فالزمان حادث بفعله ولا حكم له إلا علينا. إذن الله لا يحكم عليه زمان ولا مكان، وقد تقدم هذا في بعض هذا التفسير.

والزمان بالنسبة للأفراد يعد بالسنين، وبالنسبة للأمم يعد بالقرون. إن الله يعد للطفل قبل ولادته كل ما يحتاجه حاسباً زمانه، فلا يكاد يكمل خلقه في الرحم حتى ترى دم الأم يأخذ في التوجه لثديها، وهناك يأخذ ذلك الجهاز الثديي في تحويل الدم إلى لبن شيئاً فشيئاً، وترى هناك أهل الطفل قبيل ولادته قد أعدوا له القابلات والثياب التي تكون وقاية له والحجرة التي يعيش فيها. فهاهنا يكمل الاستعداد لاستقبال ذلك الضيف الحبيب، فالمال يبذل والدم يصير لبناً والحكومة تعد الدفاتر لقيده. كل ذلك لطفل قادم من الرحم نازل بهذه الأرض المباركة الطيبة. هذه أفعال الله في طفل قادم إلينا. إذن الحكمة التي دبرت هذا العالم لا تذر فرداً إلا أحاطته برحمة لا حد لها. فلننظر للأمم فنقول:

علم الله قبل أن يخلق هذا العالم أن هذا الإنسان الذي يخلقه على وجه الأرض لا يقدر عقله أن يفهم أن إله العالم بعيد عن المادة متعال عنها، فأنزل أنبياء وعلم حكماء قديماً وقال لهم: قولوا إنني لا تراني العيون ولا تحيط بي الظنون، فقال ذلك «بوذا» و«خريستا» بالهند، وقالها «يو» و«كونفشيوس» بالصين، وقالها موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فما كان من الأمم إلا أن اخترعت أمرين: الأول: أنه خيل لهم أن الإله كالأب والمادة كالأم، وأن أحد القديسين كالابن، فقالوا: إن الله له ولد وولده بين ظهرانينا وقد أرسله وصلب لأجلنا، ورفع ذلك ليسهلوا للناس أن لهم إلهاً، وإلا فكيف يكون إله لا نراه ولا نرى له ابناً. أليس الله مثلنا يلد. أليس يجب أن يرسل ابنه لنا كما يرسل الملوك أولياء العهد في البلاد التي يحكمها. الأمر الثاني: أنهم لم يقدروا أن يتصوروا موجوداً لا يرى، فعبدوا الكواكب ثم الأصنام التي ملأت السهل والوعر في العالم الآن. وقد تقدم هذان الأمران في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الآية: ٢٢]، وفي سورة «المائدة» في آخرها، وفي سورة «إبراهيم» عند ذكر الأصنام، وفي سورة «مريم» عند ذكر المسيح، وفي سورة «الأنبياء» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾[الآية: ٢٥] الخ.

علم الله أن الإنسان ستكون هذه حاله، وعلم أن دين المسيح الذي أصله توحيد سيقبله أهل الأرض ويجعلونه كأديان الآشوريين والبابليين وقدماء المصريين وأهل مكسيكا القدماء وهكذا. إذ جعلوا أباً وابناً وروح قدس. العالم الإنساني كله كجنين في بطن أمه، وهذا الجنين عاش في هذه الأرض إما ٥٠ ألف سنة وإما أكثر إلى ٣٠٠ ألف سنة. هذه الآلاف يمكن أن نحسبها شهوراً بالنسبة للأمم، فنقول: إذن الأمم لا تزال طفلة، وهذا الطفل يريد أن يتعلم فسمع حروفاً من كلمات العلم قديماً، وبقي جاهلاً لأنه لم يستحكم عقله، ودخل معابد الأصنام النائبة عن الإله، وفرحوا بما عندهم من العلم. فماذا فعل الله للناس؟ أرسل لهم رسولاً من أمة جاهلة وهو لم يتعلم مثلهم، فقال لهم: لا أصنام ولا أبناء وكسر الأصنام وذم عقيدة الأبناء، ورفع سيفه آونة وأعلن السلام في الأرض ثم فارق هذه الأرض إلى ربه. مضى على إرسال هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ١٣ قرناً، فلنا أن نحسب هذه القرون أعواماً باعتبار آخر غير الاعتبار السابق ونقول: إن هذا الإنسان لا يزال مراهقاً، وإن أهل هذه الكرة لم يتم التواصل بينهم ولا عرفوا تمام المعرفة حقائق الأشياء، وهم أولاء الآن أخذوا

يدرسون. فماذا تم في ذلك؟ نقول: أذكر لك حادثتين اثنتين لا ثالث لهما: الحادثة الأولى: معابد بلاد الصين والإسلام المنتشر فيها. الحادثة الثانية: كيف انتشر الإسلام في جهات أفريقيا المظلمة على نهر النيجر، فنقول: هذا الطفل الذي أرسل الله له معلماً بعد الأزمان السابقة قد صنع الله معه ما صنعه مع الطفل المولود حديثاً. فكما أن الطفل الحديث الولادة نرى الاستعداد له على ساق وقدم، هكذا هذا الإنسان الذي أخرجه الله في هذه الأرض قد هيأ له اليوم نبياً ليخرجه من جهالته لأنه علم أنه أخذ يستعد للارتقاء، فقد مضى ١٣ عاماً فقط بعد نزول القرآن باعتبار أن القرن عام. وهذه الأعوام بالنسبة لعمر هذا الطفل قليلة جداً لأنه سيعيش كثيراً.

الآن أخذت الحقائق تظهر في أهل الأرض فانظر إلى أمة الصين. إن للصين آلهة معبودة يقدسها الشيوخ ويحقرها ويستهزئ بها الشبان. فترى هناك فوق جبل «تايشان» في تلك البلاد القاصية معابد يحج إليها المتدينون بها بمشقة عظيمة، لأن ارتفاع الجبل ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وترى السلم الموصل إلى المعبد له ٧٠٠٠ درجة، وترى الحاج لا يبلغ هذه القمة إلا بمشقة عظيمة، ولذلك ترى هناك حمالين يحملون الحجاج إلى الأصنام فوق الجبل، وفي الطريق زوايا صغيرة للآلهة الصغيرة وزوايا كبيرة للآلهة الكبيرة، ويجد الحاج بيوتاً للشاي ليستريح في الطريق من مشاق الصعود، فهذه الآلهة التي إذا حج إليها المؤمن بها رجع بعد طول الشقة ووعثاء السفر والجهد والنصب قرير العين لا يخشى الموت، قد باتت معابدها اليوم معرضة للاحتقار والاستهزاء والسخرية من الشبان الذين قرؤوا الحكمة والعلم وتنورت بصائرهم إذ يرون أنها أحجار لا تضر ولا تنفع كما نطق به القرآن، وتراهم يذهبون إليها لتنجيسها تحقيراً لشأنها، وذلك العقل مطابق للقرآن.

كيف ينتشر الإسلام في أفريقيا المظلمة

جاء في الأخبار المنشورة في الصحف في أيامنا هذه أن «تشارلس ريد» السائح الإنجليزي يقول: إنه وجد زنوجاً في نيجيريا يعرفون اسم «أرسطاطاليس» ويجادلون في فلسفته، وذلك بسبب ما قرؤوه من الكتب الإسلامية التي دفعهم الإسلام إلى قراءتها، وأن الإسلام بدخوله بين القبائل يزول نظامها المجحف القديم والعسف والظلم بسبب نظام إسلامي جميل فيه الولاة والحاكم، وكل امرئ من هؤلاء الحكام يشعر بأنه مسؤول أمام ربه. وهؤلاء الزنوج في حال همجيتهم ووثنيتهم يقيمون على عادات جاهلية، فيأكلون لحم الميتة ولا يبالون بالأقذار ولا يعرفون المحارم بالزواج، وقد يأكل الابن أمه إذا ماتت، فإذا دخلوا في الإسلام رأيت الأمر غير ذلك فيعرفون معنى النظافة ويتفقهون في الدين ويقرؤون الكتب التي ألفها المسلمون.

فهاتان الحادثتان من الحوادث الكثيرة اخترتها لتقف أيها الذكي على مقدار جهل هذا الإنسان اليوم. فهاهو ذا الصيني العريق في المدنية والصناعة والعلم لما ظهرت بوارق إشراق شمس العلوم أخذ يدنس الأصنام محتقراً بها معابده. وهاهو ذا الإفريقي المتوحش لما بلغه دين الإسلام بطريق مقبول تدين به واتقى ربه، وهذا في آخر الدنيا شمالاً وهذا في آخرها جنوباً. ثم إن هؤلاء المسلمين عند نهر النيجر لا يخلو إسلامهم من خرافات تبعاً لعوائدهم. ولقد يسمع الإنسان بحجاج يسمون «التكارنة» فهم هؤلاء أنفسهم يمشون على أقدامهم إلى مكة يسألون الناس تكففاً ويموت أكثر من نصفهم في

الطريق. ثم إن سلطان الزنوج في «برموه» في «نيجيريا» الفرنسية مسلم لا تفوته صلاة ولا يهمل فرضاً، ولكنه مقيم على عوائده الأفريقية فهو يأكل تحت شجرة من أشجار «المنجة»، ورعاياه لا ينظرون إليه ولا يخاطبونه إلا إذا ولاهم ظهره، والجوقة الموسيقية كذلك لا تعزف إلا إذا ولت ظهرها إليه. هذا هو الإسلام يهدي الإفريقي. وهاهو ذا في بلاد الصين الكثيرة الأصنام. تلك الأمم التي عند أهلها آثار من العلم، وقد اتضح العلم لهم الآن فحقروا الأصنام.

فيا ليت شعري ماذا يصنعون الآن. أقول: إن لهم ملجأ يلجؤون إليه كما أن للطفل عند ولادته ملجأ يلجأ إليه، فملجأ الطفل القابلة ولبن أمه والعطف العام عليه، وملجأ هذه الأمم الوثنية وحشية كانت أو متمدينة أن ربها ليس بغافل عنها كما لم يغفل عن الطفل. وهؤلاء الأطفال وهم أبناء آدم في الشمال والجنوب قد أعد لهم الله اللفائف قبل ظهورهم، أو الأساتذة قبل زمن تمييزهم، غاية الأمر أننا نعقل عمل الله في الطفل لأنه أمر سهل ولسنا نعقل عطفه على الأمم، فنظن أن عطف الله على الطفل قد بلغ النهاية وعطفه على الشعوب قليل، ولكنا عند النظر بالحكمة نرى عطفه على الأمم أبلغ من عطفه على الطفل، لأن الأمم مجموع أفراد، أفلا ترى أنه أنزل القرآن وقال للمسلمين: اقرؤوه وانشروه، فقرؤوه ونشروه.

ولما انتشر في بلاد الصين لم يف هذا الدين الإسلامي بحاجات تلك الأمم لأنهم قوم علماء وحكماء حكمة قديمة غامضة، والمسلمون هناك ٧٠ مليوناً، ودين الإسلام الشائع بينهم لم يخرج عن الأحكام الشرعية التي اجتهد فيها أبو حنيفة، ولذلك تجد الوثنيين الذين يحقرون هذه الأصنام يقولون للمسلمين: إن دينكم لم يخرج عن كونه دين طلاق وفسخ وإجارة وعقد وما أشبه ذلك، أما الحكمة والعلم ونظام الله في الأرض وعجائب الشمس والقمر وما أشبه ذلك مما نعرف نحن فإن دينكم خال منه، فلا فكر لكم معاشر المسلمين إلا في الصلاة والوضوء والغسل والحيض والنفاس والولادة وأحكام ذلك كله، وأنتم أيها المسلمون عن العلم محجوبون.

هذا هو الذي أخبرني به العالم الصيني المسمى «وان وين كين» حينما زار مصر، وقد ذكرت خبره في مواضع من هذا التفسير، وقال: إن أربعة قواد من قواد الجنود الصينيين المسلمين أرسلوني لأبحث في أقطار الإسلام لعل هذا الدين حقيقة عدو للعلم كما يقول علماء الصين وهم حنفية المذهب، أم الأمر على خلاف ذلك، ولقد قال لي: لقد وجدت في مصر حركة عظيمة، وقد اطلع والحمد لله على تفسير سورة «الفاتحة» وعلى تفسير سورة «البقرة»، ولقد قال لي إنه سيترجم «الفاتحة» وكتاب «القرآن والعلوم العصرية»، وسافر وأنا لا أدري الآن ما فعل.

إن هذا الدين الإسلامي لما انتشر في الأرض وأخذته أمم بعد العصر الأول لم تفهم ما يراد منه، فأخذوا يتلونه بلا عقل، وحصروا العقل الإنساني في أحكام الفقه وفروعها. إذن هذه الأمم التي حملت هذا الدين بعد العصر الأول ليسوا كفؤاً لهذا الدين، ولما أدرك الحقيقة الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري ألف كتاب «الإحياء» وقال: إنني أريد أن أحيي به عصر الصحابة، أولئك الذين كانوا يفهمون من الإسلام ما لا يفهمه من بعدهم. ذلك أنهم كانوا يعلمون أن معرفة الله بالنظر في العجائب والمخلوقات هي أصول هذا الدين، وهكذا علم الأخلاق وتهذيب النفس تهذيباً عملياً،

وذم أهل زمانه ذماً شنيعاً، ونقل ما قاله ابن مسعود يوم موت عمر: «قد مات تسعة أعشار العلم»، فقالوا له: نحن أصحاب رسول الله نحمل العلم، فقال: لست أريد هذا ولكن أريد العلم بالله تعالى.

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في معضلات هذا التفسير فقال: لقد أطلت المقال فما ملخصه؟ فقلت:

(١) إن الأمم كلها أطفال.

(٢) وأن رحمة الله تشمل الأمم كما تشمل الأفراد.

(٣) وأن الله مهد لهؤلاء الأمم بدين الإسلام كما يمهد للصبي ثدي أمه.

(٤) ومن ذلك أنه نشر الإسلام في الصين عابدة الأصنام وفي نيجيريا المتوحشة.

(٥) وأن المسلمين في الصين كبقية المسلمين ليسوا يعرفون من الدين إلا ألفاظ القرآن، فهم له قراء وإلا الأحكام الحنفية والشافعية الخ.

(٦) وأن هذه الأمم استعدادهم لحمل هذا الدين ضعيف فلم يكونوا كالصحابة في العصور الأولى ولا التابعين.

(٧) وأن الأمام الغزالي رحمه الله أدرك هذه الحقيقة فنادى في الناس بكتابه «الإحياء» يقول: أيها الناس، دين الإسلام أن تعرفوا جميع العلوم في هذا الوجود، وأنتم ما علمتم اليوم إلا القليل جهالة وبلاهة. وقد مضى بعد قوله ما يقرب من ألف سنة والمسلمون نائمون، ولذلك لن يقدروا أن يهدوا أكثر الأمم الضالة التي تعبد الأصنام. فقال: وما دواء هذا الداء؟ قلت: دواؤه في:

الياقوتة الثانية، وهي أنه ذكر تنزيل الفرقان قبل قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

فقال: وأي شيء في هذا التقديم والتأخير، وهل لهذا أهمية في هذا الموضوع؟ فقلت: إن الدواء في هذا التقديم والتأخير. فقال: اذكر حادثة توافق هذه حتى نستأنس بها، فقلت: قد تقدم في هذا التفسير أن أبا بكر رضي الله عنه وقف خطيباً في سقيفة بني ساعدة وقال للأنصار: أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار فنحن الوزراء وأنتم الأمراء. فبهذا التقديم في الآية حكمت قريش العرب وأمم الإسلام قروناً وقروناً، فكان منهم العباسيون والأمويون والعلوية وهكذا، كل هذا لتقديم كلمة على كلمة. وهكذا ترى الإمام الشافعي يقول: يجب في الوضوء تقديم الوجه على اليدين، ولماذا هذا؟ لأن الله قدمه في الذكر في آية الوضوء، واستدل بالحديث: «ابدؤوا بما بدأ الله به».

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أما الآن فقد آن أن أسمع ما تقوله في هذه الآية من حيث التقديم والتأخير لأن الحجة قائمة. فقلت: إن الله خلق السماوات والأرض قبل أن ينزل القرآن. قال: نعم. قلت: ولذلك يقول: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الفرقان: ٢]، وهذه جملة اسمية تقتضي الثبوت والدوام، أما نزول القرآن فقد ذكره بجملة فعلية تقتضي الحدوث. قال: هذا حق. قلت: فلو أن نظم القرآن مشى على سنن آية الوضوء وعلى سنن آية المهاجرين والأنصار، وبعبارة أخرى: لو أن نظم الآية هنا اعتبر فيه مجاراة ما هو موجود لكان هكذا: تبارك وتعالى الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ونزل الفرقان على

عبده ليكون للعالمين نذيراً. الله لم يفعل ذلك هنا مع أنه مقتضى الترتيب الوجودي، وإنّما عدل الله عن ذلك بسر ظهر في عصرنا وحكمة بهرت في أيامنا. ذلك هو ما عليه المسلمون الآن.

المسلمون الآن يقرؤون القرآن ولا يعرفون إلا التنزيل فهم يبتدئون بحفظه عن ظهر قلب ثم يقرؤون الأحكام الشرعية فلذلك صاروا أجهل الأمم، مع أن القرآن كلام الله وملك السماوات والأرض فعله، وقول القائل يفسره ويبينه فعله، ونحن نسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ونتبع فعله وقوله. أفلا نفعل مع الله ما نفعله مع نبينا ومع الناس. ننظر لأفعال الناس أكثر مما ننظر لأقوالهم. أفلا نجد في تتبع أفعال الله كما قرأنا أقواله. وبناء عليه يجب في إصلاح المسلمين أن نمزج قول الله بفعله في التعليم.

إن قول الله أشبه بما يحيي الجسد الإنساني من الدم، وهذا الدم الجاري في جسم المرأة لتغذية الجنين يفيد الجنين ولكنه لا يفيد الطفل كما قدمنا آنفاً، فاقتضت الحكمة أن يكون هناك جهاز يصنع فيه الدم فيكون لبناً ليشربه الطفل الذي كان جنيناً. هكذا الأمة الإسلامية التي كان أهلها أجنة يحيون بالقرآن حياة الجنين في رحم أمه، فلذلك لم يصلحوا لقيادة الأمم العظيمة، ولا تفهيم الناس الحكمة، حتى إن المسلمين في الصين لم يغيثوا عباد الأصنام بمعرفة حقائق الدين الحكمية لجهلهم بها، فهم يتخبطون في عبادة الأصنام يائسين من دين حق في الأرض.

المسلمون أصبحوا اليوم غيرهم بالأمس. فإذا كانوا بالأمس أجنة فهم اليوم في حال الرضاع، فحق لهم أن يعطوا الدين مصحوباً بالعلم، وذلك هو المعبر عنه بدين الفطرة، وهو الوارد في الحديث إذ خير صلى الله عليه وسلم بين الخمر واللبن ليلة الإسراء، فاختار اللبن لأنه الفطرة، وإنّما عبر عنه بأنه الفطرة لأن الفطرة تقتضي التدريج في التربية. فقال صاحبي: هذا القول غامض، أي تدريج تريد وكيفية هذا التدريج؟ فقلت: إن الأمة إما أن تحفظ القرآن وتعرف الأحكام وهي تجهل العلوم كلها، فهذه أشبه بالجنين. وإما أن تعرف ذلك كله ممتزجاً بالعلوم، فهذه أشبه بالطفل يرضع ثدي أمه، وهذه ليست حالاً غريبة على الطفل، فقد كان بالأمس يتغذى بدم أمه فلما ولدته أخذ يتغذى بنفس اللبن الذي كان يتغذى منه بالأمس ولكنه بحال جديدة، فهو لم يغير غذاؤه إلا عرضاً ولو أنه أعطي بعد الولادة خبزاً لمرض ومات. هذه حال الطفل فإذا كبر أخذ يأكل الخبز وغيره. هكذا حال الأمة: (١) حفظ عن ظهر قلب. (٢) ثم دين مع العلم. (٣) ثم دين مستقل عن العلم وهذه هي الحال الثالثة.

فدين الفطرة أن يمزج العلم بالدين وهي الحال الثانية. فأما الخمرة فهي غير موافقة لمزاج الجسم فهي ضارة به. فهذه الأحوال الثلاثة أشبه بأحوال الإنسان الثلاثة في التغذية. فقال صاحبي: إذن أنت تقول إن قوله: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفرقان: ٢] بعد قوله: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[الفرقان: ١] أشبه باللبن، وذلك بمزج العلم بالدين بالطريق التي اتبعتها أنت في التفسير. وبعبارة أخرى: أنك الآن تقول: تنزيل الفرقان أشبه بحال المسلمين العادية، ومزج العلم بالدين هي الحال التي ينقلون إليها الآن. فقلت: نعم. فقال: ولكن فاتك أن مصطفى كمال باشا نقل تركيا من حال إلى أخرى وقال: العلم شيء والدين شيء، أعني أنه فصل العلم عن الدين كما فعلت فرنسا، ويظهر أنه نجح في ذلك بدليل أن الأمم كلها تهابه الآن. فقلت: هذه طريقة نافعة ولكنها خطرة، والطريقة التي أقولها الآن لا خطر فيها

وما هذه الطريقة إلا كطريقة أطباء عصرنا الذين يستعملون المسهلات والمركبات في الأدوية ولا يسيرون على النظام الطبيعي، وأحسن الطب ما كان جارياً على الناموس الطبيعي، فإذا أكل الإنسان الفواكه والخضر وترك ما يضر استعماله وبرز في الهواء والشمس فإن ذلك أفضل من استعمال الأدوية التي تنفع مؤقتاً ثم تترك أثراً في النفس تتبعه آثار ثم ينتهي بالموت. وما مثل المسهلات والأدوية المركبة في المرضى إلا كمثل الاتكال في الدين على المعجزات وخوارق العادات كما تقدم في سورة « طه »، فكما أن الشفاء في المسهلات والمركبات وقتي يعقبه مرض آخر هكذا الاتكال على خوارق العادات يعقبه رد فعل، ويقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، إذن فما لهم يطلبون خوارق العادات؟ قال صاحبي: إذن هنا ثلاث مسائل: مسألة فصل الدين عن السياسة كما فعلت فرنسا وتركيا. ومسألة الأدوية المركبة والمسهلات. ومسألة خوارق العادات.

ولقد جعلت هذه المسائل الثلاث من واد واحد. وهنا مسائل ثلاث مقابلات لها، وهي: إعطاء الأمة الدين مع السياسة فهو إذن كاللبن وهو موافق للفطرة كما في الحديث، وإعطاء المريض الأغذية اللطيفة بدل المسهلات، وتعليم الأمة العلوم العقلية مع الدين بدل الاتكال على خوارق العادات كالمسألة الأولى. فقلت: نعم هو كذلك، وأريد أن أوضح مسألة هنا وهي مسألة الطب، فقد قال:

(١) الدكتور « غرانيشتاتن » الذي هو من أقطاب الطب في ألمانيا: إن الضعف في درجاته إنّما هو نتيجة العلاج بالعقاقير سواء أكانت رديئة أم طيبة، فهي إذا ستعملها الطبيب بحذق ومهارة تغلبت على المرض حقاً ولكن تترك هناك بقايا تظهر عاجلاً أو آجلاً في الجسم فلا تقبل الشفاء. فهذا هو الضعف العلاجي، ونسب ذلك الضعف إلى المركبات مثل « حمض البروسيك » والرصاص والزرنيخ والكبريت الخ.

(٢) ويقول الدكتور « كيسر » ونقله عنه الأستاذ « بلز »: إن الحكمة القديمة القائلة بأن الدواء قد يكون شراً من الداء، والطبيب شر من المرض هي صحيحة في أكثر الأحوال.

(٣) وقال نحو ذلك الدكتور « سميث » الذي قال: إن كل دواء يدخل الجسم يعطي الدورة الدموية سماً كما يعطيها السم تماماً.

(٤) وهناك نحو ثمانين عالماً من الأطباء الرسميين نقل عنهم الأستاذ « ولز »، وقد قالوا مثل هذه الأقوال، فقرر هؤلاء جميعاً أن الصحة في الاقتصار على استخدام قوى الطبيعة كالهواء الطلق والغذاء الجيد الصحي، وترك اللحم والمهيجات، وأن يعمل الإنسان عملاً جسدياً معتدلاً، وأن يستحم بالماء الفاتر والبارد، وهكذا مثل ما تقدم في سورة « طه » في أواخرها.

فقال صاحبي: ما الذي أصاب الناس من استعمال الأدوية؟ فقلت: يقول « كيسر » المتقدم ذكره: إن الأطباء يرضون المرضى ويتبعون شهواتهم ويحققون نظرياتهم ووسوستهم فيعطونهم الأدوية ولا يقفون عند حد إبعاد المؤثرات القاتلة للمريض، فلذلك تحدث أمراض مزمنة بهذا الفعل وسببها هم نفس الأطباء.

فقال: وما الذي يناسب ذلك من أمر سياسة الأمة إذا عزلت الدين عن السياسة؟ فقلت: إن عزل الدين عن السياسة دواء خطر كالأدوية المركبة يستعمله المستعجل لرقي أمة، ولكنه يكون عرضه

للاعتراض عليه، وقيام طائفة وراء طائفة كلهم يريدون أن يثوروا في وجهه، فمن الملوك من يفوز ومنهم من لا يفوز، وإذا تم الفوز فالأمر لا يزال خطراً يعقبه رد فعل بعد حين، وخير السياسة ما كانت بطريق الطبيعة. فالأمة الإسلامية اليوم تقرأ الدين ولا علم عند كثير منها، فليمزج العلم بالدين كما فعلت في هذا التفسير فيكون لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وبه يبتهج العلماء في أمة الإسلام، ويحبون رقي أممهم، ويعاونون الملوك والأمراء، ولا يثيرون الشعوب عليهم. فهذه هي الطريقة المثلى لا سيما أن علماء الاجتماع يقولون: إن الإصلاح الديني أعظم أثراً في رقي الأمة من الإصلاح السياسي، فإصلاح مصطفى كمال باشا نافع، ولكن هذا الإصلاح الذي اتبعناه عاقبته حميدة، وهو سريع الأثر بعيد المدى يريح الملوك والأمراء ويجعل الأمة روحاً واحدة. هذا هو الذي هداني الله إليه وأريد به إراحة ملوك الإسلام والمصلحين منهم بعدنا، فذلك خير من الثورات والدسائس، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود: ٨٨]. ومن العجائب أن الأخبار وردت اليوم ١٦ يناير سنة ١٩٢٩ أن ملك الأفغان المتقدم ذكره لإسراعه في الإصلاح تنازل عن العرش. وقد قدمت في سورة «الحجر» منذ سنة أنه زار مصر إذ ذاك، وإني أشعر بكراهة الشعب له لا سيما العلماء وقد حصل هذا فعلاً الآن.

فقال صاحبي: وأي دخل لمسألة خوارق العادات هنا؟ قلت: إن خوارق العادات تقدم شرحها في سورة «طه»، وإن فعلها وقتي، إذ عبد بنو إسرائيل العجل بعد أن رأوا العصا والحية، والله يقول: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩]، والتخويف إنّما يكون للأطفال، والقرآن يراد بنزوله أن يكون لأمم تعقل وتفهم لا أنها تخوف كالصبيان.

حكاية

كان لي صاحب وهو مجاور لي في المنزل وهو شيخ طريقة مشهور في مصر، وكنت أجلس معه في بعض الأيام، وقد علمت أنه إذا توجه إلى بلاد الصعيد تلقوه أفضل مما يتقبلون الملوك ويجعلون يومه عيداً، ولاعتقادهم فيه كان اللصوص يخافون منه فلا يسرقون. وقد حادثه أحد إخواني في ذلك، فقال: إني إذا وصلت إلى البلد فإنه يأتي إلي واحد، فيقول لي: يا سيدي أنا أخطأت، ويسرد لي كل ما حصل من السرقة ويذكر جميع الذين كانوا معه، فإذا حضر واحد منهم قال له: ارجع لا تدخل علي، فيعتقدون أنه يعلم الغيب، فهذه الحال اشتهرت فخاف الناس من الشيخ لا من الله. وهذه الحال لا تفيد الأمة إلا مؤقتاً، وإنّما هي أشبه بالمخدرات أو المسهلات أو الأدوية المركبات، وإنّما السبيل لرقي المسلمين حقاً أن يعمل العلماء بمعنى هذه الآية، فإنه قال: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[الفرقان: ١]، وأتبعه بذكر أنه له ملك السماوات والأرض. فبمزج العلم بالدين ترتقي الأمة. أما الأدوية الوقتية للأمة كذكر معجزات الأنبياء أو كرامات الأولياء حقاً كانت أو باطلاً كما في صاحبنا الذي ذكرناه سابقاً والتأثير بالخطابة وحسن البلاغة بدون إقناع عقلي فإنه لا يدوم أثره في الأمم ما لم تصبح الفضيلة لها عادة، ولكن يبقون في العلوم والمعارف عالة على الأمم، فلا بد حتماً مما قلناه. وإلى هذه الحال يشير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: ١٨-١٩]، فعبر بـ«ثم» للإشارة إلى تأخر زمن البيان عن زمان التنزيل، وبيان القرآن حق البيان قد ابتدأ في هذا الزمان

الذي عبر عنه بـ « ثم » في الآية . وكذلك قدم الله تنزيل الفرقان هنا على قوله : ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفرقان : ٢] ، وعبر بالفرقان ولم يعبر بالقرآن ، لأن الفرقان للفرق بين الحق والباطل ، ولن يكون كذلك إلا بإدراك الحقائق التي تعرف بملك السماوات والأرض ، فالأمم الإسلامية السابقة أكثرها قرآنية ، والأمم الإسلامية اللاحقة أكثرها فرقانية . فاقرأ هذا التفسير وبعده تعرف هذه الحقائق ، والحمد لله رب العالمين ، كتب ليلة الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

الياقوتة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

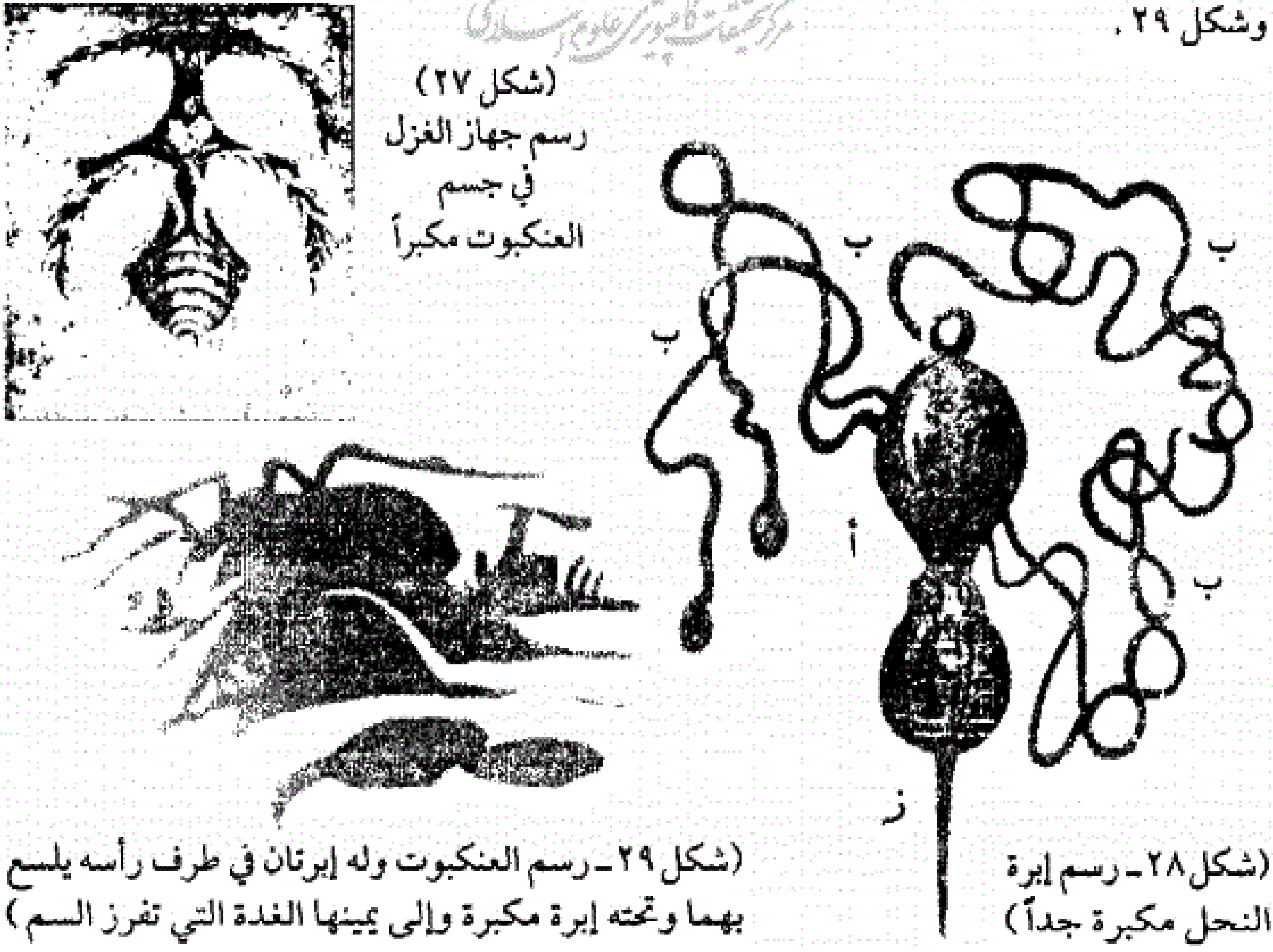
من اطلع على هذا التفسير أو أكثره استقر في ذهنه أن الله عز وجل مشرق نوره مطلع بعلمه على كل ما دق وجل ، وما مثل الحكمة والنظام والتقدير في هذا العالم إلا كمثل ضوء الشمس وإشراقه . إننا نرى كل بيت في هذه الأرض إن لم يشرق عليه النور ويشمل جميع حجراته تكون سكناه ضارة بالصحة ، فعلى مقدار إشراق نور الشمس في أركان البيت تكون صحة سكانه . وعلى مقدار ابتعاد نورها عن الحجرات في المنزل أو عنه جميعه يكون المرض والموت . وعلى قدر المرض تكون قلة العلوم والعبادات والأعمال والرقي والفلاح .

هذا حكم نور الشمس . فلننظر إذن لنور الله وحكمته . الله عز وجل كما جعل نور الشمس عاماً وجعله محيطاً بالكرة يدخل في كل منزل وثقب وحجرة . هكذا نراه في الأحكام والإتقان ، بل الإتقان أعم وأبدع ، وإذا أردنا أن نذكر هنا مثلاً تواردت آلاف وآلاف من الأمثال . فأي الأمثال نضرب والعالم كله مضرب أمثال من ذراته الصغيرة إلى شموسه العظيمة ، ومن الدقائق والجواهر الفردة إلى المجرات وأنواع السدم في أقطار السماء ، فلأكتف بمثلين صغيرين مثل النحلة ومثل العنكبوت وإنّما ضربت هذين المثلين لتعجب من جمال وإتقان وإبداع وحسن وجمال وكمال ونظام ، وما شاء الله كان في حيوانين حقيرين منبوذين صغيرين قد اختلفا وصفاً وتباعدا طبعاً ، وفيهما من دقة الصنع ما يحير العقول .

حكاية

لنا مزرعة ببلدة « البركة » في الأرض التي تقرب من الجبل الشرقي المصري ، فاقتضت الحال أن أخرج من القاهرة آناً فآناً لأجل هذه المزرعة والنظر في أمرها . وقد عزمت يوماً أن أتوجه إليها ماشياً على القدم من بلدة المرج لأبتهج بمنظر أرض واسعة خالية في طريقي إلى المزرعة . فهناك آلاف من الفدادين لا تزرع وإنّما هي مسرح البهائم ترعاها ، فلما توسطت تلك المزارع وجدت أرضاً ذات حشائش قد عمها كلها نسيج العنكبوت ، هنالك أدهشني هذا الصنع وقلت في نفسي : إذا ترك الناس هذه الأرض فلا بناء ولا زرع ، أرسل الله لها سكاناً نصبوا خيامهم وأخذوا يصطادون أنواع الذباب وهم في أمن ودعة وسعود . فهاهنا أذكر صفة العنكبوت وصفة النحل إجمالاً . أما العنكبوت فإنها هي والعقارب لها ثمانية أرجل . وأما النحلة وما ماثلها وهو وجميع الحشرات كالذباب والناموس فلكل منها ٦ أرجل . إذن العنكبوت ليست من الحشرات ، ثم أكثر الحشرات غير سامة ، وأقلها كالنحلة والزنبور سام . ولكن العناكب والعقارب وأبو شبت كلها ذوات سم ، وإبرة الحشرة السامة تكون من الخلف . أما إبرة العناكب فمن الأمام .

وحيوان العنكبوت ينسج بيته ، ومتى مرت به ذبابة فعل معها أمرين : أولـهما : أنه ينسج خيطه عليها لئلا تفلت منه . ثانيهما : أنه يفرغ فيها سمه بطريق الحقن فيخدرها أو يميتها . وللشبث سم قوي ولكنه غير مميت كما هو مشهور . أما النحل فوظيفته صنع العسل . فهاهنا حيوانان : حيوان يتغذى بالذباب وهو غزّال نسّاج ، وحيوان يتغذى بالنبات وهو يعطينا العسل . هذان الحيوانان في كل منهما مصنع . هذا للعسل وهذا للنسيج . وفي كل منهما مصنع آخر أيضاً للمادة السامة ، إذن الحيوان الصغير قد أعطي صناعة المواد السامة قبل أن يصنعها الإنسان في الحرب العامة الكبرى وذلك لمنفعته هو ، وكل منهما قد ألهم صناعة تنفعه ، فهذا له مصنعاً للعسل ، وهذا له مصنع للغزل والنسج . إذن الحيوان سبق الإنسان الذي استخرج العسل والسكر من القصب والبنجر ، وأوجد مصانع للغزل وأخرى للنسج . كل ذلك في حشرات حقيرات ملأت بيوتنا وعقولنا . هذه العنكبوت التي تراها في المنزل متى قل كنسه وتنظيفه ورأيتها في الحقول التي في ضواحي القاهرة أعطيت هذه الصناعات قبل الإنسان . يراها الجاهل فلا تهمه ، ولكن الحكيم المستبصر يرى فيها جمالاً كالذي يراه في الشمس والقمر والزهر والشجر ، بل يرى الحكمة هنا واضحة بعد الدراسة . فللنحل مصنعان : مصنع لجلب المنافع ، ومصنع لدفع المضار ، وهكذا العنكبوت . ولا جرم أن الأرض اليوم امتلأت بالمصانع ، وهي إما لدفع المضار ، وهي مصانع الذخيرة والآلات الحربية من مدفع وسفينة حربية وطيارة وسوائل أو غازات ضارة وما أشبه ذلك . وهل هذا كله إلا تكرار لمصنع السم في النحلة والعنكبوت . وإما لجلب نافع كمصانع النسج والغزل والخبز وما أشبه ذلك . وهل هذا إلا تكرار لمصنعي العسل والنسج في النحل والعنكبوت . فهل لك أن ترسم رسم إبرة النحلة مكبرة وجهاز الغزل في العنكبوت مكبراً كذلك؟ انظر شكل ٢٧ ، وشكل ٢٨ ، وشكل ٢٩ .



(شكل ٢٧ رسم جهاز الغزل في جسم العنكبوت مكبراً)

(شكل ٢٨ ـ رسم إبرة النحل مكبرة جداً)

(شكل ٢٩ ـ رسم العنكبوت وله إبرتان في طرف رأسه يلسع بهما وتحته إبرة مكبرة وإلى يمينها الغدة التي تفرز السم)

انظر إلى هذين المصنعين: مصنع السم في جسم النحلة، ومصنع الغزل في جسم العنكبوت، واعجب لمخزن النحلة الذي امتلأ سماً وللأنابيب التي تفرز السم وترسله إليه، ثم لإبرة دقيقة منها يخرج السم. أنابيب خمسة خارجات من الجهات الثلاث وهي تفرز السم ثم ترسله إلى المخزن. والمخزن يوصله إلى الإبرة والإبرة تدخله الجسم، عمل والله عظيم وإحكام وتدبير ليس له نظير. وأي فرق بين هذا المخزن ومعداته وبين مخازن الذخيرة ومصانعها؟ إن هذا والله أدق وأدق وأعجب، فإن هذا كله لا يشاهده البصر ولا تصل إليه آلاتنا مع دقتها ورقيها وانتظامها.

وانظر إلى جهاز الغزل؟ فماذا في جسم العنكبوت من الإبداع الذي حول الغذاء إلى غزل ينسج؟ وما الذي في هذا الجهاز حتى قلب الغذاء فجعله خيوطاً بديعة؟ ثم ماذا في مصنع السم الذي تشاهده الآن في جسم النحلة؟ وما هذا الذي جعله يحول الغذاء إلى سم؟ فانظر لمصنعين أمامك: مصنع لسم ومصنع لغزل. هذا مهلك وهذا معين على الحياة بها يصطاد الذباب. فيا ليت شعري ماذا جرى في أجسام تلك الحيوانات وما هذا التدبير؟ ذلك التدبير الذي به قدرت النحلة أن تؤذي عدوها، وقدرت العنكبوت أن تنسج بيتها، وكيف ألهمت كل منهما أن تفعل على مقتضى ما وهبت من المصانع. فهذه ألهمت اللدغ وهذه ألهمت النسج. ومثل هذا يقال في مصنع العسل في النحلة، ومصنع السم في العنكبوت. هذا شرح الحكمة الإلهية المعدة في هذين الحيوانين.

الحكمة العملية

علمت مما تقدم معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]، فهذا هو التقدير. هاأنت ذا يا صديقي أصبحت تراه بعينك. هاأنت ذا تراه فافرح بالعلم. إن الأمم حولنا درست هذه العوالم ونحن نزل القرآن بلساننا فقرأناه وقد كنا عند قراءته كسائر الأمم عند نظرهم العنكبوت والنحل، فكنا نقرأ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]، ونمر عليها مرور الجهلاء على أمثال الحقل الذي قلت لك إنه مملوء عناكب. فإذا كنا نحن نمر على هذه الجملة مرور الجاهلين، فهكذا نحن وجميع الأمم كان أكثرنا يمر على العناكب وأمثالها غافلين. ولكن هذا هو الزمان الذي ظهرت فيه أنوار الله، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[الزمر: ٦٩]، ونشرت العلوم. فالآن نفهم آي القرآن على قدر الإمكان ونرى حكمة بديعة وآيات جليلة جميلة. هذا ملخص الحكمة العلمية.

أما الحكمة العلمية التي عقدنا لها هذا الفصل، فاعلم أن أعظم الأمم هي التي تقتدي بالله عز وجل. فإذا كان الله قد علم العنكبوت النسج فلم تتكل على نبات ولا حيوان، بل كان صنعها من نفسها. هكذا يجب أن يكون الإنسان. وأعظم الأمم اليوم هي التي تستغني بصنعها وإتقانها. فهم يكونون في نوع الإنسان كنوع الإنسان في سائر الحيوان. والأمم الصانعة تستعبد الأمم التي لا صناعة عندها، وقد اكتفت بالزراعة. إن الحرير اليوم يصنع من الخشب، ويباع في القاهرة أنسجة حريرية رخيصة مصنوعة من خشب التوت والقطن، وهي أرخص من الأنسجة المصنوعة من دود القز. وإذا دامت هذه الحال انقرضت دودة القز من الدنيا. إذن الإنسان يقدر أن يستغني عن دود القز بصناعاته. والناس عادة يصبغون «بالنيلة» وهي مادة تستخرج من نبات في الهند يزرع في مليون فدان، فابتدع الألمان طريقة بها استخرجوا مادة الصباغة من الفحم ونحوه فبارت تلك الأرض.

إذن الصناعة أغنت عن الزراعة. وكأن الله يقول: أيها الناس إن رقيكم يكون بعملكم لا بما أودعته أنا في الطبيعة. وإذا قام قائم واستخرج مادة قطنية كالقطن المصري أصبح قطننا لا فائدة منه. الله الآن يسوق الناس إلى استخراج ما يحتاجون إليه بالصناعة ويقول لهم: افعلوا ما يفعله الحيوان، يستخرج منافعه بمصانعه، فأنا فعلت ذلك فلتفعلوا ذلك أنتم باجتهادكم. أنا قدرت كل شيء تقديراً وإذا تشبه بي الناس في التقدير والنظام كان قربهم مني على مقدار ما نالوا من دقة في العمل وإتقان في الصنع. وفي الأثر: «إن الله يحب الصانع المتقن في عمله»، وفي القرآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وفيه أيضاً: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: ١٠٥]، وإذا كان الله يرى عملنا فهو لا يحب إلا ما كان متقناً.

بماذا يشير الله للناس إذ أراهم صنع أمثال العنكبوت والنحل وتقديرهما

قلت: إني شاهدت آلافاً من الأفدنة في ضواحي القاهرة ليس فيها من السكان إلا تلك العناكب قد نصبت خيامها، لأنها لما خلت من عمل الإنسان شغلها الله بجنوده فنصبوا خيامهم واستعدوا لاصطياد الذباب. علم الله العنكبوت صناعة الصيد وأعطاها جهازاً يستخرج منه الخيوط، وأعطاها فكراً به تدبر ما فيه من صناعة، ولم يهمل ذلك كله بل خلق له الذباب. هذا الذباب إنما خلق ليطهر الأرض من القاذورات والرطوبات فتحال تلك في جسمه من حال الضرر إلى حال لا تضر، وهذا الذباب ضرره على الإنسان أقل من الرطوبات التي تحال فيما بعد إلى جسمه، ولكن لا تزال بعض المضار عالقة بتلك الحشرات. ألم تر أنها هي التي تنقل العدوى من المريض إلى الصحيح.

ولقد تم شرح هذا في سورة «الأعراف»، وأن الذباب ينقل جراثيم «الرمد الصديدي» من العين المريضة إلى الصحيحة، وجراثيم الإسهال و«الحمى التيفوذية» و«الطاعون» و«السل» و«الدودة الوحيدة». إذن الذباب وإن منع ضرراً كثيراً وهلاكاً عاماً هو والحشرات بإحالة الرطوبات والعفونات إلى جسمه بقي حافظاً لأصله ناقلاً للمرض، فسلط الله عليه أمثال العنكبوت ليقتنصه. إذن العنكبوت نعمة لأنه أزال عنا شراً وبيلاً، والذباب نعمة لأنه أزال عنا شراً كثيراً. إذن العنكبوت مساعد للإنسان في حياته.

الله أكبر. يا الله أنت جعلت هذه الدنيا جنة المفكرين وناراً على الجاهلين. اللهم إني وأنا أكتب هذا أحس بنفسي في جنة عرضها السماوات والأرض. وكيف لا يكون كذلك وأنا أنظر الجمال واضحاً في الحشرات الحقيرات فضلاً عن الكواكب في السماوات. يا الله هاأنا ذا وهاهم أولاء قراء هذا التفسير معي، هانحن أولاء نشاهد التقدير والإبداع فيما يزدريه الناس ويحقرونه ولا يأبهون له.

يغشى الطالب حلقات العلم ويرى خشوعاً وكمالاً وأدباً عند المستمعين. ولكن العجب أن يكون طلب العلم في مضرة هذه الحشرات المنبوذات عند المفكرين أعظم أثراً وأبهج حكمة وأقوى تصديقاً. وكأنهم يشاهدون المبدع في إبداعه ويرون الحكيم في حكمته. يضحك الناس منهم وهم ينظرون ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[المطففين: ٣٠-٣٢]، كلا. كلا. نظام محكم وإبداع متقن. ذباب يحيل الرطوبات.

وعنكبوت تقتل الذباب، وخيام فيها آلات صيد الذباب. بهذا يخاطب الله الناس وكأنه يقول: أيها الناس كل امرئ منكم له حالان: الحال الأولى: وهو طفل يرضع ثدي أمه. الحال الثانية: الاستقلال في طلب الرزق وأكل الحلال وآخرهما خيرهما، هكذا الأمم حالان: حال الإرضاع من أثداء الطبيعة، فمن الزرع يلبسون ومنه يأكلون. وحال الاستكمال في الصناعة، إذ يكون الإنسان في تمام كماله كالحيوان في نشأة حاله.

هاهم أولاء أهل الأرض الآن فريقان: فريق عرف الصناعة، وفريق بقي على الزراعة والمواد الأولية، وقد غلب الفريق الأول الثاني. إني أنا الذي سلطت الأولين على الآخرين فغلبوهم وأمرتهم فقهروهم. هاهي ذه الأمة المصرية وأمثالها من الأمم الزراعية التي لا علاقة لها بالصناعة إلا قليلاً. هذه أمم بقيت في حضانة الطبيعة كما تحضن الأم ولدها، ولكني أيها الناس لا أريد منكم أن تكونوا أطفالاً بل أريد أن تكونوا رجالاً وذلك بالصناعات. لذلك أنزلت لكم في القرآن: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]، فكل من كان أقدر على النظام والإحكام وكان أقرب إلى العمل بهذه الآية فهو منظم مقدر محكم عمله، وأنا أحب المتقن عمله، وأسلطه على من بقي في حضن الطبيعة لا يبرحها. لذلك غلبت الأمم الصناعية الأمم الزراعية. وما مثل الأمم الصناعية إلا كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. وهذا البيت وإن كان أوهن البيوت وأضعف الحصون قد علمكم درساً متقناً، إن أهل الصناعة يغلبون من لا صناعة عندهم. فتكت العنكبوت بالذباب. هكذا فتكت الأمم الصناعية بالأمم التي لا صناعة عندها. أفلا تعقلون؟.

ليس كل من كان موفور الغذاء مكرماً. وليس كل مكدود منهمك في العمل شقياً. كلا. بل الأمر بالعكس. إن الذباب موفر الغذاء في كل مكان ولكنه مهان. الذباب لا يعوزه صناعة ولا زراعة ولا تجارة. يأكل من رطوبات الأرض ولكنه ذليل. والعنكبوت حكم عليها ألا تأكل إلا من كد يدها وأن لا تعيش إلا من صناعاتها، لذلك مدت الشباك فاصطادت الذباب.

لله كتابان: كتاب مسموع بالوحي، وآخر مشاهد بالبصر، والكتاب المسموع يوحيه للأنبياء على مقدار عقول الأمم، فيكون فيه الكناية والمجاز والإيجاز. وأما الكتاب المشاهد فهو نص صريح يشهده المقربون فيعقلون عن النحل والذباب والنمل من العلم ما تخر له العقلاء سجداً وهم موقنون.

الله أكبر. إن الأمم التي أضحت في خفض العيش ودعته موفورة الرزق تصبح ذليلة كما ذكرناه سابقاً في كتاب أرسطاطاليس والإسكندر. والأمم التي تألب عليها الأعداء وذاقت أنواع النصب والتعب يظهر فيها المخترعون والمفكرون. أولئك الذين لا ينبغون إلا حيث تكون الأحوال مضطربة والأجواء مكهربة، وقد أحيط بالأمة من كل جانب، وبهذا يظهر سر قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾[الفجر: ١٥-١٧] فالذباب ابتلاه ربه بنعمه ولكنه مهان، والعنكبوت اضطر إلى صنع البيت لصيد الذباب وهي أرقى من الذباب. الذباب لا صنعة له، والعنكبوت صانع ماهر وآخرهما أرقى. هكذا فلتكن الأمة الإسلامية أمة صناعية زراعية تجارية وإلا ذلت للصانعين وخضعت للغاصبين.

لقد عرف هذه الحقيقة السلطان سليم لما حل بساحات مصر، فاغتصب منها رجال الصناعة وهم نحو ألفين، وأخذهم منها كرهاً لبلاد الترك، فرجعت الأمة المصرية زراعية لا تعرف الصناعة. ذلك لتبقى ذليلة للترك كذل الذباب للعنكبوت.

أيها المسلمون، ألم تقرؤوا نبأ إبراهيم عليه السلام إذ وبخ قومه على ما يعبدون، فاحتجوا بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين، فكسر الأصنام إحقاقاً للحق ونبذاً لآراء الآباء. هكذا فليفعل الجيل المقبل من أمم الإسلام، فإذا وجدوا آباءهم عكفوا على جهالة أو نبذوا أمراً نافعاً أقلعوا هم عن الضلال، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[يونس: ٣٢].

هذه عجائب العلم والحكمة في حشرات ثلاث: النحل والذباب والعنكبوت. علم الله ذلك قبل أن ينزل القرآن. وعلم أن المسلمين ستمضي عليهم قرون وهم مغمضون عيونهم عن هذه العجائب في هذه الحشرات، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦]، وقال في سورة «العنكبوت»: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[الآية: ٤٣] بكسر اللام، رداً على الكفار الذين كانوا يقولون: ماذا أراد الله بذكر الذباب والعنكبوت؟ يشير بذلك إلى ما تراه في هذه العجائب في النحل والعنكبوت، فإن هذه لا يعقلها إلا العلماء الدارسون لهذه الدنيا العارفون بنظامها.

ومن عجب أنه سبحانه سمى سورتين باسم النحل والعنكبوت ولم يسم سورة باسم الذباب مع ذكره في القرآن، تنبيهاً على أن المسلمين يجب أن يكونوا أمة ذات صناعة وذات بأس وقوة، فإن كلاً من النحل والعنكبوت لهما قوة بأس كما تقدم ولهما صناعتان قد علمتهما فيما ذكرناه، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]. هذا ما فهمته اليوم من قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]. انتهى ليلة الجمعة ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٨.

نور على نور في قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

هذا تقدير الله وخلقه فوق الأرض بالعنكبوت وفي الجو بالنحل، ويقول الله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، فالتقدير الذي نراه على وجه البسيطة هو بعينه الذي نراه في قاع البحار وعلى سطح الماء وفي الجو. فهاك لذلك أمثلة ثلاثة حتى تكون لنا نموذجاً ودليلاً على غيرها فنقول: كما نرى النحل قد أعطي قوتين قوة للنفع وقوة للدفع أي العسل والسم وكذا العنكبوت الغزل والسم، هكذا نرى الحيتان في قاع البحار أوتي بعضها قوة الكهرباء بحيث يهجم على فريسته فيقتلها بها، وذلك مخلوق فيه قبل أن يعرف الناس الكهرباء على وجه الأرض، وأوتي قوة الجري حتى يفر من عدوه إذا فاجأه. وهكذا نرى هناك حكمة وعلماً بهما ظهر التدبير والنظام على وجه الماء في الحيوان صاحب السفينة المسمى «نوتيلوس».

هاهو ذا صاحب السفينة الذي يديرها على وجه الماء كما تقدم في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[الآية: ٥٠] فقد ذكرت لك هناك نحو ٤٠ نوعاً من أنواع الحيوان قد أعطيت صناعات تعلمها الإنسان منها، ومنها هذا الحيوان الذي اتخذ له

سفينة في البحر قبل أن يصنع نوح عليه السلام سفينته، ولكن القول هناك بلا رسم فلأرك هنا شكل السمك الذي جعل سلاحه الكهرباء، وشكل الحيوان صاحب السفينة. انظر شكل ٣٠، وشكل ٣١.

(شكل ٣٠ ـ سمك كهربائي يكون في البرازيل ويشبه الإنكليس)



(شكل ٣١ ـ سمك كهربائي من نهر الكنغو)

اعلم أن السمك الرعاد قليل جداً ومنه ما يسمى عند الفرنجة بالتربيد، وهو كثير في بحر الروم والأوقيانوس الهندي والأتلانتيكي، وهو قد يصرع الإنسان بقوته الكهربائية. ومنه ما يسمى «الإنكليس الكهربائي» وهو أقوى السمك الكهربائي، ويكون في البرازيل وغينا، ويقتل السمك والحيوان الصغير بكهربائيته. ومنه سمك القط الكهربائي وهو في النيل ويكثر في بحيرات أفريقية. والكهرباء المذكورة في السمك تتولد من صفائح عضلية منشورية الشكل أشبه بخلايا النحل كالمساطر المسدسة الأضلاع بعضها منضم إلى بعض بينها نسيج ليفي وأوعية دموية وأعصاب، وهذه القوة أعدت لقتل الحيوان الصغير ليأكله هذا السمك، وتذكر ما تقدم في سورة «الرعد» فقد شرحت لك هناك البطارية الكهربائية. فانظر كيف ترى هناك شكل البطارية وأنها طبقات بعضها فوق بعض مرسومة هناك أشبه بهذه الطبقات التي في هذا السمك. فانظر وتعجب كيف وصل الإنسان بعد الجهد الجهيد في العلم إلى ما أعد للسمك، فإن البطارية هناك تراها مشروحة كالبطارية هنا طبقات بينها مواد موصلات كما هنا سواء بسواء.

واعجب كيف يعطى كل حيوان سلاحاً يوافقه، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، فللعنكبوت شبكته المناسبة لاصطياد الذباب ولكن السمك الرعاد لا تنفعه الشبكة فأعطي قوة الكهرباء ذات البطارية المتقدمة. أفليس هذا من العجب أن يظهر سر قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] في سمكة في البحر وفي نحلة في الجو وعنكبوت فوق الأرض. وترى الأمر غير ذلك في صاحب السفينة. انظر شكل ٣٢.



(شكل ٣٢ ـ صورة النوتيلوس أو صاحب السفينة)

هذا الحيوان المرسوم أمامك من الحيوانات التي لا فقرات لها. إن الفقرات تكون في الإنسان وفي البهائم والسباع والأنعام والسمك والزحافات، والذي لا فقرات له كالهوام والدود والحيوانات الرخوة. وهذه الأخيرة لها كساء من الخارج وهذا الكساء قد يكون جلدياً تتصل به أعضاء الحركة ونحوها، وقد يكون غضروفاً، وقد يكون كلسياً أصلب من العظم. فهذه هي الحيوانات ذوات الصدف ومنها الأخطبوط والقواقع التي منها الحلزون الصغير والبوق العظيم الهائل. فمن ذوات الصدف «صاحب السفينة» المرسوم أمامك فيه استقر الحيوان المتقدم المسمى باليونانية «نيوتس» أي سفينة، ومعلوم أن صاحب السفينة بالعربية يسمى «نوتي» فهما متوافقان يونانية وعربية. وهذا الحيوان يستخدم هذه الصدفة كالنوتي سواء بسواء. فبها يعوم على سطح الماء ويديرها بأصابعه الست فيرسلها إلى الجانبين كالمجاذيف، وقد استعمل العضوين الغشائيين كأنهما شراع السفينة. فمتى أراد السير جذف بأصابعه هذه وأدار السفينة يميناً وشمالاً وحول الشراعين نحو الريح كما يفعل الربان سواء بسواء، فإذا أحدق به الخطر بأن أتاه النوء مثلاً قبض أصابعه وشراعيه ودخل الصدفة وغاص في قاع البحر فينجو من الخطر. ومن العجب أن يكون جسمه غير ملتصق ببيته، وهذا الحيوان يكون في بحر الهند بالقرب من جزيرة «ملقا».

فانظر كيف كانت سفينته نفعاً له في أسفاره ودرأ للخطر عنه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]، فلم يعط صاحب السفينة نسج العنكبوت لأنه لا ينفعه، ولا الكهرباء كالسمك، ولا العسل، لأن هذا كله لا يلائمه، بل أعطاه ما يناسب سطح الماء، وما هو إذن؟ هو السفينة، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الحجر: ٨٦]

وكما رأيت في البحر ما له سفينة فإن فيه ما هو طيار حتى تتم الحكمة، فله في جنبيه زعانف كالأجنحة وهو أشبه بشكل أسفل السفينة وزعانفه كالشراع وطوله يزيد على نصف متر، وهو في البحار الجنوبية من أوروبا وفي البحر الأحمر وعلى شواطئ البرازيل والولايات المتحدة، وبعضه لونه زاه بين أزرق سماوي وفضيّ وتطير أسراباً ثم تخوض الماء وتعود فتطير، ولحمه لذيذ وصيده سهل لأنه كثيراً ما يطير ويقع في المراكب.

أفليس هذا من العجب أن يكون النظام في قاع البحر وفوق سطح الماء وفي الجو. ومن العجب أن العنكبوت كما ينصب بعضه الخيام على الأرض فتقتنص الذباب هكذا ترى مئات منها في يوم العواصف طائرات في الجو في طيارات من غزلها قد صنعتها كما تصنع الشبكات على الأرض. ومنها ما تتخذ من الورق ومن غزلها سفناً تجري بها على وجه الماء، ومتى لمحت حشرة فوق سطح الماء أسرعت لالتقاطها وجعلتها في سفينتها وأكلتها بهدوء وسكينة.

هذا هو التدبير والنظام العجيب. فاعجب لسمك يطير، ولآخر يصنع السفن، ولعنكبوت كذلك صنع السفن وصنع الطيارات قبل أن يعرفهما الإنسان. وللعنكبوت شأن عجيب استعملت سفن الصيد في البحر قبل أن يصنع الإنسان سفن صيده. فإذا رأينا نحن الصيادين بجوار الإسكندرية قد أخذوا سفنهم وجدوا بها في الصيد فقد سبقتهم بها العنكبوت. وهكذا إذا رأينا الأمم الحاضرة تصنع الغواصات لإهلاك سفن العدو فقد سبقها السمك فصنع ذلك وأخضع فريسته.

فهذه نبذة يسيرة جميلة في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]، فاقرأها واقرأ ما تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه: ٥٠] وانظر مواضع أخرى تناسب هذا المقام كالذي تقدم في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الآية: ١٦٤]، ونظيره في آخر «آل عمران» في نفس الآية هناك، وهكذا في «آل عمران» أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الآية: ٢٧]، وفي سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الآية: ٣٨]، وفيها أيضاً عند قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[الآية: ٩٩]، وفي سورة «هود» عند قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الآية: ٥٦]، وفي سور أخرى، كل ذلك مناسب لما كتبناه هنا في آية ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢].

ولما اطلع صاحبي على هذا المقام قال: لقد أبنت في هذا المقام الخلق والتقدير في قاع البحر وفوق سطح الماء وفوق الأرض وفي الجو، واستبان السمك ذو الكهرباء والحيوان صاحب السفينة والعنكبوت وشبكاتها في البر وسفنها في البحر وطياراتها في الجو، والنحل وما أودع فيه من عسل وسم زعاف. وهذه المجموعة التي كتبتها هنا بديعة وصورها مشوقات للمباحث العلمية، فهل خطر لك هنا خواطر تدعو إلى هدى أو ترد عن ردى؟ فإني أرى هذه سطوراً سطرت في لوح الطبيعة، والله إني ليخيل إلي تلك الطيارات التي طارت بها العنكبوت وتلك السفن التي أدارها بأصابعه الست صاحب السفينة وبالشراعين اللذين بهما تجري في البحر وذلك السمك الطيار في الجو بلونه الزاهي الزاهر الفضي. أقول: إنه يخيل إلي أنها تحمل حكمة تلوح لأولي الألباب، فهل خطرت لك خطرات في هذا الجمال؟ فقلت: نعم، هاهنا.

بهجة العلوم المسطورة في لوح الطبيعة

وهي ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في خطاب الله للأمم.

الفصل الثاني: في خطابه تعالى للمسلمين.

الفصل الثالث: في خطابه تعالى للأمم الإسلامية المتحيرين في خوارق العادات فلا يفرقون بين الأولياء والكهان.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: نحن الآن في مقام جمال العلم والحكمة، وبعبارة أخرى، في علم اليقين لا في ظنون وأوهام، فقلت: ما الذي رابك في قولي هذا؟ قال: رابني أنك قلت خطاب الله للأمم وخطاب الله للمسلمين وخطاب الله لمن لا يفرقون بين الأولياء والكهان. فهذا التعبير يوهم أن الله يخاطب الناس مع أن هذه أفعال الله، وأفعال الله ليست خطاباً. فهذا التعبير من أول وهلة يشعر بخروج عن المألوف، فالله إنّما يخاطب بالكلام الموحى به على الأنبياء، ولا وحي هنا. فقلت: خير لك أن تصبر حتى أتم هذه الفصول الثلاثة ثم أبرهن لك على أن ما أقول مأخوذ من القرآن. فقال: ستجدني إن شاء الله صابراً حتى تتم هذه الفصول الثلاثة. فقلت:

الفصل الأول: في خطاب الله للأمم

الله خلق الحيوانات الفقرية كالسمك والإنسان والزواحف وما أشبهها، وخلق الحيوانات الصدفية التي منها «صاحب السفينة» وخلق النحل والعنكبوت، كل هذه في هذه المقالة. وهذه جمعت أنواع الخلق.

إن الناس اعتادوا أن يبنوا بيوتهم محاطة بحائط متين يدفع عنهم الطوارئ والحيوانات المفترسة وأقرب الحيوانات إلى بناء منازلنا ذوات الأصداف، فكان القياس أن يكون على هذا المنوال كل حيوان ولكن الله بحكمته خاطب الناس قائلاً: أيها الناس، إنني لا يحكم علي نظام ولا حال، فإنكم إذا فكرتم بعقولكم وجدتم أن الحيوان إما أن يشتمل جسمه على جسم صلب أو لا يشتمل، فإن لم يشتمل على جسم صلب فهو الحشرات ونحوها، فكلها أجسامها مخلخلة لا عظم لها من داخلها ولا من خارجها جسم صلب.

والذي له عظم إما أن يكون من داخله وإما أن يكون من خارجه، فالذي عظمه من داخله هي ذوات الفقرات كالإنسان والسمك وذوات الأربع والطيور وهكذا. والذي يكون جسمه الصلب من خارجه فهي ذوات الأصداف ومنها ذو السفينة المتقدم ذكره وهذه قسمة عقلية. فإذا ظن الناس أن حياة الحيوان تتوقف على جسم صلب قلنا لهم: كلا، فهذه النحل ونحوها لا صلابة لها، فإن قالوا: إن الجسم الصلب يكون من خارج كما في منازلنا، قلنا: لا فهذه عظام ذوات الأربع فإنها من الداخل واللحم والجلد من الخارج، والحكمة العليا هي التي قضت عكس ما نصنع في بيوتنا. وقيل لنا: انظروا هذه بيوتكم وبلدانكم يحيط بها حوائط وأسوار متينة البناء لحفظها من الخارج، ولكن أجسام الإنسان وذوات الأربع ونحوها جعل الجسم اللطيف خارجاً وحافظنا عليه بالحواس والمحافظة عليه مع أن القياس كان يقتضي أن يكون محيط الجسم صلباً كهيئة ذوات الصدف حتى يتسنى للجسم أن يقاوم الجو والطوارئ، وهذا هو السر في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] الخ. ثم أعقبه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وإنما قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] بعد قوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] الخ؛ لأن كسوة العظام باللحم تخال المألوف من أعمال الخلق لأنه أشبه بمن يبني منزله، ويجعل مخزن الطعام والملابس وحجر النوم خارج سور المنزل. فالعظام الصلبة يجب أن توضع محيطة بالجسم لتحفظه كالحيوانات الصدفية، لا أن يجعل اللحم الطري والجلد الرقيق حافظين للعظام. كلا فلما كان هذا الوضع خلاف المألوف المتعارف وكان مع ذلك متقناً وأفضل من العكس، علم أن هذه الصنعة أكثر إتقاناً من صنعة البنائين في الأرض، فلذلك جاء في القرآن ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وبهذا تبين أن الأحوال الثلاثة للخلق قد ظهرت في عالم الخلق. وكأن الله عز وجل يقول: أي عبادي أنا لم يعقني عن الخلق شيء فلا عدم العظام منعني عن الخلق ولا وضعها داخل الجسم مع لطافته وصلابتها. ولقد فعلت في أجسامكم، وأجسام الحيوانات، هذه التنوعات كلها كما فعلت في ثمرات الشجر، فتارة أجعل الشحمة في الثمرة وهي طرية خارجاً والنواة الصلبة داخلاً كخلق السمك والإنسان. وتارة أعكس فأجعل الصلب خارجاً كاللوز والجوز، فأنا لا يحجبني شيء.

وهذا درس لكم لتعلموا أن سعادتكم لا تتوقف على حال. فإذا كانت الحياة لم تتوقف على وضع ما، بل جميع الأوضاع ظهرت فيها الحياة، فهكذا سعادتكم لا تتوقف على حال واحدة فكونوا ملوكاً أو سوقة وكونوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء فكونوا كما تشاؤون. فهذه الأحوال لا تحجب السعادة عنكم كما لا يحجب الحياة نوع من أنواع الصور والأوضاع. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في خطاب الله للمسلمين

يقول الله للمسلمين: هاأنتم أولاء رأيتم العنكبوت قد صنعت لها طيارة في الهواء وسفينة في البحر، ورأيتم السمك يطير في الجو والصدف يسير سفينته في البحر. فيا أيها المسلمون أنا لم أرسل رسولاً إلا ليرشد عبادي إلى الأعمال الصالحة، وأي سنة أعظم من سنتي وأي سبيل أهدى من سبيلي؟ إن سبيلي تنويع العمل وإبراز أجمل الصناعات وأبدع الحكم، فإذا رأيتم لطفي في إبداع الحرير في جسم العنكبوت وتعليمها أن تطير به وفي جسم النحل في إبداع العسل وفي جسم السمك في إظهار الكهرباء وفي حيوان السفينة في إعطائه سفينة، فمعناه أنكم يجب أن تبرعوا في الصناعات لاسيما إذا رأيتم الأمم حولكم قد برعت فيها فأي نبي من أنبيائي يأمر أو يبيح لعبادي أن يحرموا على أنفسهم اتباعي في الإبداع وفي إتقان الصنعة. فليلبس المسلمون لكل حال لبوسها وليبرزوا للناس صناعات تناسب أزمانهم وإلا فهم الأخسرون أعمالاً ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف: ١٠٤]. برعت الأمم في غزل المنسوجات وفي تدبير الحرب وفي نظام الحياة. فعلى المسلمين أن يكونوا أرقى في سائر الصناعات. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث: في خطاب الله للأمم الإسلامية المتحيرين في خوارق العادات فلا يفرقون بين الأولياء والكهان

إن الله يخاطب المسلمين بهذه المخلوقات وصنعها. يقول: أيها المسلمون، ليس امتياز طائفة من أهل دينكم بالإخبار بالغيب فرضاً أو بظهور بعض الخوارق على يديهم تفضيلاً لهم عن سواهم. إن الإخبار ببعض الغيب مشوب بالكذب لم تخل منه أمة. ألم تروا المنوّمين تنويماً مغناطيسياً. ألم يثبت يقيناً أنهم يخبرون ببعض الغيب، ألم تظهر بعض الخوارق للعادات في مجالس تحضير الأرواح، اقرأه في كتاب الأرواح، تأليفي وتقدم بعضه في سورة «البقرة»، وفي سورة أخرى، وأن غلاماً صيرفياً جاهلاً أتم رواية ديكنس بعد وفاته والإنشاء هو هو لم يتغير، وهذا الغلام غبي لا يعقل شيئاً مما كتبته، فهل هؤلاء الوسطاء في التنويم المغناطيسي أفضل من أنبيائكم وعلمائكم؟ كلا. ثم كلا. وما مثل هؤلاء إلا كمثل الهدهد إذ قال لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[النمل: ٢٢] فهل هذا الهدهد أفضل من سليمان، أو كمثل الخضر مع موسى، فالخضر عرف حال السفينة وأمر الغلام والجدار وعلم موسى، ولكن موسى أفضل من الخضر، وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله على لسانه: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾[الأعراف: ١٨٨]. إذن الأنبياء لا يعلمون الغيب، وعلمهم بالغيب في مثل هذا نقص، وكيف لا يكون نقصاً وهم إذا علموا الغيب أصبحوا ولا عمل لهم ولا فكر. إذن كيف يقتدي الناس بمن لا فكر لهم ولا تدبير وأين العقلاء إذن؟ فالأنبياء مكلفون وهم لا يعلمون الغيب، وإنّما يوحى إليهم الشرائع والتوحيد، وما عدا

ذلك هم فيه مجدون. وما مثل الشيوخ الذين ظهر صلاحهم وجرت على أيديهم بعض الخوارق فرضاً أو أخبروا ببعض الحوادث ـ إن صح ـ إلا كمثل العنكبوت طارت في الجو بلا أجنحة. فهل أدهش هذا سائر الحيوانات فعدتها سيدتها جميعاً. كلا إن امتياز بعض السمك بأن يطير أو بأن يكون فيه كهرباء وبعض العنكبوت بأن تطير وأن تجري المراكب يشابهه امتياز بعض المسلمين بخوارق العادات إن صح ذلك، فليس لمن خرقت له العادات فضل إلا كفضل العنكبوت على سائر الحيوان مثلاً. فهذه صناعات وخواص لا أثر لها في الفضل. وكأن الله يقول: أيها المسلمون، لما علمت أنكم تركتم سبيلي وجهلتم قدري ولم تعقلوا قولي: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الزمر: ٦٧]؛ سلطت عليكم شيوخاً جاهلين فجعلوا الدين شركاً واتخذوكم ذباباً واصطادوكم بهذا الشرك، فهم عنكبوت وأنتم صيدهم.

أيها المسلمون، ما دمتم جهالاً فإني أرسل هؤلاء ليمتصوا دماءكم لأنكم نسيتموني، فأنا أيضاً أنساكم وأترككم في أيدي الجهال منكم، وهم لكم أعداء، وجعلتهم قناطر يمر عليها المستعمرون لبلاد الإسلام فيكون أولئك الشيوخ سلماً يصل عليه المستعمر إلى رقاب أهل البلاد واستعبادهم. ألا ساء مثلاً المسلمون المغفلون الجاهلون. اقرأ ما تقدم في سورة «الحج» عند قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾[الحج: ٥٢] الخ، من كلام الشيوخ: الخواص والشيخ الدباغ.

إن من فتح عليه بسبب العبادة ثم نصب نفسه لقيادة الناس وجعل هذه الخوارق باباً للرزق فهو من الأخسرين أعمالاً ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف: ١٠٤]، وهو عند المستعمرين لبلاد الإسلام أشبه بالمثل المشهور «أكل بيد القط»، وسببه أن القرد استعمل يد القط في أخذ الفاكهة المسماة «فروة» من النار المتقدة، فصرخ القط فسمع صاحبه الصرخ والولولة فجاء فوجد هذه الحال، فذهبت مثلاً إفرنجياً. فهؤلاء الشيوخ استعملهم الفاتحون لبلاد بعض أمم الإسلام ويأمرونهم بالأوراد ليلاً ونهاراً ولا يأمرونهم بالتفكير والتعقل ليظلوا لهم خاضعين. هنالك قال صاحبي: لقد تم القول الآن في الفصول الثلاثة فأرجو إجابتي على ما سألت من قولي لك: كيف تقول: قال الله؟ مع أن القائل أنت. فقلت: قد آن أن أجيبك عليه. اعلم أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨]، فالله وضع النظام في السماء والأرض المعبر عنه بالميزان لنزن نحن بالصدق بلا زيادة ولا نقص، وقد وضح هذا في أول سورة «يونس» فارجع إليه فإنك ترى هناك حساب هرم مصر الأكبر، وكيف كان حسابه على مقتضى حساب الدائرة الشمسية السنوية، وهذا الحساب على مقتضاه بني الهرم، وعلى مقتضى الهرم عرفنا الوزن والكيل والمساحة بالدقة. إذن الناس يقلدون ربهم في فعله، ولولا هذا ما عرفوا رطلاً ولا فداناً ولا أردباً. قال صاحبي: هذا حسن ولكني أريد أقرب من هذا. قلت: في موضوعنا؟ قال: نعم. قلت: قال الله تعالى في سورة «هود»: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الآية: ٥٦] فهاهو ذا سبحانه بعد أن ذكر تربيته لكل حيوان وأنه آخذ بناصيته أبان أن هذه التربية غاية النظام، ولم يقف عند هذا الحد بل أمرنا في سورة «الفاتحة» أن ندعوه فنقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الآية: ٦]، والنكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول، فهو يقول: اهدنا صراط

الله المستقيم المعروف، وكيف تهدى إلى طريقه إلا بدراسة نظامه في خلقه. فكما درسنا نظام الأفلاك وسرنا في سفننا على مقتضاه في البحر وفي القطرات على وجه الأرض ووزنا ومسحنا وكلنا؛ هكذا ندرس نظام الحيوان لتتسع عقولنا لنظام حياتنا. إن الحياة الحيوانية مقدمة للحياة الإنسانية، ومن جهل المقدمة جهل النتيجة.

إن العلامة «سبنسر» يقول: إن الناس قرؤوا قبل أن يكتبوا. فليعلم الأساتذة التلاميذ القراءة قبل الكتابة مشاكلة للطبيعة ليكون النجاح، فعلى المعلمين أن يبتدئوا بالقراءة ثم بعد ذلك يكتبون. هكذا نرى الله خلق الحيوان قبل الإنسان. فليدرس الناس الحيوان وتشريح الإنسان وتاريخ حياة الأمم وتاريخ أممهم أنفسها. فمن جهل تاريخ أي علم فقد جهل نفس العلم، ومن جهل علم الحيوان وعلم النبات فقد جهل نظام الإنسان لأن دراستهما أسهل من دراسة الإنسان، ومتى درسهما الإنسان استحق أن يفهم عالم الإنسان، إذن الله تعالى بخلقه هذه العوالم يخاطبنا كما قلت لك، لأنه أمر أن نقول: ﴿ اَهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] وهو نفسه على صراط مستقيم في خلق عالم الحيوان وغيره، فلا بد من دراسة هذا الصراط ثم ندعو الله أن نسير عليه. إذن ظهر لك أن قولي: إن الله يخاطبنا بمصنوعاته، حق، فكيف ندعو إلى صراط مستقيم نجهل بعضه، وصراط الله المستقيم يتبع.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أنا لا أجادلك في هذا القول، بل أقول: إنك أثبت بحجة وقطعت بصدق وقول حق، فإن قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧] الخ، وقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦] بعد هذا البيان دلانا على أن هذه العوالم كلها طرق ذللت لننهجها وسبل لنسير عليها، ولكن هذا كله كلام إجمالي، فإن مسألة العنكبوت والنحل والسمك الكهربائي وكل ما ذكر فيها كلام عام واستنتاج إجمالي، فإذا ذكرت لنا مثلاً بعض هذه العوالم وتشرحه شرحاً جيداً من العلم ثم نجد القرآن نص عليه نصاً، فإن ذلك يكون نموذجاً لجميع العلوم، ويصبح المسلمون بعد قراءة ذلك مسرعين إلى أن يتخصصوا في العلوم ويوقنوا إيقاناً تاماً بأنهم في قراءة الحشرات والذرات في أجل عبادة ويعكفون على أعمال التجربة في الأعمال الكيمائية والأعمال التشريحية وهكذا. فقلت إن الله تعالى يقول في قوم فرعون: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٣٣].

انظر العجب. انظر كيف يقول الله في الطوفان وفي الجراد وفي القمل وفي الضفادع. ماذا يقول؟ يقول: ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾[الأعراف: ١٣٣]، فجعل الماء الذي يغرق أرض مصر وغير أرض مصر آية مفصلة، وجعل الحشرات التي منها الجراد والقمل ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾[الأعراف: ١٣٣]، وجعل الضفادع من الحيوانات الزاحفة ذوات الفقرات ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾[الأعراف: ١٣٣].

ألا تعجب معي كيف جهل المسلمون هذا الدين. الله يقول: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[فصلت: ٣]، فهو كتاب مفصل الآيات باللغة العربية، ولكنه إنما يفهمه أهل العلم، والله هو نفسه يجعل الماء والحشرات والضفادع ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾[الأعراف: ١٣٣]. إذن الآيات المفصلات كما تكون قولاً تكون فعلاً، ومن الفعل الحشرات والماء وهكذا، ولم يكتف الله تعالى

بذلك بل قال عند الكلام على العنكبوت: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] « بكسر اللام »، فالعالمون جمع عالم. إذن الله يقول: إن القرآن وآياته المفصلة نزل لأولي العلم، ويقول: إن العنكبوت وأمثالها ضربت أمثالاً لأولي العلم. إذن ظهر الأمر واتضح وأصبحت الحشرات وأمثال الحشرات آيات كما أن القرآن آيات. فقال صاحبي: هذا أمر عجيب وبديع. إن الناس يشاهدون الجراد والقمل والضفادع ويحسون بالدم في أجسامهم ويشاهدونه في ذبائحهم فلا يأبهون لها ولا يقيمون لها وزناً، وغاية الأمر أن يدفعوا الجراد والقمل عن زرعهم وأجسامهم. أما كونها تحتاج إلى علم وأنه لا يفهمها إلا العلماء فهو غريب على المسلمين، وهكذا الآيات المقروءات المتقدمات، فإذا سمع المسلم قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ ﴾[الأعراف: ١٣٣] الخ مر عليها كما يمر على أكثر القصص يحترمها احتراماً دينياً. أما إنها تحتاج إلى تعقل وفكر فهذا بعيد وغريب.

سل عامة المسلمين من علماء وجهال وقل لهم: هل الجراد والقمل والضفادع والدم المذكورة في القرآن تحتاجون في فهمها إلى عقل وعلم؟ وهل نفس هذه الحيوانات يحتاج الناس في فهمها إلى علم وعقل؟ فإنهم جميعاً يجيبونك بلسان واحد: هذا أمر معقول مفهوم نحن نعرفه ونفهمه ولا نحتاج إلى علم ولا تعقل. فقلت: سترى الآن كيف يحتاج ذلك كله إلى علم وأن أكثر المسلمين مخدوعون، وأن مثلهم مع أمثال هذه المباحث كمثل رجل سار في أرض عراء فلمح جبلاً فظن أنه يصله في عشر دقائق، ولكن الجبل المرتفع يوهم الإنسان أنه قريب وهو بعيد، كما يرى الناس أن الشمس قريبة رأي العين وهي بعيدة، فيظل المسكين سائراً أكثر يومه حتى يصل إليه بعد طول الشقة. فالمعلومات قد أبرزها الله للناس وجعلها تحيط بهم فظنوها معلومة كما ظنوا أنهم عرفوا حقيقة الشمس بالنظر إلى ظاهرها، ولكنهم عند الامتحان يتحققون أنهم جاهلون وأن هذه أمثال، والأمثال لا يعقلها إلا أولو العلم.

فهناك الطوفان المذكور في الآية. يقول الله في قصة موسى: إني أرسلت الطوفان على أهل مصر، لماذا؟ ليخافوا الله ويؤمنوا. فهاهنا أمران: إعظام الله بسبب ظهور جبروته وسطوته، والإيمان به. فإرسال الطوفان يهلك الأمم، فهذا القهر يورث القلوب إعظاماً وإجلالاً لله، وينتج منه الإيمان به والتصديق، وهذا مثل من الأمثال التي لا يعرفها إلا العلماء، فلم ينزل الله القرآن إلا لنا نحن، ونحن ننظر فنقول: إن الماء ينزل من السماء في خط الاستواء ويجري في النيل سائراً إلى البحر الأبيض المتوسط، فإذا زاد زيادة فوق العادة أغرق البلاد فكان آية مفصلة. هذا ظاهر الآية، ولكن الحقيقة أن هذا النيل وأمثاله كدجلة والفرات وسيحون وجيحون والنيجر في السودان وأمثالها وكالطونة وفلجا والتيمس في أوروبا، كل هذه إذا تركت وشأنها أهلكت الحرث والنسل في كل سنة، فلولا أن الناس يعملون لها جسوراً وقناطر لكانت وبالاً عليهم فتغرقهم تارة وتجعل أرضهم قفراء تارة أخرى.

والدليل على ذلك: أولاً: أن نهر النيل الذي يجري في بلادنا المصرية ما كان ليعيش به قبل أيام محمد علي باشا أي نحو سنة ١٨٩٩ ميلادية وما قبلها إلا نحو ألفي ألف إنسان « مليونين » لا غير، وبسبب إهمال الحكام وجهلهم إذ ذاك أيام انحطاط الأمم الإسلامية فكان هذا النيل يغرق البلاد تارة ويتركها أرضاً قفراء تارة أخرى.

فأما في هذه الأيام سنة ١٩٢٨م فإن البلاد تعدادها نحو ١٤ مليوناً وماء النيل لا يزال قابلاً لسقي أرض أوسع مما يسقي الآن، فيتغذى بالزرع عشرة ملايين أخرى على طول الزمان. إذن الله عز وجل ذكر الطوفان في الآية، وقال: إنه آية مفصلة، وقال: إنه لا يفهمه إلا العلماء، لهذه الحكم العجيبة.

أليس من العجب أن تكون أرض اليمن ملك أمة إسلامية وقد سمى الله سورة باسمها، وقال: إنه كان فيها سد العرم، وإنه كان فيها جنتان. فيا ليت شعري أين ذهبت الجنتان الآن وأين السدود الأخرى هناك؟ إن هذه البلاد وبلاد حضرموت وغيرها قد أنزل الله لها مطراً في فصول السنة وهم لا يحفظونه فيترك الأرض قاعاً صفصفاً لا تنبت نباتاً. أليس من العجب ومن المؤلم أن تكون هذه الأمة الإسلامية لم تصل في عمران بلادها إلى ما وصل إليه أمم قبلهم عباد أوثان في اليمن وفي حضرموت وفي غيرها؟ والله يذكر الطوفان في الآيات ويذكر سد العرم ويقول: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾[سبأ:١٦]، وما الإعراض المذكور إلا جهل العلوم التي بها إصلاح السد، كما حصل في مصر قبل أيام محمد علي باشا كما تقدم. فهل يتفكر المسلمون حتى يكونوا من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]. اللهم إنك أنت المعلم والهادي، وعلى من اطلع على هذا أن يرشد الأمة إلى سواء السراط. ثانياً: إن الحشرات التي ذكر منها الجراد والقمل في الآية ليس يعرف الناس منها إلا أن الأول يهلك الزرع والناس يطاردونه. ويقول شاعرهم:

مر الجراد على زرعي فقلت له ... لا تأكلن ولا تشغل بإفساد

فقام منهم خطيب فوق سنبلة ... إنا على سفر لا بد من زاد

وأن الثاني يؤذي الناس في فراشهم فينظفون ثيابهم ليبعدوه عن أبدانهم لأجل صحتها. ويقرؤون في كتاب «كليلة ودمنة» أن البرغوث حل ضيفاً عند القملة في فراش رجل غني فلدغه ليلاً، ففر البرغوث وبحث الرجل فلم يجد إلا القملة فقتلها، وجعلوه مثلاً لمعاملة الرجل المجهول، فإنها ترجع على الإنسان بالوبال.

هذا ما يعرفه الناس في القمل وإخوتها البراغيث، ولكن الآية لا تقف عند هذا الحد، فإن هناك فرقاً بين الخيال والحقيقة. فالذي في «كليلة ودمنة» ضرب مثل خيالي، والقرآن يقول: إن هذه حقائق علمية، أي إنه لا يعرف هذه إلا العلماء. وأما هذه فهي أمثال سهلة يعرفها العلماء والجهال متى ألقيت إليهم. فقال: فما علم هذا عندك؟ فقلت: إن البراغيث المذكورة يظن الناس إيذاءها قاصراً على لدغهم في الفراش، ولكن العلم اليوم أثبت بعد البحث والتنقيب أن البراغيث تجلب الطاعون والأمراض العامة. ولا جرم أن القمل المذكور في الآية لا يراد بها خصوصها بل المراد هي وأمثالها من مؤذيات الحشرات، وأقربها إليها البراغيث التي قرنت بها في كتاب «كليلة ودمنة»، فأمثال القمل كالطوفان سواء بسواء. فكما أن الطوفان يهلك آلافاً دفعة واحدة هكذا البراغيث تفعل ذلك. وكما أن ماء النيل وأمثاله معرض في كل وقت إذا أهمل أن يكون إهلاكه عاماً وأن يكون طوفاناً، هكذا نحو البراغيث تفعل ذلك إذا تركت وشأنها. قال: فاذكر لي برهان ذلك من العلم. قلت: اعلم أن الله عز وجل قد أمد هذا التفسير بالعلم وأيدني فيه تأييداً لم يكن ليخطر لي، ومن عجيب أني لا أتكلف ما أكتبه بل تساق إلي العجائب من حيث لا أحتسب.

فانظر كيف أصدرت مصلحة الصحة المصرية نشرة في هذه الأيام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٨م أثناء كتابة هذا المقال، وفيها أن البراغيث رسل الموت، إذ تنقل الأمراض المهلكة من الفيران إلى الإنسان تبياناً لما قلناه وهذا نصها:

خطر الفيران

تاريخ حياتها

تعيش الفأرة سنتين تقريباً وتبلغ سن الحمل قبل أن تصل إلى الشهر الثالث من عمرها ومدة حملها ٢١ يوماً، وقد تلقح بعد بضع ساعات من الولادة، والفأر يولد عارياً من الشعر وأعمى وآذانه مغلقة، ويستمر كذلك مدة أسبوعين، ويكبر حجمه في الأسبوع الرابع من عمره. وتحمل الفأرة من ثلاث إلى خمس مرات في السنة، وفي كل مرة تلد من ٦ إلى ٩ فيران، وقد يصل عدد ما تلده في المرة الواحدة إلى ٢٣ فأراً، ويتوقف ذلك على مقدار غذائها وملاءمة الجو، فكلما ازداد الغذاء وكان الجو ملائماً ازداد عدد مرات حملها وعدد ما تضعه في كل مرة.

طبائع الفيران

الفأر لا يخرج من جحره إلا بالليل ويقضي معظم يومه نائماً داخله. والفيران تخزن مأكولاتها داخل جحورها، حتى إذا وجدت صعوبة في الحصول على قوتها في وقت من الأوقات أمكنها أن تعيش بما خزنته حتى تجد مورداً آخر للقوت. وهي تحفر جحورها قريباً من الجهات التي تحصل منها على طعامها، ولكنها في بعض الأحيان قد تقوم برحلات طويلة للحصول على غذائها، وتتبع في رحلاتها طريقاً خاصاً لا تحيد عنه عادة. ومن طبائعها التنقل في فصول السنة المختلفة، فقد تهجر المنازل في الربيع إلى الغيطان حيث يمكنها الحصول على غذاء أشهى مما تجده في المنازل في ذلك الوقت، ثم تعود إلى المنازل في الخريف لتقضي فيها مدة الشتاء. وهي كثيرة الدهاء وشديدة الاحتراس من وقوعها في المصائد، وتصبح أحياناً مفترسة سيما إذا قل مورد غذائها، وقد تأكل صغارها أو الضعاف من ذريتها، وقد تهجم في بعض الأحيان على الإنسان بتوحش خصوصاً إذا كان نائماً، وتنهش الجثث في مقابرها وتهجم على بعض الحيوانات فتنهش لحمها. وقد عثر عليها تفعل ذلك مع الفيلة فتعض أرجلها، ومع الخنازير فتأكل من آذانها وأثدائها، وهي تقتل صغار الأرانب في جحورها وتستولي على بيض وصغار الطيور لتأكلها، ولها قدرة غريبة على سرقة البيض، وقد تسرق البيضة من تحت الدجاجة بدون أن تشعر بها.

الخسائر التي تسببها الفيران

إن الأضرار المادية التي تسببها الفيران لا تخفى على أحد، فإذا حسبنا أن مقدار ما يأكله الفأر الواحد في اليوم يقدر بربع مليم وأن عدد الفيران الموجودة بالقطر المصري ١٤ مليوناً أي بنسبة فأر لكل شخص وهذا التقدير قليل بالنسبة للواقع؛ لبلغ مقدار ما يضيع سنوياً في غذاء الفيران فقط مليون ونصف مليون جنيه تقريباً. هذا فضلاً عما تسببه من الخسائر والأخطار بحفر جحورها في جدران المنازل وبين السقوف، فقد تداعت مبان كبيرة إلى السقوط لهذا السبب، وقد نتجت عن قرضها لمواسير المياه والغاز حوادث كثيرة. ومن أضرارها أنها تحمل عيدان الكبريت إلى جحورها وتقرضها فتسبب أحياناً حرائق كبيرة.

الفيران والأمراض

فضلاً عما تسببه الفيران من الخسائر والأضرار والحوادث الخطيرة؛ تحمل جراثيم عدة أمراض فتاكة تنتقل إلى الإنسان بواسطتها. وأهم تلك الأمراض الطاعون، وهو في الأصل يصيب الفيران ويقتل منها عدداً كبيراً، وينتقل منها إلى الإنسان بواسطة لدغ البرغوث. وداء الاسبيرونيتا المصحوب بيرقان ونزيف والتولاريميا والمرض بالدودة الخيطية وعدة ديدان معوية أخرى والحمى المتسببة من عضة الفأر.

طرق إبادتها

(١) يجب إحراق القمامة «الزبالة» والفضلات المنزلية يومياً أو وضعها في وعاء له غطاء محكم.

(٢) يجب بناء المحلات التي تخزن فيها المأكولات والتي تغشاها الفيران عادة من مادة تمنع دخولها إليها كالإسمنت.

(٣) يجب سد الجحور بقطع من الزجاج ثم بقطع من الحجارة والإسمنت حتى لا تقوى الفيران على ثقبها.

(٤) يجب سد نوافذ البدرونات السفلى والفتحات الصغيرة التي تدخل منها الفيران بقطع السلك أو الزنك.

(٥) استعمل مصايد الفيران في المحال التي تغشاها هذه الحيوانات، ويجب غسل المصيدة جيداً بعد كل مرة وتغيير الطعم يومياً.

(٦) استعمل طرق التسميم للفيران، وأحسنها خلط ملح كربونات الباريوم بقطع من الخبز أو الدقيق أو السردين أو البيض أو البطيخ أو الطماطم. ولكن يجب الاحتراس من وصول هذه السموم إلى الحيوانات والطيور أو الأطفال.

(٧) يمكنك الاستعانة بالحيوانات الأليفة لصيد الفيران وأهمها الكلاب والقطط فإنها تقتل عدداً كبيراً منها.

(٨) انشر قطعاً من النفتالين أو مسحوق الكبريت في الأماكن التي تغشاها هذه الحيوانات، فإن الفيران تكره رائحة هذه المواد ولا تقترب من الأماكن الموجودة بها. اهـ

فانظر إلى مرض اليرقان والنزيف ومرض الدودة الخيطية والديدان المعوية والطاعون فهذه كلها أمراض مهلكة تنقلها البراغيث إلى الإنسان. فالبراغيث من الحشرات ذات الأرجل الستة كالجراد والقمل، والفيران من ذوات الفقرات والدم والعظام. فانظر كيف اتحدت كلها على إهلاك الإنسان.

ألا ترى أن هذا لا يعقله غير العلماء به. كلا. وهل تظن أن الناس وهم على حالهم بدون قراءة العلوم يعرفون خطر الفيران وخطر البراغيث. كلا. إذن هذا هو الزمان التي تظهر فيه حقائق القرآن ويعلم الناس لماذا ذكر الله الجراد والقمل والطوفان والعنكبوت والذباب، ثم لماذا يقول: إن هذه الأمثال لا يعقلها إلا العلماء.

إن هذه الأسرار هذا زمان ظهورها، والفضل كل الفضل لظهور هذه الأسرار في زماننا انتشار العلوم في الأمم حولنا، فهذا هو الزمان الذي يظهر فيه معنى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، فهذه من مبادئ العلوم التي سيعرفها المسلمون بعدنا وهم الذين سيدرسون هذه الدنيا ويعرفون أن هذه المخلوقات آيات مفصلات. فإذا درسوا حشرة كالذبابة أو النحلة أو الجراد أو أمثالها تبينوا أمرين:

الأول: أنهم يتقون الخطر الناشئ من الحشرة بسبب دراستها كما يتقون عذاب الله بالإيمان، فلا يغرقون بالطوفان في الآية ولا تسلط عليهم الحشرات.

الثاني: أنهم بسبب هذه الدراسة قد وقفوا على الحقائق وأدركوا عجائب الحكمة فعرفوا ربهم، وبهذه المعرفة غرسوا لهم روضات في جنات العلم والحكمة وعاشوا في سعادة علمية لا يحظى بهم سواهم، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧]. وهاك مثالاً آخر وهو:

مرض الدنج

أعراضه ـ جرثومة المرض ـ أسباب انتشاره ـ وصف الستيجوميا ـ أدوار حياتها ـ مقاومة الدنج

بقلم الدكتور سامي بك كمال

لم نعثر على وصف لهذا المرض قبل الشيخ الجبرتي الذي ذكره في تاريخه المشهور وصفاً دقيقاً حيث قال بالحرف الواحد ما يأتي:

في منتصف شهر رجب سنة ١١٩٣ هجرية الموافق ١٧٧٩ ميلادية ظهر بمصر وضواحيها مرض سموه بـ « أبي الركب »، وفشا في الناس قاطبة حتى الأطفال، وهو عبارة عن حمى، ومقدار شدته ثلاثة أيام، وقد يزيد على ذلك وينقص بحسب اختلاف الأمزجة، ويحدث وجعاً في المفاصل والركب والأطراف ويوقف حركة الأصابع وبعض ورم، ويبقى أثره أكثر من شهر، ويأتي الشخص على غفلة فيسخن البدن ويضرب على الإنسان دماغه وركبه ويذهب بالعرق والحمام وهو من الحوادث الغريب. انتهى.

وكلمة الدنج هذه لا يعرف أصلها، وكل ما قيل فيها تخمين. ويغلب على الظن أن وطنه الأصلي « عدن » وما جاورها. وربما سموه الدنج تحريفاً واشتقاقاً من عدن. ثم انتشر هذا الوباء إلى جميع العالم في المناطق الحارة والدافئة ولم تخل قارة منه. لذا سمي بأسماء كثيرة وجعلوا له في كل بلد اسماً. أما في مصر فسموه بـ « أبي الركب »، ومن بعدها بـ « حمى البلح » حيث يتفشى في أوانه، واستوطن ممالك مختلفة، ويمكن اعتبار مصر موطناً له. ومن خواص هذا الوباء سرعة انتشاره وتعطيله في أسابيع قليلة لحركة الناس وأعمال الشركات والجماعات والحكومات، ويأتي زمن لا يخلو منه بيت فيه مريض أو ناقه من مرض.

أعراضه

آلام بالرأس والمفاصل وارتعاش الجسم، ثم حمى مرتفعة مصحوبة بطفح أو احمرار في الوجه. ومن خواص تلك الحمى أنها لا تسير على وتيرة واحدة، ولذا يمكن اعتبارها متقطعة، ومدتها أسبوع يظهر على الجسم في خامس أو سادس يوم منه طفح ثان عبارة عن نقطة رقيقة حمراء على الأيدي والذراعين والساقين، وقد ينتشر على كل الجسم، وقد يصحبه تنميل وحكة.

وقد تختلف هذه الأعراض من مريض إلى آخر اختلافاً جوهرياً فلا يرى الطفح مثلاً ، وقد لا تظهر الحمى مطلقاً أو تكون مدتها بسيطة أو لا تبدأ بارتعاش الجسم ، وتفقد شهية الطعام وتتضخم العقد اللمفاوية أو يعتري المريض أرق أو نزيف وقد تتورم المفاصل ، إنّما الذي لا يختلف في جميع الحالات هو شدة الآلام في المفاصل والعضلات ، يعقب كل هذا انحطاط في القوى في الأسبوع الثاني للمرض وفقد شهية الطعام يدخل بعدها المريض في دور النقاهة الصحيحة .

جرثومة المرض

لم يعثر للآن على جرثومة هذا الوباء وهي موجودة بالفعل ، حيث أخذ دم المريض وحقن به الصحيح فأحدث المرض « تجارب كريج » ، وهذه الجرثومة دقيقة جداً لدرجة أنها تمر بالمرشحات الدقيقة التي تحجز غالب الميكروبات حتى الدقيق منها . وقد اتضح ذلك بإمكان إحداث المرض بعد ترشيح دم المريض وحقنه إلى السليم بواسطة « الدكتور كريج » .

أسباب انتشاره

برهن بعض العلماء أن البعوض هو ناقل المرض ، وقد أظهر ذلك بوضوح الدكتور « كليلاند » الذي لقح أنواعاً مختلفة من البعوض بتغذيتها من دم المرضى ثم إطعامها من أصحاء ، فنجحت العملية ونقل مرض الدنج بواسطة النوع المسمى « ستيجوميا فاسياتا » وهو كثير الانتشار في مصر ، والبعوض الملقح يحدث الدنج بعد خمسة إلى تسعة أيام من إطعامه دم المريض به . وتظهر على المصاب علامات الدنج في مدة تتراوح بين خمسة وثمانية عشر يوماً ، ووجد أيضاً أن دم المصاب يجري فيه جراثيم الدنج مدة أسبوعين كاملين من ابتداء المرض يمكن البعوض أثناءها أن ينقل مرض الدنج إلى الأصحاء .

وصف الستيجوميا وحياتها

هو بعوض أسود أرجله بيضاء مسكنه البيوت ويعيش من دم الإنسان ، وفي حالة سكونه يوجد في مواضع الظلام خلف ستار أو باب أو تحت الأسرة . يمضي حياته بقرب من المياه وفي درجة حرارة تزيد على ٢٣ سنتيجراد ولا تقل عن ١٧°، وله طيران قوي بدون أزيز ، ويقع بغتة على فريسته ويحدث ألماً أشد من الألم الذي يحدث من البعوض العادي . لا يطارده الريح ، يعيش على الفاكهة وقد ينقل بواسطتها إلى مسافات بعيدة فينتقل معه المرض ، يتغذى هذا البعوض من دم الإنسان في الصباح وقت شروق الشمس ، وفي النهار داخل المنازل أو خارجها إذا احتجبت أشعة الشمس ، وليلاً في النور . والستيجوميا تتعاطى طعامها كل ثلاثة أيام تقريباً من دم الإنسان وإلا فمن دم الحيوان .

أدوار حياتها

لا تبيض الستيجوميا بعد تلقيحها إلا إذا تغذت بالدم ، وتضع بويضاتها في أي آنية أو حوض فوق سطح الماء بقليل ، فإذا علا الماء فقس البيض ، ويوجد البيض في الآبار والبراميل وفي أي شيء ملقى كعلبة صفيح أو غلاف فاكهة وفي دور المياه والمراحيض وفي بقايا الزجاج أو في أواني الأزهار وتجويفات الأشجار وبجوار الأنهار وفي تجويفات الأرض بعد الأمطار . وعدد البيض يتراوح بين ٧٠ إلى ١٥٠ بيضة لكل بعوضة ، ويمكنه أن يعيش ثمانية أشهر كاملة أو يزيد ، وقد يقاوم البيض مدة الشتاء فيفقس في الربيع ، وربما كان الفقس حاملاً جراثيم المرض فينقلها بدوره إلى الإنسان . أما مدة حياة العلق

« فقس البعوض » إلى أن يصير بعوضاً كاملاً فتراوح بين ١١ إلى ١٨ يوماً في درجة ٢٦ سنتيجراد ، وهذا العلق يعيش في الماء ولا يموت إذا نزل إلى قاعه . أما حياة البعوضة فتزيد على خمسة أشهر وربما كانت حاملة جرثومة المرض أثناءها .

مقاومة الدنج

ذكرنا حياة البعوض بالتفصيل لتقدير مقاومتها ، فالاحتياطات التي تتخذ لمنع انتشار الدنج هي منع انتشار ذلك البعوض . وحيث إن هذا المرض صار مهدداً لمصر في كل عام ، فيجب على مصلحة الصحة إصدار تعليمات خاصة بحياة وعادات ذلك البعوض بعد درس عميق ، ثم استصدار قانون يجب اتباعه في جميع المنازل لإبادته تماماً ، وتقرير غرامات لمن يخالف تلك القوانين ويوجد البعوض في منزله بعد التفتيش الدقيق . انتهى .

وقد نشرت مصلحة الصحة العمومية المصرية بلاغاً عن حمى الدنج وهاهو ذا :

بلاغ عن حمى الدنج المعروفة للجمهور بأبي الركب

ليكن في علم الجمهور أن البلاد مهددة بمرض الدنج ، وأن معاونة الأهالي لمصلحة الصحة هي من أفضل الوسائل في مقاومة هذا المرض . فعلى كل فرد من أفراد الأمة أن يسترشد بالتعليمات الآتية في أداء واجبه نحو نفسه ومواطنيه .

مرض الدنج : إن مرض الدنج هو من الأمراض المعدية وهو ينتشر بسرعة فائقة وربما كان أسرع الأمراض المعدية كلها انتشاراً

الأعراض : وأعراض هذا المرض تظهر فجأة وهي وجع في الرأس وقشعريرة وآلام حادة في المفاصل والعضلات والظهر مع ارتفاع في الحرارة ووسخ في اللسان وفقد الشهية للطعام واحتقان في العينين وآلام شديدة في حبتيهما ، وفي بعض الأحيان يحصل نزيف من الأنف أو من فتحات الجسم الأخرى ، وتستمر هذه الأعراض مدة تتراوح بين يومين وأربعة أيام ثم تنخفض الحرارة ويبتدئ المريض في التحسن مدة يومين أو ثلاثة ، وبعد ذلك تعتريه نكسة فتعود إليه أعراض المرض ثانياً وتستمر يومين أو ثلاثة ، ويظهر على الجسم في بعض الحالات طفح يشبه طفح الحصبة ، ومتوسط مدة الإصابة بهذا المرض هو نحو أسبوع ، وبعد زوال أعراضه يظل المريض مدة طويلة ضعيف البنية منهوك القوى الجسمية .

طريقة نقل العدوى : ينقل عدوى المرض نوع خاص من البعوض المنتشر بكثرة في أنحاء القطر المصري .

طرق الوقاية : لما كان نقل عدوى المرض لا يحصل إلا بواسطة البعوض فإنه من الواجب توجيه جميع الجهود لمقاومته وإزالة أماكن توالده ، وهو يتوالد في الماء الراكد كماء البرك والمستنقعات وخزانات المراحيض ونحوها ، ولكي تقي نفسك شر هذا المرض يجب عليك اتباع الإرشادات الآتية :

(أ) ابذل كل الجهد في عدم تمكين الناموس من الدخول في منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك دقيق أو بشاش رفيع .

(ب) وجه كل عنايتك لإعدام جميع الناموس الذي يدخل منزلك .

(جـ) غط سريرك بناموسية كلما أمكنك ذلك ، وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام .

(د) لا تترك مياهاً راكدة في البراميل أو الأزيار أو الأواني الأخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع.

العلاج: إذا أصبت بالأعراض السابق وصفها فلصالحك أن تستشير أحد الأطباء. ويجب أن يعزل المريض في غرفة خاصة متوفرة فيها شروط التهوية والضوء مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع وصول الناموس إليه، وذلك بتغطية النوافذ بسلك دقيق أو شاش رفيع كما سبق القول. وبقاء المريض على الدوام داخل ناموسية حتى تتيسر وقاية الأشخاص الذين يقيمون معه في منزل واحد من تسرب عدوى المرض إليهم.

وإنّما نقلت لك كلام الأطباء ونصائح الحكومة للوقوف على إبداع الله وحكمته. أفلا تعجب من حيوانات لا نراها تدخل في أجسامنا لا عدد لها ولا تراها العيون والذي ينقلها هو البعوض «الناموس»، فهذا الناموس الخاص هو الذي ينقل تلك الحيوانات من جسم إلى جسم، ولا منجى من خطر الحامل ومحموله إلا بالدراسة وبارتقاء الطب، ولا ارتقاء للطب إلا بدراسة كل علم ومنه علم الحشرات الذي لا ارتقاء له إلا بآلات دقيقة، والآلات الدقيقة لا بد لها من صناع يصنعونها وهكذا. فالعلوم والصناعات دائرة واحدة، والأمة التي يجب عليها الدراسة والصناعة أمة واحدة، والناس أشبه بجسم واحد على الأرض، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: ١٠٥]. انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨م. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾

قد علمت في تفسير الآيات أن الله ذم الكفار لأنهم اتخذوا من دون الله آلهة لم يخلقوا شيئاً بل هم مخلوقون، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا يجلبون نفعاً ولا يحيون ولا يميتون ولا يعيدون الأموات للبعث، فهي سبع صفات جردتهم من كل كمال يليق بالألوهية. فالإله يكون خالقاً لا مخلوقاً، ولا يضره أحد، ويحيي ويميت، وإذا أمات أحداً أعاده. هذا هو الإله، وهذه الأصنام لا قوة لها على ذلك، والذي يهم في هذا المقام قوله: ﴿ وَلَا نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٣]، ومثل هذا القول يمر على أكثر الناس وهم نائمون كأنهم لا يعلمون. يذم الله الكافرين لأنهم عبدوا أصناماً اتصفت بصفات لا تليق بالألوهية، ومنها أنهم لا يحيون ما مات من المخلوقات، ولعمري إن هذه هي بيت القصيد.

انظر وتعجب كيف يذكر ذلك في هذه الآيات. ذكر الله ذلك ليفتح لنا باب التفكر في الألوهية. لا يثبت إله في العالم يخلقه ما لم يكن حكيماً والحكيم لا يفعل العبث. ومن العبث العظيم أن يخلق خلقاً ثم يعدمه بلا فائدة فهذه قسوة ولا حكمة فيه، وأي حكمة في عمل لا قيمة له. يخلق مخلوقات ثم يهلكها ويتركها ولا فائدة منها إلا أنها تعذب وتهان لغير ذنب جنته ولا ظلم اقترفته، فإن لم يكن لهذا العالم وجود بعد العدم وكان العدم هو النهاية فلا إله للعالم، وإنّما هو تركيب وتحليل لا غير يأتي بالمصادفات، فالألوهية تستلزم البعث. فبين الألوهية وبين البعث تلازم، إذا ثبت الإله ثبت البعث لأنه يكون حكيماً، وإذا لم يثبت فلا بعث ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا حكمة في وجود

العالم، ولذلك تجد القرآن يقرن فيه الله باليوم الآخر، فتسمع فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾[التوبة: ٤٤] في آيات متعددة وسور كثيرة من القرآن. فانظر إذن في عدد ١٩ الذي مر ذكره في اللطيفة السابعة إذ جعله قدماء المصريين رمزاً للبعث. فانظر كيف جعلوا مبدأ العالم والعلة الأخرى مرموزاً له بالواحد، وجعلوا بقية الأعداد ما بين ارتقاء للعالم وموت وفناء ثم رجوع، وهذا بعينه هو ملخص هذه الآيات من قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[الفرقان: ١] إلى قوله: ﴿ وَلَا نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٣]، فالذي له ملك السماوات والأرض الخ.

كل هذا قد اتضح في هذه المقالات و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: ٤٣]. فانظر أيها الذكي كيف جاء عند قدماء المصريين نفس ما جاء في الفلسفة القديمة والحديثة والديانات جميعها أن الموت يتبعه البعث، والقدماء والمحدثون على هذا متحدون. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ الخ

اعلم أن النوع الإنساني درج على هذه الطريقة وسار على هذا الناموس، فلا يعظم إلا من كثر ماله وحشمه وخدمه، ولا يعلم من أمر هذه الحياة أعظم خطراً إلا ما كان نادر الوقوع مخالفاً للعادة، وذلك لقلة فطنة هذا الإنسان الساكن هذه الكرة. تراه لغفلته وقلة فطنته لا يأبه بالأمور المعتادة، ولا يعقل إلا ما هو خارق للعادة إذ أتاح الله لهم أنبياء فأتوا لهم بالغرائب والعجائب. ولما دار الزمان دورته أراد الله أن يخلق أمة حديثة العهد عظيمة النفع عالية القدر مفكرة، أرسل محمد صلى الله عليه وسلم فطلب القوم منه أن لا يكون كالمعهودين من الناس فلا يأكل الطعام ولا يمشي في الأسواق أو يأتي لهم ملك من السماء فيقول للناس هذا نبي الله وينذر الناس معه، أو يعثر على كنز حتى يكون غنياً غنى غير معتاد، حتى يقول الناس: إن الله لحبه له وتعظيمه وتقريبه منه أمده بهذا الكنز، فلا يحوجه إلى معالجة التجارة ولا يضطره إلى مزاولة الأعمال مع الناس، وهذا من تلك الشنشنة المعروفة في الإنسان، إذ رأى أن نعم الله على عباده تكون على مقتضى المال والولد، والغضب من الله على مقتضى قلة الولد والمال والنعم. ومن أتى الناس بحال معروفة لهم ولم يكن معه أمر نادر حقروه وقالوا أنت مثلنا، وذلك لأنهم يتركون مواهبهم وآراءهم، وهذا الأمر اليوم هو الساري في نوع الإنسان. فالناس على وجه هذه الكرة كلهم على هذه الحال لا يستمعون القول إلا ممن يرونه بحال تدهشهم، فإن كانوا من العامة صدقوا المجاذيب وأمثالهم، وإن كانوا من الخاصة لا ينقادون إلا لرجل أوروبي معه السلاح والحرب والظفر على الأعداء. ولذلك قرر ابن خلدون أن الناس تابعون لدين ملوكهم، وهم أبداً مولعون بالغالب لأن الغالب بهر عقولهم بالجيوش الجرارة. فلذلك ترى المصريين أهل بلادي أي المتعلمين منهم لا يبالون بالعبادات ولا الأمور الدينية إلا قليلاً منهم، لأنهم ينظرون إلى الدين والمتدين نظر كفار قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول الرجل منهم: لو كان هذا الدين حقاً لم يدخل الفرنج بلادنا وهم لا يعتنقون هذا الدين. فتراهم بهذا البرهان العامي الجاهلي السفسطائي يلوون وجوههم عن الدين ويفرون منه فرارهم من الأسد، ويصبح في نظرهم

كما كان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في نظر كفار قريش . فهم يقولون : أليس الشيوخ الذين يقرؤون هذا الدين بين ظهرانينا؟ ألسنا نحن القائمين بأمر هذه البلاد؟ فما شأن هؤلاء وما شأن دينهم بمثل هذه القضايا الكاذبة . يترك المتعلم أعمال دينه جهلاً وغباوة ، لأن أهل دينه لا سلاح بأيديهم ولا قوة عندهم ، فكأن الدين لما كان أهله أقوياء كان حقاً فلما ضعفوا صار باطلاً . وهذه هي القضايا التي ضل بها نوع الإنسان وعلى ذلك يسمى : « السيف في يد الجبان عصا وفي يد الشجاع سيفاً » ، وهذا القول لا يعقل ولكن يعقله الجهلاء الذين لا يعقلون . ولقد أجاب الله على ذلك هنا بإجابة عامة فقال : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[الفرقان : ٩] فوصفهم بأنهم ضالون وهذا وصف عام يشمل الخلل في القضية التي احتجوا بها كما قدمناه ، وإنّما لم يذكر خلل هذه الحجة لأن الضلال كما يشملها يشمل غيرها كما سيأتي في هذه السورة إذ يقول الله للأصنام : ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[الفرقان : ١٧ - ١٨] .

فانظر كيف قال الله للمعبودين : ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾[الفرقان : ١٧] فتبرأ المعبودون وأسندوا الضلال لما تمتعوا به هم وآباؤهم من قبلهم ﴿ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[الفرقان : ١٨] هلكى . فانظر وتعجب كيف جعل المعبودون الضلال ناشئاً من التمتع الحاصل لهم ولآبائهم من قبلهم حتى أنساهم ذكر الله ، وهذا التمتع هو الذي ذمه الله في قوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء : ١٦] ، فالتمتع يورث الفسوق والهلاك في هذه الآية ، ويورث الهلاك في آياتنا التي نحن بصددها مع الضلال ونسيان الذكر ، فيكون الأمر هكذا : نسيان ذكر فضلال وهلاك وفسوق وهلاك ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾[الفجر : ١٥-١٧] الخ ، وقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف : ٢٠] .

فانظر وتعجب من آي القرآن وعجائبها وارجع إلى ما نحن بصدده من الآيات ، فإن قوله تعالى : ﴿ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[الفرقان : ٩] لم يعين فيه الضلال بفساد الحجة الذي ظهر عند النقد ، بل ترك الأمر لفطنة القارئ ، ثم أعاد ذكر الضلال لما سأل الأصنام فقالوا له : نحن ما أضللناهم بل هم ضلوا ، وذلك الضلال لتمتعهم بالخيرات وغفلتهم . والغفلة متى استحكمت بكثرة اللذات والشهوات أوقعت الناس في المهالك . فاتباع الناس لأهوائهم وجهالاتهم ناشئ من الترف والتنعم .

فنرجع إلى الأنبياء ، فلو أنهم كانوا مترفين منعمين لكانوا ضالين ، وحينئذ يقال : إنه لو أنزل على الأنبياء كنز أو استغنوا عن الأسواق وكانوا أغنى من كثير من البشر لم يكن ذلك دليلاً على رفعة قدرهم ، بل هذه الأمور تورث الغفلة . فهي إن لم تدنسهم بالغفلة فليست برافعة لهم شأناً ، وليس أكثر الأنبياء بأصحاب ملك كداود وسليمان ، بل أكثرهم كانوا يزاولون الحرف والصنائع ، ويرعون الغنم تنشيطاً لهم وتقوية لأبدانهم وتدريباً لهم على الأعمال المقوية للبدن المنشطة للفكر المبعدة عن الكسل

المدرية على المشاق، حتى إذا سادوا الناس ألزموهم العمل وساسوهم سياسة تحفظ جامعتهم.
انظر وتعجب من بدائع القرآن كيف يقول الله تعالى بعد ذلك بآية واحدة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان: ٢٠]، ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[الفرقان: ٢٠].

فانظر كيف أتى الله أولاً بالإجابة على قولهم بأنهم ضالون ثم أتبعه بفصول انتهت بالجواب الثاني، وتلك الفصول أن الله قادر أن يعطيه جنات وقصوراً، وأنهم كذبوا بالساعة، وأن لهم السعير، وأن جهنم تتغيظ، وأن لها زفيراً، وأنهم إذا ألقوا في مكان ضيق منها دعوا بالهلاك، وأنهم من اللائق لهم أن يدعوا هلاكاً كثيراً، ثم وازن بين الجنة والنار وأن الجنة للمتقين ولهم فيها ما يشاؤون، ثم يحشر المعبودون والعابدون ويسألهم ما سبب ضلال العابدين؟ فهذه أحد عشر فصلاً ختمت بفصل هو الإجابة الثانية لقولهم: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان: ٧]، وكان ينبغي أن ينزل إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها، فقال لهم هنا: إن التمتع باللذات ينسي الذكر ويورث الهلاك فليس في ذلك معجزة، ولذلك قال بعد آية كما تقدم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان: ٢٠]. وأما قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾[الفرقان: ٧] الخ فهو في:

اللطيفة الخامسة

وذلك أن قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾[الفرقان: ٧] أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٢١] الخ، فانظر كيف كانت الإجابة على المشي في الأسواق وأكل الطعام وإنزال الكنز وأن يكون له بستان بأنهم ضالون، وبأن التنعم ينسي الرب، فليس من شأن الأنبياء. وكيف كانت الإجابة على إنزال الملك بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[الفرقان: ٢١] الخ، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٢١] معناه أنهم ليسوا أهلاً لمقابلة الملك ولا لمقابلة الله، وهل يقدر الناس وهم في أجسامهم وفي شهواتهم وفي أضواتهم أن يلاقوا الملائكة فضلاً عن الله تعالى. إن الملائكة منزهون عن المادة والناس في الأجسام، فكيف يقدرون أن يقابلوهم والمقابلة بين العالمين اللطيف والكثيف متعذرة ما لم يصبح الكثيف لطيفاً، فإذا لطف أمكنت المقابلة، وذلك لا يكون إلا حيث يصبح الناس مسلوخين من البشرية عاريين عن أحوال الجسمية.

ويقول علماء الأرواح في كتبهم: إن الأرواح العلوية لا يتسنى لها أن تكلم إلا نفوساً تنزهت عن المادة وتعالت عن أحوال هذه الأرض وصارت علوية النزعة ميالة للأمور العالية الشريفة. شفقتها عامة وشهواتها ممنوعة ولذاتها مفقودة، لا مطمع لها ولا مطمح إلا في الأمور القدسية والمعارف الإلهية ومقابلة رب البرية. فهذه هي التي تشتاق إليها الأرواح العالية وتتنزل عليها في المنام تارة وفي اليقظة أخرى، وترى علماء الأرواح يحتالون على محادثة الأرواح بطرق، منها: المائدة بحيث يجلس جماعة واضعين أيديهم عليها فيطرق طرقات على حسب المصطلح عليه بين الروح الحاضرة وبين الحاضرين من الإنس. ومنها: أن تكتب الحروف الهجائية في ورقة وتوضع كأنها إطار أو دائرة محيطة

بالمائدة أي فوق دائرتها، ويضعون أيديهم على فنجان، وذلك الفنجان يمر على هذه الحروف متحركاً بالسيال الذي ينزل من الأيدي، وأصحابها لا يعلمون من الروح الحاضر، ويمتزج السيال الحيواني الآتي من الأحياء بالسيال الآتي من الروح، وبهذا الامتزاج يدور الفنجان ويمر على الحروف، وباجتماعها تكون كلمات ذات معنى كما رأيته بعيني رأسي. ومنها: أن يضع الإنسان قلماً في يده ويستمر ربع ساعة كل يوم حتى تحضر روح وتكون سبباً في انتقال يده بالكتابة فيكتب جملاً مفيدة، وهكذا من الطرق التي تقدم بعضها أو أكثرها في الذي مضى من هذا التفسير، وهي كلها مذكورة في الكتاب الذي ألفته في هذا العلم المسمى «كتاب الأرواح»، وآخر الطرق طريقة التنويم المغناطيسي بحيث ينوَّم ـ بفتح الواو ـ إنسان وتأتي روح فتتكلم بلسانه، وهذه كلها تقدمت في سورة «الإسراء».

هذه هي نموذج الطرق التي يكلم بها الناس عالم الأرواح، وهذا علم منتشر في الأرض، ولكن كلام الناس معهم ظهر أنه يدخل فيه الصدق والكذب والحق والباطل والصحيح والفاسد، فتبين حقاً أنه لا فائدة إلا في علو الأخلاق، وكلما علت الأخلاق اقترب الناس من الملائكة، و الملائكة إذن يقتربون من الناس بالإلهام مثلاً، أما أكثر هذه الأرواح التي يخاطبها الناس خطاباً صناعياً فإنما هي أرواح سفلية قريبة عقولها من عقول البشر، فيكذبون كما يكذب البشر، ويضحكون كما يضحكون وهكذا. فأما الأرواح العالية فإنها ملتئمة الفكر لا تحب إلا ما كان عالياً شريفاً، ولا تخاطب إلا نفوساً بعيدة عن الشهوات قدسية النزعة، ولا سبيل لهذه الصفة إلا بمحاسن الأخلاق والآداب والمقاصد النبيلة وحب العلم وحب الإنسانية. فالنفوس المتصفة بهذه الصفات هي التي تستأهل للتكلم مع الملائكة، ومن سواهم منهم ليسوا أهلاً لهؤلاء، وهذا هو معنى قوله تعالى هنا: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٢١]، فلقاء الملائكة لهم لإهلاكهم لا لإرشادهم.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى:

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

قد تقدم شرحها في اللطيفة الرابعة.

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ الخ

اعلم أن الله عز وجل خلقنا في الأرض ليربينا. ولقد جعل التربية بأمرين: نعمة ونقمة. فلا نرى نعمة إلا كان معها نقمة، وقد جعل الضدين يتسابقان لخيرنا سواء أعلمنا أم لم نعلم وفهمنا أم لم نفهم؟ فانظر كيف جعل الضدين في كل شيء: الليل والنهار، والصيف والشتاء، والشباب والشيب، والموت والحياة، والإيمان والكفر، وترى الزرع يصلحه الإنسان والماء والشمس ويفسده الآفات العارضة، وترى الإنسان يعتريه المرض والصحة والفقر والغنى والعلم والجهل، وهكذا نرى له العدو والصديق، ويظن أكثر الناس أن العداوة ضرر محض، وما علموا أن الآفات والعوارض مقويات لمن ترد عليه جسماً أو عقلاً وروحاً. فكم من مريض كان المرض سبب توبته أو سبب اتقائه المآكل الضارة فعاش سعيداً قرير العين. وكم من فقير صار الفقر من أهم أسباب ثروته وغناه أو تهذيبه أو تقوية عضلاته أو تقوية ملكاته الفكرية أو ما أشبه ذلك. وترى الأرض تنبت حشائش مهلكة للزرع تكتفي

بالهواء والماء و الأرض وتكون وبالاً على القمح والقطن والذرة ، فيسعى الناس في إزالتها بتعب وشقاء ، وذلك دلالة على أن كل ما فيه نفعنا لا يتم كماله إلا بعد الشقاء والتعب في المحافظة عليه والدأب في حفظه وإبقائه سالماً . ومن عجب أن المزارع التي نحتاج إليها ضعيفة يعوزها قيامنا عليها وحفظها وتسميدها وسقيها . فأما التي هي ضارة فإنها لا يعوزها شيء من ذلك ، بل هي قوية متينة .

هكذا نرى أجسامنا فيها حيوانات صغيرة في الكرات الدموية الحمراء والكرات البيضاء . وهذه الحيوانات التي تعد بآلاف الألوف حافظة لأجسامنا معدة لمقاتلة كل حيوان داخل لأجسامنا من حيوان الوباء والجدري والحصباء والتيفوس والتيفود وأنواع الحمى الكثيرة . فإذا دخلت تلك الحيوانات الضارة المحدثة لهذه الأمراض لتسكن أجسامنا وتخربها وتتلفها وتهدمها ، قابلتها تلك الجيوش الجرارة فحاربتها ، فحصل في أثناء العراك والصدام واشتداد الوطيس ، والتقاء الجيوش واحتدام الوغى ، أن ترتفع الحرارة في الجسم من ذلك الصراع ، فيقال : إن المريض ارتفعت حرارته ، فإذا غلبت الجيوش الهاجمة المهلكة مات المريض ، وإن غلبت الحيوانات التي في كرات الدم الحمراء والكرات البيضاء شفي المريض ، ولذلك تجد الأطباء يعمدون إلى الأطفال وإلى بعض الرجال والحيوان فيلقحونهم . ومعنى التلقيح أن يؤتوا بمادة تشتمل على حيوانات صغيرة تعد بالألوف فيدخلونها بالإبر في الأجسام كالمادة التي فيها حيوان الجدري . فإذا سرت تلك المادة في جسم الطفل أخذت تلك الحيوانات تحارب ما في الجسم من الحيوانات الذرية في الكرات الدموية فترتفع الحرارة ويموت بعض تلك الحيوانات أو أكثرها ، فتقوم ذريتها حافظة ما كان لآبائها من قوة على النضال وجرأة على القتال وشدة في الحرب ، حتى إذا جاء مرض الجدري حقيقة كانت ذرية تلك الحيوانات واقفة له بالمرصاد لأن أجسامها قويت بمحاربة الأعداء ، وقد ورثت تلك القوة عن الأجداد وأجداد الأجداد .

هذا ما يقوله العلماء في الحيوانات الذرية في أجسامنا وفي حيوان المرض الذي يفتك بنا . فانظر كيف أصبح العدو هو النافع المقوي وكيف كانت الراحة هي السبب الأقوى في الضعف والخمول . وانظر كيف يقول الشاعر الحكيم :

عداتي لهم فضل عليّ ومنة	فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها	وهم نافسوني فاجتنيت المعاليا
فلست بهياب لمن لا يهابني	ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
كلانا غنيّ عن أخيه حياته	ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وقد خمست هذه الأبيات وذكرتها في سابق التفسير . فانظر في الطير في جو السماء ففيه الصائد والمصيد ، فالصقر يصطاد الخطاف ، والخطاف يصطاد العصفور ، والعصفور يأكل الدود ، والدود يأكل الإنسان ، والإنسان يأكل الأنعام . فالعالم كأنه دائرة يأكل بعضها بعضاً ، والعداوة متواصلة والصداقة كذلك . فانظر كيف خلق الله الضدين وخلق بينهما عداوة وصداقة في كل شيء . فالعداوة كنار محرقة ، والنار مهيئة لكل شيء فنراها تطبخ اللبنات فتجعلها آجراً ، هكذا العداوات مكملات لنوع الإنسان ، فهو إن قام جسمه باللبن والغذاء وتربية الوالدين فإنه تقوى عضلاته ويقوى بالمخاصمات والصبر في المشاحنات والمنافسات . فعلى الرحمة إنشاؤه وعلى القوة الغضبية النارية بالتنافس والعداوات تقوية

ملكاته . هذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[الفرقان: ٢٠] . فانظر كيف أمرنا بالصبر فالصبر هو المطلوب من هذه كلها ، وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الفرقان: ٣١] ، لأن عداوة المجرم للنبي تقوي نفسه وترقي أخلاقه بالاحتمال والصبر ، ولذلك سمي بعض الأنبياء أولي العزم . وهذا هو الجواب الثالث عن قولهم : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٧] الخ ، فقد أجابهم بأنهم ضالون ، وبأن التمتع بالخيرات يدعو إلى الهلاك كما تقدم ، وختمها بقوله : إن المهتدين فتنة للضالين فكلاهما امتحان للآخر . فأنتم أيها الكفار قد فتنتم بمحمد ونبوته ، وامتحنتم لننظر هل تصبرون في التفكر والتعقل فتعرفون أن المشي في الأسواق وأكل الطعام لا يخلّ بالنبوات ، وفتن محمد وامتحن ليصبر على شدائدكم وكفركم وإيذائكم ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان: ٢٠] ، فالنبي أمر بالصبر على أذاهم ، وهم مأمورون بالصبر على التعقل والتفكر وعلى أن يعلمهم من يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . انتهت اللطيفة السابعة .

اللطيفة الثامنة: في قوله تعالى:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

يقول الله : إن الكافرين يعمد سبحانه إلى عملهم فلا يقيم له وزناً ويجعله مفرقاً لا قيمة له ، وسبب ذلك أن كل شيء لا نفع فيه إلا بالعزيمة ، ولا عزيمة إلا حيث يكون الصبر ، وحفظ القوى النفسية ، وبيانه أن الذي لا عقيدة له في إله لهذا العالم تكون أعماله موزعة على حسب المرامي التي يرمي إليها ، فيكون عمله تارة رياء وتارة خوفاً ، وتارة شهوة ، وتارة لغضب ، وتارة لأنه جبان ، وتارة لأنه متبع للعادة وهكذا . فأما إذا جعل الاتجاه لأمر واحد فإن جميع أعماله تتجه إلى وجهة واحدة ، فإن نال خيراً صرفه لله أو قوة صرفها في عمل نافع أو خاف التجأ إلى الله ، وهو مجتهد في عمله ، وهكذا في كل أطوار حياته ، وما هذه القوى النفسية الإنسانية إلا كضوء الشمس فإنه يكون في الجو متفرقاً مشتتاً لا ظهور له في الهواء ، ولا ضوء له في الأجواء والطبقات العليا ، فإذا لامس الأرض اجتمعت ذراته وقويت حرارته وأنعش الإنسان والحيوان والماء . ذلك شأن ضوء الشمس . فلولا اجتماع ذراته الضوئية على الكرة الأرضية ما أثمر ولا أزهر زرع ولا در ضرع ولا كانت فيه منافع . هكذا نبات الإنسان إذا تركت وشأنها ، وهكذا كل ما يعتريه إذا لم توجه رغائب الإنسان ومقاصده فيها إلى وجهة واحدة تطايرت وذهبت كل مذهب ، ولم يبق لها منفعة ولا خير ، ولذلك يقول علماء النفس وعلماء الأرواح : إن الإنسان إذا وجه فكره إلى الأمور التي يقصدها بهمة فإن همته تستبق إلى المقاصد متى كانت على ثقة بمقاصدها .

ولذلك كان أشراف الأنبياء يسمون أولي العزم لأنهم يجدون للغرض الذي يقصدونه ويسمون بأنفسهم إلى ما يقصدون ، وهكذا يقولون : إن الإنسان متى وضع صورة ما أمام عينيه واتجه بقلبه إليها فإن تلك الهمة تحرك من صاحب تلك الصورة همة تتجه إلى من قصدها . وعلى هذه النظرية بني فن من العلوم السحرية . ويقول الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤] ، ويقول : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ويقول : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: ١٥٢] ، فأصبحت القاعدة

واحدة في نفسها، من اتجه بقلبه للمخلوق فنيته صادقة فيما اتجه إليه، وهكذا من توجه لله كان الله عوناً له. وعليه يكون التوجه لله حافظاً للأعمال من التفرق والتشتت. فأما ترك الآراء والأعمال بلا عنان يمسكها فذلك ضياع لها، والله هو الولي الحميد.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

كنت على شاطئ النيل الشرقي يوم ١٠ يناير سنة ١٩٢٩ فرأيت شاباً بيده كراسة فيها دروس يقرؤها، فسلم علي وأخبرني أنه من مدرسة «دار العلوم» وأخذ يسألني في أمور يشك فيها، وأهمها مسألتان: المسألة الأولى: إن الله خلق العالم وكيف نتصور وجوده وعقولنا لا تعقل كيف كان هذا الوجود؟! الثانية: كيف يعذبنا وهو المقدر لجميع ما نفعله. فقلت: أما سؤالك الأول ففي الحديث: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله». فقال: نعم، ولكن أود أن أكون حراً معك فلا تقيدني بالحديث لأن عقلي لا يقف عند الحديث وهو يطالبني، فأنا أطلب منك إيقاف هذه الحركة الفكرية. فقلت له: ما ناتج ضرب ٥ في ٥؟ قال: ٢٥. فقلت: و٢٤ أليس حاصل ضرب ٥ في ٥؟ قال: كلا. بل هو مستحيل. قلت: إذن هنا أمران: واجب وهو ٢٥، ومستحيل وهو ٢٤، وغيره من جميع الأعداد فكلها يستحيل أن تكون حاصل ضرب٥ في ٥. قال: نعم. قلت: ما الذي تساويه زوايا المثلث الثلاث؟ قال: زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين. قلت: أيقين هذا؟ قال: نعم. قلت: ما تقول في الأمور الهندسية؟ أبالذهن تقوم أم بالخارج؟ قال: بالذهن. قلت: هل أنت فاهم ما تقول؟ فقال: أفهمه إجمالاً. قلت: اعلم أن علماء الهندسة يقولون: إن الأشكال الهندسية تقوم بجسم معنوي ينطبق على الجسم المشاهد، فهي صور في النفس تظهر آثارها في الخارج، وهكذا جميع العلوم الرياضية ترجع في تصورها إلى الذهن، ولا تتوقف على الخارج بخلاف العلوم الطبيعية كهذا النبات وهذا الحيوان، فهذا لا نتصوره إلا في مادة خاصة. أما المثلث والمربع والكرة فهي لا تحتاج إلى مادة خاصة، فأي مادة تصورناها أدركنا بها تلك الأشكال.

إذن العلوم الرياضية تحتاج في تصورها إلى مادة تقوم بها في الذهن، لا في الخارج، لأننا نتصور الأشكال ولا يهمنا من أي نوع تكون صورة الشكل، بخلاف نبات القطن أو القمح، أو هذا المعدن فإنا لا نتصوره إلا بمادة خاصة نحضرها في أذهاننا. أما المسائل الإلهية فهي لا تتوقف على مادة أصلاً لا في الذهن ولا في الخارج. فقال: هذا كلام الفلاسفة وهو عسر الفهم، وإن كنت أنت أوضحته فإني لم أستفد فائدة في موضوعي. فقلت: هذه مقدمة لموضوعك. ألم تر أني سألتك في زوايا المثلث؟ قال: بلى. قلت: هذا المثلث أنت تصورته في ذهنك، وأنه يجب أن يكون مساوياً لقائمتين. قال: نعم. قلت: هل هذه النظرية موجودة؟ قال: نعم، إن لم تكن موجودة فكيف نتصورها؟ ثم قلت: أواجبة هي أم جائزة أم مستحيلة؟ فقال: بل واجبة. قلت: إذن هناك أمور واجبة في ذاتها، فقضايا الحساب والهندسة والجبر هي قضايا صادقة في ذاتها، ولذلك يقولون: حقائق الأشياء ثابتة، فهذه أشياء ثابتة في أنفسها. فإذا كانت أمثال القضايا العلمية ثابتة في أنفسها أفلا تكون هذه مقربة لموضوعنا، أي إذا تصورنا نوعاً من الوجود للقضايا العلمية، وقلنا: إن هذه القضايا ثابتة في أنفسها. أفليس هذا يسهل لنا أن نفهم وجود الله بدون موجد.

ثم إني أذكرك بأمرين: الأول: إن عقولنا بالنسبة لهذا العالم أشبه بالعدم بالنسبة للوجود. ألا ترى رعاك الله أن أرضنا أصبحت اليوم بعد الكشف الحديث ما هي إلا كجوهر فرد إذا نسبت إلى جميع العوالم؟ وبعبارة أخرى، أن الأرض لو صغرت إلى جوهر فرد، وصغر العالم كله على نسبتها، لوجدنا الكواكب والشموس التي تصور وجودها العلماء تساوي ألف مليون أرض، إذن أرضنا أشبه بالعدم، ونحن جزء صغير على هذا العدم. فماذا تتصور في عقول قوم أمثالنا، هل يعقل أن هذه العقول تقدر أن تحيط علماً بهذا الكون فضلاً عن خالقه؟ إن هذا غير معقول، فإذا كانت أرضنا ما هي إلا أشبه بالصغر ونحن جزء صغير جداً على هذا الصغر فكيف يقف عقل هذا المخلوق المعدوم على خالق هذه العوالم كلها. قال: حقيقة أنا مقتنع بما تقوم وحقاً إن العقل يقضي أن هذا الضعيف وهو الإنسان لن يقدر أن يعرف حقيقة الله. قلت: هذا قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله فإن التفكر في ذات الله إشراك»، وقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١]، فإذا كان وهو لم يشهدنا خلق أنفسنا فهل أشهدنا وجود ذاته. إن هذا مستحيل ومستحيل لعدم الاستعداد وللضعف المستمر في الإنسان، هذا هو الأمر الأول. الأمر الثاني: إن هذه الدنيا التي نسكنها لم نعرف فيها عدماً البتة فأين هذا العدم؟ إن هذا العالم كله وجود لا عدم، فإن كل نبات وكل حيوان وكل معدن وكل كوكب إذا انحلت أجزاؤها رجعت في نبات آخر وحيوان آخر وكوكب آخر، وهكذا كما هو معلوم في العلوم التي نقرؤها اليوم. فالنبات والحيوان ترجع أجزاؤهما إلى مخلوق آخر منها، والشمس والقمر والنجوم كلها إذا انحلت ترجع إلى كواكب أخرى، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، يموت الميت فيبكون عليه، ولم يكن الميت عند الناس هو حي إلا بالصورة الاسمية المفكرة، فإذا مات فجسمه موجود لم يخرج من ملك الله. إذن هو موجود لا معدوم وبكاؤهم عليه لأنهم لا يشاهدونه بعد ذلك، والبكاء في الحقيقة على روحه التي لم يشاهدوا إلا أفعالها وأقوالها بواسطة هذا الجسم، والروح أيضاً موجودة فأين العدم إذن؟ فقال: لقد نقلت أنت عن العلماء في هذا التفسير أن المادة تنعدم وأنها ترجع إلى عالم الأثير. فقلت: وعالم الأثير موجود في نفسه وإن لم تره حواسنا، إذ رؤية حواسنا ليست شرطاً في الوجود، فليس العدم ما لم تشاهده حواسنا، ولا الوجود موقوفاً على رؤية حواسنا، وإذا حكمنا بأن عالم الأثير موجود ونحن لم نشاهده بل عرفناه استنتاجاً في زماننا بسبب آثار الضوء والكهرباء والمغناطيس والحرارة القائمة به، فلم يصعب علينا فهم القضايا العلمية، والنظريات الرياضية موجودة في أنفسها، وكيف يصعب علينا بعد ذلك أن نسلم بأن هناك موجوداً قائماً بنفسه هو موجد هذه المخلوقات وإن كنا نحن ضعفاء في الأرض. فقال: حقاً إنه قد ثلج صدري وانشرح لهذا البيان المحكم في المسألة الأولى.

فقلت: إذن أجيبك على المسألة الثانية وهي: كيف يعذبنا الله وهو يعلم بأفعالنا؟ أولاً: تذكر أنه رحيم ولكن هذا التذكر لا يغني فيه أن نقرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١-٣] لأن القراءة شيء والعلم شيء آخر. القراءة مبذولة للعالم والجاهل وللغبي والذكي، والله قبل أن ينزل القرآن خلق هذه الأرض ومن عليها والسماوات العلى، فلا تغني

القراءة بل لا يغني معنى اللفظ وحده، بل لا بد من التفكر ولا تفكر في أمثال هذا إلا بدراسة نفس الأجسام الإنسانية التي هي أقرب إلينا من السماوات والأرض. إذا درسنا أجسامنا أدركنا لماذا كرر الله الرحمة في أول كل سورة، ولماذا كررت الرحمة في ثنايا القرآن، ولماذا يقول: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[الأنعام: ٥٤] ففهم الرحمة في أجسامنا هو الذي به نعقل معنى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وأقرب شيء لما نقوله الآن نظام العين المركبة من ٧ طبقات ومن ثلاث رطوبات موضوعات كلها وضعاً منظماً. فترى القرنية محدبة الشكل وترى العدسية محدبة الوجهين وكلتاهما مطبوعة على جمع النور. ذلك النور الذي يجري من الكواكب إلى الأرض وأقربها إلينا الشمس التي يحتاج نورها إلى ٨ دقائق و١٨ ثانية حتى يصل إلينا، وهناك كواكب اطلعنا عليها بالمنظار المعظم وصلت في تباعدها عنا إلى أن نور بعضها لن يصل إلى أعيننا إلا بعد مضي ١٠٠ ألف ألف سنة بسير النور، وهذا الكشف جاء سنة ١٩٢٨م قبيل كتابة هذه المقالة. أقول: فإذا وجدنا أن طبقات العين وضعت بهذه الدقة والحكمة والوضع البديع الذي به تمكنا من رؤية الشمس التي تبعد عنا بسير قلة المدفع ١٢ سنة وبسير القطار ٣٦٠ سنة وبسير النور ٨ دقائق، وتمكنا من رؤية كواكب متباعدة بحيث يصل بعدها إلى ١٠٠ ملون سنة بواسطة الآلات المعينة على الإبصار. وإذا ثبت هذا دل على رحمة لا حد لها. فأي رحمة وأي رأفة من أم وأب وحبيب وصديق توازي هذه الرحمة؟ هذه رحمة تفوق الوصف. قال: أنا الآن موقن بهذه الرحمة ولست أشك فيها بعقلي لا بمجرد السماع ولا بفهم المعنى، بل بدراسة جسمي. قلت: فالآن أتكلم معك على الجنة والنار والثواب والعقاب فأقول: الله خلق فينا اللذة والألم، والمحبوب والمكروه، فالمكروه مهماز يسوقنا إلى فعل المحبوب. وما مثل الناس مع ربهم إلا كمثل المعادن في أيدي أرباب الصناعة من حداد وصائغ. فهؤلاء يذيبونها في النار لتكون طوع أيديهم فيما يقصدون منها.

انظر يا رعاك الله إلى ما سيمر عليك في آخر سورة «النمل» عند قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، فهناك سترى أن الناس من قبل لم يكن عندهم إلا نار الفحم، وبنار الفحم تصرفوا في المعادن إلى حد ما. أما الآن فإن الكهربائية قد مكنتهم من أن يصنعوا فرناً يسمى «الفرن الكهربائي»، والفرن الكهربائي تصل درجة الحرارة فيه إلى ١٤٠٠٠ درجة، وقد رأى «فرنهيت» أن درجة الصفر تقف عند الدرجة التي وصل لها ممزوج الملح مع الثلج وهي ٣٢ درجة تحت درجة الثلج، وهو الذي كشف ذلك. ولكن سترى هناك أن الفرن الكهربائي قد تصرف القوم به في المواد فنزلت درجة حرارتها متى أرادوا عن الدرجة التي وصل إليها «فرنهيت» نحو ٤٤٩ تحت الصفر الذي عينه هو. وبهذه الدرجات الواسعة البالغة ١٤٠٠٠ ونحو نصف ألف أصبحت المادة في أيدي الناس أشبه بالشمع يفعلون بها ما يشاءون، حتى إنهم أمكنهم فصل «الأوزوت» وهو «النيتروجين» من الهواء ثم جعلوه متحداً مع «الهيدروجين» فحصل لهم نشادر، فهو كما اتحد الأكسوجين مع الأدروجين فصار ماء.

هاهنا بان لنا جمال الله ورحمته. هواء نحس به أصبح جزآه يتصرف الناس فيهما بالحرارة. فجزء نجعله نشادراً باتحاده مع عنصر آخر، وهذا النشادر يدخل في السماد فينمو الزرع وتكون المفرقعات والمهلكات الحربية. من أين هذا؟ من نفس الهواء.

إذن الهواء أمكننا أن نفعل فيه ما فعلت البرودة بالماء إذ حولته إلى ثلج . فهكذا هذا الهواء جعلناه جامداً واستعملناه سماداً لزرعنا وإهلاكاً للقرى والمدن .

هذه هي الحرارة ، وهذه هي العناصر والمعادن ، الحرارة ارتفعت والعناصر ذلت وخضعت بسببها ، وبهذا كانت قدرتنا على ارتقائها أوسع وأعظم . فالله عز وجل خلقنا في الأرض وخلق فينا غريزتين : لذة وألماً وحباً وكراهية ، واستعمل الألم واللذة لسوقنا إلى الكمال . فقال : إذن كل صائرون إلى الكمال ، فجميع أهل الأرض سائرون إلى السعادة . فقلت : ماذا تريد بهذه الجملة ؟ فقال : إذن الله هو الذي يتصرف كما قلت لك ، ونحن في يده كالمعدن في يد الصانع في الفرن الكهربائي ، وهو بهذه الآلام وازديادها يهذبنا ليعدنا إلى أحوال أخرى وعوالم لا ندريها ، إذن فلماذا يعذبنا يوم القيامة ؟ إذن فلنتكل . قلت له : هذه المسألة لم تغب عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال لهم صلى الله عليه وسلم : « جفّ القلم بما هو كائن أو كان » ، قالوا له : يا رسول الله إذن نتكل . فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وأيضاً ما دخل الكلام على القضاء والقدر في أمة إلا كان سبباً في هدمها وخرابها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا ذكر القدر فأمسكوا » الخ ، يتحاشى ما تقوله أنت الآن . فقال : ولكن أنا بدأت حديثي معك بأن أكون حراً ، والحديث معك مع طوله أرجعنا إلى ما كنا فيه . قلت : ستسمع الساعة ما هو أقرب إلى الطمأنينة وسرور النفس . قال : نعم . قلت : يقول صلى الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خلق له » . قال : نعم . قلت : وبيانه أننا في هذه الأرض بالبحث عرفنا أن كل مخلوق قد أعطي كل ما هو في حاجة إليه ، فالطيور والحشرات والإنسان سواء في هذه القضية . وقراء هذا التفسير موقنون بهذا . قال : نعم . قلت : والأمثلة كثيرة على ذلك . قال : نعم ، قرأتها في تفسيرك وفي غيره . قلت : وأنت موقن به . قال : نعم . قلت : الحمد لله . إذن ندخل في المقصود . إن مما يحتاج إليه هذا الإنسان أن يكون معه سوطان : سوط من الجنة وسوط من النار . وبعبارة أخرى : أن يكون مع كل إنسان جنة ونار ، فالجنة والنار العامتان يمتد منهما فرعان لكل امرئ في هذه الدنيا ، فبفرع الجنة يهنؤون وبفرع النار يعذبون . فقال : وكيف يعقل هذا ؟ أنا والله لم أر الجنة ولم أحس بالنار . فقلت له : لا تحلف ستقر الآن حالاً فاصبر ولا تعجل . قال : إذا ثبت هذا يكون عجباً . فقلت : ألست أنت بمدرسة دار العلوم . قال : بلى ، ولكني أدرس في الخارج . قلت : أفلست ترى أن لك أصدقاء وإخواناً ؟ قال : بلى . قلت : فإذا كسلت وتأخرت فماذا ترى ؟ قال : أحزن ويحزن أهلي وأخجل . قلت : حسن ، إذن عندك شيء موجود يخزيك ويحزنك على تقصيرك . قال : نعم . قلت : أرأيت لو أنك لعبت وكسلت طول السنة ثم سقطت في آخر السنة ثم رأيت ضميرك يزعجك ويوبخك ؛ فهل يسكته عنك بأن تجيبه بقولك : إن الله قضى علي بذلك ؟ أفلست تسمعه يكلمك بلا حرف ولا صوت بكلام مستمد من كلام الله القديم الذي ليس بحرف ولا صوت فيقول لك : لماذا نمت عن دروسك واتبعت شهواتك وقد سبقك إخوانك ، ولم يحتجوا بالقضاء والقدر كما احتججت أنت . أليست لك قدرة وذكاء ؟ ألم يرسل لك والدك النقود ؟ قال : بلى والله يحصل ذلك كله ولا تنفع الحجج ولا الأقوال ولا الاحتجاج ولا الاتكال على القضاء والقدر . وهذا التأنيب والتوبيخ لن يحصل لمن هو بليد ولا لمن هو لا مال عنده يتفرغ به لطالب العلم . قلت : إذن عرفت أن العذاب مقدر بقدر الذنب ، فكل من قدر مكلف بما

قدر عليه، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وهذا هو قوله تعالى جواباً على احتجاج المشركين على القضاء والقدر: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[الأنعام: ١٤٨]. فهذه المسائل فرغ منها القرآن ولم يتركها مشركو العرب إلينا بل تكلموا فيها فأجيبوا بما سمعت. فقوله: صلى الله عليه وسلم: «كل ميسر لما خلق له» معناه ما نحس به في نفوسنا، فهاهي ذه ضمائرنا توبخنا وتضني أفئدتنا إذا قصرنا. قال: نعم. قلت: فمن أي البلاد أنت؟ قال: من مديرية أسيوط. قلت: قوم أهل شهامة ومروءة وكرم. أفرأيت إن وقعت في فعل فاحشة وشاعت عنك هذه في قريتكم وأنت شاب ومن أسرة شريفة ومن أهل العلم فماذا ترى من أمرك إذن؟ قال: أتمنى الموت وأختفي عن أعين الناس إذا قدرت. قلت: فإذا عصمك الله من هذا العار جملة ثم رفعك بالعلم وجعلك من عظماء بلادنا. قال: أجد في نفسي سروراً وغبطة وأسر أهلي بذلك. قلت: فهل تحس بذلك الخزي الذي تحس به النفس في الحال الأولى؟ قال: لا، ومن أين يأتي؟ قلت: هذان هما الفرعان المتمدان من النار والجنة في عقول الناس الآن. وهذا التوبيخ وهذه المسرات على الخيبة وعلى النجاح بلا حرف ولا صوت هما المستمدان من كلام الله الذي ليس بحرف ولا صوت، يكلم كل امرئ بكلام خفي، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: ٧].

غرائب تبكيت الضمير

كان خياط اسمه «شيوارد» في مدينة «نورويتش» بإنجلترا قتل زوجته ـ وكانت تكبره بأعوام كثيرة ـ بإحدى آلات مهنته سنة ١٨٥١ ثم فرق ما بين لحمها وعظمها ودفن الرفات الباقي في مكان بضاحية البلدة، وبعد ذلك ببضعة أشهر صادف أن كلباً نبش مكان الرفات واستخرج منه عظمة آدمية ظهرت على أثرها بقية العظام، فذاعت الإشاعات في البلدة أن رفات زوجة «شيوارد» قد كشف. ولكن أحد أطباء البلدة وكان على شيء من الشهرة صرح مؤكداً بعد فحصه العظام أنها ليست من رفات المسز «شيوارد» في شيء. بل هي لامرأة في ميعة الشباب قد لا تتجاوز العشرين من عمرها، فذهب هذا الرأي القطعي بكل الشكوك التي حامت حول «شيوارد»، وانقضت عشرون سنة كان «شيوارد» قد أثرى في خلالها وأصبح في بلهنية من العيش وقد تزوج مرة ثانية بعد تلك الأعوام الطوال، فصادف أنه ذهب إلى مدينة لندن لقضاء بضعة أيام، وفيما هو يطوف بها في إحدى الليالي ولا غرض له يرمي إليه إذ تصادف أنه مر بالشارع الذي كان قد تعارف فيه لأول مرة منذ ثلاثين سنة بزوجته التي قتلها ومثل بجثتها أشنع تمثيل، فاستولى عليه تأنيب الضمير فجأة ولم يستطع له دفعاً ولا عليه تغلباً، وفي نفس تلك اللحظة أبصرت عيناه أحد رجال البوليس واقفاً في الجانب الآخر من الشارع، فهرع إليه واعترف له بجريمته اعترافاً مفصلاً، فقاده الجندي إلى مخفر البوليس، ولكن «شيوارد» بعد اعترافه هناك أيضاً بساعات قلائل أراد أن يجحد اعترافه، بيد أن الوقت قد فات، إذ أن الاستعلامات التي قام بها البوليس في خلال تلك الساعات كانت قد أثبتت لرجاله أن لا بد في الأمر من شيء. وعلى الأثر استخرج رفات زوجته وفحصه جهابذة الأطباء بكل وسائلهم الطبية المستطاعة،

وكان تقريرهم يقضي بإدانة «شيوارد» بالجريمة إدانة لا إفلات منها. وكان لا بد من أن يدفع ثمن الجناية فأعدم شنقاً يوم ٢٠ أبريل سنة ١٨٧٠م. فقال: هذا حسن جداً. ولكن عندي سؤال واحد ليتم به الموضوع، قلت: قل. فقال: إن الله جعل العذاب في الآخرة ولم يجعله في الدنيا. فقلت: كلا، العذاب في الدارين معاً، وهذه غفلة دخلت على المسلمين أدخلها الجهل وقلة العلم. قال: أفي كتاب الله تعالى؟ قلت: نعم بل كتاب الله هو الذي أوضحها. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥]، انظر أفليس التعذيب في الدنيا بعضه هو الذي قررته معك؟ قال: نعم. قلت: إن الإنسان متى كانت وجهته المال والولد وليس لنفسه سوى المال والولد كان سبب ذل نفسه في الدنيا. وهذا عذاب آخر غير العذاب الذي تكلمنا فيه. إن نفس الإنسان خلقت في الأرض لتعلم وتعمل، ولكن الجهل يفهم المرء أن الحياة في الدنيا للتمتع بالشهوات، وهذه الشهوات نفسها تؤذيه لأنه سجن نفسه فيها مع أنها من السماء أي من عالم أوسع، فانحصارها في المال والولد ذل لها فيسلطان عليها فتذل بهما كما ذلت بالكسل في حديثي معك. قال: ثم ماذا؟ قلت: إن جميع قصص القرآن أتت بالعذاب في الدنيا أولاً مثل: ﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾[نوح: ٢٥] ومثل: ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦]، ومثل ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[التوبة: ١٠١]، وجميع الخسف والغرق وإرسال الحاصب المذكورات في القرآن عذاب دنيوي، وهكذا قال في الثواب: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٧] والقرآن كله طافح بذلك، وكفى دليلاً على ذلك «أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر ونادى قائلاً: يا أبا جهل يا فلان يا فلان، لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقال الصحابة له صلى الله عليه وسلم: كيف تكلمهم وهم جيّفوا ـ بتشديد الياء ـ فقال: إنهم لأسمع لما أقول منكم ولكنهم لا ينطقون». فهذا منه صلى الله عليه وسلم ليفتح لنا باب العلم في هذا الزمان، لأن هذه آية في القرآن: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾[الأعراف: ٤٤] الخ، وهذه الآية مسوقة للآخرة لا للدنيا. فوقوفه صلى الله عليه وسلم على قليب بدر ومناداته لقتلى قريش تعليم منه لنا أن الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، والمناداة في الدارين، بدليل أنه صلى الله عليه وسلم ناداهم وهو في الدنيا وأصحابه معه.

ذلك كله دليل على أن الثواب والعقاب يبتدئان من الدنيا بالعقل وبالنقل، والنبوة هي التي وضحت ذلك. ومن ذلك مسرات المجتهدين باجتهادهم وحزن المقصرين من أجل تقصيرهم، ومن ذلك بواعث الجد والاجتهاد بما في الأفئدة من الولوع والخوف من التعيير والذم والخجل أمام الناس في هذه الدار كما أوضحناه هنا. ولذلك يقولون اليوم كما قدمناه في سورة «الحج» عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾[الآية: ٥]، إن النابغين في الأمم تحدث لهم صفة تورثهم الضعة فيجدون في العلم والعمل حتى يزيلوا تلك الوصمة، فذلك إنّما هو خزي وضع لهم في أفئدتهم امتد لهم في أنفسهم فحفزهم للرقي والسعادة.

فقال: أريد إيضاح مسألة الخزي على شريطة أن تكون من نفس القرآن بما هو أوضح مما تقدم.
قلت: يقول الله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[الآية: ١٩١]، فذكر عذاب النار بعد بيان أن هذا العالم ليس مخلوقاً باطلاً بل بحكمة، وذلك يستدعي أن تقف النفس على عجائبه وبدائعه، فأردفه بطلبهم من الله أن يقيهم عذاب النار. وقد قال علماؤنا كما أوضحته هناك في تفسير هذه الآيات: إن عذاب الخزي أشد على النفس من عذاب النار. ولذلك تسمع العامة يقولون في أمثالهم: «النار ولا العار»، وتقول مريم: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم: ٢٣]، فالحياة بلا شرف يكون العدم أفضل منها والجهل أقبح شيء عند الناس، وهذا واضح هناك فاقرأه فإنك ستجد أن نفوسنا خلقت لتعرف هذا الوجود وتدرسه وأن الجهل عار عليها، ولا تزال مضطربة للجهل به حتى تعرف، وإلا فهي في عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولهذا قال بعدها: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾[آل عمران: ١٩٢]، فكأنه أبان أن عذاب الخزي أشد من عذاب النار. ثم أظهر الحقيقة واضحة بعد ذلك فقال: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ١٩٤]، وهذا كقوله: ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾[فصلت: ١٦] كما ذكرنا، وعذاب الخزي الآن ظاهر في أمم الإسلام. أحاط بها الخزي لأنها جهلت ما خلق الله في السماوات والأرض فلم تعلم ما أبدع في الكائنات فمنعها الخيرات المخبوءة في أرضه، لأنه تعالى لا يرضى أن يعطي النعمة إلا لمن يطلبها باستحقاق ويشتاق إليها.

فانظر كيف تلازم العذابان: عذاب الخزي وعذاب الأجسام، فقلوبنا نحن المسلمين تخزى أمام الأوروبي بسبب الجهالة وبسبب أنهم ينظرون إلينا نظرك إلى الحيوان لجهلنا، وأجسامنا متعبة معذبة لأنهم أحاطوا بأبناء العرب من كل ناحية يرسلون إليهم طياراتهم ومدافعهم، ويقولون لنا في مصر: إياكم أن تحملوا سلاحاً. إياكم أن تعملوا ما لا نأمركم به وإلا ضربناكم بالسلاح وقد قتلوا منا قوماً وأخذوا منا ألف ألف أيام الحرب العامة وعرضوهم للنار وقتل منهم كثير، هذا عذاب جسمي مضاف لعذاب الخزي بجهل ما أبدع الله في السماوات والأرض.

فلما أتممت هذا القول رأيت هذا الشاب ظهرت عليه علامات السرور والانفعال، وقال: الحمد لله قد ثلج صدري وأسأل الله أن يطيل حياتك، ومن ذا الذي كان يخيل له أن ما نسمعه سماعاً سنصبح ونحن نحس به في أنفسنا عملاً كأنه مجسم أمامنا. فقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب يوم ١٤ يناير سنة ١٩٢٩م.

جوهرة باهرة

في ذكر ما يناسب هذا المقام من كلام علماء الأرواح

اللهم لك الحمد. قد تجلى نورك في الآفاق وظهر وبهر في حسنه وإشراقه وجماله. ضربت لنا الأمثال في أنفسنا وفي الآفاق وأبدعت عالم الصور وعالم الأرواح على وفاق ونظام ابتهجت به القلوب وأشرقت به النفوس فلاح به فجر الفلاح في عالم الأشباح ولمحت من ظواهر الأنوار خوافي الأسرار.

البناؤون والجوهريون

رأينا يا الله أن فطرنا تجلت لها مواهب من لدنك فعرفت كيف تضع الأشياء مواضعها. نظرت في الجبال فرأت في ظواهرها الأحجار وأنواع الجير والكلس، وإلى الأرض فوجدت فيها الطين والرمل فألهمتها أن تجمع هذا وذاك وأن تبني بها المساكن والحصون لحفظها من الحر والبرد والعدو والوحش في القفار. ثم هي نظرت نظراً أدق فوجهت نظرها إلى ما في باطن الجبال وأعماق البحار فاستخرجت الأحجار الكريمة والمعادن الظريفة من الماس والياقوت والزبرجد والذهب والفضة والدر والمرجان فرأتها جميلة بهية وعلمت أنها قليلة الوجود لا تنالها إلا بمشقة، فأدركت هذه الأنفس التي أنرتها بنورك وأفضت عليها من سنائك وشموس إشراقك، لأنك نور السماوات والأرض. إن هذا الجمال لا يناسبه إلا الجمال وأن ما يعوزه العناء والنصب في الجد والطلب عزيز ثمين، فلم تضع تلك الأنفس هذه النفائس إلا فيما يوافقها ولم تهدها إلا لمنافعها. فماذا صنعت؟ أهدته للغواني وزينت به الجواري الحسان. هذه أفعال البنائين وأعمال الجوهريين، كل اصطفى ما يوافق مشربه ويوافق صنعته فوضعه في موضعه وقرأ: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨].

رجال السياسة ونظام المدن

ثم رأى رجال السياسة وعلماء الديانات من سائر الأمم والأجناس أن بناء الأمم وحفظ كيانها واستقامة أمرها لا يتم إلا بظواهر التشابه والتشاكل، فأمروا الجمهور أن يتباعد عن الزنا والسرقة والذم والقتل والإيذاء والإضرار بالناس، وأن يكون الجميع على مشرب واحد ورأي متناسب، فكان مثلهم كمثل البنائين الذين يضعون الأحجار مع ما يناسبها والطين والآجر كذلك، غير ناظرين إلى ما في بواطن الجبال من الجواهر ولا إلى ما في أعماق البحار من الدر والمرجان، فيسجنون السارقين ويقتلون القاتلين ويقيمون الحق ويعدلون بالقسط، ويفعلون مع الشعوب فعل البناء مع الأبنية، بحيث إذا اختل حجر من أحجار البناء أو لبنة من لبناته أو مدرة أو آجرة من حائط أسرع في إصلاحه وضبطه أو رمى به وكسره وأتى بآخر فحلّ محله. هنالك يقوم الحائط، وهكذا يقوم نظام الأمة وتبقى إلى حين حتى إذا غفل الحكام ونام الوعاظ وعلماء الدين تداعت الأمم إلى السقوط وهوت إلى الحضيض كما يتداعى البناء إلى الانهيار ويسقط إذا أهمله القائمون بأمره وهم ساهون لاهون.

حكماء الأمم والجوهريون

وهاهنا جاء دور الحكماء والمفكرين من الأمم الذين نسبتهم إلى علماء ظواهر الديانات ورجال القضاء والفقهاء ورجال السياسة كنسبة الجوهريين إلى البنائين. فكما أن البنائين يكتفون في بنائهم بوضع أحجارهم وتناسبها وضبطها بالملاط أو بانتظام اللبنات بضبطها بالطين المخلوط بالتبن الحافظ لها من الاختلال والسقوط، هكذا رجال الشرائع الدينية ورجال السياسة المدنية يكتفون من أممهم التي هم قوامون عليها بظواهر الأخلاق وبوادر الأحوال وحسن المعاشرات وترك المنازعات والقتل والسرقة وهتك الأعراض وما أشبه ذلك، وأن يروهم قد اجتمعوا في الأعياد والمواسم والمواكب والصلوات والجماعات فيكتفون منهم بذلك ولا يطالبوهم بأكبر منه ولا يفتشون عن قلوبهم ولا يسألونهم عما في ضمائرهم، ويقولون: لنا الظواهر، والله يتولى السرائر.

أما الحكماء والمفكرون فإنهم يقولون : أيها الناس نحن لا نكتفي منكم بالظواهر ولكنا نذكركم بأن الجواهر غير الأحجار، ومن ذا الذي يقيس الصدف بالجواهر أو القشر باللب أو الحجر بالمعدن والأحجار الكريمة، فكما لا تناسب بين الجواهر التي تتحلى بها الحسان وأحجام الأحجار، هكذا لا تناسب بين عالم أرواحكم وظواهر أخلاقكم، لئن اكتفى البناء بتناسب الأحجار وضبطها، والرجل السياسي والقاضي بظواهر المدنية والمعاشرة، ليطلبن الحكيم مطلباً أسمى من هذه النفوس الإنسانية وليقولن لكم ما صورته : إن عالم الأرواح بعد مغادرة الأبدان أشبه بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة فهذه لها مقام أجمل وأبهى، ولن تكون إلا فيما يناسبها وما يشاكلها، ثم يقولون لهم : ستفرزون فرزاً ويصطفى كل من كان أجمل وأصفى ويجعل في أجمل مكان، وكل من كان منكم غير مصطفى ولا منتفى ولا بهاء فيه ولا جمال، يرجع القهقرى إذ لا تناسب بين البهرج والذهب الصرف.

وهل ذهب صرف يساويه بهرج؟ والجمال هنا والصفاء بأمرين اثنين لا ثالث لهما : أحدهما : العلم، وثانيهما : العمل. فالأرواح التي جملت بالعلم وصفت بالفهم وانتظمت بالحكمة وأشرقت بنور ربها وتجلى لها هذا العالم على قدر طاقتها، فهذه تكون شموساً مشرقة تجاور الملائكة والنبيين للمشاكلة والمناسبة، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[النساء : ٦٩] الخ ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾[الشعراء : ٨٨-٨٩]، ويشترط مع ذلك أن تكون أعمالها مطابقة لذلك العلم قائمة بواجبها. فالعمل مطابق للعلم والظاهر للباطن، فهؤلاء هم الذين يصطفون ليكونوا أبراراً ويعيشون مع الملأ الأعلى ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾[القمر : ٥٥].

هذا هو الذي تجلى لنفسي وانشرح له صدري يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩م.

ولقد رأيت مقاماً يناسبه في كلام «عمانوئيل» الذي حدثتك عنه أيها الذكي في سورة «التوبة» وأسمعتك تاريخ حياته، وأن أباه كان أسقفاً في الدين المسيحي، وأنه كانت له منزلة رفيعة في الدين وفي الدولة، ولكنه لما اطلع على عالم الأرواح تغيرت عقيدته في نظام هذا الوجود، وأخذ يهدم ما بناه الجهل في أوروبا بأيدي صغار رجال الدين الذين شوهوه. فقال : يا قوم والله لا تثليث، وإني رأيت المسيحي بعد الموت يبحث عن إله ثان وثالث فلا يجد إليهما سبيلاً. ولقد تقدم ذلك في سورة «التوبة» وفي غيرها فارجع إليه إن شئت. ثم انظر ما يقوله في كتابه المسمى «السماء وجهنم» مما يناسب هذا المقام، فقد جاء في صفحة ١٩٤ من هذا الكتاب وما بعدها ما ملخصه : إن الإنسان يجب أن يعرف العلوم الإلهية والعلوم الدنيوية، وعلى مقدار ذلك يعرف ذكاؤه وحكمته، وقسم الذكاء قسمين : قسم كاذب، وقسم صادق. فالذي أدرك الحقائق إدراكاً نفسياً لا تقليدياً وأحبه وامتلأت به نفسه وأشرقت بها إشراقاً وصارت من جوهرها، فهذه أرواح حكيمة تكون مع الأرواح العالية، أما الأرواح التي قرأت ظواهر العلوم وإن كثرت وروتها أو فهمتها ولكن لم تتأثر بها ولم تعشقها ولم تمتزج بها نفوسها، فهؤلاء وإن اشتهروا بالحكمة فهم ليسوا من الفضلاء ويكونون كالعامة ويوضعون في منازل الجهلاء. وهكذا أولئك الذين يفعلون الخير لا لنفس الخير، بل لأجل الصيت والذكر أو من خوف الفضيحة والعار أو الخوف على المال ونحوه، ولو خلوا وأنفسهم لأهلكوا الحرث والنسل. فهؤلاء يوضعون هناك في المنازل التي تناسب نفوسهم لا ظواهرهم، لأن المدار على البواطن لا على الظواهر،

فالعلم بهذه الدنيا وجمالها وعمل الخير وإن لم يكونا محبوبين حباً حقيقياً ممتزجين بالنفس بحيث يصبحان صفة لها فإن صاحبهما لا يكون من المقربين.

ولما اطلعت على هذا القول وجدته يناسب ما في «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي من حيث فحواه وتذكرت ما قاله في الإحياء: إن عليين لأولي الألباب، وهم الذين هذا وصفهم. أما الجنة المحسوسة فإنها تكون لقوم ظهروا بالصلاح وبواطنهم مشغولة، فهؤلاء يدخلون الجنة ولكن أولئك يرفعون إلى الملأ الأعلى، وقد تقدم في سورة «البقرة» في أولها عند ذكر الجنة والنار، فقد نقلت النص هناك فارجع إليه إن شئت.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إن هذا القول وإن كان في ذاته حسناً وجميلاً فقد ذكرت العلم والعمل وأبنتهما، ولكن مقام الكلام إنّما هو أمر الضمير، وذكر الرجل الإنجليزي قاتل زوجته الذي أزعجه ضميره. فقلت: إن ما كتبته الآن إنّما هو مقدمة لما سيأتي. اعلم أن هذا الإنسان حين تضعه أمه من بطنها لا يحب إلا نفسه، فهو يطلب كل شيء لنفسه، وكلما شب قليلاً أدرك أن غيره له حقوق. فكل ما نراه في نوع الإنسان من حقد وغيظ وطمع فهو راجع إلى حال الطفل الأولى. وبعبارة أخرى: هذا النوع الإنساني كله فيه أخلاق الأطفال وعلى مقدار الترقي في العلم الحقيقي لا المزيف يعرف الإنسان هذا العالم ويحب الإنسانية. هذا أول الأمر وآخره. هذا النوع الإنساني لو كشف الغطاء عن عقول أفراده لأدركوا أن الذي غرس الكراهة والطمع إنّما هو الجهل، وأن الذي ينقذهم إنّما هو العلم الحقيقي، إذ لا سعادة لهم إلا بأن تستخرج ثمرات قواهم وعقولهم. فانظر إلى رزق الإنسان إذا لم يكن من الأرض وحدها ولماذا نراه مأخوذاً من السماء والأرض معاً، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٣١]، ولماذا ترى له عينين بهما يبصر السماء والمطر حتى يعرف أن رزقه اشتركت فيه السماء والأرض، ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [يونس: ٣١]، أقول أيضاً: لماذا كان رزقه منهما وحواسه ترى ذلك، فأذنه تسمع الرعد المؤذن بالمطر، وعينه ترى نفس المطر والزرع. نحن علمنا علماً لا شك فيه مما ذكر في هذا التفسير أن صانع هذا العالم حكيم متقن. فانظر إلى شجرة التين المرسومة في سورة «الحجر» وتأمل فيها وفيما شرحته هناك. ألم تر أن كل خمس ورقات كونت دائرة وبين كل ورقتين ٧٢ درجة من الدائرة، فلماذا لم يحصل خطأ في هذه الهندسة ولو درجة واحدة من درجات تلك الدائرة المشتملة على دائرتين حلزونيتين. هذا هو فعل صانع الكون في أمر نراه أمامنا في نبات، فهل يكون حكيماً متقناً في هذا ثم هو يغفل عن الإتقان في رزق الإنسان. أي لماذا لم يجعل رزق الإنسان من الأرض وحدها على قدر طاقة الإنسان كما فعل في حشرة الأرضة المرسومة المشروحة في سورة «النحل» فيما تقدم. ألم تر أنها خلقت عمياء؟ فالملكة والرعايا جميعاً عمي العيون وهن مع ذلك يعملن أعمالاً تعجز العقول، وجعل الله قوتهن من داخل بيوتهن ولهن قدرة أن يستخرجن الماء بحيث يستنبطن من الأكسوجين المندمج في المواد الغذائية مع الأدروجين الكامن فيها ماء، فلا احتياج إلى ماء السماء، قالوا: بدليل أنها تعيش في الصحراء والجدباء التي لا نبات فيها ولا حيوان ولا ماء ولا مطر، وتبني أماكن تعلو على الأرض نحو ٨ أمتار وتمتد أميالاً لا يقطعها إلا الديناميت. فهذه رزقت مما بين يديها فلا تحتاج إلى مطر من السماء ولا إلى أعين بها تبصر المطر.

إذن فلماذا رزق الإنسان من السماء والأرض معاً، ولماذا أعطي الأعين التي بها يبصر الإنسان السماء والأرض. عجباً أليس نفس هذا الخلق وهذا التقدير في جسم الإنسان وحواسه ورزقه دليلاً على أن هذا الإنسان خلق ليعرف العوالم كلها. وأيضاً يرى الإنسان أنه كما استفاد رزقه من السماء والأرض لن يتم ذلك إلا بمساعدة الإنسانية كلها لا سيما في هذا العصر الذي ظهرت فيه الطيارات والطرق الحديدية والكهرباء والتلغراف «البرق» والتلفون وهكذا. إذن خلق الإنسان وتركيب العالم الذي خلق فيه يوجب أن يعرف العالم الذي هو فيه وأن يحب الإنسانية كلها، وإلا فهو مذنب ظالم. فهذه حكمة قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾[يونس: ٣١] كما تقدم. هاهنا تنظر إلى جزاء هذا الإنسان، جزاؤه أن يعطى على الخير خيراً ويعطى على الشر شراً، وكما أعطي قوة بها يتناول الغذاء وينظر السماء والأرض، أعطي قوة كامنة فيه تؤنبه على التقصير وتحثه على العمل الصالح، وهذه القوة مستمدة من عوالم أخرى يعبر عنها بالجنة والنار. فهذه القوة الكامنة فيه تظهر آثارها في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

أما في الحياة الدنيا فإننا نحس بوخز الضمير وبالمذلة على جهلنا بما حولنا وعلى تقصيرنا، وهذا واضح في مواضع كثيرة من هذا التفسير. وأما فيما بعد الموت فاعجب كيف ترى في كتاب «السماء وجهنم» الذي حدثتك عنه هنا وفي مواضع أخرى من هذا التفسير، فإن مؤلفه رجل من علماء الأرواح، فتراه يقول: إن الإنسان إما أن يكون متصفاً بالعلم وبالعمل المطابق له، وإما أن يكون خالياً منهما، وإما أن يكون عمله مطابقاً لعلمه كثيراً أو قليلاً. وهذه الصور جامعة لكل أحوال الإنسان، فإن كان عالماً بالخير عاملاً بالفضيلة فإنه بعد الموت يرفع إلى الجنة ولا يسأل. وإن كان مولعاً بالشر ولا يعمل سواه أخذته الملائكة إلى جهنم بلا سؤال. فإن كان على هيئة الصورتين الأخريين بحيث يعلم ولا يعمل. وبعبارة أخرى: تكون أقواله وظواهره خلاف باطنه فينطق بالحكمة ويضمر الشر، فهذا يمتحن ويبقى في عالم البرزخ مدة حتى تعرف أخلاقه، وهناك تطلق له الحرية في الكلام فتغلب عليه الحقائق التي في نفسه فيتكلم أولاً قليلاً بما في باطنه ثم يزداد تكلمه بحقائق نفسه قليلاً قليلاً تدريجاً بحيث يكون ذلك كالمجنون المتقطع في الدنيا. فمن الأحوال التي هي أشبه بالجنون يبين كل ما في نفسه ومتى أفاق ندم وحزن وعجب كيف يفضح نفسه، وهكذا تزيد حاله حتى يعرف باطنه تماماً. وحينئذ يحكم عليه المفتشون من الملائكة الذين يمتحنونه، ومتى تم الامتحان جعلوه فيما غلب عليه إما في جنة إن غلبت على قلبه الفضائل، أو في نار إن غلبت عليه الشرور. والامتحان يكون من دقيقة إلى شهر إلى سنة إلى ثلاث سنين إلى ثلاثين سنة. ويقول: إنه لا روح هناك يزيد امتحانها عن ثلاثين سنة، وطول الامتحان راجع إلى الخبث المستكن في النفس، فعلى مقدار المكابرة والكتمان تبقى الروح بعيداً عن الجنة والنار. هذا ما يقوله ذلك العالم الروحاني، ومدار الكتاب كله على ذلك. ويقول في صفحة ٢٧٦ ما نصه:

إن أعمال الإنسان متى كشفت له بعد موته فإن الملائكة التي أعطيت وظيفة التفتيش تنظر إلى وجهه وتفتشه وتفتش جميع جسده، وتجد الأعمال مرسومة على جميع الجسد وأوائلها مرسومة على الدماغ. قال: وهناك يظهر كل شيء في ذاكرة الإنسان، وليس المرسوم هناك الأمور العامة فقط، بل

الأمور الخاصة أيضاً، فكل فكرة وكل حكمة تسطر في دماغ الإنسان وعلى جسده. انتهى ما أردت تلخيصه من هذا الكتاب.

فقال صاحبي: وهل كلام هذا الروحاني الإفرنجي منطبق على ديننا؟ فقلت: إنه معجزة للقرآن أرسلها الله في آخر الزمان. يقول الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: ٣٧]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، فالله عز وجل يرينا الآيات في كل شيء. قال: وما الآيات هنا؟ قلت: انظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾[يونس: ٣١]، فانظر كيف عاتب على عدم التبصر في النظر وفي العمل في الدنيا وفي الآخرة. أما في الدنيا فإنه يقول: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦]، وقال في الثواب: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٧]. فهاهو ذا كتاب الله أرانا أن عذاب الناس في الدنيا راجع لجهلهم وتقصيرهم، وهذا العذاب الدنيوي يحس به المسلمون ويحس به الفرنجة وأهل الأرض اليوم قاطبة، لأن أهل الأرض الغالب والمغلوب كلهم جهلاء بالحقائق، وعلى قدر الجهل هم جميعاً معذبون عذاباً دنيوياً. ثم انظر إلى الإنسان بعد الموت فهذا علم الأرواح يحدثنا بما جاء به القرآن. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[الأنعام: ٩٣-٩٤] إلى قوله: ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[الأنعام: ٩٤].

فانظر أليس معنى هذا أن العذاب كما يقع في الدنيا يقع بعد الموت مباشرة، والملائكة هم الذين يتولون هذا العذاب الذي قاله ذلك العالم الروحاني الأوروبي. ثم إن هذا الإنجليزي الذي قتل زوجته قد وقعت له حال نادرة فأقر بقتلها لما وصل إلى المكان الذي رآها فيه أول مرة وأحبها، فانتقل إلى عالم الروح ونسي الجسد كما يحصل بعد الموت، إذ يظهر الإنسان خفاياه شيئاً فشيئاً، وإذا فطن بعد الإظهار ينكر ما قاله ويعجب كيف جن بهذه الدرجة. فهكذا هذا الإنجليزي القاتل لزوجته بعد ما أقر أمام الشرطة رجع وقال: أنا لم أقتل، وذلك كما يحصل بعد الموت في أول الأمر، إذ ينكر الإنسان بعد الإقرار ثم يتزايد الأمر وبعد ذلك يتحد الظاهر مع الباطن.

إذن ضمائرنا في هذه الحياة مملوءة بالآراء المخزونة فيها، وقد ختمت بخاتم وطبع على القلوب حتى يأتي يوم تظهر فيه الحقائق، وهذا نفسه قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[القيامة: ١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾[النور: ٢٤-٢٥] الخ.

الله أكبر. إذن هذه العلوم الروحانية أصبحت في هذا الزمان تفسيراً للقرآن. إذن هذا هو الزمان الذي أخبر به القرآن إذ قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[فصلت: ٥٣] الخ، وقال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ [الأنبياء: ٣٧] الخ. وإذا قال قائل من الفرنجة ومن المسلمين: إن هذا القول من هذا الإفرنجي خرافة. نقول له: انظر بعقلك هذه الهندسة والنظام فكيف يرزق الإنسان من السماء والأرض، وكيف يعطى العقل والحكمة؟ فهل هذا الصانع للعالم يتقن الحشرة وحواسها ويجعل كل حاسة محكمة، ثم هو يجعل رزق الأرضة على النهج المتقدم وحواسها ورزق الإنسان على ما ذكرناه من السماء والأرض، وهكذا حواسه أقدر وأجدر، ولا تكون هناك نتائج لهما على مقدار حالهما. إذن الإنسان تحيط به عوامل وفي داخله غرائز كلها متحدات على أنه ملزم أن يرقى رقياً متواصلاً، وأن تقصيره يرديه ويهلكه في كل مرحلة من مراحل حياته. هذا ما فتح الله به يوم الأربعاء ٢٣ يناير سنة ١٩٢٩م. والحمد لله رب العالمين.

المقال الذي ألقيته على مسامع ذلك الطالب

فقال: لقد قرت عيني بما سمعت منك في أمر الجنة والنار عقلاً ونقلاً، ولكني لا أزال أطلب الإفاضة في أمر الله سبحانه وتعالى. فأنت قلت في أول الحديث: إن الله عز وجل ثابت وحق، واستدللت بأن القضايا ثابتة مثل القضايا الهندسية مثلاً. وأيضاً قلت لي: إن الإنسان والأرض التي هو عليها عالم ضئيل. كل هذا حسن، ولكن لماذا يعاودني الفكر في كل حين للبحث؟ ولماذا أجد عقلي لا يقف عند حد ولا عند ما سمعته منك؟ فقلت: إن هذا رسول من الله تعالى لقلبك أن يستمر في البحث حتى يقتنع. قال: ولكن ليس عندي اقتناع للآن. فقلت: فاسمع إذن. لقد علمت كما قدمنا في سورة «النور» عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الآية: ٣٥]، في مسألة قطرة الماء التي وجد العلماء أنها تحوي من الذرات عدد ٥ على يمينه ٢٠ صفراً تقريباً، وأن هذه الذرات متباعدات جداً، ويكون مكان الذرات خالياً فبينها أبعاد كأبعاد ما بين الشمس والأرض، أي بالنسبة لأحجامها، وقد تقدم هذا هناك، وأن هذه الأعداد تقرب من أعداد كواكب السماء التي عدت بقدر ٢ على يمينه ٢٤ صفراً. إن هذا العالم كله يرجع للجواهر الفردة، والجواهر الفردة ترجع لأنوار كهربائية فما هي إلا ذرات ضوئية تدور متهن واحدة حول الأخرى كما تدور السيارات حول الشمس، والذرة الضوئية الدائرة يسمونها كهربائية سالبة، والذرة الضوئية الثابتة يسمونها موجبة، وهذه الدائرة تجري في الثانية ٦ ملايين مرة حول الثابتة. وباختلاف مقادير هذه الذرات مع اختلاف مقادير الحركات في الثانية تختلف العناصر المركبات منها، وهذه العناصر بينها نسب عجيبة ستراها في سورة «العنكبوت» قريباً. وهذه العناصر منها هذه المركبات من شموس وسيارات وأرضين وأقمار وإنسان وحيوان ونبات ومعادن، فكل ما نشاهده حولنا ويحيط بنا يرجع لأنوار تجري في أماكن خاليات، وكأننا نعيش في خيال، وكأن الوجود الحقيقي ما هو إلا موجود لا نراه، لأن ما نراه ظهر لنا من كلام علماء المادة أنفسهم أنه لا معنى لوجوده بل هو نقط ضوئية في أماكن خاوية خالية، وما هو الضوء؟ الضوء ليس شيئاً سوى حركات في شيء سموه «الأثير»، وما هو الأثير؟ هو عالم عرفه الناس بعقولهم لا غير. أما حواسهم فإنها لم تقدر على تصوره.

إذن إجماع علماء العصر الحاضر أظهر أن كل ما نراه ونسمعه ونشمه ونذوقه ونلمسه ، إن هو إلا حركات لعالم لا ندركه ، وأن أسباب هذه الحركات وراء عقولنا . إذن الموجود الحقيقي غير ما أدركناه بحواسنا . إذن هناك وجود حقيقي أورث وجوداً ظاهرياً وهو الموجود الحقيقي . وهنا نقول : أيهما هو الأصل ، العدم أم الوجود؟ فقال : العدم هو الأصل . فقلت : الناس اعتبروا التفريق عدماً ، فإذا رأوا إنساناً مات وتفرقت أجزاؤه أو رأوا حيواناً هلك وأكله غيره سموه معدوماً ، وما هو بمعدوم ، بل هو مفرق الأجزاء والأجزاء موجودة لا معدومة . وإذا كنا على حسب اصطلاح الناس بمقتضى حواسهم قد حكمنا بخطئهم في عدهم ما تفرقت أجزاؤه معدوماً فليكن كذلك حكمنا على حكمهم على الموجود الحقيقي الذي هو السبب في الوجود الظاهري المجازي . فإذا أخطؤوا في قولهم : إن الميت معدوم ، وجوابه أن يقولوا : مفرق الأجزاء ، فقد أخطؤوا في حكمهم على الموجود الحقيقي بأن وجوده من الأزل يحتاج إلى البرهان لأن العدم هو الأصل . فقال : نحن إذا حكمنا بخطأ الناس في قولهم عدم الميت لا نحكم بخطئهم في قولهم وجد الإنسان بعد العدم فإنه كان معدوماً ، فإذا حكموا بأن الأصل هو العدم فقد حكموا بما يشاهدونه ، فإذا قالوا : إن الموجود الحقيقي الأصل فيه هو العدم والوجود يحوجه دليل فهم على حق . فقلت : هذا الظن أيضاً منهم خطأ ، فإن الذي وجد بعد العدم كالإنسان وكالحيوان وكالكواكب وكالشموس فهؤلاء جميعاً كانوا موجودين ، وإنّما الأجزاء كانت متفرقة فاجتمعت . فأجزاء الطفل التي نراها كانت موجودة قبل وجوده ، فهذا اجتماع فقط بعد التفرق . فقضية أن العدم سابق على الوجود ناشئة من اشتباه الناس في الأمر ، يظنون اجتماع الأجزاء وجوداً وتفرقها عدماً . والوجود والعدم راجعان للأوصاف والأوصاف أعراض . فقال : إذن أنت تحكم أن العدم لا يسبق الوجود . فقلت : نعم . فقال : وماذا تقول في أن العالم حادث . إذن في رأيك هو قديم . قلت له : لقد نسيت ما قلناه في هذا المقال . ألم أقل لك إن التحقيق في عصرنا الحاضر أنه لا عالم موجود ، وإنّما هذا العالم عبارة عن صفات لعالم يسمى الأثير إذ هو نور . وما النور إلا حركات في الأثير ، فالعالم حركات لا غير . إذن العالم وجوده تبع لغيره وهو الموجود الذي عرفناه بعقولنا ، فرجع الأمر إلى مذهب أفلاطون القائل بعالم المثال ، أو هو الذي يسمى اليوم « عالم الأثير » وهو يقول : إن كل ما هو حاصل الآن في عالمنا ما هو إلا ضرب أمثال لعالم المثال . اقرأ جمهوريته فإن هذا واضح فيها . فقال : إذا لم يكن العالم له وجود فكيف تقول إن النبات أو الحيوان كانت أجزاؤه موجودة قبل وجوده هو . فقلت : ذلك باعتبار مرتبة الحواس ، ومرتبة الحواس مرتبة غير حقيقية ، فهذا التعبير راجع للوجود المجازي كما قدمته لك . فقال : إذن أنت ترى أن العالم اليوم وجوده باعتبار آراء علماء العصر الحاضر راجع لحركات لعالم لا نراه . فقلت : نعم والموجود الذي لا نراه الأصل فيه الوجود لا العدم ، لأنه دليل على عدمه ، فإذا كان موجوداً من الأزل فهذا هو الأصل . قال : ولكن أنت قلت : إن العالم حركات لعالم لا نراه . إذن الله متحرك ، وهذا كفر . فقلت : الله لا يتحرك وإنّما هو خالق للحركة في الأثير . فقال : إذن الأثير عالم قديم . قلت : هنا يقف عقلي فعقلي لا يدري ذلك العالم ، وإذا كان ذلك الأمر موجوداً فلا أدري كيف يوجد وكيف هو؟ وأنا لا أتعدى طوري ولكن أقول الذي ثبت من أقوال علماء عصرنا الحاضر إن عالمنا لا وجود له باستقلال ، والأثير الذي قالوه أنا لا أعرفه ولا هم

يعرفونه، فلنرجع إلى نفوسنا ولنشهد عليها بالعجز، العجز عن الإدراك إدراك، لا يعرف الله إلا الله، فالأولى أن نعبر بعجزنا. قال: فاضرب لي مثلاً إذ عجزت عن الحقيقة. فقلت: نعم. أضرب لك مثلاً لله في خلقه بنا، فلقد ضرب الله مثلاً لنوره بالقنديل والمشكاة. اعلم أن الإنسان منا في كل وقت يتصور صوراً بحيث يخيل له السماء والأرض والشموس والأقمار. قال: نعم وهذا خيال. قلت: نعم. هو خيال، ولكن أهذا الخيال موجود؟ قال: كلا. قلت: بل هو موجود. ألم يكن للخيال نتيجة في الظاهر؟ أليس كل ما نفعله لا نتحرك له إلا بعد الصور التي أبرزتها نفوسنا في خيالنا؟ قال: بلى. قلت: وهذه الصور على مقتضاها نعمل فنبني بيوتنا ونتقن صناعاتنا. قال: نعم. قلت: فهل المعدوم ينتج الوجود. قال: لا. قلت: إذن هذه صور موجودة، ولكن وجودها ضعيف لسرعة زوالها. قال: إي وربي إنه لحق. قلت: إذن ثبت لك بالبرهان أن الخيال صور لها وجود بدليل ظهور آثارها. قال: نعم. ولكن قد حكمت بأن عالمنا لا وجود له. قلت: نحن الآن في الوجود المجازي فلا تخلط أحدهما بالآخر. إذن فلنجعل نفوسنا مع خيالها ضرب مثل، وضرب الأمثال جائز شرعاً وعقلاً، ونقول: إن هذا العالم هو نفحة من نفحات الله تعالى وقبسة من نوره، فنسبتها إليه تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل: ٦٠] كنسبة خيالنا إلى نفوسنا. فإذا كانت نفوسنا الضئيلة أمكنها أن تحدث صوراً ثبت بالبرهان أن لها نوعاً من الوجود المجازي، وهي إنما ضعفت لضعف سببها القريب في نفوسنا. فهكذا تكون نسبة العالم إلى الله تعالى، فإذا قدرت نفوسنا على صور خيالية لا تراها حواسنا، فالله لعظمته وحكمته التامة يخلق صوراً عظيمة تراها حواسنا وتعظم عندها، فضعف خيالنا نسبته إلى قوة صور السماوات والأرض كنسبة ضعف نفوسنا إلى عظمة الله خالقنا، وهذا المثال ينتج لنا أن العالم موجود وجوداً مجازياً وأنه مستمد من الله كل حين، وأنه إذا تركه الله لحظة لم يبق له وجود. كما أن صورنا الخيالية إذا غفلنا عنها طرفة عين لم يبق لها وجود. إذن العالم العلوي والسفلي والجنان والنيران عوالم لا استقلال لها وهي بيد الله، فنحن الآن موجودون وجوداً كوجود الخيال للمتخيل. وهذا يوضح لنا قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، لأن من تصور صورة وأخذته سنة أو نوم ذهبت تلك الصورة، ويوضح لنا أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾[فاطر: ٤١]، أي: كما أننا نتخيل صوراً خيالية لا وجود لها إلا باستحضارنا، فإذا تركنا هذه الصور أو غفلنا عنها فلا ممسك لها بعدنا. وهذا التمثيل جائز كما مثل الله لنوره بالمشكاة والمصباح كما سبق. ويفسر لنا هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾[المجادلة: ٧]، ويفسر لنا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[الأنعام: ٣]، ويفسر لنا ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[النمل: ٧٥]. إذن العلم الحديث وفق ما بين المذاهب كلها وأصبحت الفلسفة والتصوف وعلم الطبيعة كلها علماً واحداً. فنحن الآن موجودون في وجود مجازي، وهذا الوجود المجازي نحن فيه مأمورون بالجد ولا نصل إلى الوجود الحقيقي إلا إذا نصبنا وتعبنا وحصلنا كل علم وكل فن واتحدنا وسخرنا كل ما أمامنا من الوجود المجازي وأصبحت الأمم إخواناً فاتحدوا ولو اتحاداً مجازياً، هنالك يرجعون إلى ربهم ويشاهدونه، وما داموا ناقصين

يحبسون في هذا الوجود المجازي ويعذبون ويذلون وهم في جهنم خالدون، وجهنم في قبضته والنار في قبضته وهو لا ينام ولا يغفل. هذا ما فتح الله به يوم السبت ٢٦ يناير سنة ١٩٢٩م.

هذا وسأتبع هذا المقام إيضاحاً في آخر سورة «النمل» عند قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[النمل: ٩٣]، فهناك سأذكر مسألتين: الأولى: تاريخ الفلسفة الذي اعتاد الناس في زماننا أن يدرسوه. أي إني أذكر النموذج الذي كتبه الأستاذ «ستلانة التلياني» في كتاب «تاريخ الفلسفة» وأبين فيه مذهب أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس، وكيف كان سقراط يرى أن العلم لا يتم إلا بالتحديد والتعريف، وأن السعادة للإنسان لا تتم إلا بالعلم، وأن الشقاوة لا تكون إلا بالجهل. إذن لا بد من العلم الصحيح، والعلم الصحيح بشدة العناية بالتعاريف. ثم أذكر أن أفلاطون تلميذه قال: لا يعقل العلم إلا بأمر ثابت، والحدود والتعاريف لا ثبات لها في ذواتها. فهناك قال: لا بد من عالم يسمى عالم المثال فيه جميع صور الموجودات، وعالمنا أنشئ على منوال ذلك العالم، وحينئذ يمكننا أن نفهم كيف ثبت العلم لأنا وجدنا له شيئاً ثبت فيه. ثم نذكر مذهب «أرسطاطاليس» بعد «أفلاطون» واعتراضه على مذهب أستاذه، وأن ذلك العالم المثالي لا يصح أن يكون مخلاً للعلم لأنه لا وجود له، ولكن الذي يركن إليه ويستند العلم عليه هي الصورة القائمة بالمادة كصورة الكرسي والمنزل والشجرة والحيوان، فهذه الصور هي المحل الثابت للعلم، وأبين بعد ذلك كيف كان هذا الرأي أدخل في الضعف والعسف من سابقه، ثم أذكر الحقيقة واضحة إن شاء الله بالعقل ثم أعرض عليها المذاهب بحيث يكون الرأي السائد في زماننا ثابتاً على قرار مكين من العقل في هذا الزمان.

هذا ما سأذكره في المسألة الأولى هناك إن شاء الله. المسألة الثانية: تقسيم العلوم المعروفة في القرون الوسطى بحيث تمت إلى العلوم المستحدثة بسبب، وهناك يكون أمام الأذكياء صفحة من العلم تبدو ظاهرة تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، فهذا العلم مما في أنفسنا وقد أبرزه الله في زماننا وأدخلناه في تفسير الآية. والله هو الولي الحميد. انتهى.

اللطيفة التاسعة: في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾

لقد علمت فيما سبق من هذا التفسير أن الكواكب التي تبلغ مئات الملايين لها فيما يفطن له البشر ويظهر في العلوم سيارات حولها، والسيارات لها أقمار كما هي حال شمسنا وسياراتها وأقمارها، وأن هذه الشموس العظيمة التي هي أعظم من شمسنا كانت قديماً عبارة عن غمام طائر في الجو يعبرون عنه بالسديم، جمعه سدم. وأن هذه الشموس يوماً ما سترجع إلى سيرتها الأولى، أي أنها تهدم وتحلل وترجع في الجو كما كانت، وتخلق بعد الملايين من السنين خلقاً جديداً وتتكون بهيئة كواكب جديدة يخلق الله فيها خلقاً جديداً.

ولقد سبق في بعض السور السابقة دليل العلماء على ذلك أنهم شاهدوا في هذا العصر ستين ألف كوكب تتخلق من جديد فبعضها قارب أن يتم تكوينه وبعضها مبتدأ في تكوينه وبعضها بين بين، وكلها تجهز لتكون عوالم كما نرى عالم شمسنا وسياراتها وأقمارها. فهذا هو الذي دل العلماء على أن هذه الشمس وما حولها كانت قديماً عبارة عن غمام طائر دائر كما يرون ذلك اليوم.

ولقد ذكرت ذلك في سورة «إبراهيم» عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[الآية: ٤٣]، وكذلك في سورة «الأنبياء» عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[الآية: ٣٠]، فهكذا هنا يقول الله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾[الفرقان: ٢٥]، أي أن شمسنا وكواكبها وبعض الشموس الأخرى وسياراتها تصبح أشبه بالغمام لأنها صارت ناراً متفرقة في الجو، والسماء هي الذي نشاهده من هذه العوالم اللطيفة التي تنتهي باللون الأزرق الذي نشاهده. ومستحيل أن يكون اللون إلا في المتلوّن، والمتلون هو هذا العالم المسمى بالأثير الذي شرحناه في سورة «البقرة»، وقلنا: إن من ينكر السماء فإنّما هو جاهل يجهل علوم المتقدمين وعلوم المتأخرين، فإن المتقدمين والمتأخرين جميعاً ينكرون وجود الخلاء، بل هم جميعاً يقولون: إن الفضاء مستحيل بل هو مملوء بما يسمى الأثير، وهو الذي يحمل ضوء الكواكب إلينا، فارجع إليه هناك تر براهين القدماء والمحدثين عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[فصلت: ١١] الخ.

فانظر وتعجب كيف سماها دخاناً وغماماً وقال: إنهما كانتا رتقاً ففتقهما، وكل ذلك دائر على هذا المعنى، فتعجب من القرآن وحكمه وعجائبه، وانظر كيف يقول هنا: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ۝ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[الفرقان: ٢٥-٢٦] الخ.

اللطيفة العاشرة: في قوله تعالى:
﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الخ

هذه الآية مقابلة للآية المتقدمة في اللطيفة السابعة، إذ جعل هناك سبحانه الناس بعضهم لبعض فتنة وأن العدو فتنة وامتحان لعدوه، فأما هنا فإنه يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان: ٢٧-٢٨]، وهذا القول ينطق به الشاعر العربي إذ يقول:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما يكون ... تراه من الطعام أو الشراب

وفي المثل: «عدو عاقل خير من صديق جاهل». واعلم أن الإنسان إذا كانت فتنته بعدوه عظيمة فهي بصديقه أعظم، وترى الناس مولعين بالأصدقاء جادين في مرضاتهم فيقعون في التهلكة، والأصحاب هم الذين بهم يتشبه الإنسان في عاداته وأخلاقه وأحواله وأعماله وطباعه، فالأصحاب هم جنة الإنسان وناره. ولا ترى لصاً ولا زانياً ولا فاسقاً إلا وهو متشبه بصاحب له أو صديق قد تخلق بأخلاقه وسار على منواله. وترى الأصحاب إذا وقعت الواقعة وظهرت الحقائق يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً كاللصوص والقتلة وما أشبه ذلك فكل هؤلاء يصبحون أعداء متى وقعوا في الضيق، وهذا قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

الصداقة على أربعة أقسام: صداقة تأتي سريعاً وتذهب سريعاً وهي التي سببها الشهوات، فإن الشهوة سريعة الاتقاد، فإذا ما انقضى أمرها ذهبت حرارتها وانطفأت، فلا صداقة إذن، كما نراه في الزناة والسراق وقطاع الطرق. وصداقة تأتي سريعاً وتذهب بطيئاً وهي الصداقة العقلية، فإنك تحب

العالم أول ما يعجبك قوله. ولا تذهب الصداقة إلا بعد وقت طويل وأسباب كثيرة. وصداقة تأتي بطيئاً وتذهب سريعاً كالصداقة مع التجار فإن الإنسان لا يثق إلا بعد معاملة واختبار، ولكن متى ظهر الغش حصل التنافر سريعاً. وصداقة تأتي بطيئاً وتذهب بطيئاً كالصداقة المركبة أسبابها من أشياء مختلفة، فإنها تأتي ببطء وتذهب ببطء، فإذا أحب امرأة لأمور كثيرة كالجاه والمال والجمال وكان لكل واحد من ذلك حظ من الحب فلن يذهب الحب إلا بطيئاً.

فتبين من ذلك أن صداقة الشهوة تذهب، وأن الغش متى ظهر بين الأصدقاء فرقهم، وذلك كله في الدنيا، وأحوال الآخرة تضارع أحوال الدنيا في أمور كثيرة. وعلى ذلك ترى الناس يتبع بعضهم بعضاً في الأخلاق والأعمال، وإذا ماتوا وعرفوا الحقائق أصبحوا كاللصوص إذا وقفوا أمام القضاة في الدنيا، فإن كلاًّ يجعل الذنب على صاحبه فيصبح الأخلاء أعداء. أما المخلصون الصادقون فلا ذنب ولا لوم، فيقول الظالم الذي ظلم نفسه بترك التعقل واتباع صاحبه: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾[الفرقان: ٢٧-٢٨]. وهذه الحال كحال الرؤساء والمرؤوسين التي مرت في سورة «البقرة»: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[الآية: ١٦٦]، فهاهنا يقول الله تعالى: إن الصداقة تنقلب شقاوة وحزناً وأسفاً كما تنقلب اللذات آلاماً. وترى الإنسان إذا مات اتقدت في قلبه نيران الحسرات على فوات الشهوات التي اعتاد عليها، فانقلبت الشهوات آلاماً، هكذا هنا انقلبت المودات والمحبات شقوة وحسرة وندامة لأنها ضلال، والضلال يتبعه الخسران والهلاك، فلا رؤساء يوم القيامة بنافعين ولا أصدقاء بشافعين بل كل مسؤول عن نفسه.

ضعف السياسة في الأمة الإسلامية اليوم

واعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[الفرقان: ٢٧] الخ هي الحاصلة اليوم، فإن لم يكن بلفظها فبمعناها. وبيانه: أن أمم أوروبا أصبحت عريقة في اصطناع السلاح والكراع والأعمال الحربية، وأضافت إلى ذلك قوة دهائها ومكرها وخداعها، فلما رأت أمم الإسلام نائمة جاهلة استعملوا الصداقة خير سلاح لهم. فترسل الدولة سفيرها إلى الأمير المسلم فيوحي إليه أن قائد جيشك خائن وترسل رجلاً آخر إلى القائد فيفهمه أن أميرك خائن، ولا يزال الفريقان يجدان ويحتالان حتى يفرقا بينهما، ثم تتدخل الدولة الأجنبية بالسلاح وتحتل البلاد، فإذا تم الأمر ظهر الحق، وعلم الأمير والقائد أنهما كانا مخدوعين، فيعض الظالم أي الأمير والقائد على يديه ويقول: يا ليتني تعقلت ونظرت في الأمر بدقة يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً الفرنجي خليلاً.

حكاية

لقد جاء في الجرائد المصرية أن الأمير عبد الكريم ببلاد المغرب الذي يحارب الأسبان قد سلط الأسبان عليه رجلاً من أمته يسمى الرسولي، له شوكة وقوة، فقام الأمير عبد الكريم على الرسولي وحاربه وغلبه وأسره فوقف وزير الأسبان في قومه خطيباً، وقال: نحن لا يهمنا الرسول ولا هو له قيمة عندنا، فسواء خذل أم نصر فلا نبالي. هذا كلام الوزير الأسباني فكأنما لما كان قوياً انتفع به، فلما

سقط في حومة الوغى خذله ولم يبال به، وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[الفرقان: ٢٩]، فهذا نوع الخذلان، وهذا المثل يكفيك فقد ساقه الله لنفسر به هذه الآية، والله هو الولي الحميد.

ولكن بعد ذلك سلم الأمير عبد الكريم نفسه لفرنسا لما عرف أن قومه قد أحيط بهم من كل جانب. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

اللطيفة الحادية عشرة: في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

ومعنى هجره تركه والصد عنه، وجاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به ويقول يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه». هذا ما ذكره علماء التفسير رحمهم الله.

ومن معاني الهجر: اللغو فيه إذا سمعوه أو زعموه أنه هجر وأساطير الأولين، فيكون أصله مهجوراً فيه والمعنى الأول أليق بحال المسلمين اليوم، وما بعده أليق بحال الكفار. والمهم اليوم أن أحدثك أيها الذكي في حال المسلمين وكيف هجروا القرآن. واعلم أن المصحف قد شكا فعلاً إلى الله، وقد تعلق بالمسلم وشكا إلى ربه وقال: اقض بيني وبينه، وبالفعل قد قضى الله بين المصحف والمسلمين وعجل العذاب لكثير من الأمم الإسلامية، هذا هو العذاب المعجل. سلط الفرنجة علينا وأخرنا في مصاف الأمم، وسيكون هذا من أسباب عذابنا في الآخرة وتأخرنا هناك عن دخول الجنة، لأن المسلم اليوم محروم من القيام بشعائر دينه على الوجه الأكمل. محروم من التفكير. محروم من العلم. وذلك لأنه لم يعقل ما في المصحف وزاد الطين بلة دخول أهل أوروبا في بلاد الإسلام واستيلاؤهم على الأوقاف وعلى الأمور الدينية فضعف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا عقاب معجل قبل المؤجل.

إن الأنبياء إذا شكوا أممهم إلى ربهم عاقبهم، وهذه شكوى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا أولاً أهل مكة فعوقبوا بغزوة بدر وأسلم أبناؤهم وانتهى الأمر، وشكانا نحن وإهمالنا التفكر في معاني المصحف. ولأذكر لك مسألتين اثنتين مما أهمله المسلمون قبل إيضاح المقام فأقول: لماذا لا ينظر المسلمون في أول سورة نزلت. إن أول سورة نزلت: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾[العلق: ١-١٢] الخ.

أفلم ينظر المسلمون إلى الابتداء كيف كان. ألم تكن أول كلمة بعد البسملة: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، فكأن أول مطلوب لنبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم ولأمته القراءة. وبماذا يقرأ؟ يقرأ باسم الرب، والرب فيه معنى التربية المذكورة في أول «الفاتحة»، ثم أوضح التربية فابتدأها بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾، فالخلق كلهم في تربية الله تعالى، والخلق إما بمعنى التقدير وإما بمعنى الإيجاد، وهذا يعم سائر المخلوقين من ملك وإنس وجن وسماوات وأرضين، ثم خصص فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾، وخلق الإنسان

نتيجة عوالم تقدمته، أي: نتيجة عوالم الشمس والقمر والأرض والسيارات والنبات والحيوان والماء والأرض والجبال والأنهار. كل ذلك مقدمات لخلق الإنسان. والتعبير بـ «علق» إشارة إلى ما ذكرنا في هذا التفسير من سلسلة الحيوانات الممتدة من أدنى مخلوق حي إلى الإنسان، وإلى الكشف الذي أظهر أن أصل الجنين علقة صغيرة جداً. وقد تقدم إيضاحها وإيضاح تكوين الجنين وعلاقته بسلسلة الحيوانات وأن علم الجنين من العلوم الطبيعية العجيبة التي حض الله عليها، فقال سبحانه: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، والنظر في النفس يتقدمه النظر في الجسم، والنظر في جسم الإنسان وهو العلم العجيب والحكمة البديعة والآية الربانية والحكمة الصمدانية. إن جسم الإنسان هو لوحه المقروء وآياته البينات، فإذا عاش المسلمون وماتوا ولقوا ربهم وهم عمي عن أجسامهم جهلاء بربهم فكيف يلقونه وقد أنزل عليهم أول ما أنزل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[العلق: ١-٢]، وذلك يجر إلى العلوم الطبيعية كلها. علوم الطبيعة التي يقرؤها أهل أوروبا كلهم في المدارس التجهيزية، والمسلمون نائمون. علوم الطبيعة التي أنشأها الله بيده ونظمها بحكمته وألقاها لنا كتاباً مقروءاً وأنزل كتابه اللفظي مصداقاً لكتابه العلمي.

يا عجباً للمسلمين كيف يكون أول ما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم طلب القراءة وفهم التربية والبحث في الخلائق كلها والبحث في الإنسان ثم يعقب ذلك بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[العلق: ٣-٤]، فالله كريم لأنه خلق الخلق ورباه، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار: ٦-٨]، ولكنه أكرم لأنه ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[العلق: ٤]، فكرم الله عام الإنسان والحيوان، فنعمة الشمس والقمر والنبات والحيوان وتسوية خلقنا ونظامنا؛ كل ذلك منه كرم ولكن الكرم الدائم هو نعمة العلم، والحكمة غذاء للأرواح، وغذاء الأرواح أبقى من غذاء الأجسام، والعلوم والمعارف عبارة عن جنات وأعناب وفواكه مما نشتهي وفوق كل لذة في عالم الأجسام، فبقاء العلوم بقاء الأرواح في هناء، وبكثرتها قربنا من الله، وهذا هو مقصود قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ٣-٥]، فخلقه للعالم كرم، ولكن القراءة والكتابة والعلم من الله زيادة في الكرم، فالمسلمون اليوم رضوا من الله بكرمه، ولكنهم أبوا أن يتقبلوا زيادة الكرم، وزيادة الكرم بالعلوم، فقوله: ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ إشارة إلى أن القراءة والكتابة ينبغي أن تعلم، وقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ إشارة إلى تعميم العلوم، فإذا كان أهل أوروبا يعلمون أبناءهم جميعاً تعليماً إجبارياً إلى سن ١٤ سنة فالمسلمون أولى بهذه المكرمة وأحق بهذه النعمة وأولى بهذه المنة. وكيف نام المسلمون آماداً طويلة وكيف نسوا القرآن وهجروه وكيف ظنوا أن القرآن أغفل العلوم.

القرآن وتقصير المسلمين فيه

اعلم أن المسلمين في غابر الأزمان أيام الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم نظروا في أحوال العصر الذي هم فيه، فوجدوا الأرض يعوزها العدل والأخلاق والسيرة الحسنة، فنظموا الدول وأقاموا الممالك وثبتوا العدل وبثوا حسن المعاملة بين الناس بقدر إمكانهم، ففتحوا باب الحرية في الديانات ونظموا الأمم وفعلوا ما أمكنهم فعله، فنشط علماؤهم للتأليف وحكماؤهم للتدوين، وقام الأئمة

رضوان الله عليهم للتصنيف والتأليف، وكان هناك مذاهب ومذاهب في الأحكام الشرعية والعلوم الفقهية، وساروا شوطاً بعيداً في العدل، إلى أن انقرضت الدول العربية وجاءت الحروب الصليبية. في أثناء ذلك فرت الحرية من الشرق إلى الغرب، واستيقظت أوروبا من مرقدها وهذبت تعاليم المسلمين الدين المسيحي، فرجعوا إلى عقولهم ونظموا مدنهم وانتقل العلم من الشرق إلى الغرب، وهنا رجعوا إلى الطبيعة وقرؤوها والمسلمون في انحطاط.

كانت في العصور الأولى دولتان: فارس والروم، وقد دالت الدولتان وانحلتا وحل الإسلام محلهما، وأظهر العدل ونام الناس في عدالته وأمنوا. فالقرآن إذن أقام العدل الذي وجده بعد أن أراد أن ينقض.

أقام الإسلام جدار العدل الذي أراد أن ينقض في الدولتين العظيمتين فارس والروم. أقامه وقضى أمداً طويلاً وفتح باب الحرية كما قلنا، فاستيقظت الأمم الشرقية والغربية فقرأت العلوم. فعلى الإسلام اليوم بعد تأليف هذا التفسير أن يقوم بسطوته ويهذب الأمم ويعلمها العلوم الطبيعية. فكما أقام العدل أيام الصحابة والتابعين فليقم الإسلام العلم اليوم. فإذا قرأ العلوم أهل أوروبا على أنها واجبات، فليقرأها المسلم اليوم على أنها قربى إلى الله، وليكن عدل المسلمين في العصور الأولى نبراساً لهم في العلم اليوم. إن الإسلام مهذب للأمم، هذبهم في إقامة العدل سابقاً فليهذبهم اليوم في إقامة العلوم، وليقم المسلمون بما عليهم ولتقم أمة العرب قبل الأمم بالحكمة، ولتدرس الوجود حباً في ربها وأنساً بخالقها وقربى إلى الله.

ألا ليقم المسلمون بما عليهم وليسمعوا قول الله: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣-٥]، فقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ كلام عام يقتضي البحث والتنقيب وترقية العقول بالعلوم، ثم أتبعه بقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق: ٦-١٠].

فانظر كيف ذكر الصلاة بعد أن شرح العلوم. انظروا أيها المسلمون كيف جعل الإسلام مؤخراً عن الإيمان، لم يذكر الصلاة إلا بعد ما استوفى العلوم، سيقول جاهل: وما هذا التقديم والتأخير؟ أقول: إنه لم يمل هذا القول إلا الجهالة الكتعاء. وإذا كنا نرى الأئمة رضوان الله عليهم يذكرون في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] أن ما قدمه الله يقدم، وما أخره الله يؤخر، ويرجعون في ذلك إلى ما ورد في بعض الأحاديث، فأوجب بعض الأئمة كالشافعي رضي الله عنه الترتيب، فكيف صح التدقيق في غسل الأعضاء وأيها يقدم ولا يصح التدقيق هنا، وأن قراءة العلوم الطبيعية مقدمة على غيرها، وتعليم القراءة والكتابة له القدح المعلى في الإسلام على غيرهما.

إن العدول عن مثل هذا جاء من إعراض العلماء في الإسلام عن هذه المباحث. ومن عجب أن تكون هذه السورة أول ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون هذا أول ما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم ولا نفكر فيه.

سورة الفاتحة

واعلم أن هذا النظام بعينه هو الذي جاء في سورة « الفاتحة » فإنه بدأ بالحمد لله لأنه ربى العالمين لأنه خلق العالم ورباه، وهو كما قال: ﴿ خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ٢،١]، والخلق من علق ثم الترقي شيئاً فشيئاً هو معنى التربية، فكأن هذه السورة تفسر معنى التربية المذكورة في « الفاتحة » والمذكورة في هذه السورة، ولم يذكر العبادة ولا الهداية للصراط المستقيم ولا الاستعانة بالله في ذلك إلا بعد ما ذكر التربية ونظام العالم. فـ« الفاتحة » سار القول فيها على نظام يشبه نظام أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأن الله أمر بقراءة « الفاتحة » في كل صلاة لتذكرنا بأول سورة نزلت إذ أمرنا فيها بالقراءة. والقراءة منصبة على أن نعرف ما رباه الله من المخلوقات، وكما أخرت أحوال العبادات في « الفاتحة » أخرت أيضاً في سورة « اقرأ »، وملخص هذا كله تعميم التعليم.

فيا ليت شعري كيف نام المسلمون عن قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. لقد علمت أن آباءنا هذبوا الأمم بعلم الفقه وأقاموا العدل، وذلك من مائة وخمسين آية من القرآن. ونحن اليوم رأينا الأمم تقرأ العلوم كلها وتنظم دولها، فلنتم النظام الأرضي ولنقم بتعليم العلوم بنظام أشرف، وهو أن يكون ذلك تابعاً لأمر الدين، أي: يكون العلم عندنا أرقى مما عندهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: « اذكر الله عند كل حجر وشجر »، فليعمم المسلمون العلوم اليوم وليكن لهم نظام أشرف من نظام أوروبا وليقم فيها علماء يهذبون الأمم في علومها كما هذبوها في عدلها، وأن تأخير المسلمين اليوم عن الأمم في العلوم لحكمة أنهم هم المهذبون للأمم.

إن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، رحم الله به الناس في العلوم الفقهية وإقامة العدل، وسيرحمهم بالنظام العلمي الأعلى الذي سيكون على أيدي المسلمين. سيقرأ المسلمون هذا التفسير وسيعملون بوصايا القرآن في سبعمائة آية وخمسين تصريحاً وفي غيرها تلويحاً أن يقرؤوا علوم العالم كله. سيقرؤون ذلك وسيقومون بما عليهم من نظام هذه الأرض ويحققون: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

القرآن كالبحر الملح

القرآن أشبه بالبحر فيه الماء وفيه السمك وفيه الدر والمرجان وفيه مخلوقات بديعة عجيبة، وقد أخذ منه أسلافنا علم الفقه وهو بعض ما فيه، وما علم الفقه إلا كالسمك، فأما الدر والمرجان والماء الذي به حياة كل شيء فسيكون في المستقبل. إن في البحر جوهراً وإن في البحر دراً. إن في البحر ماء يكوّن بخاراً بحرارة الشمس فيرتفع للجو فيصير سحاباً ممطراً فيحيي به الأرض بعد موتها، ويكون منه الحيوان والنبات والإنسان. هذا هو البحر وهذا هو القرآن. فليفكر المسلمون بعقولهم وليستخرجن العلوم من مكانها كما استخرجت الحرارة الشمسية القطرات المائية من البحر المحيط فصارت أنهاراً فسقت كل حي. أخذ أسلافنا السمك منه وهو علم الفقه، فلنأخذ نحن منه العلوم التي بها حياة العقول كما أن ماء المطر به حياة كل حي، ولنغص على الدر والمرجان كما غاص أكابر آبائنا، ولكن بقي ذلك مدفوناً في الكتب بعيداً عن الأمة، فلينشر ذلك للملأ ولتقم الأمة بما عليها لنفسها وللأمم وليقرؤوا: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]. انتهت اللطيفة الحادية عشرة.

اللطيفة الثانية عشرة: في قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

قد تقدم شرحها في اللطيفة السابعة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[الآية: ٢٠].

اللطيفة الثالثة عشرة: في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ الخ

اعلم أن الناس أشجار مقلوبة، فرؤوسنا مرفوعة إلى أعلى نتعاطى بها الطعام والشراب، ورؤوس النبات إلى أسفل، ورؤوس الحيوان متجهة إلى الجهات الأربعة، وإنما كنا على هذا النمط لأن النبات لا حظ له من الاستقلال إلا كحظه من الانفصال عن الأرض، فرأسه ملازم للطين لا حراك له ظاهراً. فأما الحيوان فإنه يتحرك إلى سائر الجهات ويختلف في قبول الغرائز اختلافاً عظيماً، وهو في ارتقاء درجاته على أقسام كثيرة يبتدئ من أدناه إلى أعلاه. فانظر إلى خلق الله وعجائب صنعه وتفكر في حكمته سبحانه وتعالى، وانظر كيف خلق وكيف صور، خلق النبات لازماً للأرض، وخلق الحيوان على أنواع كثيرة، وكلما ازداد غرائز وقوى كان أبعد عن الاتكال على الأرض وكان أقدر على السعي، وترى السباع والنمور أرقى من الظباء والغزلان فهي تأكلها. وترى القرود أرقى من الجميع لما لها من الذكاء والفهم والتقليد للإنسان، وترى الإنسان انتصب قائماً فكانت رأسه أعلى ويداه ورجلاه لأسفل بعكس كل نبات. فصدق قولنا: إن الإنسان نبات معكوس، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[نوح: ١٧]، فنحن نبات ارتقى ارتقاء تاماً، ولكن ننظر هنا معنى الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، وهي: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾[الفرقان: ٣٤]، فالحشر على الوجوه إلى جهنم يراد به ميل النفوس إلى الأمور الأرضية، وذلك أن الإنسان يعيش في هذه الأرض ويصادف فيها لذات وآلاماً، فإذا عاش ومات وهو لم يفهم منها إلا لذاتها وجهل اللذات العالية، وهي حب هذا النظام العام وتكميل النفس الإنسانية، فإن مثل هذا يوضع بعد الموت في عوالم منحطة على قدر عقله، لأن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فمثل هذا يحشر على وجهه، فليس من الذين ترتفع رؤوسهم إلى أعلى، لأن ميلهم حيواني وشهوتهم نباتية، فكأنه ما فهم الإنسانية ولا عقل لذاتها العالية، وعكف على الشهوات المعتادة عند الحيوان والنبات، فترى من الحيوان ما يحبو على الأرض حبواً، فهؤلاء تكون نفوسهم راجعة منكوسة إلى أسفل. والأخلاق الشهوية النباتية ترجع إلى المأكل والملبس والمسكن والزينة والنساء والمال، وجميع ما هو من هذا القبيل، والأخلاق السبعية ترجع إلى القوة الغضبية من الحسد والكبر والظلم وما أشبه ذلك. فهذه الصفات كلها التي تبلغ ما يقارب المائة كما في علم الأخلاق تحط قيمة المرء في الآخرة، ويرى نفسه متعلقة بتلك الأخلاق فتبقى محجوبة فيها عن ربها، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين: ١٤-١٥]، وكل امرئ يعرف من نفسه إذا فكر هل نفسه متأهلة للقاء الله، فإن عرف أن هذه الدنيا ولذاتها تبهجه وتنسيه ذكر الله فليعلم أنه بعد الموت يكون معلقاً بما كان معلقاً به في الدنيا، ويبقى محجوباً عن ربه ظالماً لنفسه، وذلك جزاء الظالمين. وهذا من نتائج قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾[الفرقان: ٣٤]، أي

أنهم يميلون إلى أسفل الأمور فلا ينالون أعلاها ويحجبون عن ربهم. وهم الذين خسروا أنفسهم، لأن النفوس الإنسانية عالية الرأس مرفوعتها لا خسيسة منحطة منخفضة، وإنّما وجوههم ﴿ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣]، وأما الآخرون فليست وجوههم ناضرة ولا إلى ربها ناظرة، لأنهم يحشرون عليها وتلصق بالأرض كما يلصق النبات، لأنهم ميالون إلى العوالم الأرضية مجبولون على حبها لم يعشقوا ما أدركته العقول من الجمال.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾

اعلم أن الله ضرب الأمثال لهذه الأمة وللأمم السابقة. فأما ضربه الأمثال للأمم السابقة فهو المذكور في هذه الآية.

وأما ضربه الأمثال لهذه الأمة فمثل قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١] إلى أن قال: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]

يقول الله في الأمثال: لا يعقلها إلا العلماء، ويقول في اختلاف الألسنة والألوان: لا يعقلها إلا العلماء كما سيأتي في سورة «الروم» إذ يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[الآية: ٢٢] ـ بكسر اللام ـ ويقول في سورة أخرى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ ﴾[فاطر: ٢٧] إلى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر: ٢٨]. إذن الذين يعرفون اختلاف الألوان والألسنة ونحو ذلك هم الذين يعرفون آيات الله وهم الذين يخشون الله، فهكذا لا يعرف الأمثال إلا العلماء بها. واعلم أن الأمثال كثيرة في كل لغة وعند كل أمة، ولها مقاصد تقال لأجلها، ألف لها «الميداني» كتابه «الأمثال»، ولأذكر لك مثلاً سهلاً لتقيس عليه، ونشرح هذا المقام شرحاً بقدر الطاقة وبما يفتح الله فأقول:

(١) من الأمثال قولهم: «قال الحائط للوتد لمَ تشقني؟ قال: سل من يدقني فإن من ورائي لم يتركني ورائي». ومعلوم أن الحائط لم يقل للوتد شيئاً ولا الوتد رد عليه شيئاً، وإنّما هذه جملة يراد بها إظهار العجز ممن اقترف ذنباً بإكراه غيره عليه. إذن المثل هو قول منقول من معناه إلى معنى آخر، وهو في علم البيان استعارة تمثيلية، وهذا معلوم لمن درسوا ذلك العلم، ولذلك كان هذا العلم وأمثاله من العلوم التي لا بد منها لمن يريد تفسير القرآن.

(٢) وقولهم: «الصيف ضيعت اللبن». فهذا قول نطق به رجل كبير السن لامرأة كانت زوجته فأحبت شاباً وتزوجته في زمن الصيف، وجاءت لهذا الشيخ تطلب اللبن على عادتها في زمن الشتاء، فأفادها أنك ضيعت اللبن في زمن الصيف. ولكن هذا القول نطلقه نحن الآن على من ضيع فرصة فاتته فأتى ليطلبها بعد أن فاتت. فإذا طلبنا من رجل أن يشاركنا في أرض ليزرعها أو في تجارة ليديرها ثم تنحى عن ذلك وشاركنا غيره ثم جاء وقال: أريد ما كنت طلبته، فإنا نقول له: «الصيف ضيعت اللبن»، نخاطبه في هذا وهو لم يطلب لبناً ولم يكن ذاك التضييع في زمن الصيف، بل مرادنا

أنك أضعت الفرصة، فعليك وحدك يكون اللوم لا علينا. إذا فهمت هذه المقدمة فاسمع لما ألقيه عليك الآن: اعلم أن الأمم السابقة كانت تضرب الأمثال بالقصص والأحاديث المستملحة وتعطي أبناءها الحكم تارة على ألسنة الحيوانات، وآونة على ألسنة الأنبياء، وأخرى على ألسنة الملائكة، وطوراً على ألسنة الملوك وهكذا، فترى:

(١) كتاب «كليلة ودمنة» يجعلها على لسان الحيوانات.

(٢) وكتاب «ألف ليلة وليلة» على ألسنة الملوك والجن والعفاريت.

(٣) وكتب اليهود على ألسنة الملائكة تارة، والأنبياء تارة أخرى.

وهكذا أهل بابل وأهل الهند وأهل أوروبا يجعلون الأمثال على ألسنة العشاق كما في كتاب «ألف ليلة وليلة»، ومن عجب أن الأمم كلما توغلت في القدم كانت أمثالها غالباً ترجع إلى الملائكة أو الآلهة التي اخترعوها على مقدار تلك العقول، وليس عندهم في ذلك مضض، وكلما اقترب زمان الأمم كانت أمثالها أقرب إلى العالم الأرضي كالأنبياء والملوك، وأهل زماننا لما أصبحوا أقرب إلى الديموقراطية جعلوا الأمثال على ألسنة العشاق، فالمدار في كل عصر على ما غلب على أهله، فإن كانوا صابئين أو ما أشبههم كالأمم القديمة ذكروا الملائكة والآلهة المخترعة، وإن كانوا شديدي الخضوع للملوك، أو متعلقين بالأنبياء ضربوا بهم الأمثال وهكذا. وسأبين ذلك واضحاً الآن.

واعلم أن ضرب الأمثال منهج عجيب ومقام عزيز يظنه العامة طريقاً معبداً وأمراً سهلاً، وما هو بمعبد ولا سهل ولكنه يحتاج إلى أعمال الروية والفكر والنظر، وليس يدركه إلا أهل العلم والدراية والحكمة، وسأريك برهان ما أقول الآن، فهاك أسمعك ثلاثة أمثال تجمع أهم أمثال الأمم الشرقية والغربية، لتطلع على الأمثال التي ضربت لتلك الأمم حتى تعرف كيف كانت عظاتهم، ولتفهم بنوع ما قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٩]، ولأقتصر لك من أمثال الهنود على مثلين ضربوهما ليفهموا النوع الإنساني كيف تخدعنا الشهوات وتضلنا اللذات وتغوينا الأهواء، وتسحر عقولنا فنون الجمال وزينة الحياة الدنيا، ثم أقفي على ذلك بمثل ضربه أهل بابل ونقله اليهود عنهم. وهذه الأمثال ضربت على نمط القدماء في توجيه النصح على ألسنة الملائكة كما هو دأب تلك الأمم لأنهم لا يجدون في هذا ذنباً ولا خروجاً عن الأدب بخلاف ديننا القويم، فإنه فيه لا يجوز وإن كان القول مجازاً. وإني أردت بهذا:

(١) أن أبين حقيقة الأمثال.

(٢) وأن يفتح للمسلم مجال اتساع دائرة العقل.

(٣) وأن يفهم المقصود من الكتب القديمة إذا اطلع عليها.

(٤) وأن يعرف أن الإسلام يتفق في المعنى مع المعلوم، ومع كل دين وإن اختلفت الظواهر.

(٥) وأن يكون المسلم مستأنساً بكل علم، فلا يأنف من قراءة العلوم القديمة التي نقلت عن الأمم لأن حصر العقول يضيع مجد الأمم ويذلها.

واعلم أن الله عز وجل طبع هذا الإنسان على خصلة لا تفارقه وخلة تلازمه، وهي أنه لا يتعلق إلا بما بعد عنه ولا يحب إلا ما تمنع عليه، وهو يحتقر كل مبذول له ولا يرغب فيما عنده.

ألا ترى رعاك الله أنه قد بذلت له نجوم السماء كي ينظرها كل ليلة وهي أجمل وأبهى من الجواهر والحلي، ولكنك تراه يفضل قطعة «الماس» على هذه النجوم الجميلة، لماذا هذا؟ لأن النجوم له مبذولة، ولو أنها كانت غير مبذولة لدفع ثمن النظر إليها غالياً ولكانت النظرة إليها تشترى بمال وفير. ومن هذا ما نشاهده من تهافت التجار على الآثار القديمة المدفونة تحت الثرى فما ذلك إلا لندرتها. ومن ذلك أنني في هذا اليوم أعني يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨ زرت «دار الآثار العربية» بمصر فأخبروني هناك بأنه يؤمها كل يوم من السائحين ٤٠٠ نفس كل واحد يدفع ١٠ قروش. لماذا هذا؟ لأجل أن يشاهدوا شيئاً ممنوعاً عنهم، ولو كان مبذولاً لهم لاحتقروه. من ذلك أني رأيت سجادة تاريخها ٥٠٠ سنة اشتراها أحد أغنياء مصر بثمانية آلاف جنيه. ومنه أيضاً قطعة قماش من ثوب ابن هارون الرشيد رأيتها بعيني رأسي بلغ ثمنها ٣ آلاف جنيه. وهكذا إناء من العقيق رأيته هناك كان يأكل فيه بعض ملوك المماليك بمصر فدفع فيه الحاكم الإنجليزي ١٦ ألف جنيه فلم ترض الحكومة المصرية. هكذا أخبرني العمال في المصلحة. فهذا التعالي في الأثمان للغرابة لا غير.

إذا عرفت هذا فلننظر في الأمثال، إنها جعلت أداة للتعليم لغرابتها وبدائع تنوعها والتصرف فيها، حتى إن الإنسان إذا سمعها وفكر في أصل المعنى وفي المقصود منه كان لهذا أثراً في نفسه. ففرق بين قول القائل: فلان كريم، وبين قوله: كثير الرماد وجبان الكلب رحب الذراع، وهكذا فضرب الأمثال أبلغ من الحقائق.

هذا أهم الأسباب في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] بكسر اللام، وذلك لأن الجهال من سائر الأمم إذا سمعوا أي قصة صدقوا لفظها ووقفوا عنده، ولكن العقلاء هم الذين يفهمون الحقائق وما يقصد من الكلام.

الآن ساغ لي أن أقص عليك قصص الهنود لتعلم كيف كانوا يضربون الأمثال لتعليم شعوبهم وكيف يحترسون من خداع الدنيا. ولأذكر لك قبل ذلك كما تقدم في هذا التفسير وشرحته في غير ما موضع أن الأمم القديمة كلها موحدة بالله باطناً وسراً ومشركة أمام الشعب، فعند الهنود كما عند قدماء المصريين كان التعدد من طبع العامة وهكذا جميع الأمم السالفة.

فلما وصلت إلى هذا المقام قال لي ذلك الصالح العالم الذي اعتاد أن يحادثني في التفسير فيما مضى: لمَ كل هذه المقدمة؟ الأمثال جعلتها ولم تريد ضرب ثلاثة أمثال من أمثال الأمم القديمة في هذه الآية؟ فقلت: أردت بذلك إزالة تلك الغشاوة التي طمست على عقول كثير من الأمم الإسلامية إذ حرموا من العلم الذي طبق آفاق الشرق والغرب، والناس جميعاً انتهلوا منه. فقال: ما هذا العلم الذي تزعم أن الناس انتهلوا منه وحرم منه المسلمون؟ فقلت: علوم الأمم القديمة والحديثة في رواياتهم التي أودعوا فيها علومهم، ألا ترى رعاك الله أن بني إسرائيل ذكروا قصصاً أودعوا فيها حكمهم وضمنوها علومهم ومواعظهم، وهكذا اليونان وأهل الهند أودعوا الحكمة وحشوها في حكاياتهم، فلما قرأها العلماء أنكروها وقالوا هذه خرافات. وإني لأعجب كل العجب من أمة تقرأ علم البيان ولا تطيقه، قال: وكيف ذلك؟ فهل علم البيان يعلم الناس الخرافات. إن الخرافات ضلال العقول، فقلت: على رسلك، إن علم البيان فيه الاستعارة التمثيلية كما تقدم، والاستعارة يقصد منها المعنى المنقول إليه

اللفظ لا غير، فعجبت كل العجب من أمم تفهم قول القائل: «الصيف ضيعت اللبن»، وتخاطب به جماعة الرجال ولا ترى فيه بأساً، ثم تراهم يهلعون ويجزعون إذا سمعوا ما سأقصه من قصة هاروت وماروت التي وضعت بهيئة مثل أو رواية لم يقصد منها إلا مغزاها على طريقة الاستعارة التمثيلية، والخرافة إنّما تكون فيها إذا قصد لفظها، فأما المعنى المنقول إليه اللفظ فليس خرافة بل هو موعظة حسنة. اللهم إن هذا هو الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» كما في البخاري. وقال الشراح: لأن سند أحاديثهم منقطع فنحدث بلا سند، ولعمري لم يقصد صلى الله عليه وسلم أن يعلمنا الخرافة بل قصد أن يجعلنا أمة تعرف أحوال الأمم ومواعظها فترتقي.

إن الأمم جميعها لم تقدر أن تصور الفضيلة والرذيلة إلا بهذه الوسيلة وهي تشويق القراء بطريق القصص بهيئة تأخذ بلب القارئ. والله يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾[الفرقان: ٤٠]، وهذا في هذه السورة، ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

ولا جرم أن علم الآثار الحديث الذي عرفه العالم المتمدين وقرؤوا الكتب القديمة أفادهم وعرفهم وساعد في رقي أممهم، والمسلمون بقوا مكتوفي اليد أمام الأمم، فالأمم يسمعون ويعقلون والمسلمون لا يريدون أن يسمعوا أو يعقلوا، ويقولون قد استغنينا بالقرآن ويقول الله لهم في القرآن: كلا. إن قارئ القرآن بلا علم بالمعنى ولا عمل بالعلم، كهيئة الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم. فهل يعجبكم أيها المسلمون أن تعرفوا القرآن كله وتنكروا قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الحج: ٤٦]، فهل السير في الأرض ونظركم عواقب الأمم من كتبها وآثارها والاحتراس مما وقعوا فيه والأخذ بالأحسن من أعمالهم مخالف للقرآن، وهو الذي حض عليه بنفس هذه الآية ووبخ التاركين له. فهل النظر في الأرض وتعقل أحوال أهل الأرض والنظر في السماوات، كل ذلك لا يعجبكم مع أن القرآن يأمر به؟ فقال صاحبي: هذا عجب ثم عجب. كفى كفى، إن من البيان لسحراً، فاذكر لي المثل الأول من أمثال الهنود حتى أعرف كيف كانوا يعظون. فقلت: عندهم قصة تسمى «قصة العابد المفتون» وملخصها أن عابداً يسمى «كندو» على شاطئ نهر جاماتي اشتهر بالعبادة في غابة كثيرة الأشجار، فخاف أرباب السماء «الملائكة» أن يشاركهم في العظمة عند الله ويسكن معهم السماء، فأوعزوا إلى واحدة من الحور العين وهي «برامنوتشا» أن تظهر جمالها له، فنزلت إلى الأرض وفي طاعتها الربيع والنسيم، فلما رآها العابد بهره جمالها وبقيت معه ليالي وأياماً تعد بالمئات، فاستيقظ قبل الفجر ليلة فقال: إني لم أصل الليلة والفجر قرب، فسخرت منه وقالت: أنت معي منذ مئات الليالي، فدهش وقد كان يظنها ليلة واحدة، فعرف أن المرأة خدعته وفرح الملائكة الذين حسدوه بذلك.

فلما سمع صاحبي هذه القصة قال: كيف يقرأ هذا المسلمون وكله كفر صراح مثل المعبودات الثانوية ومثل الأرباب الهندية. ولا جرم أن ذلك يفيد أمرين اثنين: الأول: أن الآلهة الصغيرة معبودة. وثانياً: أن اتصافهم بالألوهية فيه تعدد للآلهة والأمر ظاهر البطلان. وأيضاً الآلهة كما اتصفت بحسد العابد اتصفت بالاحتيال بالإفساد، فهؤلاء شياطين لا آلهة. فقلت: قدمت في هذا التفسير مراراً أن

العلماء منهم موحدون واستباحوا التعدد على حسب زمانهم وهذا عندنا كفر، وأما كونهم آلهة فهذا مجاز يراد به الملائكة، وأما كونهم يحسدون ويخادعون ويفتنون العابدين فحقاً هذه صفات الشياطين، ولعلم هذه الشعوب بأنها صفات الشياطين قبلوها على أنها ضرب أمثال، وكان هذا مباحاً عندهم. ولا جرم أن هذا الحسد موجود بين الناس، وما ضربوا الأمثال بالملائكة إلا ليفهم ذلك الناس لا غير. فقراءتها ومعرفة مغزاها شيء والاعتقاد والكفر شيء آخر. ولا جرم أن هذه الأمثال ليست الأمثال التي ضربها الله لهم. كلا. بل هي أمثال تبعت أخلاق القوم وأنزلت آلهتهم الصغيرة فجعلتهم في مصافهم، فلذلك صار الحرب والخداع في عموم النوع البشري عاماً تقليداً للآلهة التي ضربوا بها الأمثال، وهذه طرق أبطلها القرآن، فهذه أمثالهم لا أمثال الله، وكل دين نزل من السماء خلطه الناس بأهوائهم كما سأوضحه قريباً في هذا المقام. ثم قلت: وفي هذه القصة مصداق القرآن، ألا ترى رعاك الله أن القرآن ذكر أن هذا الدين تقدمه أديان. قال: بلى. قلت: أفلا ترى أن هذا من أقدم الأديان، وقد ذكر الزهد في الدنيا والعبادة بالليل وإضلال الشهوات للناس وخداع الهوى لهم، وذلك كله شرحه القرآن شرحاً وافياً. إذن كان الناس من قديم يصلون بالليل وتتجافى جنوبهم عن المضاجع وكانوا يقولون: إن تارك الدنيا يقرب من الملائكة ويحب في السماء، إذن هذه القصة مصداق لدين الإسلام، فالله يقول: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: ٩]، ويقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[البقرة: ١٨٣]. إذن القصة أفهمتنا أن هذا القرآن لم ينزل فيه ما ليس من طبع الديانات التي تناسب أهل الأرض وإن ضلوا في التعبير. فقد كان قبلنا أمم يصلون ويتركون الشهوات. إذن هذه أمور عامة لا خاصة، وهذا من أجلّ البراهين على صدق النبوة.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: حسن. فما القصة الثانية؟ فقلت: كما أن القصة الأولى مثلت فتنة العابدين بالنساء الجميلات. ولا جرم أن الدنيا كلها فتنة تمثل بالمرأة. هكذا القصة الثانية الآتية جعلوها مظهرة مضار لعب النرد «الطاولة»، إن طاولة الزهر كانت معروفة منذ القرن العشرين قبل الميلاد، فقد ورد ذكرها في رواية «نال ودامان الهندية»، وهي من فصول كتاب «مهابهاراته» الشهير أحد أسفار الهنود المقدسة عند الهنود، وقد وضعه قبل الميلاد بعشرين قرناً. وذلك أن الناسك «فياسا» الذي عاش آلاف السنين على الأرض في زعمهم، نظم ديوانه «مهابهارته» وهو ٢٢٠,٠٠٠ بيتاً، وهو من أندر المؤلفات في فصاحته وقصصه ونوادره، وأنباء الحروب والمعارك اشترك فيها الآلهة مع الناس، وهو مثل «الإلياذة» لهوميروس، وهذا الكتاب ١٩ فصلاً، وفي الفصل الثالث منه رواية «نال ودامان» وهي ترمي إلى تقبيح لعب القمار، وهي ٥٠٠ بيت، وذلك أنه كان وراء نهر الكنج في بلاد الهند مملكة «نيشاواه» ومملكة «فيدونه»، وملك الأولى يدعى «نال» والثانية يدعى «فيم» وابنته جميلة فتانة اسمها «دامان» اشتهرت بالجمال حتى خطبها الآلهة في السماء، وعلم بها ملك «نيشاواه» وعرف جمالها، فخالج قلب «نال» حبها، ولما مر به سرب من الإوز اصطاد منه واحدة، فقالت له: إن أطلقتني أذهب إلى «دامان» الجميلة لتتزوج بها، ففرح «نال» وبات صريع غرامها، فذهبت الإوزة إلى فيدرونه ورأتها «دامان» الجميلة فقبضت عليها، فقالت لها: أنا جئتك لأعرض عليك زواج «نال» فاطلبيه، فباتت «دامان» مولهة ومرضت وأخبرت أباها بذلك، فدعا «مال» «نال» فتزوجها. وكان

لـ « نال » أخ اسمه « بوسكار » فأوحي إليه أن يلعب مع أخيه الزهر وإله الشر يساعده ، فلعب مع أخيه فخسر « نال » كل مملكته ثم زوجته ، فاستولى « بوسكار » على الملك وطرده هو وزوجته لأنها أبت أن تكون مع « بوسكار » ، فسارا في البرية يأكلان العشب ، ثم لقيا ركباً أوصلهما إلى « مملكة فيدرونه » فعاش مع صهره هناك ، ثم أعطاه صهره جنداً فتوجه به إلى مملكته فسلم أخوه له بلا حرب ، وتولى الملك ثانياً وأصدر أمره بعدم لعب الزهر « الطاولة » على مال وإنّما يكون ذلك للتسلية .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : فاذكر لي القصة الثالثة التي ذكرها أهل بابل ونقلها بنو إسرائيل في رواياتهم . فقلت : تلك القصة على طراز روايات الهند ، وملخصها : أن الملائكة في زمن إدريس عليه السلام لما رأوا ذنوب بني آدم عيروهم وقالوا : هؤلاء خبثاء ، فقال الله لهم : اختاروا منكم ملكين لأنزلهما إلى الأرض فأركب فيهما الشهوة ، وأنا أقول لكم : إنهما لن يصبرا عن الشهوات . فاختارا « هاروت وماروت » فنزلا وصارا قاضيين يحكمان بالعدل ، وعند المساء يصعدان إلى السماء . وحضرت لهما امرأة فارسية يقال لها زهرة تشكو زوجها ، فأعجبا بها وطلبا منها شيئاً . فقالت : لا ، حتى تشربا الخمر ، لأنها خيرتهما بين الخمر وعبادة الصنم ، فرضيا بالخمر لأنه أهون فوقعا في الزنا ، ولما رآهما رجل قتلاه خوف الفضيحة ، فلم يقدرا بعد ذلك على الصعود إلى السماء وعذبهما الله إلى يوم القيامة في بابل .

هذه الرواية مثل سابقتها لا سيما الأولى . فانظر كيف كانت هذه الروايات كلها ترجع إلى أن الملائكة أو الآلهة في عرفهم هي التي تفتن بالنساء ويحصل وقائع للملائكة أو للآلهة كوقائع الملوك الأرضية مع الرعية ونسائهم الجميلات .

هذه ثلاثة أمثال من أمثال الأمم التي أشار الله لها ، وهي في فحواها كالقرآن من حيث تحريم الخمر والانصراف إلى اللعب وإن اختلطت بأهواء القوم من حيث العقائد الزائغة كما سأوضحه قريباً . وإنّما ذكرتها هنا لمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الفرقان : ٣٩] ، فالمذكور هنا يدلنا على نوع الأمثال وسرها وكلها راجعات إلى تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس البشرية وإن كانت محرفة ، فإن الإنسان إذا سمع أن العابد في القصة الأولى فتنته حوراء مرسلة له من الجنة ثم ندم بعد معاشرتها مئات الأيام وهو في حال الاستغراق في جمالها ، ثم ندم بعد ذلك ، وإذا علم أن لعب « النرد » قد أزال ملك مَلك من ملوك الهند ولم يرجع له ذلك إلا بعد العناء . وإذا علم أن نفس الملائكة الطاهرين قد فتنتهم الدنيا ، فإنه إذ ذاك يعتبر ويحترس . هذه من نوع الأمثال التي كان يضربها الناس اتباعاً لما جاء في دياناتهم وإن أزاغ عقائدهم وكانوا بها يصلحون أممهم ، أما عندنا فهذا ممنوع منعاً باتاً . ذلك لأن ديننا يسد طريق الفساد . ذلك أن هذه كانت أمثالاً قد يظنها الجهلة أنها حقائق ، وبتمادي الزمان تصير عقائد للعموم ، فيقولون : إن الملائكة يعصون الله وهو كفر . أو أن هناك في السماء آلهة وهذا كفر . فسد الله هذا الباب منعاً للشر والجهل في العقائد . ولما كانت الأمثال لا يعقلها جميع الناس قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت : ٤٣] بكسر اللام ، إشارة إلى أن أكثر الناس جهال لا يعقلون أن هذا ضرب أمثال وحقيقة ممتنعة ، والذي يعرف المقصود منها إنّما هم العلماء ، ودين الإسلام للعلماء وللجهلاء .

فإذا رأيت بعض المفسرين نقل أمثال هذا في تفسيره، فاعلم أنه اتبع في ذلك الحديث الشريف: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». ولما كان الناس يحملون هذا على الحقيقة لا على المجاز أخذوا يذمون تلك الروايات ونسبوا للمفسرين التخريف في القرآن وما هم بمخرفين إلا إذا اعتقدوا صحة هذه الروايات على لفظها، فأما المغزى فهو للتهذيب. واعجب ثم اعجب لهذه الروايات الثلاث كيف دلتنا على آراء الأمم الهندية والمصرية والبابلية وأن آراءها متشابهة، فبهذا تعرف سير تلك الأمم وأمثالها وتفهم معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٩]، وإنّما تبرهم لأنهم حرفوا في نفس الأمثال، ومن عجب أن يوبخ الله أهل مكة وأمثالهم فيقول: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٤٠]، يوبخ الله أمة الدعوة ناعياً عليهم عدم اعتبارهم بتلك القرية التي أهلكت وهي بطريقهم، هكذا ينعي الله على المسلمين الحاليين ما يرون من الأمم التي خربت بذنوب أهلها وتقصيرهم كأهل الأندلس من المسلمين، وكأهل أمريكا الأصليين، وكما يرون من الذل في مصر والشام وبعض بلاد العرب، فهؤلاء مكبلون في الذل، أفلا يعتبرون فيحترسوا من التقصير؟ فإذا قال قائل: نحن مؤمنون، فنقول له: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت: ٢].

ومما يؤسف له أن الأمم الغربية اتخذت الروايات الأدبية باباً لرقيها كما فعل الألمان، إذ ألف أحدهم في القرن التاسع عشر «رواية وردة» التي تعرف آداب قدماء المصريين وحريتهم قبل ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح فكانت هذه الرواية سبب النهوض الأدبي في ألمانيا، والمسلمون لا يفكرون في الأمم ولا الدول ولا الممالك ولا يثيرون العزائم والهمم ولا يفكرون في قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥]. أليست هذه هي أيام الله تعالى وهي ما صنعه بالأمم أمة بعد أمة.

اللهم إن القرآن نزل لرقي الأمم، وإذا رأينا الله يذكر لقمان عليه السلام ويسمي سورة باسمه ويقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾[لقمان: ١٢] فليس معنى هذا أن الحكمة خاصة بلقمان فلا نقرأ إلا حكمته. كلا. فإن الله يقول: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[الزمر: ١٨]، ولم يخصص القول بقول علماء الإسلام ولا لقمان. وقال في آية أخرى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فالحكمة ليست خاصة بلقمان، بل هي نور من الله نستضيء به من أي حكيم. فالمسلم يقرأ كل حكمة وكل علم. هذا تمام المقال في قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الفرقان: ٣٩] الخ. انتهى صباح الثلاثاء ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٨م.

الإنسان في هذه الأرض كتاب لا يدرسه ويعقله إلا المفكرون

لقد خيل إلي هذا الإنسان وهيكله المنصوب وقد أشرقت النجوم ليلاً والشمس نهاراً على الأرض وأضاءتها وازدهرت بالمزارع والأنهار والحيوان وانتظمت الأحوال وعمرت الأرض وأشرقت بنور ربها، فبرز هذا الكتاب ليقرأه المفكرون ويدرسه المستبصرون. هذا الهيكل أمره عجب. نراه قد جعل منار الحكمة والعلم والفضائل والزوائل فانظر ماذا ترى:

(١) ترى طعاماً يزدرده فيهضمه فيكون الدم فينتظم الجسم انتظاماً.

(٢) وما بقي من هذا الطعام بعد الذي حول إلى دم يصير فضلة غليظة أو رقيقة فينزل على الأرض فيكون سماداً لزرعنا وتحيا به أرضنا ، فتبارك الله الذي لم يضيع من الوجود شيئاً ، فالذي بقي ولا منفعة له في أجسامنا بعد الدم رجع إلى الأرض حتى يحول فيها إلى طعام آخر تهضمه كرة أخرى ، فما أشبه هذا الطعام الذي لم يصلح دماً في أجسامنا ، ونزل سماداً ، كالتلميذ بقي في فصله سنة أخرى حتى يعقل دروسه ثم يرتقي إلى أعلى في الدراسة العلمية ، ثم إن هذه الفضلة منزلتها أسفل فلذلك خرجت من السبيلين أسفل هذا الهيكل المنصوب .

(٣) أما الدم الذي استخرج من هذا الطعام المهضوم ، فإنه يدور دورته في الجسم كما تراه مرسوماً موضحاً في سورة « المؤمنون » عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الآية : ٧٨] ، هو يدور في الجسم كما يدور الماء سوء بسواء ، فهو يخرج من البحر بخاراً ثم يكون سحاباً ثم مطراً فأنهاراً ثم يجري إلى البحر كرة أخرى ، وذلك ليحدث في البحر على طول الأزمان والآماد وآلاف السنين قارة أخرى ينشئها في قاع البحر سنة فسنة ، حتى تظهر تلك القارة بعد مئات آلاف السنين . هذه حال الماء فهو يدور ليحدث قارة على أقل تقدير إذا ترك مهملاً . وهذه القارة لا تظهر إلا بعد الآماد الطوال لا في الحال . ولكن هذه الأنهار في حال دورتها كدورة الدم في الجسم لها آثار أخرى حالاً ، فهي تسقي الزرع وتدر الضرع ويكون الإنسان والحيوان وأنواع النبات ، ويكون ذلك أتم إذا جعلت للنهر سدود وحبوس ، فهناك ترى العمران أتم والنظام أكمل كما نرى في نيل مصر وغيره من الأنهار التي نظمها نوع الإنسان .

(٤) فلينظر إذن في دم الإنسان ماذا فعل ؟ رأيناه يدور كما يدور الماء في الجو والأرض ، وفي أثناء دورانه في الجسم يغذي الأعضاء المختلفة كما يفعل مثل ذلك الماء في الأرض . ثم نرى الدم من جهة أخرى قد حصلت منه فضلة ، وتلك الفضلة أعدت لإيجاد هيكل آخر كهذا الهيكل الإنساني ، مثله أكثر الحيوانات في ذلك . إن الإنسان يكون من دمه تلك الفضلة المنوية ليكون منها إنساناً آخر كأكثر الحيوان ، كما رأينا الأنهار تخلف منها في البحر طبقات ستكون قارة على مدى الزمان تشبه القارة التي يجري فيها الماء ، أو تخلفها بعد حين إذا استدار الزمان وتغيرت الأحوال .

(٥) لم تكن الذكورة والأنوثة في الإنسان والحيوان شرطاً لبقاء النوع . كلا . إن بقاء النوع قد يكون بالانقسام أو بغيره وقد تكون الولادة بلا أب كما تقدم في « المحار » في البحار ، وذلك مشروح في أول سورة « مريم » بمناسبة ذكرها وذكر عيسى . لعمر الله لم يكن الذكران والإناث شرطاً في الذرية . كلا ، فها هي مسألة المسيح التي فتحت لنا باب « المحار » ، فرأينا الأنثى تلد الآلاف بلا ذكر ، وهكذا تلك الحشرة التي رأيتها بعيني تضر بالأشجار وقد ذكرتها في أول سورة « الأنفال » موضحة أيما إيضاح فهذه قد تقوم الأنثى فيها مقام الذكر فلا تحتاج إليه وتبيض آلاف البيض الذي لا يرى إلا بالمنظار المعظم ، فانقسام الإنسان وأكثر الحيوان إلى ذكر وأنثى ليس ضرورياً للتناسل ولكن هي الحكمة العظمى ، والآية الكبرى في التكوين قضت الارتقاء فكان الذكران وكانت الإناث .

(٦) هنالك تجلى لنا هذا الإنسان بمنظر بهيج فظهرت الذكورة والأنوثة على مسرح الوجود ، وهنا تجلى العمل الإلهي والإبداع والجمال ، فكان العشق والنقش والتصوير والشعر والموسيقى

وتغريد الطير وعلوم القضاء في سائر الأمم بين النساء والرجال وأحكام العقد والطلاق والنفقات وقصائد الشعر وروايات الحب والغرام، وكثير وعزة، وقيس ولبنى، وتوبة وليلى، ثم كان هناك الزهاد والرهبان والمجاهدة لكبح جماح هذه الشهوة فحفظت فذكت العقول وحفظت العلوم وظهر العباد وهنالك علوم أيضاً وعلوم، فهذه الشهوة بإرسالها كانت علوم في الفقه والحب ونحوهما، وبحبسها كانت علوم التصوف والعبادة وهكذا.

لا يكاد الإنسان يشعر بقوة الشباب حتى يشعر كل من الصنفين الذكور والإناث بالحاجة للآخر، فماذا يحصل؟ تبتهج النفوس وتشرق الوجوه وتخاط الملابس وتنفق تجارتها وتعمر الأسواق ويكثر الشارون والبائعون وتنصب الزينات، ويعتني الذكران والإناث بأجسامهما وينسقون ملابسهما ويفقهون دروسهما وينظمون الأشعار ويؤلفون الروايات ويتصفون بالفضائل وتقام المراسح، وما أصل هذا كله إلا أمر واحد وهو الذرية. أصل هذا الحب وهذا الغرام وهذا الجمال وهذا النقش وهذا التصوير وهذا الغناء وهذه الموسيقى وهذا الشعر، كل ذلك لأصل واحد هو التناسل. فاعجب لتناسل جاء بغير أب ولا حب في «المحار» قد أصبح في نحو الإنسان مبدأ لكل زينة وجمال وشعر وتصوير، له ألفت كتب الفقه في النفقات ونصبت المحاكم وبنيت السجون للمذنبين من الرجال الذين لا ينفقون، وقام القضاء في الديانات من مسيحيين ووثنيين ويهود ومسلمين وقد ألفوا كتباً لذلك.

عجب لهذا الإنسان ولهذا الوجود. نرى له نفساً داخلاً وخارجاً لإصلاح الدم، ثم هو نفسه يكون في أثناء ذلك مبدأ الكلام. النفس إنّما جعل لإصلاح الدم ولكن الحكمة عظيمة جداً، فقد جعلت له حكمة أخرى وهي الكلام وفهم العلوم، هكذا هنا التناسل أمره سهل لا يحتاج لذكور، ولكن بخلق الذكور والإناث ظهرت علوم وصناعات وقضاة وحب وغرام وشرائع وديانات. جلّ الله وجلّ العلم. أصل تفرعت منه فروع شتى كما تفرعت المادة إلى كواكب وشموس وأقمار وهي عناصر محدودة معلومة.

(٧) بعد ذلك تعالى الإنسان وتعالى وأخذ يبحث في العالم العلوي ونظر في أمر الملائكة وأخذ يتخيل الملائكة والأرباب وأنزلهم جميعاً إلى حظيرة الإنسانية، فماذا قال؟ قال: إنهم جميعاً يأكلون ويشربون ويتزوجون ويعشقون ويحاربون ويهلكون الأعداء.

الإنسان يقيس كل شيء على نفسه، فلما رأى أنه أحب وعشق وحارب، قال: إن الآلهة تحب وتعشق وتحارب، هذا هو السبب في ضرب الأمثال في الروايات الهندية السابقة والبابلية. إن الإنسان قديماً لم يعقل الإله إلا كما يعقل نفسه. إن العشق الذي بين الذكور والإناث الذي خلق لأجل التناسل قد جعل وسيلة لاتساع دائرة الوجدان والعقل ولارتقاء الإنسان عن هذا المستوى الحيواني. ولذلك قال العلماء: «الحب ثلاث درجات: دنيا وهو الحب المعتاد، ووسطى وهو حب العلوم، وحب أعلى وهو حب الله تعالى». إذن الذكورة والأنوثة في الحيوان التي ليست ضرورية للتناسل قد جعلت سبباً لارتقاء الإنسان درجات بعضها فوق بعض في العلم وفي حب الله.

(٨) قلنا: إن الإنسان الأول لم يعقل الله إلا على مقدار عقله وعواطفه حباً وعشقاً وحرباً واستعباداً، ولذلك لا تجد أمة من الأمم السالفة إلا والحرب من طباع دينها. الآلهة عندهم محاربون

آكلون شاربون متزوجون عاشقون والدون، فيقولون: الأب والابن، ولكن جاء الإسلام فقال: كلا. ثم كلا.

أيتها الإنسانية قفي قفي. يا محمد قل لهم: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلا كثرة في الألوهية ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ فلا جوف له، فإذن لا دم له، وبناء عليه لا يلد كما قال: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فلا زوجة ولا حب ولا عشق ولا غرام. إياكم أن تقيسوه عليكم. فأما الحرب فإنه لا يحارب، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ ﴾ أي: وليس له ﴿ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ٤]. فبهذه السورة ضاعت الروايات المتقدمة وغيرها وتجلت الرحمة واستعد الإنسان حديثاً إلى التعاون تدريجاً. وهنالك يظهر إنسان جديد لا يجد ذلك الإله العاشق المحارب الذي يلد ويشارك البشر، يلد عيسى كما يلد ملوك اليابان ونحوهم، ولا يحارب بل هو رحمن رحيم. فإذا لم يكن الإله محارباً فمن الذي يقلده الإنسان. إن الناس قديماً أغرموا بالحرب، لأن أرباب الديانات القديمة وصفوا أربابهم بالمحاربة، والقرآن أمر بالحرب ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[محمد: ٤]، ومتى وضعت أوزارها يكف المسلم عن الحرب، وهنالك لا يجد ذلك الإله المحارب، بل الإله الرحمن الرحيم الموصوف بالقدس والسلام.

اختفت تلك الروايات الحربية الغرامية وستحل محلها الروايات التي تحدث عواطف الرحمة وانتشال الضعفاء وارتقاء الشعوب. إن القرآن جاء في مقدمة أمم يجدون لهم رباً لا يأكل ولا يشرب ولا يتزوج ولا يلد ولا يغالبه أحد، بل هو الغالب، وإذن يكف الناس عن الحرب والضرب لأنهم سيكونون أمة واحدة وأسرة واحدة يربي بعضهم بعضاً ويعطف بعضهم على بعض، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الفرقان: ٣٩] على ألسنة الأنبياء، فزين للقوم الشيطان أعمالهم فأتوا بأمثال غير أمثال أنبيائهم وأنزلوا الدين على حسب عقولهم فتبرناهم تتبيراً. والدليل على ذلك تلك القرية التي أمطرت مطر السوء وهم يمرون عليها ولا يعتبرون بها كأنهم لم يروها، وإذا رأوك يا محمد استهزؤوا بك لأن ما جئت به لا يلائم ما تلقفوه عن آبائهم، فاعتبروا الحق ضلالاً وتمادوا في غوايتهم وجروا عليها. إن هؤلاء لم يعبدوا إلا أهواءهم. إن أكثر هؤلاء عطلوا أسماعهم وأبطلوا عقولهم، بل ما هم إلا كالأنعام بل الأنعام خير منهم. انظر إلى الظلال كيف نمدها وكيف نقبضها وكيف كانت آثار الشمس المشرقة المنظمة المسير التي جعلناها دليلاً على الظل فأينما أضاءت بنورها تركت آثاراً من الظلال تابعة لها مداً وانقباضاً، وطولاً وقصراً، بحيث يتبع حساب الظل حساب سير الشمس صباحاً ومساء، ثم إننا نسلخ النهار من الليل فيكون الظلام، وذلك أن أضواء الشمس تكسو الجو ووجه الأرض بنورها، فلما مالت إلى الغروب سلخنا ذلك وبقي الظلام على حاله، فنام الناس وكان الليل لباسهم ساتراً لأجسامهم واستراحوا بنومهم، فإذا طلع النهار نشرناهم في الأرض لطلب الرزق الخ.

هذا ملخص المعنى من قوله تعالى هنا: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الفرقان: ٣٩] إلى قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٤٧]، ذكرته بمناسبة ضرب أمثال القدماء الذين أنزلوا الديانات على حسب عقولهم، وجاء الإسلام مغيراً وجهة نظر الإنسانية إلى سبيل تؤدي إلى المحبة والإخاء واتحاد الأمم والصفاء العام والرحمة التي اتصف بها الخالق، وسيتخذها الناس لهم نبراساً. فالله واحد ورحيم

والناس سيتحدون ويتراحمون، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الذي لا يحارب ولا يعشق ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وحده. إذن فمن ذا يحاربه؟ فله العبادة وبه الاستعانة والهداية.

ومن الأمثال عند القدماء ما جاء من الحكم في نصائح «بتاح حتب» من علماء المصريين القدماء، فمنها: لا يحملنك علمك على التكبر واستقم مع الجاهل والعالم، لأن الباب لم يغلق دون الفن، ولا نال أستاذ ما يدعيه من الكمال لنفسه. ومنها: ما أعظم العدل الثابت الأركان الذي لم يكدر صفوه منذ أمد قديم.

ومن ذلك ما ظهر من الروايات أيام ارتقاء هؤلاء القدماء منهم في الأسرة الثانية عشرة واتصالهم بالأمم المجاورة لهم مثل لبنان وسوريا والصومال والنوبة وجزيرة كريد. فقد كانت إذ ذاك عندهم هذه القصة «قصة البحري الغريق»، ذلك أنه ركب سفينة كبيرة فيها ١٥٠ ملاحاً من نخبة المصريين الذين امتازوا بالشجاعة كالأسود، فبينما هم جادون في الاقتراب من البر إذ اشتدت الرياح وارتفعت الأمواج من كل جانب فغرقت السفينة وهلك من فيها، أما هو فألقته موجة على جزيرة فوجد فيها ما يقتات به، وسمع صوتاً كصوت الرعد إذا هو ثعبان مبين يقترب منه طوله ٣٠ ذراعاً وطول لحيته ذراعان وجسمه كالذهب، وبعد محادثته قص عليه البحري قصته فأكرمه الثعبان وبقي معه مدة مكرماً، ثم حضرت سفينة حملته إلى بلاده. ثم إن الجزيرة بعد أن غادرها رجعت لجة بحر. واعجب من أن هذه القصة أشبه بقصة «السندباد البحري» التي لخصتها لك في أول سورة «يوسف» وكذلك تشبه قصة «حي بن يقظان» التي ذكرتها في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[الآية: ٢٦٠] وما قبلها من الآيات. وتشبه أيضاً رواية «روبنسون كروزوا» الإنجليزية التي نسجت على منوال رواية «حي بن يقظان»، وتشبه ما جاء في كتاب «ألف ليلة وليلة» من أن ابن ملك مصري قد ادخر له أبوه حلة فيها صورة فتاة جميلة وجعلها في خزانة وأقفلها، ولم يأذن بأن ابنه يراها لصغر سنه، ولكن هذا الابن اطلع عليها بواسطة الخازن سراً، فوجد صورة الفتاة مرسومة في حلة من الحرير الأخضر جميلة جمالاً فائقاً، وأنها صورة بنت ملك الجان، فأخذ يسعى وسافر مع جند من جند أبيه وساروا في السفن في البحار إلا هو، ودخل جزائر كثيرة وقاسى أنواع العذاب، ثم وجد ابنة ملك الجان ونال مراده ورجع بها إلى أبيه سالماً غانماً بعد ما قارب الموت.

فهذه الروايات والقصص يتبع بعضها بعضاً، وقد ألقاها الله على قلوب الأمم. فانظر كيف اتصلت القصص من أيام قدماء المصريين وتشابهت الأمثال عند قدماء المصريين وعند الأمم الإسلامية والإنجليزية. إذن الله مع كل الأمم ومع كل أحد، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[المجادلة: ٧]، فهو لم يدع أمة إلا ألهمها ووعظها على ألسنة أنبيائها وعلمائها، ولم يهلك أمة إلا بعد ما أبان لها سبيل الرشاد.

ومن الأمثال المضروبة للأمم ما جاء عن الملك «حمورابي» عام سنة ٢١٠٠ ق. م في مدينة بابل الذي هزم أهل «عيلام» سنة ٢١٠٠ ق. م في تلك المملكة وملك البلاد، وقد عثر المؤرخون في زماننا على خمس وخمسين رسالة من رسائل عمله، وأهم ما عثروا عليه القوانين التي سنها في زمانه،

وقد جمعها من قوانين أسلافه وسطرها على لوح من الحجر ورسم صورته فوقها وكأنه يتسلمها من الشمس التي كانوا يتقربون إليها، وقد وجد هذا اللوح في معبد قديم. واعلم أن الكشف الحديث كله مصداق لهذه الآية، فالله ضرب الأمثال لكل أمة من الأمم ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١] ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾[المجادلة: ٧]. ألا ترى أنه علم أن الفأر مضطهد من الناس فلونه بالسواد ليشابه سواد الليل حتى لا يقع فريسة لأعدائه من الآدميين وغيرهم. وهو الذي لما أعطى الزنابير لوناً براقاً أعطاها سلاحاً تدافع به عن نفسها ما يفاجئها من الطيور فلذلك صارت آمنة. وهو الذي أعطى السمك الذي في قاع البحار هيئة جميلة عبقرية أشبه بما في قاع البحار من الحشائش والأشجار البهجة والأزهار البهية ليختفي عن قاصديه بالأذى. انظر هذه العجائب في أول سورة «المؤمنون» عند آية: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[الآية: ١٧]. هذه هي العناية الإلهية بالحيوانات، فهكذا عنايته بالإنسان فهو سبحانه عدل وعدله شامل لم يترك أمة بدون مرشدين ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤] وهذا معنى اسمه الهادي، ومعنى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦]. وبهذا تفهم آية: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨]، فإن الإنسان ربما يخطر له أن الهداية خاصة بأمة فيقول في نفسه: إن تلك الأمم لا هداية عندها، فيظن سوء المعاملة، فبذكر الله ومعرفة نظامه تطمئن النفس، وتعلم أن العدل جار مجراه في كل أمة من الأمم وكل جيل من الأجيال وحيوان ونبات، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

اللطيفة الرابعة عشرة: في قوله تعالى:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

لعلك عرفت أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر، فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني. ولعلك فهمت ما ذكرناه عن الحسن أن الآية واردة في كل متبع هواه. وقال ابن عباس في معنى الآية: أرأيت من ترك عبادة الله خالقه ثم هوى حجراً فعبده ما حاله عندي؟ ويقال أيضاً: الهوى إله معبود.

أفلا ترى أن أكثر الناس يعبدون هواهم. أفلا ترى أن الناس مغمورون في هذا العالم الموزون المنتظم الذي صنع بحكمة وهم في أنفسهم إلى الآن لم يصلوا إلى تلك الحكمة في أنفسهم، بل هم للهوى عابدون. أما صنع العالم من حكمة فإنهم يرون الأشجار والأوراق والأزهار والكواكب والنجوم والأقمار وأجسام الإنسان والحيوان كلها مركبات بحكمة. أفلا يرون هذا كله ثم هم عن أنفسهم غافلون. نعم نظر الإنسان ما حوله وما أحاط به اتبع في أكثره العقل والحكمة وهم عن أنفسهم في غفلة جاهلون.

انظر كيف وزن سير الشمس وحسبه بعلم الفلك والجداول الحسابية، واتخذ له من المعادن ما يمثل له سيرها، وبعض الناس صنع ساعة تبين سير الكواكب جميعها والساعات والدقائق والثواني والسنين. كل ذلك حسن. وقد كال الناس الأحجام ووزنوا الأثقال وقاسوا الأطوال وضبطوا حساب ذلك كله، فوق ذلك قاسوا علو ماء الأنهار ونقصها، وحسبوا الضغط الجوي والرياح وسرعتها

والأمطار ومقدارها على وجه الأرض ومقدار مائها بالوزن طول السنة أو الأشهر، وقدروا سرعة القطرات الجارية على وجه الأرض وعرفوا مقدار الحرارة في القطرات، والكهرباء والنور والماء، ووزنوا ذلك كله بما لا يفلت منه نقير ولا قطمير ولا كثير ولا قليل، فالوزن عم كل شيء عند الناس مما قل وجلّ وعظم وصغر، فلم يذر الحرارة والنور للطفهما ولا الفحم والحجر لثقلهما، ولا الشمس والقمر لعظمهما، بل تراهم ضبطوا أبعاد كل كوكب عرفوه وحجمه ووزنه والعناصر التي تركب منها بما رأوا بالمناظير المعظمة من ضروب أنواره وفنون أشعته التي تماثل الأشعة الناشئة من المعادن التي على الأرض والعناصر المعروفة، فبهذه الأشعة الواردة إلى الأرض مع ضوء الشمس والكواكب أمكنهم معرفة العناصر، وردوا كل شعاع إلى عنصره، وبذلك عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس، بل إنهم أدركوا أن عنصراً في الأرض كشفوه في عناصر الشمس قبل أن يكشفوه في الأرض ثم وجدوه.

كل ذلك عرفه الإنسان وعلمه وضبطه، ولكنه مع هذا كله جهول في أمر نفسه فهو مضيع لقواها وملكاتها، مطير لذلك في الآفاق، ظاناً أنه لا وزن لأقواله ولا لآرائه ولا لخطراته ولا لوثباته ولا لنظراته. كلا. ومن فلق الحب والنوى ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٣].

فإذا كنت أيها الإنسان قد وزنت الضوء وحسبته ووزنت الحرارة الجوية وحرارة جسمك بدرجات، فعرفت الصحة والمرض بها، وعرفت كل طائر يطير وحيوان يسير وكوكب يجري ورسمت ذلك في جداولك؛ فهل تظن أن نفسك التي هي أرقى وأعلى من كل ما ترى وما تسمع مهملة الحساب ليس لها كتاب. وإذا كنت ترى أن لكل شيء ميزاناً فلنفسك ميزان في داخل جسمك كما للكهرباء وللضوء وللحرارة وللماء ميزان يزنها وأنت لا تشعر، وهذا الميزان بين جوانحك تظهر لك ثمراته ولا تعرف إلا علاماته. فكل كلمة تقولها ونظرة تنظرها وفكرة لك خاطرة ترفع نفسك أو تخفضها والتجاريب تعلمك والتهذيب يريك. ألم تر أنك إذا أمسكت عن الكلام فيما لا يعنيك أياماً وغادرت ما تعتاده من ذلك أمداً طويلاً؛ وجدت النفوس إليك مائلة والعقول نحوك متجهة، لأن ميزان عقلك ارتقى درجات فأحست نفوسهم بما لديك وشعرت بما ارتقيت، وما ذلك إلا أنك أعرضت عن كل ما لا فائدة منه، ولم تطع هواك، وتركت القول الذي فيه الافتخار والحديث عن نفسك، فحفظت في النفس آثارها وأبقيت فيها أنوارها، فجذبت النفوس إليها وألزمتها العطف عليها فحنت إليها وهي ساكنة وعطفت عليها وهي ساكنة، وأصبحت نفسك أشبه ببرج الحمام حفظت فيه آراء كادت تطير فجذبت سواها من أمثالها وهي تسير كما قدمناه في هذا التفسير، ولا يعلمك صدق هذا القول إلا التجاريب. فاحفظ لنفسك آراءها واكتم فيها أخبارها بضعة أيام، ولا تتظاهر بما لديك من المفاخر، تجد النفوس حنت إليك والقلوب عطفت عليك. فأما إذا مزقت حجابها وهتكت ستارها وأزحت خمارها فإن كل امرئ يقول ما لها، فتصبح ألعوبة في يد الجماهير. هذا مثل ضربته لك في اتباع الهوى وعبادته وكيف يصبح الناس عبيده إذا أطاعوه. وإذا كانوا عبيداً للهوى فإنهم إليه يذلون. فأما من ملك هواه فقد علمت ماذا من العز جناه. أفلست ترى أن هذا يفهمنا قوله تعالى في أول السورة:

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١].

أفلست ترى أن الذي أطلق العنان للسانه أو لبصره أو لجنانه فتكلم بلا استبصار ونظر لغير اختبار وتفكر فيما ليس له اعتبار قد عبد هواه، وأي فرق في العبادة بين هذا وبين من صنع التمثال فاتخذه معبوداً، فالأول سلم حواسه وعقله لهواه، والثاني أبرز من هواه صورة وسلم لها قيادة في العبادة، فسمينا الأول فاسقاً وسمينا الثاني كافراً، وهما في شرعة الجهل سيان صنوان لا يفترقان، غاية الأمر أن الأول ضل في الفروع والثاني ضل في الأصول ولكن الضلال عمهما والجهل لزمهما. كل ذلك لأن أعمال النفس اليوم موزونة كما وزنت الأمور المحيطة بها، ونتائج الزنة ترسم على جبينها وتظهر في أحوالها وأخلاقها وآدابها ومعاشرتها، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[النور: ٤٠].

الإنسان اليوم أكثره في جهالة كما قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

إذا أردت أن تعرف ما عليه الإنسان اليوم في الكرة الأرضية وتفهم حقيقة الناس في الأمم الشرقية والغربية فاقرأ كتابي «أين الإنسان» الذي ألفته وأرسلته إلى مؤتمر الأجناس في إنكلترا وجعل في جملة المقررات الرسمية، وهذا الكتاب قدم لها في سنة ١٩١١ قبل الحرب العامة بنحو ثلاث سنين، وأبنت فيه أن الدول كلها يغالب بعضها بعضاً، وقد ضاعت قواها العقلية كما أضاعت الأنهار ماءها في البحر الملح لا يلوي ماؤها على المزارع والرياض والبساتين إلا قليلاً، وأكثرها ينصب في البحر بلا فائدة. هكذا عقول الناس تذهب هباء منثوراً في الهباء مع الهواء، وجهل الناس أنهم أعضاء جسم واحد، وأنهم لو اتحدوا لاستخرجوا ما في الطبيعة من علم وما في الأرض من حكمة وما في البحار من عجائب، ولكنهم خائبون خائنون لبعضهم، فهم يدبرون المكايد لبعضهم فتضيع القوى والملكات فيما لا فائدة فيه، وهم بذلك ضائعون تائهون صم بكم عمي فهم لا يفقهون.

إنّما مثل القوى الإنسانية والعقول البشرية اليوم كمثل البخار وكمثل الكهرباء، كان الناس قديماً يرونهما ولا يلتفتون إليهما فعقلوا اليوم فائدتهما وانتفعوا بهما. فأما العقل الإنساني اليوم فإنه مهجور متروك منبوذ مجهول يضيعه الناس في الحيل السياسية والأخلاق الأسدية والحروب الدولية، ولو أنهم اجتمعوا فحاربوا به الطبيعة وكانت تلك الحيل لاستخراج كنوز الأرض لأصبح الناس في نعمة وهم سعداء. ذلك هو تفسير قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[الفرقان: ٤٣] وأمثالها من الآيات. فهذه هي عبادة الهوى، وكيف يكون الهوى إلهاً معبوداً، ويظهر أن أهل الأرض مخلوقون ليرتقوا في العالم الذي بعده لأن أهواءهم اليوم غالبة والعقول سيكون لها السلطان شيئاً فشيئاً، كما نرى الشيوخ أقرب إلى التعقل من الشبان لغلبة الهوى على الآخرين. انتهى.

اللطيفة الخامسة عشرة في قوله تعالى:

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

هذه اللطيفة مفهومة من سوابقها.

انتهى الكلام على المقصد الأول من سورة «الفرقان».

المقصد الثاني

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ألم تنظر إلى صنعه ﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ بسطه فعمّ الأرض من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، فلا هو ظلمة الليل ولا هو وقت إشراق الشمس، ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ دائماً لا يزول ولا تذهب الشمس، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ فإن الأشياء تستبين بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا ﴾ أخذنا ذلك الظل الممدود إلى حيث أردنا ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ سهلاً غير عسير أو قليلاً قليلاً جزءاً فجزءاً بسبب ضوء الشمس الذي ينسخه، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ جعل الظلام كاللباس فإن كلاً منهما ساتراً لما أحاط به، ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم، وأصل السبت القطع، ويطلق على الموت لأنه يشبه قطع الحياة، ومنه المسبوت للميت، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ وهو في مقابلة الموت المذكور في أحد المعنيين السابقين، فكأنه سبحانه يقول: جعلنا سباتكم أي موتكم بالنوم في الليل وجعلنا نشوركم أي انبعاثكم

من النوم الذي يشبه الموت بالنهار، ففيه ينشر الخلق للمعاش كما ينشرون بعد الموت للحساب، قال لقمان لابنه: «كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر»، فالنوم واليقظة نموذج للموت والنشور، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ البشر جمع مخفف بشر بالضم جمع بشور بمعنى مبشر أي مبشرات بإقدام المطر، وقرئ «نشراً» أي ناشرات للسحاب جمع نشور، وهو إما على وزن فعل مخففاً وإما على وزن سحب جمع سحاب، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي: بليغاً في طهارته وهو في اللغة إما اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به والوقود لما توقد به النار، وإما صفة كما ذكرناه هنا، وإما مصدر بمعنى التطهر، تقول: تطهرت طهوراً حسناً، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة إلا بطهور» ـ بفتح الطاء ـ أي بطهارة، وأما قول ثعلب: إنه ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره، وهو مذهب الشافعي فذلك زيادة بيان للطهارة، وليس هذا معنى الطهور لأنه لازم، وصيغة المبالغة من اللازم لازمة، فطهور لا يفيد التطهر لأن اللازم لا يفيد معنى المتعدي، ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: لنحيي بالمطر بلداً أو مكاناً لا نبات فيه فنجعله مزداناً بالشجر والنبات والأزهار والأثمار، وذلك للأرض أشبه بالحياة للإنسان والحيوان ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: ونسقي الماء أنعاماً وهي البهائم وأناسي مما خلقنا، وسقى وأسقى لغتان، قال الشاعر:

سقى قومي بني نجد وأسقى   نُميراً والقبائل من هلال

والأناسي جمع إنسي كالكراسي جمع كرسي، أو جمع إنسان وأصله أناسين كسرحان وسراحين، فأبدلت النون ياء وأدغمت الياء في الياء، يقول الله: أنزلنا الماء فأحيينا به الأرض للنبات، وخلقنا الأنعام لتأكل النبات وتشرب الماء، وخلقناكم لتشربوا الماء وتأكلوا النبات والأنعام، وهذا المعنى يفيده ترتيب الذكر، فقدم الأرض ثم الأنعام ثم أخر الإنسان لاحتياجه إلى ما تقدمه، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: صرفنا المطر بين الناس مرة ببلدة ومرة بأخرى، وجعله ثلجاً أو برداً أو مطراً أو مخزوناً في باطن الجبال ينزل شيئاً فشيئاً ليمد الأنهار على طول السنة، وجارياً في نهر ونازلاً في بحر، وبخاراً مرتفعاً من البحر الملح وغيره وسحاباً تصرفه الرياح، وإذا صار ثلجاً كبر حجمه، وإذا كبر الحجم كان سبباً لتكسير الأحجار القائمة فوق، فيكون من ذلك العيون النابعات، ويفتح الماء لنفسه طريقاً إلى الخارج ويكون في مجاري تحت الأرض إما في غورها البعيد كالسيل الباطني الذي يخرج من جبال القمر وراء خط الاستواء ويمر في مجاري تحت الأرض المصرية جارياً إلى البحر الأبيض، وهذا النيل صالحاً للشرب لصفاء مائه، وإما في غورها القريب كالماء المعدني الذي يستخرجه الناس لسقي أرضهم بالنواعير والسواقي والآلات الرافعة، فإن ذلك الماء مخلوط بمعادن قد اتصف بأوصافها كالكبريت والملح والفضة والنوشادر وما أشبه ذلك والناس يسقون منه زرعهم ويستشفون به ونحو ذلك. أما الذي في الغور البعيد فهو بعيد المنال جداً يحتاج إلى عمق ١٠٠ متر أو ١٥٠ أو نحو ذلك، وماؤه يرتفع أكثر من القسم الثاني لأنه ينزل من مكان أعلى وراء خط الاستواء في مكان ينزل منه النيل الظاهر الذي لا يصح شرب مائه إلا بتصفيته، وفي بعض الأيام يجب غليه لقتل ما فيه من المواد الضارة. فهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ﴾، فهو جامد يشبه الحجر وسائل يشبه الزيت وسائر

المائعات، وجسم بخاري يشبه الهواء وهو غاد رائح في الجو وفي النهر وفي الغدران وفي أجسام الحيوان والنبات والإنسان، ومنفصل عنها سائر في الجو طائر في السحاب، وهكذا دواليك. وهو مع ذلك في البحار صقيل يظهر فيه كل كوكب من شمس وقمر، والناس يتطهرون ويشربون وهم غافلون عن جماله فيتركون قلوبهم حجرية وهم يتطهرون كل يوم من المياه الحسنة الأشكال، البهجة الزينة والمنظر المعطية للأجسام حياة وطهارة. يقول الله: ولقد صرفنا المطر بين الناس على أنحاء شتى فلا يمر ساعة ولا ليل ولا نهار إلا كان لنا فيه آثار فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين بحيث يتبع أحوال الجو. والشمس التي تجري بحسب ما يرى في الحس، ويكون هناك صيف وشتاء وربيع وخريف، وفي كل ذلك أطوار شتى للمطر، والشتاء عند قوم صيف عند آخرين، وهكذا الربيع والخريف في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي، فنحن صرفنا المطر بينهم كما صرفنا الليل والنهار، فالشمس جارية من عند قوم ذاهبة لآخرين. هكذا المطر والسحاب ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[النمل: ٨٨]. فعلنا كل ذلك التصريف ﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ ليتذكروا ويتفكروا ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أو صرفناه بينهم ليعتبروا أو يعرفوا حق النعمة فيشكروا، فأبى أكثرهم إلا كفر النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ نبياً ينذر أهلها فتخف عليك أعباء النبوة، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة، ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ شديداً ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ فلا هما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان، من مزج دابته إذا خلاها ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة أو مر مالح زعاق لا يصلح لقطع العطش بالشرب منه ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حاجزاً من قدرة الله تعالى ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ وتنافراً بليغاً أو ستراً ممنوعاً فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ جعله جزءاً من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويقبل الأشكال والهيئات بسهولة أو من النطفة ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أي: جعله ذا نسب وصهر، والنسب ما لا يحل نكاحه، والصهر ما يحل نكاحه وقد حرم بالنسب سبعاً وبالسبب سبعاً ويجمعهما قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾[النساء: ٢٣] الآية فارجع إليها في سورة «النساء»، أو قسمه قسمين: ذوي نسب وهم الذكور ينسبون إليه، وذوات صهر، أي: إناثاً يصاهر بهن، كقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[القيامة: ٣٩].

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ إذ خلق من مادة واحدة بشراً عجيب الصنع بديع الخلقة ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يعني الأصنام وكل ما عبدوه فليست تنفعهم إن عبدوها ولا تضرهم إن تركوها، ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ مظاهراً ومعيناً على معصية ربه فهو يعاون الشيطان على معصية الرحمن ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ منذراً للكافرين ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي: على تبليغ الرسالة المأخوذ من قوله: ﴿ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾ إلا فعل من شاء ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي: أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده

بالإيمان والطاعات، وهذا من أحسن الأساليب التي جاءت في علم البديع كقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

يصف الشاعر الممدوحين بأن لا عيب فيهم إلا عيباً واحداً وهو أن سيوفهم مفلولة من مقارعة الأبطال، هكذا يقول: لا أسألكم عليه أجراً إلا شيئاً واحداً وهو أنكم تتقربون إلى الله فهذا هو أجري، وإذا كان هذا هو أجره فهو دليل على غاية الإخلاص والصدق في الدعوى، وذلك دليل على أن السعادة القصوى أن يكون العمل محبوباً لذاته لا لغاية أخرى فكأنه جمال. وإذا كان الجمال مطلوباً لذاته فهو خير مطلوب، فالنبوة لتكميل الخلق فأجرها لا يكون عرضاً دنيوياً، بل سعادة النبوة في نفس النبوة أي في نتائجها، والأنبياء بالنسبة للناس كالآباء بالنسبة للأبناء، فالأب لا يطلب من تعليم ابنه إلا رقي ابنه وسعادته، هكذا لا يطلب الملائكة من الناس ولا الأنبياء والحكماء ولا العلماء المخلصون إلا هداية الناس، ويرون في نفوسهم لذة لا تضارعها لذة ولا يفرحون بمال ولا بعقار. ومن هذا الحديث الشريف: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»، وهذا كلام إذا سمعه صغار أهل العلم ظنوا أن المقصود ثواب الآخرة وحده، وما دروا أن قائل ذلك يستلذ بإيمان رجل أكثر مما يستلذ بحمر النعم، فلا تنظر يا محمد إلى ما عندهم من مال ليعطوك أجراً ولا تخف من شرهم، فلا هم رازقوك ولا هم مؤذوك ما دمت قائماً بهدايتهم، فنحن نعطيك ما يكفيك ونكفيك شر من يؤذيك، ونفعل ذلك مع كل من هو على طريقك سائر، وهذا معنى قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾، فأما الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكلت عليه منهم ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ نزهه عن صفات النقصان ﴿ بِحَمْدِهِۦ ﴾ مثنياً عليه بأوصاف الكمال طالباً مزيد الإنعام بالشكر على سوابقها، ومن صفات النقصان التي ينزه عنها أن يكل إلى غيره من توكل عليه ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أي: كفى الله خبيراً بذنوب عباده فهو خبير بأحوالهم كاف في جزاء أعمالهم. ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قد تقدم الكلام على هذا فيما سبق موضحاً، يحرض الله بهذا عباده على التوكل عليه إذا قاموا بما وجب عليهم من الدقة في العمل والثبات فيه ليقوم على الوجه الأحسن، فإذا فعلوا ذلك فليتوكلوا على الله في نتائجه وليفرحوا بما يجيء به القدر لأنه هو الحسن، كما أن خلق السماوات والأرض حسن. فخلق السماوات والأرض في ستة أيام والاستواء على العرش عبارة عن النظام البديع وإدارة شؤون الملك الموضح في سورة «يونس» و«هود»، فمن تخلق بأخلاق الله على قدر طاقته البشرية في الأعمال الأرضية من الأفراد والأمم فهو حري أن يتوكل على الله، والله كافيه لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً وأتقن صنعاً، وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ فاعل «استوى»، وقوله: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أي: فاسأل عما ذكر من خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستواء الرحمن على العرش وعن الرحمن عالماً يخبرك بحقيقته، لأن خلق السماوات والأرض في ستة أيام معناه أمر غير ما يفهمه العامة، لأن اليوم يطلق على ألف سنة أو خمسين ألف سنة أو أكثر من ذلك. والاستواء على العرش ليس معناه الجلوس عليه فذلك مستحيل، بل هو يفهم مما ذكرناه هناك في سورة «يونس» و«هود»، فليس كل امرئ يعرف ذلك،

فليبحث الناس في العلم وليجدوا في البحث ولا يقفوا عند ظاهر اللفظ، فالضلال في الوقوف، فمن كان جاهلاً فليقف عند ظاهر اللفظ ويترك البحث في معناه، ومن كان ذكياً فعليه بالبحث والدراسة بسؤال العلماء، فإن العلماء إذا قرؤوا مثل هذا فهموه غير ما يفهمه العامة. وأيضاً كان القوم لا يعرفون الرحمن فإن هذا الاسم المشتق من الرحمة الذي هو أبلغ من الرحيم لم يكونوا يعتادونه، بل يعرفون الرحيم والراحم والرحوم. ولما كانت هذه الأمور الثلاثة تحتاج إلى العلماء بالعلوم المختلفة كعلم الارتماطيقي حتى يعرف لم اختص عدد الستة بالذكر مع أن العوالم خلقت من آلاف آلاف آلاف الآلاف، فلم اختار عدد ٦، وكالعلوم جميعها من فلكية وطبيعية حتى يعلم كيف يكون الاستواء بطريق الإجمال، وكعلم اللغة العربية والاطلاع الواسع فيها حتى يعرف الرحمن.

ولما كان الأمران الأولان قد تقدم بحثهما في «يونس» و«هود» وغيرهما من هذا التفسير ـ وسنزيد الأول منهما بحثاً وتنقيباً في لطائف هذا المقصد إن شاء الله ـ لم يبق إلا الثالث الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ اخضعوا له ﴿ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي: لا نعرف الرحمن فنسجد له، بل نعرف الراحم والرحيم، وأما الرحمن فليس يطلق عندنا على الله. فهذا سؤال عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، أو سؤال عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم، ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي: أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له أو لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منا به ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ قوله: ﴿ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ ﴿ نُفُورًا ﴾ تباعداً عن الإيمان. ولما كان الرحمن مشتقاً من الرحمة وهو أبلغ من الرحيم أردف ما تقدم ببهجة رحمته ونور جماله وسعة ملكه ليعرف معنى الرحمن، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ البروج في اللغة: القصور العالية أو القصور فيها الحرس. وهي هنا إما البروج الاثنا عشر وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وإما النجوم الكبار التي عدها المتقدمون نحو ألف وعدها المتأخرون أكثر من مائتي ألف ألف. وإنما سميت البروج المتقدمة بهذا الاسم لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها. واشتقاق البروج من التبرج لظهورها، ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أي: شمساً متوقدة وقمراً مضيئاً، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه عند مضيه، و«الخلفة»: فعلة من «خلف»، كالركبة من ركب، وهي الحالة التي يخلف فيها كل واحد منهما الآخر، أي: جعلهما ذوي خلفة، وقوله: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ جَعَلَ ﴾ أي: لمن أراد أن يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر في صنعه، ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أي: شكر نعمة ربه عليه فيهما. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثاني. وهنا أربع لطائف:

(١) في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾[الآية: ٤٥].

(٢) في قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾[الآية: ٤٨] إلى قوله: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[الآية: ٥٤].

(٣) وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[الآية: ٥٩].

(٤) وفي قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الآية: ٦١] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾

تقدم مبحث الظلال مطولاً مستوفى في السور المتقدمة قبل سورة « الكهف » فلننظرها نظراً آخر فنقول: انظر أيها الذكي نظرة أوسع مما كتبناه وتأمل في هذه الدنيا. إنك لا تجد فيها إلا نوراً على نور كما تقدم في سورة « النور » إذ جاء فيها: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، ثم ضرب المثل هناك، فأنت إذا تأملت لا تجد في هذه الدنيا ظلالاً وظلاماً إلا قليلاً جداً. ألا ترى أن الكواكب العظيمة المشرقة التي بلغت مئات الملايين كلها مضيئة بأنفسها لا ظل لها، بل هي مشرقة ليلاً ونهاراً لا انتهاء لنورها، وإذا أردت أن تعرف جميع الشموس فانظر شمسنا هل تظلم ليلاً أو نهاراً. لا ظلام. لا ظلام. فإذا كانت شمسنا على صغر حجمها بالنسبة للشموس الأخرى لا تطفأ فما بالك بالشموس الكبيرات التي شمسنا بالنسبة لها صغيرة، فثبت أن الكون نور في نور ولا ظلمة فيه اللهم إلا ظلاً قليلاً، وما هو؟ هو ظل الأرض التي نسكنها.

واعلم أن الأجرام على ثلاثة أقسام: أجرام مضيئة وأجرام معتمة وأجرام شفافة. فالأجرام المضيئة هي هذه الشموس، فالعالم كله نور كما قلنا، والأجرام المظلمة المعتمة هي الأرض التي نحن عليها، والقمر الذي يجري حولها وما شابه هذين الجرمين من كل سيار يجري حول الشمس، وقد أصبح متجمداً كتجمد الأرض سواء أكان فيه سكان كما في أرضنا أم خلا من السكان كما في قمرنا الذي يقال إنه قد خرب بعد أن كان يصلح للسكنى، ويقال بطريق القياس: إن حول الشمس الأخرى سيارات كأرضنا وأقمارها وكلها في الحكم كما في سياراتنا، فلنرجع إلى أرضنا وقمرنا فإنا نجد أن الشمس متى أشرقت على وجه الأرض أضاءت وكان هذا نهاراً ويكون الجانب الآخر ليلاً، ولا معنى لليل إلا أن الشمس حجبت عن وجه من الأرض فأصبح مظلماً. هذا معنى الليل. ومعنى النهار أن تتجه الأرض إلى الشمس بالوجه الآخر، فالليل ما هو إلا ظل الأرض، والنهار ما هو إلا ضوء الشمس وهكذا للقمر ليل ونهار كذلك، ومن ظله يكون كسوف الشمس لأنه يحجب ضوءها عنا فيقال كسفت الشمس، ولا معنى لخسوف القمر إلا وقوعه في ظل الأرض المخروطي ويكون ذلك في أنصاف الشهور لوقوع الأرض وقت الاستقبال بينهما، فأما الكسوف فإنه يكون في أواخر الشهور لوقوع القمر بين الأرض والشمس. إذا فهمت هذا عرفت قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [الفرقان: ٤٥] أي: إلى صنعه وعجائبه وإتقان فعله ﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥] وراء الأرض من الناحية الأخرى المخالفة للناحية المقابلة للشمس. ومعلوم أن الدنيا كلها نور في نور لأن هذه الكواكب كلها نور مشرقات. وإذا كانت هناك سيارات للشموس الأخرى فهي في جانب الشموس ضئيلة لا تذكر ولا تؤثر ظلالها، فالدنيا كلها نور لأن ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

يقول الله تعجب أيها العبد من صنع ربك كيف ابتدع أجراماً قليلة جداً كالأرض وجعلها معتمة بسبب برودة ظواهرها، وبهذه العتمة صار لها ظل من ورائها، ولولا ذلك ما كان في هذا العالم ظلال يستريح الناس فيها، ولا لهم وقت مناسب للنوم فيه. ولو كانت الأرض شفافة كالهواء وكالزجاج وكالماس وأشباهها لم يكن لها ظل، فالله هو الذي اخترع الأجسام المظلمة رحمة منه ليكون لها ظل فيكون الليل والنهار، وفي النهار تختلف الظلال اختلافاً كثيراً بسير الشمس، فالله لما

خلق الشمس مثلاً جعل الهواء وجعل الجسم الأثيري الذي فوق الهواء شفافين وجعل الأرض معتمة فالشفاف واسطة لوصول الضوء والمعتم يمنعه فيكون ظلام الليل والظلال الأخرى النهارية. ثم إن الأرض لو كانت ساكنة وكان وجهها المحاذي للشمس ثابتاً لم يتحرك لم يكن ليل ونهار ولم تكن هناك رحمة بالناس والحيوان تامة، لذلك أعقبه بقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾[الفرقان: ٤٥] فإن ضوء الشمس بحسب الظاهر يتنقل فيكون نور الشمس ناسخاً لظلمة الأرض بحيث يكور الله كل واحد على الآخر، فقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ حكمة أخرى غير حكمة الظل فالظل نعمة وتغيره نعمة أخرى، والمراد بالظل على هذا المعنى ما يعم الظلام الدامس، وقوله: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[الفرقان: ٤٦] متمم لما قبله لأنه بنسخ الشمس الظل يكون التدريج فيه، وهو معنى: ﴿ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾.

اعلم أن هذه الآية وتركيبها من أعجب العجب. فإن لفظ ﴿ طَهُورًا ﴾[الفرقان: ٤٨] هنا كقوله تعالى في سورة «الحجر»: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الآية: ٢٢] كلاهما وضع رمزاً لعلوم واسعة، ولكن أكثر الناس عنها معرضون. وبيانه أن قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ ﴾[الحجر: ٢٢] إنما نزلت في مقام الامتنان بإرسال الرياح وإنزال الماء من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها، فقوله: ﴿ لَوَٰقِحَ ﴾ جاءت كمفتاح لعلم لقاح النبات. وإذا كنت اطلعت على ما كتبناه في كتبنا أو ما جاء في سورة «الحجر» في التفسير هناك. أقول: إذا اطلعت عليه هناك رأيت عجباً عجاباً في بدائع صنع الله تعالى من الإلقاح، ولولا هذه الكلمة لم يكن لذكر ذلك في التفسير معنى، وعلم اللقاح أهم ما في علم النبات لأن عدد الأوراق في الزهرات التي فيها أعضاء الذكور وأعضاء الإناث عليها مدار تقسيم هذا العلم، هكذا هنا فإن الله امتن على العباد بإنزال الماء من السماء، وذكر هذه اللفظة وهي ﴿ طَهُورًا ﴾[الفرقان: ٤٨] مع أن المقام مقام النعمة بسقي الأرض به وإخراج النبات وسقي الحيوان والإنسان. فأما الطهارة فليس المقام لها، فإذن يقال: إن الماء أنزله الله لحياة الأرض والنبات والحيوان والإنسان ولنظافة الإنسان وثوبه ومكانه، فالماء لحياتنا ولنظافتنا. هذا ملخص ما يفهم من الآية. فالله عز وجل له علينا المنة، إذ جعل الماء حياة لنا ولزرعنا ولحيواننا وطهارة لنا، ولا جرم أن طهارة الظاهر تتبع طهارة الباطن، فلا خير في ظاهر لا يتبعه الباطن. إن الله عز وجل جعل الماء شفافاً تسطع فيه الكواكب والشمس والقمر، فلو رأيته في الليالي المظلمة لألفيت الكواكب فيه مرسومة، فالماء يحيينا وينظفنا وإذا نظرنا إليه وجدنا جوهره يسع العالم الذي تقابله فهو مرآة للعوالم المقابلة له. الماء يكون بخاراً ويكون سحاباً ويكون ضباباً وثلجاً وبرداً كما تقدم. يقول الله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الفرقان: ٥٠] بم كفر الناس؟ كفروا النعمة، لأن الماء لو أنهم فهموه وفقهوه لكان فيه للناس غنية، ولكان كافياً لهم ولكنهم كفروا النعمة. نظروا إلى الماء من حيث إنه حياتهم، وإن كانوا متدينين نظروا إليه من حيث إنه به نظافة أجسامهم، ولكن أكثر الناس كافرون بحقائقه، فانحطت نفوسهم إلى الدرك الأسفل. أفلم ير الناس إلى إشراق الكواكب فيه وأنها مرسومة. أليس هذا نبراساً لهم عسى أن يتذكروا أن أنفس الناس يجب أن تكون مشرقة ترسم فيها العلوم كما ارتسمت الكواكب في الماء.

الروح ألطف من الماء، والماء وسع الكواكب، فلماذا لا يفهم الناس من هذا أن تشرق نفوسهم بالعلوم وبالحكمة وبالأخلاق وبالفقه كما أشرق هذا الماء بالكواكب وظهرت فيه ورسمت في خلاله. هذا كتاب كتبه الله بيده في الطبيعة وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفرقان: ٥٠]، وقال في القرآن: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[الكهف: ٥٤]، ولكنه هنا شدد فقال: ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الفرقان: ٥٠]، هنا يقول الله: ﴿ صَرَّفْنَـٰهُ ﴾[الفرقان: ٥٠]، وفي القرآن يقول الله: ﴿ صَرَّفْنَا ﴾[الكهف: ٥٤]، وفي الماء يقول: ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الفرقان: ٥٠] فكأن الماء كتاب، وكأن الذي لا يفهمه ولا يعمل بما فيه «كفور». فهذا الماء صاف شفاف كما قدمنا بحسب طبعه، وهو يسع الكواكب المقابلة له كما قدمنا. هكذا فلتكن قلوب الناس خالية من المعاصي والمطامع فتشرق عليها العلوم. ومن أظلمت نفسه بالظلم والذنوب لم يشرق فيها العلم، كما لا تظهر صور النجوم في الماء الكدر. وأيضاً إن النظر في أمر الماء يدل على بقاء الأرواح. فإذا كان الصفاء والكدر في الماء يختلفان من حيث قبول انطباع الصور وعدم قبولها كما يحصل في أرواحنا هكذا يكون تصريف الماء حرارة وبرودة إذ يكون سائلاً وبخاراً وثلجاً، فإذا كان داخلاً في أجسام الناس والحيوان والنبات فإنه يكون سبباً في الحياة كما أن الأرواح في الأجسام كذلك، وإذا خرج من الأجسام بالبخر صار بخاراً كما تخرج الأرواح بالموت إلى عالم آخر، وكما أن البخار يرجع فيصير سحاباً فينزل مطراً على اليابسة فيدخل الأجسام ثانياً، هكذا أرواحنا خروجها من أجسامنا لا يمنع بقاءها ورجوعها ثانياً إلى عالم الحياة. فإذا كان خروج الماء من أجسامنا بصفة بخار لم يدل على أن الماء فني، بل إنّما هو صار بخاراً، والبخار لم يفن بل هو موجود فعلاً ويرجع ماء، وهكذا فالله تعالى بهذا التصريف يفهمنا أن الماء لم يفن بل الماء من آدم إلى اليوم وإلى أن تفنى الدنيا هو هو لم يتغير، فالماء الآن هو الماء إلى يوم تفنى الأرض. هو الماء الذي كان منذ مئات الألوف من السنين، وهو المطر وهو البخار وهو الأنهر وهو الذي يرجع إلى البحر الملح، وهو الذي يكون بخاراً، وفناؤه سيكون يوم تفنى الأرض فليس تحت الشمس من جديد، فالماء الذي شربه أجدادنا هو الماء الذي نشربه أو نظيره ولكن ذلك لم يفن، فإما أن يكون هذا منه وإما أن يكون ذلك قد رجع إلى البحر وهو فيه إلى الآن وسيرجع بخاراً يوماً ما، هذا ملخص المعنى.

فإذا كانت هذه حال الماء الذي هو مركب من أكسوجين وأدروجين، فما بالك بأرواحنا التي لا تركيب فيها. إن الحكماء قرروا أن الجسم كلما كان أكثر تركيباً كان أسرع انحلالاً، وكلما قل تركيبه عسر انحلاله وطال أمد وجوده.

ألا ترى الأشجار فإنها أسرع انحلالاً من الأحجار، لأن الأحجار أقل تركيباً من الأشجار، فالماء أولى لأنه أقل تركيباً إذ هو مركب من الأكسوجين والأدروجين ولا انحلال لهما إلا في أيام خراب الأرض وتبديلها أو بتحليله في المعامل الكيميائية، وهذا لأن الماء قليل التركيب بخلاف النبات والحيوان والإنسان، فالروح التي لا تركيب فيها لا فناء لها. فإذن يكون في تصريف الماء عبرة لنا وهي بقاء أرواحنا بعد الموت، والصفاء في نفوسنا المرموز له بصفاء الماء، وهذا من أهم أغراض الرسالة، فالرسالة إنّما جعلها الله لتهذيب الأرواح وتذكيرها بميعادها ورجوعها إلى عالم الأجسام كرة أخرى وهو يوم

القيامة، ولذلك ذكر بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾[الفرقان: ٥١]، وذلك لتذكير الناس بما يصرف الله في القرآن وبما يصرف في الماء وفي غيرهما لتصفو نفوسهم ويعلو كعبهم في الحكمة والعلم. هذه هي المناسبة الداعية لذكر الرسالة مع الماء، وأيضاً الرسالة والعلم حياة للنفوس والماء حياة للأجسام.

زيادة كشف وإيضاح

إتقان الصنعة من موجبات دوامها: إما بأن تبقى هي أو بأن يتجدد أمثالها

اعلم أن اقتران ذكر الماء والتصرف فيه بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١] داع للبحث وللتفكر والموازنة بين القرآن وبين الماء وكذلك الإنسان. فهاهو ذا بعد أن ذكر ذلك بين كيف يتصرف في الماء بقوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾[الفرقان: ٥٣] الخ، وكيف يتصرف في الإنسان فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[الفرقان: ٥٤] الخ، فهاهنا قرآن وماء وإنسان تصرف فيها كلها.

ولقد رأيت كيف تصرف في الماء فيما كتبناه هاهنا، وأزيد عليه بأن أشير إلى ما تقدم في سورة «الأنعام» من التصرف فيه بالإشراق والنور. ذلك أن هذا الماء المذكور في هذه الآية يكون مشرقاً مضيئاً جميلاً سواء أكان في الأقطار الاستوائية أم في القطبية. ألا تعجب معي كيف ذوب الله فيه مادة الفوسفور كما تقدم في «الأنعام». ذوبها من الحيوانات التي تموت في البحر من حيواناته. فلما أذاب الفوسفور اتقد نوراً وظهر على هيئة شهب وذوات أذناب وقوس قزح، وظهر وبهر وجمل وكانت له أشكال باهرة مختلطة مزدوجة يراها المسافرون في البحر، ألا تعجب معي كيف كان ذلك أيضاً في القطبين ماذا فعل الله هناك. الجو هناك بارد والبرد جعل الماء ثلجاً. فانظر ماذا ترى. ترى الثلج إذا أشرق عليه نور الشمس أو ضوء الصباح هناك يلمع ويكون من لمعانه أنوار وبهجة لا تقل في تقلباتها عما في بحار خط الاستواء.

هذه هي الصنعة المتقنة. تفنن وتفنن وإتقان وإتقان وأنوار وأنوار. لم يحجب ذلك حر مفرط ولا برد شديد. ففي كليهما لم يعدم وسيلة يبهر بها العقول ويحسن بها الأشكال في الماء فضلاً عما تقدم من أنواع الصور والأحوال. هذا هو الماء وهذه تصرفاته المذكورة في الآية، فانظر في أمر القرآن تره قد اشتمل على حكم ومواعظ وأخبار وأحكام وأمثال ووعد ووعيد وأنواع من البديع وتفنن في القول وحسن التعبير، فدام على مدى الزمان، دام هذا الوجود لحسن إتقانه، ودام هذا القرآن لحسن إتقانه، فهذه الدنيا وهذا الوجود كان دوامهما لحسن الإتقان في الصنعة كما ترى في الماء وهكذا القرآن. واعلم أن الكتب يكون دوامها على حسب حسن التفنن والإتقان فيها، فعلى مقدار تفننها وإتقانها تدوم كما دام الماء ونظام الوجود لحسن التفنن:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

بقي علينا أن ننظر في أمر الإنسان فنرى نظامه فيه ذلك التفنن كما رأيت في نظام الماء. الماء يكون ممزوجاً بالنبات مختلطاً بجسم الحيوان يدور في دورة كل منهما وهو بخار وماء وثلج إلى آخر ما تقدم، وهو شيء واحد.

هكذا هذا الإنسان ترى له روحاً واحدة ومن عجب أنها هكذا:

مخيلة	في مقدم الدماغ	متكلمة	باللسان أيضاً
مفكرة	في أوسطه	ماضغة	بالأسنان
ذاكرة	في مؤخره	هاضمة	بالمعدة
حافظة	في مؤخره	مجرية الدم	بالشرايين
كاتبة	باليد	مصفية الدم	بالرئة
ناظرة	بالعين	موزعة الدم	بالقلب
سامعة	بالأذن	طابخة الدم	بالكبد ونحوه
باطشة	باليد أيضاً	حافظة القلب وما حوله	بالضلوع
ماشية	بالرجل	حافظة الماء	بالكلية
ذائقة	باللسان	مخرجة الفضلات	بالسبيلين

وهكذا.

فالنفس واحدة وهي الفاعلة الأفعال المختلفة ففي كل عضو بحسبه، فهي تتنزل على حسب الآلات، فهي في الدماغ عقل وفكر وخيال وذكر وحفظ، وهي في الحواس سمع ونظر الخ. وفي الدائرة الغذائية هاضمة، وفي الدوائر التنفسية مصفية ومدخلة الأكسوجين ومخرجة الكربون، فمن هذا عرفنا حسن النظام في الماء وفي الإنسان وفي القرآن: وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، وقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] الخ.

إن دوام الأشياء على مقتضى حسن إتقانها. فأمثال الهرم في البلاد المصرية بقاؤه لحسن الصنعة وكذا الماء والكواكب وأمثال القرآن كذلك. أما مثل الحيوان والنبات فحسن إتقانهما كان سبباً في تجدد الأشخاص، فحسن الإتقان في النظام كان سبباً في تجدد هذه الأشخاص وقتاً بعد وقت. والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

اعلم أني لما وصلت إلى هذه اللطيفة قال لي أحد الفضلاء وقد اطلع على ما سبق ذكره في سور مختلفة كسورة «يونس» و«هود» وقرأ ما كتبته على قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وعلى ما ذكرته في قوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فقال: إن ما ذكرته هناك لا غبار عليه، ولكن لا يزال في النفس شيء مما قلته في ذكر ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ومعلوم أن السماوات والأرض لم يصنعها الله إلا في ملايين الملايين من السنين، وإذا كانت الأرض لم يتم صنعها إلا في مئات الملايين فما بالك ببقية العوالم كالشمس وتوابعها. وإذا كانت الطبقة الصوانية التي هي فوق الكرة النارية التي هي عبارة عن باطن الأرض لم تكون على رأي بعض العلماء إلا في نحو ثلاثمائة مليون سنة فما بالك ببقية الطبقات. فإذن مسألة الأيام الستة لا جرم أنها مدد عظيمة. هذا هو الذي يؤخذ مما تذكره في هذا التفسير. إنما

الذي يهمني الآن أن أعرف لمَ اختار عدد ٦ ولم يقل عدد آخر، مع أنه لو قال أي عدد لصح لأنها أزمان طويلة فلتقدر بأي عدد.

فقلت: اعلم أن الجواب على هذا لا يعرف إلا بعلم الارتماطيقي، وهذا العلم هو أصل جميع العلوم الرياضية. وهذا الفن قد كتبت مجمله في كتابي «الفلسفة» الذي جمعت فيه سبعة عشرة علماً هي مجموع العلوم التي كان يقرؤها القدماء في الحكمة، والمقام لا يسع التفصيل ولكن أذكره هنا مجملاً لتعرف لم اختير عدد ٦ في التوراة والقرآن، ومتى عرفت ما سأذكره لك استفدت سبب اختيار الستة.

فاعلم أن العدد كله مركب من الواحد لأن إضافة واحد إلى واحد يكون اثنين والاثنان أول العدد لأن العدد يشعر بالتعدد ولا تعدد في الواحد. فالواحد خاص بالمبدأ الأول الذي منه كل الوجود والاثنان أول العدد، والثلاثة أول العدد الفرد، وجميع الأعداد لا تخلو من الزوج والفرد. إذن هي قسمان: أزواج وأفراد. فإذا أضفت إلى واحد ٢ و٢ و٢ وهكذا تكونت عندك الأعداد الفردية كلها إلى ما لا نهاية لها. وإذا أضفت إلى اثنين ٢ و٢ و٢ تكونت الأزواج كلها. وإذا نظرت في هذين النوعين رأيت عجباً. رأيت جميع الأفراد وهي ٣ و٥ و٧ و٩ و١١ وهكذا إلى ما لا يتناهى لا تخلو من أمرين: إما أن تكون أعداداً أولية أي صماء لا تنقسم لأنها ليست من ضرب عدد في عدد آخر مثل ٥ و٧ و١١، وإما مركبة من ضرب أعداد كلها فردية ولا دخل لعدد زوجي فيها البتة مثل ٩ و١٥ و٢١ و٢٥ و٢٧ وهكذا، فإن هذه كلها مركبة من أعداد فردية. هذه هي الأعداد الفردية من أولية وغير أولية. أما الأعداد الزوجية فإنها جميعها يمكن تحصيلها من عدد ٢ وضربه في كل عدد بعده، فإن ٢ إذا ضربت في ٣ و٤ و٥ و٦ و٧ و٨ الخ أحدثت الأعداد الزوجية ٦ و٨ و١٠ و١٢ و١٤ و١٦ وهكذا إلى ما لا يتناهى. هذه هي الأعداد كلها وهذا حكمها زوجية وفردية، والفردية إما أولية وإما غير أولية، وغير الأولية لا تكون إلا من الفردية وضربها في بعضها. أما الزوجية فإنها كلها مركبة من ضرب ٢ في كل عدد بعدها إلى ما لا نهاية له. إذا فهمت ذلك فاعلم أن العدد الزوجي والعدد الفردي جميعاً ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما زائد وإما ناقص وإما كامل، فالزائد مثل عدد ١٢ وهو عدد يزيد مجموع مضاربه عنه. فمضاريب ١٢ هي ١، ٢، ٣، ٤، ٦ والمجموع ١٦ وهي أكثر من ١٢، والعدد الناقص هو ما نقصت مجموع مضاربه عنه، وذلك مثل عدد ٨ لأن مضاريبه ١، ٢، ٤ وهذه عدها ٧ وهي أنقص من ٨، والعدد الكامل هو ما يساوي جميع مضاربه وذلك مثل العدد ٦ فإن مضاربيه هي ١ و٢ و٣ التي مجموعها ٦، وكذلك عدد ٢٨ فهو عدد كامل لأن مجموع مضاربه وهي ١ و٢ و٤ و٧ و١٤) هو عدد ٢٨.

وهكذا قد توصل العلماء بقاعدة المتوالية الزوجية وهي المتوالية الهندسية التي أسها ٢ وحدها الأول ٢ مع تكرار حدها الثاني وهو ٤ أن يستخرجوا الأعداد الكاملة التي هي قليلة العدد بحيث تكون في الآحاد العشرة عدداً واحداً، وفي العشرات كلها عدداً واحداً، وفي المئات كلها عدداً واحداً، وفي عشرة الآلاف الأولى عدداً واحداً، ومن عشرة الآلاف إلى مائة الألف لا شيء منه فيها، وهكذا رأى العلماء أن العدد الكامل نادر جداً وهاك جدوله:

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦
٥٣٦٨٥٤٥٢٨
٨٥٨٩٨٦٩٠٥٦
١٣٧٤٣٨٦٩١٣٢٨
٢١٩٩٠٢٢٢٠٦٩٧٦
٣٥١٨٤٣٦٧٨٩٤٥٢٨
٥٦٢٩٤٩٩٣٦٦٤٤٠٩٦
٩٠٠٧١٩٩١٨٧٦٣٢١٢٨
١٤٤١١٥١٨٧٨٠٧٤٢٠٤٨٦
٢٣٠٥٨٤٣٠٠٨١٣٩٩٥٢١٢٨
٣٦٨٩٣٤٨٨١٤٣١٢٤١٣٥٩٣٦

فترى في هذا الجدول أنه من ١ إلى ١٠ لا يوجد إلا عدد كامل واحد، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ ومن ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠، ومع هذه القلة لا يصح اطراد القاعدة، فلا نقول إنه من ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ تقريباً أو من هذا إلى واحد مليون يوجد عدد كامل لما ظهر من هذا الجدول أنه من ١٠٠٠٠ إلى ٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ونحوها لا يوجد إلا عدد كامل. ولذلك قال أحد علماء الرياضة كما قال أستاذنا المرحوم علي باشا مبارك وهو صادق في المقال: إن في ندرة الأعداد الكاملة إيماء لندرة وجود الكمال. انتهى المقصود من العدد الكامل في علم الارتماطيقي.

أفلا ترى أيها الذكي أن عدد ٦ في القرآن وفي التوراة في خلق السماوات والأرض يراد به التنبيه على أول عدد كامل والعدد كامل كما علمت عزيز الوجود. كيف لا وها أنت لم تر في الأعداد من ١ إلى مليونين عدداً كاملاً إلا خمسة أعداد، وليس في الأعداد من ١ إلى ٣٣ مليوناً ونصف مليون إلا هذا العدد وستة أعداد معه كما رأيت. ولا شك أن سبعة في ٣٣ مليوناً ونصف المليون نادرة جداً جداً. فنبه الله به على أنه لما خلقه في ستة أيام راعى أكمل الوجود وأتمه، بحيث إنه اختار من أنواع الوجود ما هو أكمل، ولا ريب أن صور الموجودات لا نهاية لها، فإذا خلقها الله على هذا النمط فهو أحسن وأجمل الأنماط والإشارة لذلك بلفظة ٦ التي هي عدد كامل، فهو يشير إلى الكمال المطلق في الوجود المعبر عنه بقول الحكماء: ليس في الإمكان أبدع مما كان. فإذا اختار في التعبير أكمل الأعداد وأولها في الكمال فلا بد أن يكون اختار في خلقه أكمل الأوضاع وأولها وأحسنها في الكمال، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة: ٧].

فقال صاحبي: حسن ما تقول. ولكن خبرني رعاك الله أليس يكتفي فيه بالآيات الواردة في حسن الخلق وجماله، وما لنا ولهذا الرمز؟ قلت له: على رسلك أيها الأستاذ. اعلم أن هذا حسن في العدد وحسن العدد مطلوب كحسن المحسوسات، قال: فهل جاء هذا في القرآن؟ قلت: قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾[الفجر: ١] فأقسم الله بالشفع والوتر وهما جميع علم الارتماطيقي الذي هو أساس العلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وفلك وموسيقى، فهي كلها مبنية على علم الارتماطيقي، وهذا العلم راجع للزوج والفرد وهما المذكوران في الآية والله أقسم بهما، ولا معنى للقسم إلا شرف المقسم به، والمقسم به هو العدد وشرفه يقتضي البحث عنه من حيث دلالته على الإبداع والإتقان كالكواكب التي أقسم بها والشفق والشمس والقمر والنجوم، فهكذا أقسم بالأعداد جميعها، فإذا ظن

المسلم أن الله لا يعتبر العدد فقد أخطأ من زعم ذلك وعليه يكون اختيار ستة أيام لهذه الحكمة العجيبة ، ولو لم يكن فيه سوى الحض على مزاولة هذا العلم الذي هو أس العلوم الرياضية لكفى . وإذا رأينا علماءنا رضي الله عنهم ألفوا الكتب الضخمة والأبواب الواسعة في تكفين الميت وغسله والصلاة عليه وفي الحيض والاستحاضة وفي الطلاق وأمثالها ، ولذلك آيات في القرآن محدودات ، أفلا ينبغي أن يؤلف في علم الأعداد الذي أقسم الله به ما يضارع تلك الكتب . عجباً وألف عجب لأمة الإسلام ، أيجوز أيتها الأمة العريقة المجد الشريفة المنزع أن ينزل الكتاب علينا فتحفظون البعض وتنسون البعض؟ .

أيجوز يا أمة محمد الذي هو خاتم الأنبياء أن تقفوا بالنوع الإنساني وقفة تزري بشرفكم . خبروني في أي آية أقسم الله بالحيض والنفاس . خبروني في أي سورة من القرآن أقسم الله بالدين والطلاق . خبروني في أي آية أقسم الله بالبيع وبالهبة وبالميراث ، وأنتم قد قمتم بما يطلبه الدين في هذه العلوم وأرضيتم الله وخلقه ، فما بالكم تعرضون عما أقسم به الله ، فقال : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر : ١-٣] ، وقال : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١-٢] ، وقال : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[الليل : ١-٢] ، وهكذا . هذه الأشياء العظيمة التي أقسم الله بها . هل أقسم الله بها لتصدقوه؟ كلا . والله إنّما أقسم بها ليحثكم على فهمها وإدراكها والتأليف فيها أكثر من التأليف في الأحكام الشرعية . علم الله أن أمة الإسلام ستكون عالة على الأمم فأنزل في القرآن هذه الأقسام وحرض أهل العلم على استخراجها وإظهارها للأمة ، ليقرأها اللاحقون كما قرأ الأحكام الشرعية السابقون ، وسيكون في هذه الأمة من يدرس العلوم كلها كما درست الشريعة سابقاً ، سيكون في هذه الأمة من يقرأ : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر : ٣] ، ويقرأ علم العدد الزوجي والفردي ويعرف نظام الله في الأعداد التي هي سر الوجود .

عجباً وألف عجب ! يقول : « فيثاغورس » الفيلسوف : إن العدد أول الموجودات . ويقول الفلاسفة بعده : إن الحساب في الطبيعة دال على حاسب والحاسب هو الله . فكأن الفلاسفة عرفوا الله من طريق علم العدد ولذلك جعلوا الواحد دلالة على الله عز وجل .

حكاية

لما وفد الشعبي على ملك الروم من قبل عبد الملك بن مروان سأله سائل منها : كيف يتصور الإنسان نعيماً في الآخرة لا ينفد؟ وكيف يكون نعيم يؤخذ منه ولا ينقص؟ فهل لهذا مثال في الدنيا . فقال : نعم . السراج يوقد منه ألف سراج فلا ينقص . فقال ملك الروم : أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ، هل لهذا نظير في الدنيا؟ فقال : نعم . الجنين في بطن أمه لو أنه بال أو تغوط لقتلها . قال : الله واحد ليس قبله شيء فهل هذا معقول؟ قال : نعم . العدد أوله واحد وليس قبل الواحد شيء . اهـ .

رؤيا منامية

اعلم أني أيام أن تخرجت من مدرسة « دار العلوم » ووظفت مدرساً بالمدارس الأميرية كان اتجاه نفسي لما أنا فيه الآن ، وكان ذلك غالباً علي فأخذت أفكر في هذا الوجود ، وبينما أنا نائم ليلة إذا جماعة أشبه بقوم من بلاد الغرب يقرؤون في قصة أبي زيد الهلالي فوقفت بجانبهم ، فقال أحدهم :

هل أنت تعرف هذه القصة؟ فقلت: نعم. أعرفها، ونظرت إليه نظر الذي لا يهتم. فقال: عدد (١) إذا زدنا عليه ٢ و٢ و٢ و٢ إلى ما لا نهاية له والجميع نسميه واحداً فهل هذا معقول؟ فقلت: العدد الذي لانهاية له ليس له اسم خاص، فإن مائة وألفاً لها أسماء خاصة، وأما الذي لا نهاية له فاسمه عدد لا غير فنسميه واحداً إذ لا تعدد يظهر فيه، فالتفت إلي من حوله وقال: هو يفهم. فعجبت في المنام كيف يعبر بهذا التعبير مع أني أجبت إجابة تامة، ولما استيقظت قابلت أستاذي المرحوم الشيخ حسن الطويل وأخبرته بها ولم يكن لي إلمام بهذه المسألة ولا أمثالها، فقال لي رحمه الله: إن هذا الجواب تقريبي لأن الجواب على هذه المسألة مذكور في الكتب، وهو أن الأعداد كلها مركبة من الواحد، فلولا الواحد لم تكن، ومضت عشرات السنين ودخلت في تأليف هذا التفسير فرجع الخاطر لي ثانية وكان رجوعه قبل تفسير ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[الفرقان: ٥٩] المذكورة في الآية، وكنت أعجب لماذا جاءني هذا الخاطر ولماذا أراني مفكراً في الزوج والفرد، ولماذا أفكر في أن الأعداد الفردية إما أن تكون أولية مثل ٣ و٥ و٧ و١١ و١٣ و١٧، وإما أن تكون من أعداد فردية تضرب في بعضها مثل عدد (٩) من (٣×٣)، وليس لعدد (٢) دخل فيها، وهكذا (٢١) من (٧ في ٣)، وكذلك (٢٥) من (٥ في ٥)، و(٢٧) من (٣ في ٩)، وعدد (٣٥) من (٥ في ٧)، ونجد أن عدد (٥) إذا ضرب في (٣) وفي ٥ و٧ و٩ و١١ و١٣ و١٥ وهكذا، أي أن عدد (٥) إذا ضرب في عدد فردي بالتتابع مثل السؤال الذي ألقي علي، فإنه ينتج ١٥ و٢٥ و٣٥ و٤٥ وهكذا، فكل عدد فردي يضرب في ٥ ينتج ٥متبوعه بعدد العشرات وهكذا، ولماذا أرى أنه يحدث في نفسي أن عدد ٢ بضربه في كل عدد بعده زوجي أو فردي ينتج عدداً زوجياً، أي أن الأعداد الزوجية كلها تنتج من ضرب (٢ في ٢)، و٣ و٤ و٥ و٦ و٧ الذي هو عبارة عن ٤ و٦ و٨ و١٠ و١٢ و١٤ الخ.

فلما وصلت إلى قوله تعالى: ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[الفرقان: ٥٩] عرفت أن هذا الخاطر يقصد منه البحث في علم الارثماطيقي واستخراج الأعداد الكاملة لإفادة الكمال الإلهي، وللتنبيه على أن علم العدد له مزية شريفة، كيف لا والله يقول بعدها: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥] أقسم الله بالفجر والليالي العشر وبالشفع وبالوتر، ثم قال: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥]، فلماذا ذكر هذا الاستفهام التقريري في هذا المقام. يقول الله: أترى أيها المخاطب أن هذا فيه قسم لصاحب العقل؟ لم يذكر الله هذا القول إلا في هذا المقام. لم يقل الله ذلك إلا هنا مؤكداً ومبيناً فضل المقسم به، ولولا فضل فيه إلا ما فيه من جلال وجمال وحكمة وعلم، فليس العدد والله معبوداً وإنّما هو مما يفهم ويعقل، وانظر كيف يقول: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥] أي: عقل ليوقظ العقول الإسلامية لترقية العقول بعلم الحساب وأصوله. إن أفلاطون أبان في جمهوريته أن رؤساء الجيش ورؤساء الأمة يجب أن يكونوا بارعين في العلوم الرياضية، لأنها علوم ترقي العقول البشرية وتجعل العقل علوياً، لأن الأعداد عارية عن العالم المادي فهي إلى عالم الأرواح أقرب، ولذلك كرر الكلام على الأعداد والرياضيات بحيث تدرس سنين وسنين لرجال الجيش ورجال الحكومة، وإلى هذا نبه الله هنا فقال: ﴿ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر: ٥]، ينبهنا إلى التعقل والفهم بدرس هذه العلوم. ثم أتى هنا بلفظ ﴿ سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[الفرقان: ٥٩] ليحير العقول، وإنّما يحيرها لتبحث وإذا بحثت علمت ذكر الأيام

الستة ليقول الناس لمَ خص الستة، ولمَ جعل العدد ستة. فإذا عرف الناس أن الستة هي أول الأعداد الكاملة، ووجدوا الجدول كله تحت الستة أدركوا أن الأعداد منها ما هو كامل وهو نادر، ومنها ما هو ناقص أو زائد وهما كثير، عرفوا أن هناك علوماً خفية ووجدوا في العلوم أسراراً لا نهاية لعددها، وهناك يعرفون العددين المتحابين اللذين تألف كل منهما من مضاريب الآخر، مثل عدد (٢٢٠) و(٢٨٤)، فإن (٢٨٤) يساوي جميع مضاريب الآخر وهي (١ و٢ و٤ و٧١ و١٤٢)، وكذلك (٢٢٠) يساوي مضاريب (٢٨٤) وهي (١ و٢ و٤ و٥ و١٠ و١١ و٢٠ و٢٢ و٤٤ و٥٥ و١١٠) ولإيجاد الأعداد المتحابة رسموا قواعد بها استخرجوها كما استخرجوا الأعداد الكاملة بقواعد. واعلم أن قول القائل إن عدد (١) إذا زيد عليه ٢ و٢ و٢ إلى ما لا نهاية له، ثم يقال له عدد واحد الخ، والإجابة عليه بأنه واحد كما أجبت هذا الجواب في علم ما وراء الطبيعة، لأنهم قالوا: إن الواحد مساوٍ للموجود فكل ما يصح أن يقال عليه موجود يصح أن يقال له واحد، حتى إن الكثرة مع بعدها عن طباع الواحد يقال لها كثرة واحدة، فعلم الإلهي ينظر في الواحد وأقسامه والكثرة ولواحقها كما ينظر في الوجود وأقسامه ولواحقه. وقد قسموا الموجود إلى المقولات العشرة، وأيضاً إلى القوة والفعل والقديم والمحدث والتام والناقص والعلة والمعلول، وقسموا الواحد إلى واحد بالجنس وواحد بالنوع وواحد بالعرض وواحد بالمشاركة وواحد بالعدد إلى آخره. وعلى ذلك تكون الإجابة التي أجبت بها أن العدد الذي لا نهاية له يقال له واحد صحيحة في علم ما وراء الطبيعة، لأن كل موجود كثيراً أو قليلاً يطلق عليه اسم الواحد مع الموجود أينما كان. وأيضاً أن إضافة (٢) مكررة إلى واحد تنتج أعداداً كلها فردية إلى ما لا يتناهى، فمهما كان العدد فهو واحد وأيضاً هو فردي. انتهى ما أردته في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

وأما اللطيفة الرابعة فهي مفهومة مما تقدم من سابق التفسير. وهاهنا الآن جوهرتان:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾[الآية: ٥٣] الخ.

والثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾[الآية: ٥٤] الخ.

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

اعلم أن الله عز وجل قد ذكر البحر في مواضع كثيرة في القرآن، فتراه في سورة «الرحمن» يقول: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الآية: ١٩-٢١]، وتراه يقول في سورة «النحل»: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الآية: ١٤]، ويقول في سورة أخرى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾[يونس: ٢٢] الخ.

فيا ليت شعري ما هذا الوصف والتذكير وكثرة التكرار. يقول الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾[الشورى: ٣٢]، ويقول: إن البحر يخرج منه اللؤلؤ والمرجان، ويقول: بأي نعم

ربكما تكذبان أيها الثقلان . فالبحار آيات واللؤلؤ والمرجان آيات وسير السفن فيه آيات . ولما علم الله عز وجل قبل أن يخلق الناس على الأرض أن النوع الإنساني لا سيما المسلمين منهم سيشملهم الغرور ويعميهم داء الجهالة والبلاهة البتراء أنزل القرآن وقال فيه في سورة « يس » : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾[يس : ٣٠] ، يقول الله على طريقة الأسلوب العربي : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾[يس : ٣٠] ، كما يقول الإنسان : يا حسرة على فلان قد فاتته الفرصة واعترته النكبة وحاق به الويل والثبور ، فهو هنا يقول : إن هذا النوع الإنساني حري أن يتحسر عليه لما أصابه من الجهل ، فهم إذا سمعوا المذكرين لهم بالعلم من الرسل استهزؤوا بهم ، ثم أتبع ذلك بذكر : (١) هلاك الأمم . (٢) وإحياء الأرض بعد موتها بالنبات . (٣) وإخراج الحب منها . (٤) وظهور الجنات من النخيل والأعناب فيها . (٥) وتفجير العيون فيها . (٦) وانسلاخ الليل من النهار . (٧) وجري الشمس . (٨) والقمر . (٩) وأنه خلق لهم السفن في البحار . ثم ختم ذلك كله بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[يس : ٤٦] ، وإنّما ذكرت لك هذا مع أنه في سورة « يس » لأذكرك بأن هذا الإنسان جدير بالحسرة عليه حقيق بالشفقة لأنه جهول ، وكيف لا يكون جهولاً وهو لا يسمع النصح إذا أتى له من رسول ، ولا يعقل ما يراه من عجائب الدنيا حتى قال الله عز وجل في هذا الإنسان : إنه مهما عرضت عليه آيات المنعم عليه بالتربية فإنه يعرض عنها ، ولا جرم أن المسلم يصدق عليه ذلك فإنه يغتر بأنه مؤمن بالله ، ويقول : كفاني ذلك ، وهو يقرأ صباحاً ومساء في القرآن ، والقرآن نعى عليه الإعراض عن نفس الآيات .

إن المسلم تسنح له سوانح البر وسوانح البحر فيعرض عنها ، ويقول : أنا مؤمن بالله فما لي وللبحار وما لي وللجبال وما لي وللأنهار ، وهذا دأب كثير من الفقهاء في الإسلام وكثير من الصوفية ، وكل هذا غرور ، وهؤلاء جميعاً قد شملهم الغرور ، لأنهم أعرضوا عن الآيات التي أتتهم . فهل بقي للمسلمين بعد ما بيناه في هذا التفسير وغيره عذر في الجهالة ؟ كلا . ثم كلا . هذا جمال الله وهذه عجائبه تجلت في هذا التفسير وفي أمثاله من كتب يؤلفها العلماء في عصرنا . فانظروا واعجبوا . هذا « اللورد أفبري » مؤلف كتاب « جمال الطبيعة » يصف عجائب البحر فيه من صفحة ٢٣٢ إلى صفحة ٢٤٨ باحثاً عن جماله وعجائب الله فيه .

فيا عجباً كل العجب ! قوم من أوروبا يعرفون بعقولهم وحدها جمال البحار ويفرحون بجمال ربهم ويهيمون بآياته ، ونحن لنا عقول ولنا دين يذمنا الله بالإعراض عن آياته فيه ، ثم هم يسبقوننا لمعرفة ربنا . أفليس هذا مما تجزع له القلوب وتشق له المرائر وترتعد الفرائص ؟ ولا أقول إلا ما أمر الله به في المصائب : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة : ١٥٦] .

ثم أرجع فأقول : لقد آن زمان ارتقاء المسلمين وانتشالهم من الجهالة وارتقائهم إلى العلياء . اللهم إليك المشتكى ، اللهم أنت البر الرحيم ، فأخرج هذه الأمة المسكينة من الذل إلى العز ومن الجهل إلى العلم ، وأنا واثق ومؤمل إجابة الدعاء ، فقد أجيب دعاء زكريا إذ طلب ولداً يخلفه في بني إسرائيل ليقوم بأمرهم ، لأن الدعاء إذا كان لأجل المنفعة العامة استجيب ، وهاهم أولاء المصلحون في بلاد الإسلام يدعونك أن ترفع الإصر عن الأمة الإسلامية وأن تشوقهم للعلوم ، فهؤلاء يوقنون باستجابة

دعائهم وأنا من هؤلاء الموقنين لا سيما أن أمتنا أكبر جداً من أمة بني إسرائيل. إذن فلأذكر البحار وعجائبها من كلام «اللورد أفبري» وأبدأ بقول الشاعر الذي خاطب البحر:

إن في صدرك الرحيب رجالاً جمعوا البأس والنهى في الصدور
أخرستهم مدافع مرعدات فأصموا عن داعيات النفير
وهم اليوم بعد طعن وضرب في قرار غير المقام قرير
لك ما شئت من نضار ودر لم يك البحر بالعديم الفقير

الحيوانات في البحار

(١) منها الأخطبوط: وهو يعيش في ماء «نيوفونلاند» ويبلغ على صغر بدنه ٦٠ قدماً من طرف إلى طرف.

(٢) وهناك نوع من الحيتان المسالمة يبلغ طول الواحد منها ٧٠ قدماً.

(٣) ومن آياته وعجائبه «الكاشولات»، فهذا حوت يطوف في أنحاء المحيط طولاً وعرضاً، قد اتصف بشدة الرحمة على من سالمه، وبالغضب والبطش بمن عاداه وشاكسه وقاومه، وأنيابه محدودات يسطو بها على الحيوانات البحرية فيلتقمها، ومتى مس بخدش صغير من ركاب سفينة اندفع إليها وعاونه على ذلك أهله وعشيرته، وما أكثرهم وما أقواهم! حتى إن هؤلاء يوماً ما هاجموا مركباً أميركية فحطموها وأغرقوها في البحر جزاء ما كانوا يفعلون.

(٤) وأقوى من هذا وذاك وأضخم جثة وأعظم بطشاً «الرووركال» ويبلغ طوله ١٢٠ قدماً، يقول: وربما كان هذا مبالغة، ولقد علم باليقين أن أكبر فصائل الحيتان جثة وأطولها فصيلة «سيبالد»، والحوت منها لا يبلغ إلا ٨٠ قدماً أو ٩٠ قدماً.

(٥) ذكر «سكورسبي» أن قريص البحر يغطي من سطحه أميالاً، والميل المكعب من البحر لا يحوي أقل من ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٨٨٨,٢٣ أي: ٢٣,٨٨٨ ألف ألف مليون. ويقول: إن هذه المخلوقات لا تغوص في البحر كثيراً ولكنها تغطي مسافات من السطح لا يحصيها الحصر ولا يحيط بها الحساب. وهذه الحيوانات الصغيرة تجعل ماء البحر ملوناً بألوان عجيبة يشاهدها النوتية والسالكون في طرق البحار.

(٦) الحشرات وبعض ذوات الثدي التي تعيش في الماء لا تبعد عن البر إلا قليلاً. ومن هذه «عجول البحر».

(٧) الحيتان العظيمة المكافحة للأمواج تسكن الأعماق بطبعها. ومن أعجب العجب أن طائراً بحرياً يسمى «الصخاب» قوي الجثة عظيم الصوت كأنه صوت الحمار، يبلغ طول جناحيه الممدودين معاً ١٥ قدماً، وقد يبقى ساعات متواليات طائراً لا يقع، وقد ينام محلقاً في الهواء. فهذا الطائر في ضخامته يشبه الحيتان في قاع البحار من حيث الضخامة كأن هناك مناسبة بينهما.

(٨) ما أعجب منظر البحر لركاب السفن، إذ يرصدون في ظلمات الليالي مناظر النجوم فيرون عجباً وجمالاً باهراً يأخذ بالألباب، فإذا رجعوا إلى النظر فيما حولهم رأوا حول المركب عجائب وبدائع الأشكال والألوان في الحيوانات البديعة البهجة المتفننة الأشكال البديعة المناظر.

(٩) إن جمال البر قاصر على سطح الأرض، فإن العجائب النباتية والحيوانية ليست تكون إلا على سطح الأرض. أما عجائب البحر فهي ثلاثة أقسام: قسم منها في ظواهر الماء، وقسم منها في قرار البحر، وقسم ثالث بينهما. إذن جميع أقسام المياه في البحر مملوءة بالعجائب. أما الطبقة العليا من البحار فأمرها معلوم فيما تقدم هنا وفي مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذي تقدم في سورة «آل عمران» وغيرها. فأما الطبقة الوسطى فإن فيها السمك المعروف بالسمك الهلامي «المدوزا» باللغة الإنكليزية و«الحكل» وهي دويبات صغيرة كالذر. أما الطبقة السفلى فقد كشف العلماء كثيراً من أنواع المخلوقات فيها، فقد وجدوا سمكاً يعيش على عمق ٢٧٥٠ قامة، القامة مقياس طوله ستة أقدام، وهذه يسمونها القرارية أو الدركية. وهذه لا يصلها النور لأن ضوء الشمس معدوم على عمق ٢٠٠ قامة، وبعد ذلك يكون الظلام الحالك، وهناك لا يكون للحيوان عيون البتة. ومن عجب ما ذكره «سر وليم تومسون» عن نوع من السرطان له عيون إذا عاش قرب سطح الماء، فإذا عمق مسكنه وصار ما بين ١٠٠ و ٤٠٠ قامة من السطح فقد عينيه. وهكذا ما يعيش منه على بعد ٥٠٠ إلى ٧٠٠ قامة.

(١٠) إن بعض الحيوانات البحرية لا لون له، بل هي شفافة وبعضها براق لماع في غاية العجب فسفوري الجسم، وقد يكون له أعضاء ساطعة ذات شعاع يكاد يذهب بالأبصار. وترى السمك الذي يعيش في الأعماق فضي اللون جميلاً بهياً غالياً. وبعضها أحمر وبعضها أسود، متى حركت أعضاءها اللماعة صارت بهية اللون جداً، وهذا السمك قد جعل الله له هذه الأعضاء النورية تحت سلطانه، فإن شاء أضاء بها ما حوله من الماء، وإن شاء أطفأ النور، فكما أن الله خلق شمساً وكواكب بهما استضاء أهل الأرض، هكذا خلق سبحانه لهذه الحيوانات الساكنات في الظلمات هذه الأعضاء المشرقة تتصرف بها على حسب مطالبها في المعاش، فإن رأى الحيوان فريسته استعمل النور لكشفها، وإذا أحس بعدو مفاجئ أطفأ ذلك المصباح. ومن عجب أن هذا النور كما يستعمله السمك لاقتناص فريسته يستعمله أيضاً لإكراه عدوه المفاجئ له على البعد عنه، إذ هذا النور متى سطع وظهر لأعين الحيوان المهاجم بهر بصره، فيكاد سنا نوره يذهب بتلك الأبصار فيفر المهاجم حالاً. أقول: فهذا النور عند هذا السمك فعل ما فعلته رائحة الظربان في حيوان البر، إذ يجعل الرائحة التي يطلقها على عدوه سبباً في إزعاجه، وكبعض الحشرات التي لا تنجو من صائدها الذي أمسكها إلا إذا أنزلت عليه سائلاً في جسمها كريه الرائحة فبذلك تعيش ولا تخاف من عدو يفاجئها. فسبحان الخلاق العليم.

(١١) وهل أتاك نبأ السمك المعروف بعفريت البحر؟ ذلك الذي له زعانف شائكات ورؤوس ضخمة يسكن قرب شواطئ البحار وله ثلاثة خيوط ألوانها تضرب إلى الحمرة يطلقها في الأمواج ويجعلها كأنها حبائل للصيد تقوم له مقام نسيج العنكبوت وشبكات الصياد، فإن العنكبوت نسيجها يصطاد الذباب وأنواع الحشرات وقد جعلت بيوتها مناسبة لذلك. أما هذا فليس له سبيل إلى صيد السمك الصغير إلا بأن يطلق تلك الخيوط الحمر فتحسبها تلك السمكات عشباً بحرياً، وما هي في الحقيقة إلا حبائل قد أرسلها ذلك الشيطان العفريت، وقد اختبأ هو في الرمال أو في وسط حشيشة

البحر، فتأتي تلك السمكات المسكينات لتأكلها فينقض عليها فيفترسها، هذا إذا كانت قريبة من سطح الماء، أما إذا كانت في قاع البحر حيث الظلام حالك فلا ضوء هناك ولا شعاع، فمن أعجب العجب أن تصير هذه الحبال براقة لماعة لتظهر في الظلام وتفترس تلك السمكات الصغار.

أقول: أيها المسلمون، أليس هذا قول ربنا في القرآن: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وهكذا آيات كثيرة. أيها المسلمون كفى. كفى. ظهر في هذا التفسير أن أمم الإسلام المتأخرة لم يدرس علمائهم هذا القرآن، ولو درسوه لكانوا أعلم الأمم بهذه العلوم. أيها المسلمون أنا في عجب من أن يكون هذا القرآن ديننا وهذا الجهل صفتنا، إن هذا لإثم كبير وعار عظيم. اللهم إني أديت ما أقدرتني عليه وأنت الملهم المعلم. اللهم أنت المنتقم ممن عرف من المسلمين وسكت ولم يذع هذه الآراء في أقطار الإسلام ويعلم المسلمين بما يراه ملائماً لأهل زمانه. والله هو الولي الحميد.

(١٢) إن النباتات البحرية لا تعيش على أعمق من ١٠٠ قامة كما هو آخر ما يعلم الناس اليوم، وقعر المحيط الأطلانطيقي وهو بحر الظلمات ما بين ٤٠٠ إلى ٢٠٠٠ قامة، ما هو إلا طبقات مؤلفة من مادة بيضاء طباشيرية وأعظمها أصداف مهشمة مكسرة، وتحت هذه الأعماق تكون المواد صلصالية أو طينية صافية تميل إلى لون الحمرة وقد تكون فيها مواد بركانية، وقد قالوا: إن كرتنا يسقط عليها في العام الواحد مائة ألف ألف شهاب.

(١٣) إن أقصى أعماق البحار يشبه أعلى الجبال، وقد سبروا البحر فبلغوا ٣٩٠٠٠ تسعاً وثلاثين ألف قدم ولم يصلوا لعمقه، وأعمق مكان في الأطلانطيقي ٣٨٧٥ قامة وذلك في شمالي جزائر «فرجينيا»، ويبلغ عمقه ٥٢٧٠ قامة في مكان آخر، وليس هذا هو منتهى ما يمكن الوصول إليه. فهذا ما وصل إليه الناس، وسيعلم الناس بعدنا ما لم نعلم من عمق البحار.

الجزائر المرجانية

الجزائر ثلاثة أنواع: جزائر هي قسم من البر ويفصلها مقدار من الماء قليل العمق، كجزيرة سيلان. وجزائر بركانية. وجزائر مرجانية. وهذه الأخيرة عددها كثير جداً، وأكثرها في المحيط الهندي والهادي الباسفيكي، فهناك ترى جزائر كثيرة مستديرة الشكل وقد تكون بشكل الخاتم أو الحلقة، وكثيراً ما يكون في وسط الجزيرة حوض ضحل ضارب ماؤه إلى الصفرة والخضرة معاً، وهذا مخالف لماء المياه المحيطة به فإنها سوداء لفرط عمقها.

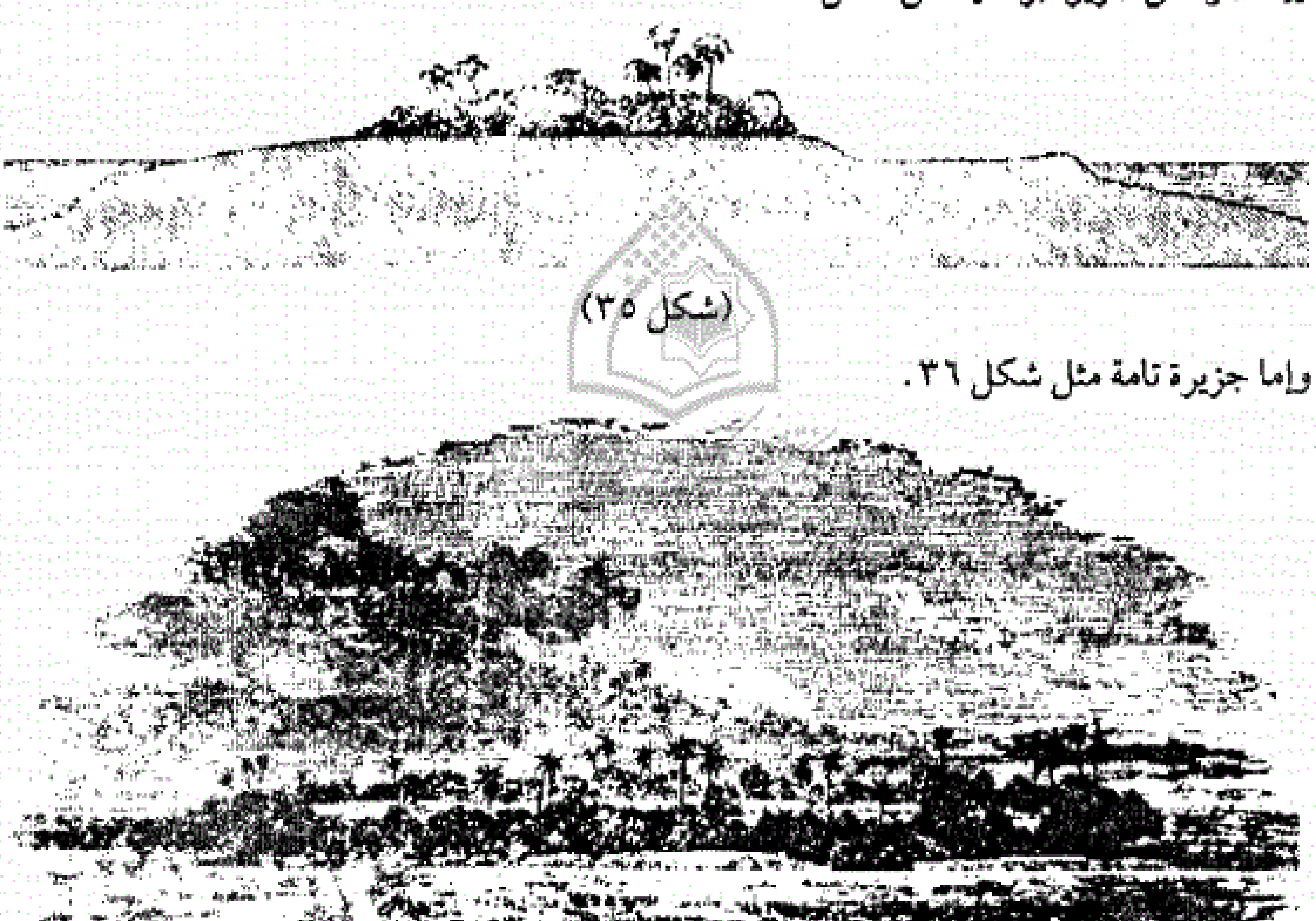
ولهذه الجزائر سواحل رملية بيضاء غالباً، وغالباً ما ترى مكسوة بنخيل الكوكو «الشكولاتة» والجزائر المرجانية المعروفة باسم «بلكاديف» و«ملاديف» أي بحيرة الجزائر أي ١٠٠,٠٠٠ جزيرة و١٠٠٠ جزيرة. انظر أشكال المرجان وهي قسمان: قسم شجري وهي: شكل ٣٣ وشكل ٣٤ وشكل ٣٥.



(شكل ٣٣ ـ رسم المرجان بهيئة شجر)

(شكل ٣٤ ـ رسم جزيرة حلقية من المرجان داخلها بحيرة عمقها قليل جداً)

وإما جزء من جزيرة بركانية مثل شكل ٣٥.



(شكل ٣٥)

وإما جزيرة تامة مثل شكل ٣٦.

(شكل ٣٦)

رسم جزيرة المرجان المسماة جزيرة الرمل الأبيض فوقها شجر الشكولاتة

وهذه في غرب أمريكا الجنوبية في غرب كالو

هذه الصور الثلاث من كتاب «علوم للجميع» تأليف العلامة «روبرت براون» وهو باللغة الإنجليزية.

تذكرة

يزعم بنو آدم أنهم أكثر آثاراً وأعظم أعمالاً . فهل صنعوا جزيرة واحدة عاش فيها الحيوان والنبات وانتفع بها الناس ؟ فهذا المرجان بنى جزائر تعد بالآلاف ومئات الآلاف ، عاش فيها الحيوان والنبات والأشجار ، واستكن في بحيراتها أنواع الحيوانات ، فعاشت قريرة العين سعيدة بعيدة عن مهالك البحر المحيط ، فأي عمل للإنسان يضارع عمل هذا الحيوان الصغير . ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧] ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢] ، فكم للمفضول من عمل أعظم من عمل الفاضلين ، فكيف يغتر هذا الإنسان بترعة يحفرها أو نفق في الأرض أو هرم فوقها أو قصر مشيد ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الحجر: ٨٦] . انتهى يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨ .

البحر الملح

اعلم أن الحكمة في كون ماء البحر ملحاً ، إنه بهذه الملوحة يحفظ ما فيه من جثث الحيوانات المائتة من ظهور الفساد ، فلولا الملح لأنتن الماء وفسد الجو ولم تصلح الأرض للسكنى ، فالملوحة في البحر حكمها حكم الملوحة في ماء العين ، فلولا ملوحة ماء العين لأنتنت الحدقة ، هذا الملح يحفظ الحدقة ويمنع نتن ماء البحر ، وعسى أن أوفى الكلام حقه في سورة « النمل » عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾[النمل: ٦١] . ولكن أقول هنا : من لطف الله عز وجل ورحمته أنه جعل البحر ملحاً للحكمة التي ذكرناها ، ثم هو تلطف فأرسل شعاع الشمس إلى ماء البحر فخرج البخار تاركاً الملح في البحر صاعداً في الجو متراكماً سحاباً فيه ماء صالح للشرب ، فتبارك الله الحي القيوم ، جعل الماء ملحاً عند الحاجة إلى الملح ، ولما احتاج الإنسان والحيوان والنبات إلى ماء عذب خلصه بحرارة الشمس فحصل الانتفاع به .

فهذا هو البحر الملح وهذا هو العذب ، ومن عجب أنك ترى المطر ينزل على الأرض ويجري ينابيع تحتها منها الماء العذب ومنها الماء المعدني ، ولا يختلط أحدها بالآخر . وإذا جلست بجانب البحر الملح وحفرت قليلاً في بعض المواضع ألفيت هناك ماء حلواً ، أليس هذا عجباً ! حلو تحت سطح البحر مر فوقه حلو في البخار الطائر منه في الجو والسحاب والأنهار ، فالحلو يحيط بالملح من سائر الجهات ، فلا ماء البحر يختلط بما تحت القاع للمانع الطبيعي ولا بما فوقه في الجو لأنه هرب منه وترك له ملحه ، وترى الأنهار كالنيل والفرات ودجلة تصب في البحار كالبحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي ونحوها ، مع ذلك لا يطغى البحر الملح عليها فيجعل ماءها ملحاً ولا الأنهار الصابة في البحر تجعله حلواً . فهذه مجامع الحواجز التي دبرها الله لحفظ البحرين المتجاورين ، فلا يبغي أحدهما على الآخر بتلك الحركة الدائمة المحكمة ، تبارك الله رب العالمين .

ومن هذا القبيل أن المجاري المعدنية تحت الأرض لا يختلط أحدها بالآخر ، وقد تقدم هذا في سورة « الأنعام » مشروحاً . وأعجب من هذا أيضاً أن الهواء يجتمع فيه أصوات الإنسان والحيوان والموسيقى والرياح الهابة فلا يختلط أحدها بالآخر ، وكذلك يحمل الهواء أنواع الروائح كلها ، وأيضاً نجد ذرات اللقاح التي تخرج من الأزهار وتسير في الجو من أعضاء الذكور إلى الإناث تتخذ مجاري لا يختلط أحدها بالآخر إلى أن تقع على الأزهار التي هي من جنسها ، وقد تشاهد تلك الذرات طائرات

كالسحاب من عشرات الأنواع وهي متميزة لا تختلط أحدها بالأخرى. وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[الرحمن: ١٩-٢٠].

وأعجب من هذا كله أن الشمس تحمل صور جميع المخلوقات وترسلها في كل مكان ونحن لا نراها، وإنّما الذي يحس بها هي آلة التصوير «الفوتوغرافية»، فمتى سلطت عدستها على قوم جالسين التقطت تلك الصور وسلمتها إلى لوحة التصوير وراءها في الخزانة المظلمة، فهذا دليل على أن صور جميع المخلوقات على الأرض سائحة في الجو الهوائي لا يختلط أحدها بالآخر، فصور بني آدم والحيوان والنبات والجبال والبلاد كلها طائرات طول النهار لا اختلاط فيها، كل ذلك يذكرنا به قوله تعالى هنا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[الفرقان: ٥٣]. انتهى

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾[الآية: ٥٤] الخ
مع قوله قبلها في الماء أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾[الآية: ٥٠]
وقوله بعد ذلك: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الآية: ٦١]

في يوم الخميس الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٨ أي في مساء ذلك اليوم خرجت للرياضة كما قال توبة في محبوبته ليلى:

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا

فتوجهت إلى شاطئ النيل الشرقي كعادتي، ووقفت قبيل غروب الشمس فوق قنطرة عند النيل أمام مصر القديمة، إذا الجو في حال لم أعهدها ومنظر لم أشاهده من قبل، نور أحمر برتقالي يكاد يقترب من الأرض وأمر عجب، فرفعت طرفي إذا السماء مغشاة بسحاب يمتد من الغرب إلى الشرق أشبه بسلاسل الجبال المتوازيات، فعددتها نحو عشرين جبلاً سحابياً، والشمس قد آذنت بالغروب وتلك الجبال مشروقة اللون حمر بهية وقد امتدت في أقطار السماء كلها، وكلما كانت أقرب إلى الشمس كانت أبهج لوناً وأزهى حمرة مشوبة بصفرة برتقالية، وكلما تباعدت إلى الجنوب أو الشمال رأيتها مسودة كأنها تندب حظها لبعدها عن الشمس. أما تلك المقتربة منها فما أجمل طلعتها وما أبهرها وأحسنها جمال وأي جمال وبهجة وأي بهجة. تراها فتخال بينها أودية زرقاء اللون كرياض كستها الطبيعة أزهار البنفسج. وما أشبه ذلك المنظر البهج الذي يكاد يضيء إلا بمنظر الجنود مصطفات لملك عظيم الشأن وقد أخذ يودعهم ليتفقد مملكته وهم صفوف وراءها صفوف يهتفون له بالإجلال والإعظام، أو كحسناء ازدهت بالجمال وأشرقت بالحسن وقد هرع لجمالها المعجبون بها، ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٦]، وهم بمنظرها فرحون.

الله أكبر. منظر هذا العالم جميل غفل عنه صغار العقول، جهل الناس هذا الجمال في الأرض وفي السماء، ذلك أن كل حيوان قد حيل بينه وبين هذا الجمال بما أودع فيه من عمل لحياته وسعي لذريته، ثم هم عن الأرض راحلون، فأنى لهؤلاء أن يبتهجوا بالجمال الذي يغشاهم وهم لا يعلمون منظر السماء في ذلك التاريخ كان بهجاً وجميلاً، والناس غادون رائحون وهم لا ينظرون، فكأن

الجمهور عمي أمام أجمل الفاتنات صم عند سماع أجمل الأصوات. ذلك أن الناس أكثرهم عن الجمال محجوبون وعن العجائب معرضون، تحدثنا الشمس والقمر والنجم والفلك والماء في السحاب والبحار يقلن كلهن بلغة فصيحة ويعقلها أولو الألباب: إن في تقلب الليل والنهار والصباح والمساء روايات تمثل لكم وأنتم لا تنظرون. شمس تشرق فتكسو الأرض جلباباً ذهبياً وتبرقع المزارع والهواء والجبل والماء والسحاب ببراقع مختلفات الألوان، فهي على الهواء زرقاء وعلى الزرع خضراء وعلى الزهر صفراء أو حمراء وهكذا.

أما البحار في خط الاستواء وما قرب منه فحدث ولا حرج، ترى الأمواج ترمي بالدرر اللامعات والماس الجميل والزبرجد الأخضر واللازورد وقوس قزح وهيئات متنوعات من لجين ونضار ومن هيئات المصابيح المشرقة في أكناف السماء. كل ذلك لما فيها من الفوسفور البديع المنبث في تلك الأرجاء. انظره في سورة «الأنعام». وهكذا نرى ما هو أعجب عند القطبين من جبال جاريات من الثلج بديعات عائمات فوق سطح الماء تمثل القصص الخيالية والأعمال السحرية وتصطدم تلك الجبال وتتدخل أجزاؤها وهناك تكون أنواع من أفانين الصور وبدائع الألوان مما لا يكاد يتصوره الخيال. انظره في أول سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾[الكهف: ٧]. وهذه كلها صور للماء في حاليه سائلاً وجامداً ثلجياً. الماء خلق لسقي النبات والإنسان حتى يعيشا، ولكن الحكمة الواسعة لا حد لإبداعها ولا نهاية لصنعها. ماء ينزل للسقي وللحياة يستعمل هو نفسه زينة ونوراً. فهو في ليلة ١٥ نوفمبر جنود تحيي ملكة النهار الذاهبة إلى مملكة الليل، فكما أن الجيوش معدة لطرد الأعداء وقتلهم، هي أيضاً تحيي الملوك إذا قدموا أو ودعوا. ذلك لسعة هذا الوجود وللتفنن في التصوير والإبداع والجمال. الليل والنهار يشرقان معاً هذا بالماس المرصع في القبة الزرقاء. وهذا بالنضار الكاسي وجه الغبراء. نجوم مشرقات بهجات جميلات متلألئات ليلاً تقول للنفوس المستعدة في الأرض: هلموا إلي وتعالوا أتل عليكم نبأ الحكمة والعلم والجمال. تقول: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩]، فيرونها صفوفاً تتلوها صفوف وصنوفاً تتلوها صنوف، قد زينت للناظرين وحيرت المفكرين حتى إذا أفل الظلام وأقبل موكب الصباح أخذت تتغير المعالم وتبدل المشارق والمغارب وتهزم جيوش البيض سود الجيوش، وكلما ازداد موكب النهار إقبالاً ازدادت جحافل الليل إدباراً، وأخذت تلك الفاتنات البهيات المطابع الناعسات الطرف المشرقات في الدياجي تتوارى بالحجاب تودع العاشقين وتعدهم أن سأعود لتروا جمالي. ولا تزال مواكب الصباح ترد تباعاً حتى إذا أقبل الجمع وتكامل أشرقت الغزالة إشراقاً يبهر الجميع. هناك يتم سلطان النهار ويدبر تمام الإدبار سلطان الليل، وتتجه الأنظار إلى مناظر الجبال والبحار والأنهار والحقول والرياض ويستبدلونها بالنجوم الزاهرات في الدجنات. وهاهنا يتجلى النهار في ثوب قشيب وينمو نمو الطفل صار شاباً ضحى كهلاً ظهراً شيخاً عصراً ثم يودع الحياة عند الغروب. وهناك تسفر غانيات الليل ويرفعن القناع ويبدون سافرات ضاحكات بهجات مشرقات ويقلن لعشاقهن بالأمس عودوا إلينا وأقبلوا علينا.

هذه هي الرواية التي يمثلها الليل والنهار وهما لا يفتأان يمثلان رواية وراء رواية والمناظر مختلفات وليس يعقل اختلافها من الناس إلا قليل. ولما غفل الناس عن هذا الجمال ألهموا أن يصنعوا

هم لأنفسهم أعراساً وولائم وأعياداً فيها يفرحون وفي أيامها يبتهجون، فهم كصناع في قصر ملك محبه وزراؤه وخواص دولته وهم يشاهدونه كل حين مبتهجون بمنظره فرحون بقربه، وفي القصر عبيد منكودون لا يرون الملك إلا في عربته سائراً أو في موكبه متجلياً، وفيه حيوانات ودواجن لا تعقل هذه الكرامة ولا تأبه لهذا الجمال. هذه نظرات النفوس الحكيمة في بدائع السماوات والأرض، فإذا رجعت إلى أنفسها وتأملت أجسامها رأت في هذا الجسم المركب من أمشاج وأخلاط مظلمة أرضية ما يفوق ما في الكواكب من جمال وما في الشموس من جلال وما في البحار من لآلئ وما في الجبال من نضار، ماذا يرون؟ يرون جنوداً يحاربون وجيوشاً من أعدائها مجندلات وممالك عظيمة كلها في داخل هذا الهيكل الجثماني. فكما أن العقول الضعيفة غفلت عن التمثيل الذي تمثله المشرقات والشمس في العوالم الأرضية والسماوية هكذا نراها غبية جامدة أمام البهجة والعلم والجمال المودع في أجسامها. وكما يرى الحكيم منظر السماء فيعقل البهجة والجمال هكذا ينظر في أمر جسمه فيرى عجباً عجاباً يذهله، بل ينسيه منظر المشرقات في الدياجي البهجات المناظر، فيا ليت شعري من ذا الذي كاد يعتقد أو يظن أو يتوهم أن في جسمي أنا آلافاً في آلاف من الجيوش البيضاء شاكية السلاح الحاد القوي تصطف صفوفاً وتحارب جيوشاً، تعد جنودها بآلاف الآلاف وتجندلها في ساحات الوغى من الحيوانات الذرية وهي المكروبات وهي أنواع مختلفة، وتلبس جنودي أنا لكل حال لبوسها فيا ليت شعري من ذا الذي يقول هذا ولا ينسبه الناس إلى الجهالة والجنون؟ وهل كان أحد في الأرض يعتقد أن الورم في الجرح ما هو إلا هذه الجيوش المتكاثرة اجتمعت لتهلك الجيوش الداخلة في جسمي لتحدث في مرضاً. أليس هذا من العجب أن جسمي يكون فيه هذه الجيوش المسلحة الواقفة بالمرصاد لكل فاتك به ثم هي تهلكه وتنتصر عليه، بل إنها تأكل الأعداء أكلاً وتصلح ما أفسدوا من جسمي، هل كان للعقل في هذا مجال؟ اللهم لا مجال لعقولنا في هذا لولا تعليمك لنا في هذه السنين، ثم ما هذه الدول والممالك والجنود المجندة، أهذه كلها لجسمي وحده؟ ألجسمي هذا تخلق هذه الجيوش والممالك؟ ألحياتي أنا تكون تلك الدول والممالك والحيل والحروب والجموع والجيوش. اللهم حارت عقولنا في وضعك وأصبحنا لا ندري أمفردنا جمع أم جمعنا مفرد، ثم كيف يكون جسمي مع أن علمي به قليل جداً يكاد يبلغ سعة السماوات والأرض في التدبير والكثرة، ممالك جسمي لا حصر لها، وممالك الوجود لا حصر لها، فتساوى الكبير والصغير في العظمة والجرأة. ثم أقول: يا من تجلببت بجلابيب الكبرياء وترديت بأردية الجمال ونثرت أرواحنا في هذه التربية ودفنت نفوسنا في هذه الأجسام الترابية وأحطتها بكل لطف ورحمة، قد حنت أرواحنا إليك وشاقتها بواسم الإصباح وبواهر الإمساء، فمتى تكشف لنا عن جمالك، لقد لمحنا من خلال الحجب المسدلة علينا لوامع من نورك، فعلمنا أنك رحمتنا بالحجاب وأنعمت علينا ببصيص من نورك، ولو أننا كوشفنا به تمام الكشف لطاحت أرواحنا وصرنا إلى العدم ما دمنا لم تكمل فينا المواهب العالية التي بها نستطيع إدراك ذلك الجمال، ولكننا تشرق في نفوسنا الذكرى بعد الذكرى والشوق يتبعه الشوق، ثم بعد هذا كله ما أنا إذن؟ أنا أقول بأعلى صوتي: أنا أجهل نفسي جهلاً تاماً وأنتظر من الذي أبدعني أن يزجني في عوالم تكشف القناع لي عن نفسي وعن هذا العالم. نعم. من ذا الذي كان يخطر له أو يهجس في نفسه أن كل حيوان وكل نبات ترجع إلى ما

يسمونه خلية، فالخلية منها منشأ جميع الأحياء. إذن الوحدة ظاهرة في هذا الوجود منها تركب كله، كما أن الأعداد تركبت من الواحد. إذن هذا توحيد عملي، والديانات توحيد قولي واعتقادي. وإن أبيت يا صاح إلا الإفصاح فهاك مقالاً لدكتور مصري في «طبيب العائلة» تحت العنوان الآتي وهاهو ذا:

سر من أسرار نظام الحياة

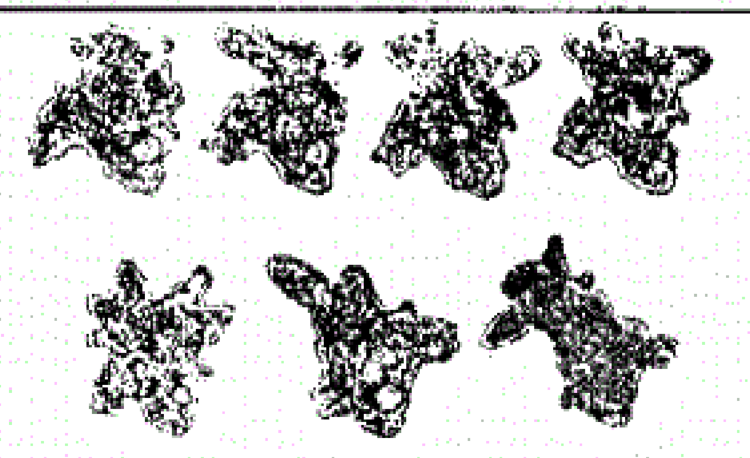
إنك لتجد يد الله وقدرته البليغة رامقة كل شيء في الوجود جل أو دق، وتراهما متجليتين على الأخص في الحياة ونظامها وتطوراتها منذ الخليقة. هذا النظام وما به من غريب ومدهش هو ما أقصد إلى تبيان جانب منه بهذه الكلمات القليلة، لأن المقام لا يسع التوسع على الرغم من خطر الموضوع خطراً هو فوق ما تتصوره العقول. إن ظهور الحياة على الأرض كان لغزاً من الألغاز الغامضة التي تعبت في حلها الأجيال وعظماء البشر من حكماء وعلماء، ولكن شغف الإنسان بالتطلع والاستقراء لخفايا الوجود وأسرار الطبيعة جعله لا يمل ولا يكل من السعي حتى ظفر بكثير مما تصبو له نفسه، وخصوصاً فيما كان له مساس بكيفية ظهور الحياة على الأرض، فقد ظل يفكر ويستعين بعقله ومداركه ثم تدرج في بحثه واستقصائه إلى أن ظفر بنتائج باهرة سارة قربته كثيراً من الحقيقة التي نشهدها منذ القدم، وإذ تقرب منها اتخذها عماده في تقرير العلم الراهن وتوسع فيها إلى الدرجات الباهرة التي وقف عند حدها في أيامنا الأخيرة وتتلخص هذه الحقيقة فيما يلي:

ظهرت الحياة على الأرض لدى الخليقة بالبسيط وانتهت بالمركب، ابتدأت بخلية واحدة وانتهت بملايين الخلايا مندمجة في شبح واحد. ابتدأت بالشيء الذي لا يقوى على الإدراك والعقل، وانتهت بالإنسان الذي هو أكمل مخلوق، وأعتقد أن الله الذي جلت قدرته وتعالت حكمته عندما شاءت مشيئته إبداع هذا الوجود، أراد لكمال هذا الوجود أن يظهر فيه من يدركه ويدرك صنعه ويدرك قوته، فأبدع الفكر، وأودعه الإنسان الذي إنّما كانت الغاية من إظهاره أن يكون أقوى أداة مفكرة في العالم.

فالحياة ابتدأت بصنع الله للخلية وانتهت بصنع الله للفكر وبه اتصل المخلوق بالخالق. نظم الله الخلية ودبرها على نسق تدريجي، وبسط لها بقوته أسباب التدرج والرقي والتوارث والتسلسل والتفرع والتنوع والتجنس، وأعدها صوراً مختلفة وأشكالاً وأوضاعاً ووظائف وغايات متعددة مختلفة، فمنها النبات وعليه قوام حياة الكائنات الأخرى، ومنها المكروبات والأسماك والطيور والحشرات والحيوان والإنسان، وكان من المدهش أنها كلها ترجع في أصل الخليقة إلى وحدة متجددة دالة على وحدة اليد القوية القادرة التي أبدعتها ألا وهي الخلية.

تلك الخلية التي ظهرت بمؤثرات وتفاعلات كيميائية وطبيعية جعلتها تتحرك وتعيش وتتضاعف وتتفرع وتتوارث وترقى على مرور الأجيال والأزمان، وتتجنس وتتنوع وتستقر في النهاية على ما هي عليه الآن، جاهلين على كل حال ماذا تدخره لها المقادير في مستقبل الدهور والحدثان، هنا نرى من المفيد أن يعلم الناس أن كل كائن حي يبتدئ عند خلقته بأن يكون خلية، إشارة من الطبيعة إلى أن ذلك الكائن الحي مهما تضاعف في تراكيبه وأعضائه يرجع في نشأته إلى تلك الخلية الواحدة. أو بعبارة أخرى: إشارة إلى الوحدة التي نشاهدها مسيطرة على هذا الوجود.

كذلك من المفيد أن يعلموا أن كل بيضة تتطور في نموها تطوراً غريباً مدهشاً، حيث تظهر فيها لدى نموها كل التطورات والتغيرات التي طرأت على نوعها منذ الخليقة إلى الآن، وبحق تعتبر هذه البيضة أنها خلاصة تاريخية للتطورات التي تطورها نوع وليدها بمرور كل هذه العصور التي قضاها متنقلاً في تطوره من حالات إلى حالات، وعلى كل حال فإن الإنسان لم يك في الواقع في مجموعه إلا خلايا لا تعد ولا تحصى مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً متيناً متضامنة تضامناً قوياً في الصحة والمرض على السواء، وهي كلها وليدة الخلية الأولى، فكل حي في الوجود نباتاً أو حيواناً أو ميكروباً يتركب من خلية أو أكثر.



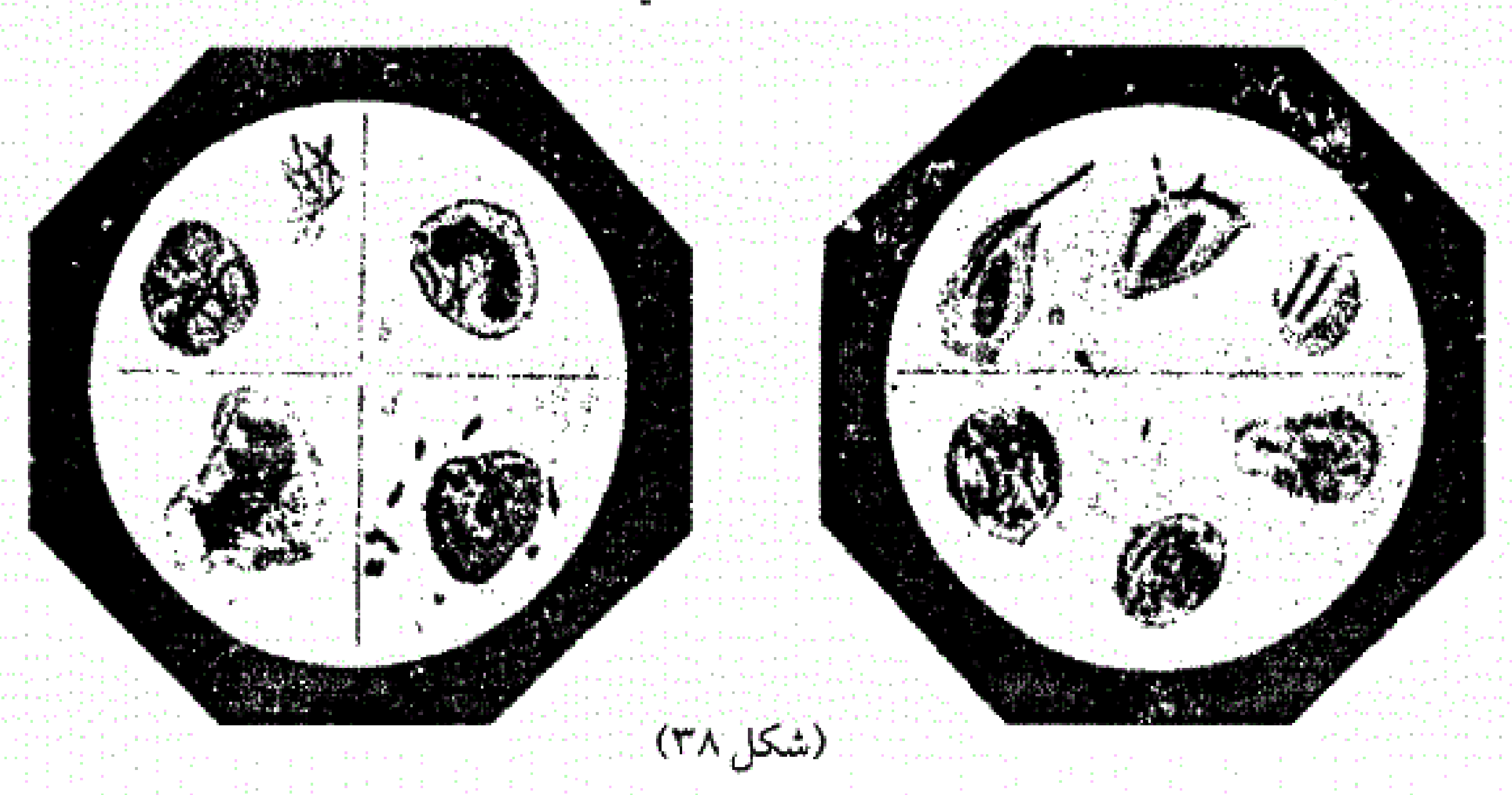
(شكل ٣٧ ـ صورة للأميبا مأخوذة عن فلم سينماتوغرافي للأميبا وهي تتحرك، أخذت بسرعة ٣٠ صورة في الثانية، والصور السبع التي ترى هنا منتخبة من حركة الأميبا في ثانية واحدة)

ومن الأسرار المثيرة للإعجاب أن من المخلوقات المشاهدة حتى الآن كائنات حية لا تركب إلا من خلية واحدة. انظر شكل ٣٧.

وقد تنقسم إلى قسمين ويصيران خليتين ولكنهما لا يتصلان، بل يعيشان ككائنين حيين منفردين، وتوصل العلم إلى معرفة مئات من هذه الأجناس «بروتوزوا» ذات الخلية الواحدة تعيش في المستنقعات والبرك والبحار، وهي أبسط كائن حي عرف حتى الآن، وإذا دققت النظر في محتوياتها لا تجدها أكثر من غلاف داخله مادة مخاطية لزجة تسمى بـ«البروتوبلاسم» فإذا صادفت هذه الخلية ذرة من نبات تراها تندفع إليها وتحيط بها بمهارة، فلا تشعر الذرة إلا وترى نفسها داخلة في ذلك الغلاف ومحاطة بأكملها بهذه المادة اللزجة مع قليل من الماء فتهضم بواسطة كيميائية قسرية وتصبح جزءاً من ذلك البروتوبلاسم، وهذا كل ما فيها من وظيفة الهضم، وغريب أنك تجد الخلايا لا تعيش إلا في سوائل الجسم «الدم واللنف» تعيش عيشة مستقلة كما تعيش الكائنات ذات الخلية الواحدة المسماة «بروتوزوا» في قاع المستنقعات والبحار كما قدمنا، وإنك لو أخرجتها من تلك السوائل ونظرت إليها بـ«المكروسكوب» ومزجت معها قليلاً من الذرات الملونة لرأيتها بعينيك تصنع ما صنعته الكائنات المذكورة في أساليب غذائها وهضمها على السواء.

هذه الكائنات ذات الخلية الواحدة التي تعيش في سوائل الجسم هي التي نطلق عليها اسم الكرات البيضاء وهي كائنات معروفة قبل عصر باستور، أما في عصر باستور فقد ظهر بفضل فكره الواسع وعبقريته الممتازة ما دهش له العالم طراً، ذلك أنه قد ظهر لنا عالم خفي كنا نجهله هو عالم الميكروبات وبرهن لنا على أن هذا العالم الخفي علة جميع الحميات المعدية، وأن عوارض هذه الحميات لم تك إلا نتيجة تسمم الجسم متى تسلطت هذه الميكروبات من الخارج إلى داخل الجسم، ثم أتى لنا بعده ليستر وبرهن على أن تقيح الجروح نتيجة تسلط هذه الميكروبات على الجروح، وأن هذا التقيح هو انحلال الخلايات عن فتك هذه الميكروبات بها. انظر شكل ٣٨ في الصفحة التالية.

أخذت هذه الكرات البيضاء وهي تزدرد الميكروبات



(شكل ٣٨)

تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الانتراكس

(أ) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الدفتريا
(ب) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الستربتوكوك
(ج) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الحمى الراجعة
(د) تتغذى الكرات البيضاء بمكروب الكوليباسيل

ثم أتى بعدها « كوين هايم » وبرهن على أن في كل موضع ملتهب من الجسم سواء كانت نتيجة ميكروبات أو صدمة فإن الورم الذي يطرأ عليه يكون عبارة عن تراكم الكرات البيضاء بكميات كثيرة تخترق الأوعية الشعرية وتتصل إلى ذلك الموضع الملتهب ومنه ينشأ الورم، ثم أتى بعدهم « ميتشنيكوف » وأرانا بأعيننا أن الغاية من تراكم الكرات البيضاء وخروجها من الأوعية الشعرية وذهابها إلى المواضع الملتهبة هو الدفاع عن الخلايا ومقاتلة الميكروبات الطارئة الضارة بها والتغلب عليها بأكلها وهضمها وأكل سمومها وأكل الخلايا التي فسدت بسبب فتك الميكروبات بها، كل ذلك رأيناه بأعيننا وتأكدنا من عمل هذه الكرات البيضاء الضرورية للحياة، ولذلك سميت بالخلايا الأكالة أي « الفاجوسيت ». هذه المدهشات علمت واكتشفت أسرارها وأسرار وظائفها وهي مع ذلك خلية واحدة للجسم الإنساني، فكم لله في باقي صنعه من أسرار لا زال أمرها غائباً مجهولاً من الإنسان.

بهجة الجوهرة: في هذه الآية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤] الخ

وأن المصلي رجع في الركوع والسجود من الحق إلى الخلق والفيلسوف رجع من الخلق إلى الحق

تباركت يا الله، جعلت الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا كما في آية « الحجرات » وجعلتهم ﴿ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤] كما هنا، فنرى قبائل ودولاً في القارات الأرضية شرقاً وغرباً، ونرى أسرات وجماعات بينهم علاقات واشتراك يسكنون قرية واحدة، ثم نرى جسم الإنسان وحده فيه

أنواع الحواس وهي خمس قد قسمت عليها العوالم التي ندركها، فللعين المناظر وهي عشر، وللأذن المسموعات وهكذا. وفيه أيضاً أعضاء مختلفة لكل عضو منفعة خاصة كاختلاف منافع الحواس. كل هذا يذكره المصلون في صلواتهم وأكثرهم ساهون، فيقول الراكع: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين»، ويقول الساجد: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين». فهاهو ذا الراكع يذكر جماعات الحواس المتضامنات مع السمع والبصر ومثله الساجد، ثم كل منهما يذكر جماعات الأعضاء المتضامنات من العظم والعصب والمخ. فيا سبحان الله. جماعات في الأمم كجماعات المدن كجماعات الحواس في الجسم كجماعات أعضاء الجسم داخلاً وخارجاً وكلها راجعات لنظام وحدة كلية. فالأمم تكون أهل الأرض جميعاً، والأسرات تكون البلدة الواحدة، والحواس والأعضاء تكون الجسم الواحد، وممَّ تكون هؤلاء كلهم؟ تكونوا من الماء المذكور في هذه الآية والقاعدة في الجميع واحدة. فهل لك أن أسمعك الآن ما هو أبعد مدى وأقرب هدى. انظر كيف كانت نفس أجسامنا مركبات من خلايا، وهذه الخلايا جماعات بينها اشتراك كاشتراك الدول وأهل القرية والأسرة والحواس والأعضاء في الجسم الواحد. فهاك ما جاء في بعض المجلات العلمية:

حياة الخلية

كان الفضل في اكتشاف الخلية أو وحدة تركيب الأنسجة في جسم كل كائن حي لاختراع النظارات المكبرة وأذهان العلماء المشتغلين بها مثل: «شوان» و«شليدن» و«فيرشو»، وقد أوجد هذا الاكتشاف ما يسمى بنظرية الخلية، وهي تتلخص في أن كل كائن حي بدأ حياته كخلية مفردة، لأن قسماً من الخلايا المفردة لم يقنع بحالته الوضيعة، وصارت كل خلية تبني لنفسها جسماً كبيراً بانقسام الخلايا التي تتناسل منها، واستمرت هذه الكائنات الكثيرة الخلايا في تقدمها حتى استطاعت لكثرة ما فيها من الخلايا أن تقسمها أقساماً وتجعل لكل قسم عمله الخاص، ومن هنا نشأت الأعضاء والأجهزة المختلفة التي نراها في جسم الحيوان أو في تركيب النبات.

الوجود التضامني

ولما اجتمعت الخلايا وكونت جسماً واحداً ووزعت الأعمال المختلفة على كل طائفة منها صارت حياة الكائن المشتمل هي عبارة عن مجموع قواها الحيوية، ومع ذلك لكل خلية حياتها الخاصة. ويقول العالم السر «لانكستر»: يمكن أن نعتبر الحيوانات والنباتات العديدة التي بنيت أجسامها من خلايا كثيرة كائنات حية مركبة، وأن خلايا كل جسم حي مثل السكان في مدينة لكل جماعة عملها ولكل فرد كفايته. وأن الغاية من أعمال هذه الجماعات وتضامنها هو تحقيق غرضها المشترك وهو الحياة للحيوان أو النبات التي توجد فيه.

أساس الحياة

ويعد الهيولى أو المادة الأولى «البروتوبلاسم» أساس الحياة الطبيعية، وهي المادة التي تحيا بها أجسامنا والتي ترتكز عليها حياة الخلية، فإن أول شيء يتكون في أي حيوان هو الهيولى ثم الخلية والخلية تتولد منها خلايا وهكذا إلى أن تتكون جميع أعضاء الجسم ويتم بناء هذا الكائن الحي.

من أين تولد الخلية

لا تولد الخلايا الحية إلا من خلية سبقتها في الوجود وباتصال الذكور بالإناث. وقد حاول كثير من العلماء إثبات التولد الذاتي أو تكون الكائن الحي بنفسه فأخفقوا في إيجاد أقل الكائنات في التركيب. انتهى هذا، ثم انظر ما ذكره «السر أوليفر لودج» وهاك ما ورد في نفس المجلة بنصه:

الجسم والروح

يقول «السر أوليفر لودج» رئيس المجمع العلمي البريطاني: إنه لمن أغرب الأمور أن تكون أجسامنا قادرة على تكوين أناس مما نأكله من مواد الغذاء، فإن نفس هذه المواد الغذائية كان من الممكن أن تصير دجاجاً أو كلاباً، ولم يفعل ما قامت به من المعجزات المدهشة إلا ما فيها من العوامل الحيوية ذات المزايا الخاصة التي حتمت أن يصير هذا إنساناً ولم تجعله قرداً مثلاً بل جعلته إنساناً بشكل خاص يتقيد فيه بعدة عوامل وراثية أو خلافها ترجع إلى أبيه أو أمه أو أسلافه. أما الأجسام فتبلى وترجع التراب إلى التراب كما قالت الكتب المقدسة. أما تلك العوامل التي قامت بالمعجزة فإنها تبقى في كائن لطيف لم يدرك العالم حقيقته ولكنه لا يستطيع أن ينكر وجوده وأثره وهو الروح. اهـ.

هذا كلام «السر أوليفر لودج» ولعمري ما هذا إلا معنى تسبيح المصلي في سجوده وركوعه وثنائه على ربه، يسبح المصلي في الركوع والسجود أي ينزه ربه عن الحوادث والأجسام ثم يذكر نعمة السمع والبصر وأعضاء الجسم، وهذا معنى: سبحان الله وبحمده، فهاهنا تنزيه عن الحوادث مع خلقها منه والحمد عليها منا نحن، فالسر «أوليفر لودج» يقول: إن هذه الروح هي التي دبرت هذا الجسم وخصصته بكونه إنساناً مثلاً، فأرجع الأجسام والحواس إلى الروح، والروح ليس يقدر العلم على معرفتها ولا على إنكارها، فهي إذن ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالعالم قسمان: عالم الخلق وعالم الأمر، والأول: هو المذكور من أعضاء الجسم. والثاني: هو الروح والله خالقه وهو منزه عن الحوادث وعن ملابسة الأجسام. فالسر «أوليفر لودج» سار بكلامه من الخلق إلى الحق بعقله هو لا بدينه، أي أن الفلاسفة ينتهون بعد مشاهدة المادة إلى خالقها. إن هذا هو الذي جرى عند أعاظم حكماء هذه الكرة الأرضية. واعلم رعاك الله أن فلاسفة اليونان ابتدؤوا نظرهم على هذا النمط فقام «تاليس» قبل الميلاد بخمسمائة سنة فقال: إن هذا العالم أصله الماء ومنه اشتق ما هو أثقل منه وهو الأرض وما هو أخف منه وهو الهواء. ثم قام «أنكسيمانيس» بعده فقال: كلا. بل الأصل هو الهواء. وفعل به ما فعل «تاليس» بالماء. ثم قام بعدهما «ديموقراطيس» فقال: ويحكما كيف حصرتما العالم في عنصر واحد. كلا. بل الأصل هو الجزء الذي لا يتجزأ، فإذا قام من قبلي واستغنى عن صانع للعالم بعنصر فأنا أستغني عنه بهذه الأجزاء التي لا تتجزأ. إذن العالم هو هكذا من الأزل إلى الأبد.

هنالك حار اليونانيون وظهر فيهم «السوفسطائية» ينكرون الحقائق، وقام بعدهم «فيثاغورس» وهو يوناني، فنظر فرأى هذا العالم فيه نظام وإبداع وحساب وحكمة، فقال: كلا. إن أصل العالم أرقى من المادة فليكن هو العدد لأن كل شيء له نظام معدود. ثم قام الفيلسوف «انبذوقليس» فقال: إن هناك محبة وعداوة، فالأولى تجمع، والثانية تفرق، وما العالم إلا جمع وتفريق. فقام بعده في القرن الرابع قبل الميلاد «أنكساغورس» وقال: كلا. هذا لا يكفيني، إن هذا العالم له عقل صنعه، فهذا العقل فعل مع

المادة ما صنعه الذي يدير الساعة، فهو أولاً نظمها فدارت ثم تركها فهي تجري أبداً وأمداً، لأن هذا النظام لا يكون بلا عقل. ثم قام بعده سقراط فقال: هذا رأي أبتر. إن الآلة لا تصنع من نفسها، فلا بد لها من مدير يديرها ويلاحظها أبداً. إذن الذي صنع هذا العالم هو الذي يعلمه وهو معه دائماً يدبره ويحكم صنعه ولا يتركه، وإلا لفسد. ثم جاء أفلاطون وقرر هذه النظرية بشكل أتم وأبهى وأبهر. ثم قام «أرسطاطاليس» فأيد الذين قبله. وإلى هنا انتهى علم جميع الأمم شرقاً وغرباً.

إذا عرفت هذا أيها الذكي فاعلم أنك قد ظفرت بكنز لم يحرزه سواك. ومتى عرفت هذا وحفظته وعقلته فاعرض على هذا الجدول عقول أبناء أمتك الذين تعيش معهم، فستسمع أحدهم يقول: إني لا أصدق إلا بالمحسوسات، فاعلم أن هذا المسكين لم يزل طفلاً أشبه بما قاله «تاليس» أو «ديموقراطيس»، وإذا سمعته يقول: لمن أصلي؟ وهل الله محتاج إلى صلاتي؟ فاعلم أن هذا لا يصدق بأن الله محيط بالكائنات، فهو أشبه أنكساغورس. فقل لأبناء الشرق: إن العلامة «اسبنسر» الفيلسوف الإنجليزي ومثله «سنتلانة التلياني» يقولان بأعلى صوتهما وعلى مسمع من أوروبا قاطبة: إننا لم نصل في هذا العالم ـ أي فيما هو المقصود من الفلسفة وهي هذه المباحث ـ إلى «سقراط» و«أفلاطون» كلا. ويقولان: إن جميع فلاسفة أوروبا لم يزيدوا على ما ذكر فيما كتبناه هنا، وغاية الأمر أن أحدهم يختار قول «تاليس» مثلاً أو قول «ديموقراطيس»، والفلسفة في طفوليتها فيعلنه، ثم يقوم آخر ويختار مذهب «سقراط» فيعلنه. إذن من درس هذه الفرائد التي ذكرتها هنا فقد حفظ أمهات المذاهب التي إليها ترجع جميع أقوال علماء أوروبا في العصر الحاضر وأقوال المقلدين لهم من المتعلمين نصف تعليم في بلاد الشرق. فهؤلاء وهؤلاء مقلدون، ولكن المسلم في صلاته قد جمع خلاصة المذاهب واتبع أعلاها فقال: سبحان ربي العظيم، وذكر الأعضاء والحواس وما تحتها من الخلايا التي دخلت ضمنها، فهي كلها مجموعات مشتركات في حياة الفرد كله الذي جمعته الروح التي صارت أقرب إلى ربها المنزه عن المادة. وهذا آخر ما انتهت إليه الفلسفة، وذلك بسقراط وأفلاطون إلى آخره.

فالفلاسفة ساروا من الخلق إلى الحق، والمصلي المسلم سار من الحق إلى الخلق في الركوع والسجود، وهذا في «الفاتحة» والتشهد إذ يحمد الله، ويقول: إن التحيات له، ثم هو بعد ذلك يطلب منه الهداية والاستعانة الخ، ويطلب منه الصلاة والسلام على النفوس العالية والصالحين. وإذا قال المصلي في سجوده: تبارك الله أحسن الخالقين، بعد ذكر أعضاء جسمه وحواسه فتلك مقابل لما في الآية هنا: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الفرقان: ٦١]، فهذا الفعل وتلك البركة كما اجتمعت فيها الشموس التي لا يعرف عددها فصارت عالماً منتظماً، هكذا بها انتظمت أعضاء الإنسان والخلايا التي لا يعرف عددها، وهن مشتركات في نظام الجسم الإنساني وحياته، فكما أن الإنسان حيوان صغير هكذا العالم كله حيوان كبير، وهذا كله يشير إلى قول المصلي في سجوده: سجد وجهي الخ. وهذا العالم الصغير يجدّ حتى يرجع إلى ربه فيصير روحاً طاهرة، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩].

هذا معنى كون الإسلام دين الفطرة، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]، فإليه انتهى مباحث الفلاسفة، وهناك وقف نظرهم وصار جميع الباحثين يأخذ كل منهم من سلسلة المباحث ما يوافق عقله قدر طاقته، وسيأتي إيضاح هذا المقام في سورة «النمل» في آخرها إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الخميس ٧ فبراير سنة ١٩٢٩.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ إلى قوله: ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

تباركت يا الله وتعاليت. أبدعت نجوماً وشموساً، وتلألأت في سمائك وانتشرت في أقطارها جميلات منيرات مشرقات. أبدعتها بالحكمة وزينتها بالجمال، وقلت لها: املئي أقطار السماوات وأفيضي نوراً على المخلوقات لتبتهج بك القلوب ولتعشقك العقول ولتفرح بك النفوس. أيتها النجوم وأيتها الشموس أنتن بهجة عبادي مقسمات الزمن معطيات الضياء منميات الزرع مكثرات الضرع، أنتن بأمري مجريات الرياح الحاملات السحاب، بضوئكن وحرارتكن نما النبات وانتعش الحيوان، وبكن غنت القماري على أعوادها والفواخت في دوحاتها وراحت الحشرات المغنيات وغدت تجمع العسل وتلقح النبات كل صباح ومساء. وبنظام سيركن انتظم لعبادي علم الحساب بأنواعه فعرفوا السنين والشهور والدهور، وببهجتكن انطلقت ألسنة الشعراء فتفننوا في وصفكن بأفانين القول وبدائع الحكم وروائع الفنون. ففيكن يقول الشاعر:

كأن سهيلاً في مطالع أفقه	مفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن بني نعش ونعشا مطافل	بوجرة قد أضللن في مهمه خشفا
كأن سهاها عاشق بين عود	فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن قدامى النسر والنسر واقع	قصصن فلم تسم الخوافي له ضعفا
سقتها الذراع الضيغمية جهدها	فما أغفلت من بطنها قيد أصبع
بها ركز الرمح السماك وقطعت	عرى الفرغ في مبكى الثريا بأدمع
ويستبطأ المريخ وهو كأنه	إلى الغور نار القابس المتسرع
وتبسم الأشراط فجراً كأنها	ثلاث حمامات سدكن بموضع
وتعرض ذات العرش باسطة لها	إلى الغرب في تغويرها يد أقطع

من سقط الزند للمعري

وكم تغزل فيك عبادي الشعراء، فأنت نبراس الخيال لشعراء عبادي كما أنك نبراس العقول والحكم المستودعات في قوى الحكماء والفلاسفة الفكرية، إذ يحسبون سيرك ويعقلون بعض سرك وهم بك فرحون، إذن أنت مسرح القوتين الخيالية والفكرية ومناط العالمين: عالم شعر الشعراء وعالم حكمة الحكماء. ولقد جعلتك زينة للناظرين وأغنيت بمرآك الصادرين والواردين. ومنحتك الجمال بهجة للعالمين. زينتك أعلى زينة وأبهج حلية وأعلى منار، ولم يقتصر التفنن في محاسنك على شعر الشعراء وحساب الحكماء، بل تعدى ذلك إلى غيرهم من سائر الخلق فقد أنزلوك منازل حيواناتهم التي ألفوها ودواجنهم التي ربوها ليقربوك من متناولهم حتى كأنك بين ظهرانيهم مألوفة لهم:

(١) فهاهم أولاء عبادي الآريون سكان الهند صوروا مجاميعك بصور حيوانات يعرفونها وذلك في كرتهم المصورة قبل المسيح بتسعة قرون، فجعلوك بجعة ووزتين وشجرة كبيرة فيها كلب وصورة زنجي ضخم الجثة وامرأة مغطاة بوشاح.

(٢) وهاهم عبادي العرب سموا بعضك باسم بنات نعش الصغرى والفرقدين والجدي وبنات نعش الكبرى والقائد والعناق والجون والسها والهلبة والحوض والظباء الخ.

(٣) وهاهم أولاء الصينيون قد سموا أكثر من ثلاثمائة اسم ذكروا فيها أسماء كثير من عظمائهم.

(٤) ولقد تمادى العرب عبادي في الخيال وأخذوا يقولون: إنك الراعي وكلب الراعي والشاة أو الأغنام والضباع والكف الخضيب وسنام الناقة والخباء والعنز والجديان وممسك الأعنة والحية والدلو والحمل والثور والجوزاء والسرطان والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وسموا هذه الاثني عشر بروجاً.

(٥) وهاهم أولاء عبادي أهل «اسكنديناڤيا» قد سموك بالكلب وبالمركبة وبالمغزل.

(٦) وكذلك عبادي في الأقطار الشمالية «الاسكيمو» سموك صائد القط، والقط حيوان بحري عندهم، فهاهم أولاء عبادي اتفقوا في مشارق الأرض ومغاربها على تسميتك أيتها النجوم بما لديهم من الصور المألوفة الحية وغير الحية ليستنزلوك من سمائك إلى المعاني القريبة من متناولهم، استئناساً بك وفرحاً بمرآك وأنساً بمشاهدتك. أيتها النجوم ويا أيتها الشمس أنتن جمال وأي جمال. أنتن أنس وأي أنس. أنتن مثيرات العشق والغرام. أنتن المنعشات لحب العلوم. أنتن المضرمات نار الشوق للقائي ومثيرات نيران الحب لجمالي. أنتن عنوان جمالي وكمالي. أنتن حلية عوالمي. أنتن العرائس المصطفيات لأحبائي من عبادي، وما العرائس المزينات المجلوات في الأرض إلا نموذج لزينتكن وجمالكن حتى إذا فرحوا بأقل الجمالين طمعوا في أكملهما بهاء وأبهاهما حسناً ولألاء.

(٧) ولقد تعلم عبادي الذين يطربون الناس بالنغمات دواوين الغناء والألحان من نظام مسيرك وهكذا الشعراء، فهؤلاء وهؤلاء استمدوا الحساب ونظامه من حسابك فأصبحوا لا يفرقون بين حساب الأبيات الشعرية والأوزان الغنائية والحركات الفلكية. انظر هذا في سورة «يوسف» عند قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف: ٣١]، وفي مواضع أخرى من هذا التفسير، مثل ما تقدم في سورة «الرعد» عند قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨].

أيتها النجوم. أيتها الشموس. أيتها الأقمار. أنت اللاتي هام بك القدماء والمحدثون من مخلوقاتي حتى دخلت في العبادات وصورت على صناديق بعض الأموات وأنزلتك في القرآن، فقلت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان: ٦١]. انتهى صباح يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٨.

هذه المقالة جاشت في صدري في هذا التاريخ. ولقد تقدم في هذا التفسير أن قدماء المصريين أغرموا بجمال الكواكب وهاموا بها هياماً شديداً وأولعوا بها وأحبوا الله حباً جماً وجعلوها رمزاً لكماله وصلة بينهم وبينه، ونحن معاشر المسلمين أمرنا بالنظر فيها لتدعونا للشوق إلى مبدعها الحكيم وخالقها العظيم، ولكن قدماؤنا المصريون جعلوها معبودهم، وهذا المعبود يوصلهم إلى ربهم لأن

الرب أجل من أن يذكر على اللسان، بل الذي يذكر إنّما هم مخلوقاته، ولذلك تنوعت الآلهة وكثرت الأصنام احتراماً لمقام الألوهية. أما الإسلام فقد قوض هذه الأركان وهدم الأوثان وقال: أيها الناس اعبدوا ربكم. فليس تعظيمه بالإشراك ولا تقديسه واحترامه بعبادة الأوثان، بل هو المعبود قولاً وفعلاً والمذكور سراً وعلناً. ولقد ترى في تفسير سورة «يونس» صورة منطقة البروج وحولها الكواكب المعروفة عند قدماء المصريين قد كشفوها مرسومة على صندوق أحد العظماء، فالكواكب معظمات عندهم في حياتهم وبعد موتهم. ومن ذلك ما ذكرته لك هناك من أن الهرم الذي تراه مرسوماً هناك مشروحاً مذكوراً سببه قد بني بحذاء كوكب الشعرى المعبود العظيم عند القوم، وقد كانوا يجعلون صورة الهرم مع الميت تيمناً بكوكب الشعرى الذي بني الهرم بحذائه. وإذا مات الميت وجهوا وجهه إلى جهة الهرم المرموق بنظر ذلك الكوكب. هذا ما عثر الباحثون والكاشفون عليه في خبايا الأرض وأحافيرها وطواميرها ونواويسها بالبلاد المصرية داخل الأجداث، ولقد عثروا على غرام الأحياء بالكواكب في البلاد المصرية فوجدوا حبها متمكناً في القلوب بحيث امتزج بالدم وبالعمل وبالدين.

انظر ما تقدم في سورة «يونس» فإنك ترى في أولها هناك حساب الهرم وأنه بني على سير الشمس وعلى مقتضى دائرتها السنوية، وأن محيط الهرم منسوب لمحيط مدار الأرض حول الشمس، وارتفاع الهرم منسوب لبعد الأرض عن الشمس، حتى إذا هدم الهرم أمكن أن تعرف مقاييس من نفس مدار الشمس.

وترى هناك مقاييس مصر كالذراع البلدي ومكاييلها كالأردب وموازينها كالرطل كلها مستخرجات من مساحة الهرم المبنية على مدار الشمس وعلى بعدها عن الأرض، فارجع إليه إن شئت تجد العجب العجاب، وهنا أزيدك تبياناً جميلاً بما قرأته من كتاب مترجم حديثاً ترجمه أحد القائمين بالمتحف المصري فآثرت نقل ما يناسب المقام منه لتعجب من جمال الله الذي أشرق على الكواكب الراقصات في جو السماء فأرقصت أهل الأرض وهاموا بالجمال والبهاء وجعلوه عبادة لله وإن كان هذا لا يوافق ديننا لأنه أشرف الأديان ولأن الله يقول لنبينا: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج: ٦٧] فهاك ما نقلته من ذلك الكتاب تحت عنوان: الرقص وأنواعه وأوصافه، ترويحاً للنفوس وتنويعاً للدروس وتشويقاً للعلوم والحكمة وفهماً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[الصافات: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦]، وهاهو ذا.

الرقص وأنواعه وأوصافه
عند قدماء المصريين

قال «مونستربيه»: كان قدماء المصريين يرقصون حول الهياكل والمعابد على شكل دائرة ويتخيلون الهيكل كالشمس في كبد السماء فيدورون حوله تمثيلاً لمنطقة البروج، أي كما تدور الكواكب والنجوم والسيارات حول الشمس دورتها اليومية والسنوية. وقال «لوسيان»: كانت حركات الرقص عند قدماء المصريين تشبه في السرعة انحدار الماء وتماوج لهيب النار في الهواء، وخيلاء الأسود وغضب الفهود وترنح الغصون، فهو أبدع ما يكون.

قد دلت الآثار المصرية التي يرجع تاريخها إلى ٥٠٠ سنة على أن المصريين هم أقدم الشعوب مدنية وأوسعهم حضارة وقد توسعوا في المدنية وفنونها حتى أتقنوا فن الرقص وأحكموا قواعده. ومما هو جدير بالذكر أنهم لم يتخذوا الرقص للخلاعة والملاهي كما نراه الآن، بل كان عندهم خدمة للشعائر الدينية ونموذجاً للحركات الفلكية وتمثيلاً للأنغام الموسيقية، وكانوا يقصدون من الرقص جملة فوائد دينية ودنيوية. أما الدينية فهو ما كانوا يتقربون به حول الهياكل والمعابد، فقد قال كستيل بلاذ: إن تمجيد الخالق عند قدماء المصريين أداهم إلى إنشاء الأناشيد المقدسة وإحداث الرقص إظهاراً لسرورهم وأفراحهم وقياماً بشكر النعم وتمثيلاً للعبودية والخضوع لمقام الربوبية حتى اعتبر قدماء الشعوب أن الرقص جزء جوهري من دياناتهم، ولم يكن ذلك قاصراً على المؤمنين منهم، بل الطبيعيون أنفسهم، وهم الذين يعتقدون أن الألوهية منحصرة في نظام الطبيعة، كانوا يرون أن مجموعة الأناشيد وأنواع الرقص ممثلة لاتحاد الكمالات في ذلك النظام وكفيلة باحترام الطبيعة ومجدها.

ومن العجيب أن قدماء المصريين بلغ احترامهم الرقص عندهم لدرجة أن اعتقدوا أنه من ضمن التعاليم المنزلة، فقد قال «ديودور» الصقلي المؤرخ اليوناني المولود في القرن الأول ق.م: إن أسوريس ـ وهو المعبود العظيم ـ كان يحترم توت «هرمس» ويجله نظير ما شرعه وبثه في الهيئة الاجتماعية من علوم الفلك والموسيقى والرقص والألعاب الرياضية وغيرها من الفنون التي بلغت عندهم درجة الكمال وسبقوا بها الأمم في مدارج الرفعة وسعادة الحياة، قال مونستربيه في كتابه الذي وضعه سنة ١٦٨٣ وسماه «الرقص القديم والحديث» ما نصه:

إن الرقص عند قدماء المصريين كان يمثل الحركات السماوية على نموذج الألحان الموسيقية، وكانوا يرقصون حول الهياكل والمعابد على شكل دائرة ويتخيلون الهيكل الشمسي في كبد السماء فيدورون حوله تمثيلاً لمنطقة البروج، أي كما تدور الكواكب والنجوم والسيارات حول الشمس دورتها اليومية والسنوية.

ولم نعثر في النصوص المصرية القديمة على تفصيلات هذا الرقص الديني القديم حول الهياكل وغاية ما قاله لوسيان المولود في القرن الثاني للمسيح في بلدة ساموزات التابعة لسوريا القديمة: إن مجموعة الكواكب ودائرة النجوم والسيارات هي محور لهذا الرقص الفلكي، والرسوم المنقوشة في المعابد والهياكل لم تدل على أي بيان لهذا الرقص الفلكي، وقد كان له قوانين محترمة كغيره من الفنون. أما أفلاطون فقد وصفه وصفاً مبهماً حيث نقل عن قدماء المصريين أنه كان من واجب الشبيبة المصرية أن لا تتمرن إلا على الرسوم والألحان البالغة حد الكمال، لذلك كانوا يختارون نماذج مخصوصة للرقص ويحددونها ويضعونها في الهياكل والمعابد، وكان محذوراً على النقاشين والرسامين الذين يحضرون هذه المشاهد أن ينقلوا شيئاً عنها أو يمثلوها في الخارج حذراً باتاً بمقتضى نصوص قوانين البلاد، وقد قدسوا كل أنواع الرقص والأغاني.

قال «مينار» في كتابه الذي سماه «تاريخ الشعوب الشرقية»: إن المصريين القدماء كانوا أكثر الأمم تديناً وكانت أكبر اجتماعاتهم الدينية محافل طرب لميلاد إلههم وعودته، أو مجامع حزن وبكاء لموته، وكانت هذه الاحتفالات تشتمل على أنواع من الأناشيد المقدسة وأشكال من الرقص الديني.

ونقل أيضاً « لوسيان » أن الرقص والغناء كانا مقدسين عند قدماء المصريين ، ومن لوازم الاحتفالات الدينية ، وذكر « هيردوت » أن المصريين هم أول الشعوب الذين وضعوا الاحتفالات الدينية ومنهم أخذ اليونان جميع عاداتهم وتقاليدهم . وكان عند المصريين أعياد كثيرة في كل سنة لأنهم كانوا يجعلون لكل معبود عيداً خاصاً به ، وكانوا عندما يذهبون إلى مدينة « بوبسط » للاحتفال بعيد المعبودة « ديان » يركبون السفن في النيل ، والنساء يلعبن فيها بالساجات والرجال يضربون بالناي مدة السفر ويغنون ويصفقون ، وكلما رست السفينة على شاطئ يجددون حفلة راقصة .

وقد وصف « ابيليه » الروائي الروماني المولود في القرن الثاني للميلاد حفلة عيد من أعياد المعبودة « اسيس » فقال : كان النساء في ذلك اليوم يلبسن الثياب البيضاء ويضعن على رؤوسهن أكاليل الزهور تلوح على وجوههن علامات البهجة والسرور ويفرشن الطرق التي يمر منها المحفل المقدس بأنواع الورد والرياحين وينشدن نغمات لذيذة ويضربن بالناي ، ويليهن كوكبة من أعاظم المصريين لابسين الملابس البيضاء القيمة ويترنمون بالأناشيد المقدسة ، ثم يأتي بعدهم جماعات من الرجال والنساء من كل الطبقات المتأهلة للأسرار الإلهية لابسين حللاً باهرة من الكتان الأبيض ، وكان النساء يضعن على رؤوسهن المعطرة المنسوجات الشفافة ، وكانت رؤوس الرجال محلوقة ويضربون على الأعواد التي يتخذونها من النحاس والفضة والذهب بتوقيعات مطربة منعشة . وكانت الأمة كلها تشترك في عيد العجل « أبيس » لإحياء مراسمه وتعظيماً له وإجلالاً لمقامه .

ومن عجيب ما اتفق أن « كمبيز » ملك العجم رجع منهزماً من حربه مع إحدى الممالك فدخل مصر في عودته فصادف دخوله يوم احتفال المصريين بعيد ظهور العجل « أبيس » وهم لابسون أفخر الحلل وقائمون بمظاهر الأفراح لهذا العيد ، وكان « كمبيز » قد دخل مصر قبل هذه المرة فلم ير من المصريين مثل هذا الاحتفال ، فظن أنهم يشمتون فيه ، وأن هذه الولائم والمحافل أقاموها فرحاً بخذلانه وتشفياً في انهزامه في الحرب . فاستحضر رؤساء مدينة « منفيس » وسألهم : لماذا يقيم المصريون الآن معالم الأفراح والزينات عند ما فقدت جنودي في ساحة القتال ورجعت بالفشل ، ولم أر ذلك منهم يوم دخلت « منفيس » أول مرة منتصراً؟ فأجابوه : إن هذا اليوم صادف ظهور العجل « أبيس » معبودهم ، فأقاموا له الأفراح ومظاهر الأعياد . فلم يصدقهم وأصر على اعتقاد أن ذلك شماتة به وأعلن غضبه على المصريين وأذاقهم أنواع النكال والعذاب .

قال « دي كاهو ذاك » في كتابه الذي وضعه سنة ١٧٥٤ وسماه « الرقص القديم والحديث » ما نصه : إن الرقص عند قدماء المصريين كان أمراً جوهرياً في الدين ، وقد تفننوا فيه حتى اخترعوا رقصاً خاصاً لعيد معبودهم العجل « أبيس » ، وذلك أنهم كانوا إذا مات العجل أخذوا يبحثون عن عجل غيره مستوف للشروط والتعليمات الخاصة له ، حتى إذا وجدوه فرح به الكهنة وخصصوا لخدمته جمهوراً من السيدات مدة أربعين يوماً ، ثم يضعونه في قارب ويذهبون به إلى الهيكل بمدينة « منفيس » مصحوباً بالكهنة وسراة القوم وجماهير عظيمة من طبقات الشعب ، ويستعملون لهذا الاحتفال ألف آلة موسيقية يوقعون عليها الأنغام وبدائع الألحان ، ثم يختمون الاحتفال بأنواع الرقص المدهشة . وكان إذا مات العجل « أبيس » هذا ألقاه الكهنة في النيل ثم أخرجوه منه وحنطوه ودفنوه بكل الإجلال

والإكرام ورقصوا الرقص الجنائزي على شواطئ النيل وفي المقابر والطرق وعم الأسف والحزن الشعب أجمعه، ومتى ظهر لهم عجلاً آخر تبدلت الأتراح أفراحاً وانقلبت المآتم مواسم وأقاموا الأعياد والولائم وأنواع الرقص مدة سبعة أيام. ثم توسعوا في حفلات الرقص حتى اتخذوها شعاراً لجنائزهم فقد عثر في آثارهم على رسم راقصات لابسات ثياباً صفراء ومنهن ثلاث واقفات يضربن الطبول وثلاث أخر يرثين الميت. ويوجد في مقابر «طيبة» منظر جميل يمثل حفلة مأتم الأمير «حور محب» وفيها امرأتان تقدمان للميت أواني معدنية مملوءة زهوراً وعطراً وثلاث نسوة أخر يرقصن ويضربن آلات موسيقية.

ويوجد أيضاً رسم لرمنيو يمثل النساء راقصات ضاربات على الطبول حداداً على الميت، بينما الرجال بأيديهم عصي من الخيزران يضربونها في الهواء جهة اليمين واليسار ليطردوا الأرواح النجسة في زعمهم. واشتهر الرقص عندهم أيضاً في الحروب ونقله الأثيوبيون، وقد وصفه «لوسيان» فقال: كان الأثيوبيون إذا أرادوا الحرب يرقصون أولاً في ميدان القتال ولا يصوبون رماحهم إلى الأعداء قبل أن يرقصوا ويظهروا حركات حماسية يهددون بها الأعداء. ثم ازدادوا توسعاً في الموضوع فاخترعوا الرقص الحديث الذي عرف بالرقص العائلي الذي أخذه عنهم جميع الشعوب القديمة والحديثة. وقال «ديودور» الصقلي: إنه لما ذهب «اسوريس» إلى أثيوبيا كان يصحبه تسع بنات يعرفن كل الفنون وأنواع الغناء والرقص وهن اللاتي نشرن هناك هذه الفنون الجميلة.

صفة الرقص

قال «بارون» في كتاب الرقص: إن الآثار المصرية القديمة تمثل أنواع الرقص العائلي. ولاحظ أخيراً «روسيليني» سنة ١٨٣٤ أن حركات الراقصات المصريات في الزمن القديم أكثر شبهاً بحركات الرقص في عصره وكان الرقص عندهم على نوعين: النوع الأول: يكون بحركات القدمين والذراعين. والنوع الثاني: بحركات كل أعضاء الجسم، قال «لوسيان»: إن الرقص عند قدماء المصريين كانت حركاته تشبه في السرعة انحدار الماء وتماوج لهيب النار في الهواء وخيلاء الأسود وغضب الفهود وترنح الغصون فهو أبدع ما يكون.

ويوجد بالمتحف المصري تحت نمرة ٢٣٣ بالدور الأسفل حجراً اكتشف في أحد قبور الأسرة الخامسة يمثل حفلة راقصة، وفي أسفله ترى امرأتين تصفقان وأمامهما الراقصات يتمايلن على إيقاع التصفيق، وفي أعلاه ترى رجلاً يضرب آلة شبيهة بالعود وآخرين ينفخان في اليراع المثقب «الناي» وبجانبهم المغنون المطربون، وقد وضع أحدهم يده على وجنته ليتمكن من ضبط صوته، ورفع آخرون أيديهم ليحسنوا الإيقاع ويرشدوا الموقعين كما هي العادة المتبعة اليوم. وكانت الموسيقى تتبع دائماً الرقص، وأهم آلات الطرب عندهم الطبلة والقيثارة والربابة والعود والصنج والناي والأجرسة وغيرها، ومحفوظ منها نموذج بغرفة من الدور الأعلى بالمتحف المصري.

وكانت أثواب الراقصات تصل إلى أقدامهن مع اتساع الأبدان، وهي من الشفاف التي تظهر منه هيئة الأعضاء وحركاتها. قال «لافاج» في كتابه الذي وضعه سنة ١٨٤٤ وسماه «الرقص القديم والحديث»: إن الرقص عند قدماء المصريين كان على نوعين: النوع الأول: مجرد حركات بسيطة.

والنوع الثاني : تمارين رياضية يتمايل الجسم فيها إلى كل جانب ، بينما تخطو القدمان بسرعة بعض خطوات قليلة مع مد اليدين وتحريكهما يمنة ويسرة ، ومن هذا أخذ المتأخرون الرقص الحديث وتفننوا فيه في كل زمان ومكان . وقد رأينا في قبر « تي » رسماً يمثل امرأة ترقص على الطراز الحديث وفخذها الأيمن معتمد على أطراف قدميها وذراعاها فوق رأسها ، وكانت حفلات الرقص تجعل عادة ختاماً للولائم والأفراح ، والرسوم الموجودة في المتحف المصري ومقابر « سقارة » و« بني حسن » و« طيبة » تبرهن على أن الرقص قديم جداً وأنه باق على حالته لم يتغير منه شيء منذ ٥٠٠٠ سنة ، وأنه كان معتبراً عندهم علماً وفناً وله قواعد أساسية لا تتغير ولا تزال معالمه محفوظة إلى اليوم عند جميع الشعوب الشرقية والغربية . اهـ .

وإنّما نقلت لك هذا أيها الذكي لتنظر في أمر هذه النجوم وكيف هام بجمالها النوع الإنساني كله وكيف هام الناس بربهم وتشوقوا إليه بما رأوا في مصنوعاته من الجمال . ولا تظن أن أمم الإسلام غفلت عن هذه المباحث الدقيقة ، فانظر كتاب السماع في « الإحياء » للغزالي ، وكيف أباح السماع إذا لم يثر الشهوة البهيمية بشروط خمسة فاقرأها هناك ، وانظر في كتاب « الإشارات » لابن سينا ، فقد قال : إن العبادة مع الفكر موصلة لله ، وقال أيضاً : إن الصوت اللطيف بشروط خاصة موصل إلى الله عز وجل . وأنا لست الآن في مقام الأخذ بقول من هذه الأقوال ولكني أريد بذلك أن الأمم كلها إسلامية وغير إسلامية نظرت في الجمال المنظور والجمال المسموع ، فالمنظور من الجمال والمسموع من النغمات كلاهما به هياج النفوس إلى معالي الأمور ، وتجد الإمام الغزالي في الإحياء يفصل المغاني عند القوم ويبين ما يوصل إلى الحكمة وما يمون قاطعاً للنفوس عن الوصول .

فانظر كيف شغف قدماء المصريين بالكواكب في الموازين ونحوها وفي لهوهم وفرحهم ومآتمهم . وهكذا الأمم جميعها قديمها وحديثها تلعب « النرد » ، وما النرد إلا مثال للنظام السماوي ، فالحجران اللذان يرميهما اللاعبون كل واحد منهما له ستة أوجه عدد الجهات الست ، وفي كل وجهين متقابلين ٧ نقط ، فإن كان في أحدهما (١) كان مقابله (٦) ، وإن كان (٢) كان مقابله (٥) ، وإن كان (٣) كان مقابله (٤) وهكذا ، فهذان الحجران يمثلان عالم الأفلاك الدائرة في مداره ، والنقط السبع تمثل الكواكب السبعة المعروفة عندهم التي تأتي بالسعد والنحس في عرفهم ، وما يصيب اللاعب من خير وشر كالذي يصيب الحي من خير وشر بسبب استعمال ما تأتي به هذه الكواكب من سعد ونحس ، فالحي واللاعب كلاهما يأتيه ما كان مجهولاً عنده وذلك بطريق المصادفة والمدار على حسن استثمار ما جاء له ، وبضدها تتميز الأشياء .

فهذه دلائل على أن الإنسان كان مغرماً بالكواكب فرحاً بها متجهاً للعالم العلوي . ومن عجب أني رأيت اليوم رأياً للعالم المخترع الكبير الأمريكي المسمى « أديسون » في أصل الحياة ، يقول : إنها أتت لنا من عوالم أخرى مجهولة لنا فنرجع بها إلى ما كان عليه القدماء ، إذ كانوا مغرمين بالكواكب والعوالم العلوية ، وأن منها السعد ومنها النحس ، ولكن « أديسون » لا يعين ذلك العالم الذي أتت منه الحياة ، وإنّما يقول هو عالم غير العالم الأرضي مستدلاً بأن الأرض كانت كرة غازية فلما ظهرت فيها الحويصلات الحيوية في البذر والبيض والحيوان والإنسان احتلتها تلك الحياة ونظمت

شؤونها، وهي وإن كانت طارئة على الأرض تميز بين بيضة الدجاجة واستعدادها وبيضة المرأة، وتعطي كلاً منها حياة تناسبه، وزاد على ذلك أن الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان تحتوي على ملايين الذرات التي أعطيت قوة التعقل والتفكر والتدبر والعمل، وهي طوائف كطوائف الناس فكل له عمل، وهذا هو السبب في أننا نرى الجرح إذا سال دمه يلتئم، وهذا الالتئام ناشئ بأعمال متقنة مبنية على علم، بل يقول: إنها تعقل أكثر من الإنسان، ويقول أيضاً هو لمحدثه كما جاء في جرائدنا المصرية يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٨: إنه لما أغلق أحد العمال عليه باب السيارة انطبق على إصبعه فطار منها الظفر، فهاهو ذا أخذ يندمل ومن أين هذا الاندمال؟ إنّما تصنعه تلك الخلايا التي تعد بالملايين في إصبعي وهي تعقل ما تفعل ومنها المدبرات أمراً والعاملات والصانعات. أقول: وكأنه نطق بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق: ٤]، وبقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[النازعات: ٥]، وبقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[عبس: ١٥-١٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات: ١٦٤]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار: ١٠-١٢]، وهكذا من آيات أخرى. ويقول «أديسون» المخترع المشهور المذكور أيضاً: إن هذه الخلايا المتحدة ما هي إلا ممالك متحدة منظمة، فما دام العمل بينها قائماً على السداد بقيت، وإذا حصل اضطراب غادرتها تلك الحياة التي جاءت لها من عوالم أخرى، وكأنه نطق بقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات: ٢٢].

ومما قاله لمحدثه أيضاً: إن أباه أخذ منه نقوداً وسافر إلى أوروبا وشاهد ما أراد من البلاد ورجع مسروراً، وكانت سنه فوق الثمانين، ولما بلغت سنه فوق ٩٣ سنة قال: يا بني أريد أن أموت. فقال له: ولماذا؟ قال: لأن كل ما كنت أريد الاطلاع عليه وعمله في هذه الأرض قد تم فلا معنى لبقائي، وأنا متوجه إلى أختك لأموت عندها، فحاولت منعه فلم أقدر، فتوجه لها وهو صحيح الجسم قوي متين ومات بعد ثلاثة أيام. قال: وإنّما مات لأنه أحس بأن تلك الخلايا في الجسم رأت أنه لا ملائمة بينها فسئمت البقاء على الاجتماع فأنذرته بلا حرف ولا صوت ففارق الحياة. أقول: ومما قرأته في كتاب «الأسفار» للشيرازي أن سبب الموت الطبيعي أن الروح لا تزال تزداد حرارة والجسم يزداد برودة بتقدم السن، حتى لا يقدر الجسم على حفظ الروح لشدة حرارة حبها للعالم العلوي فتنطلق منه، وهذا الرأي أيضاً خاص بصاحبه، كما أن رأي «أديسون» المذكور مخترع «الفونوغراف» وغيره خاص به، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

وأنت خبير أيها الذكي أنه لم يقل هذا على أنه يقين عنده، بل يقوله من باب الفرض لا غير، ونحن نعتبره كذلك، ومن عجب أن يكون هذا الفرض هو الذي ألقاه بطريق اليقين عنده، وفي نظرة الشيخ الدباغ الذي نقلت عنه كثيراً في سورة «الكهف» وغيرها إذ يقول هو ويقول الشيخ الخواص: إن الجمادات جميعها تعقل. وهذا الفرض الذي فرضه «أديسون» والقول الذي قاله الشيخ الخواص والدباغ ذكرته هنا ترويحاً لا تعليماً، ودعا إلى ذكرها مسألة الكواكب وأن القدماء فرحوا بها، وعشقوا ربهم بالتفكر فيها وخلطوها بجدهم وهزلهم، بل قالوا: إنها سبب سعدهم ونحسهم، فقلنا: إن بعض أهل عصرنا يرجع الحياة في الأرض إلى تلك العوالم.

هذا والقرآن لم يدع فرصة تمر إلا ذكر السماوات والأرض وأمر بالتفكير فيها ، وهذا معناه أن المسلم عليه أن يكون أحرص على جمال هذه العوالم من الأمم السابقة لأننا خير أمة أخرجت للناس وهل خير الأمم يجهلون ما علمه من هم أقل منهم من جمال الله وكماله ، أما أنا فأقول سيكون بعدنا أمم إسلامية يكونون أرقى من الأمم السابقة واللاحقة ، وهذا التفسير بحمد الله من مقدمات تلك النهضة العجيبة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى مساء يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٨م .

بهجة السماوات

كيف تعرف صور النجوم السماوية

اعلم أن الفلك قد خطا فيه الأولون خطوات واسعة . ولقد كنا نتعلمه في « دار العلوم » في أواخر القرن التاسع عشر ، وهذا صورة ما تلقينا نقلته من كتاب المرحوم أستاذنا حسن حسني بك ، فلأذكر ما فيه هنا من صور النجوم ومن الآراء المعروفة إذ ذاك ، ولكن الذي عرف بعد ذلك أكثر مما يدلك أن العلم اليوم سريع الخطو حتى إن الأجرام السماوية التي عرفت للآن أبعدها يصل نوره لنا في مائة مليون سنة ، وهذا القدر عظيم جداً فهو فوق العقل البشري . وقد عدوا نجوم المجرة ٢٠ مليوناً ، وهي الآن تعد بمئات الملايين فهاك ما في الكتاب المذكور :

وصف السماء، الصور السماوية، النجوم المشهورة

الإحصائيات ، الكرات والخرط السماوية : الفلكيون بمعرفتهم الطرق التي بها تعيين الأوضاع المضبوطة للنجوم على الكرة السماوية أمكنهم أن ينشئوا إحصائيات فيها النجوم مرتبة على حسب كبر مطالعها المستقيمة ، وأمام كل نجمة مطلعها المستقيم وميلها ، واستعملوا هذه الإحصائيات لوضع النجوم بأوضاعها النسبية على كرة صناعية ، وذلك بأن يرسم على سطح هذه الكرة الصناعية دائرة عظيمة من نقطة ما مثل (ق) نعتبرها القطب الشمالي مثلاً ، وتكون هذه الدائرة العظيمة هي دائرة المعدل ، ثم ترسم جملة دوائر أخرى موازية لها ، وتكون هي الموازيات التي ترسمها النجوم تبعاً للحركة اليومية ، ثم ترسم جملة دوائر عظيمة تدل على دوائر الميل ، ثم تعلم على سطح هذه الكرة جملة نقط تعين كل واحدة منها بالمطلع المستقيم والميل لنجمة مطابقة ، ويتحصل حينئذ على كرة سماوية كالكرات الصناعية المبينة لسطح الأرض ، وكذلك تنشأ خرط سماوية بطرق المساقط .

الصور السماوية ، النجوم الأصلية : لأجل مساعدة الذاكرة في دراسة النجوم قسموها من القدم إلى مجموعات متميزة تسمى « الصور السماوية » ، وهي صور كائنات حية وغير حية تصوروا رسمها على الكرة السماوية ، وليس كل هذه الصور مشابهة لمسمياتها بل البعض فقط ، وذلك كالنجوم الأصلية من صورة الثور ، فإن لها وضعاً مثلثياً يشابه نوعاً للجزء العظمي من رأس هذا الحيوان ، وكذا العقرب والإكليل والحية والتنين ، ولبيان نجوم كل صورة تستعمل الحروف الهجائية ، فالحروف (أ) و(ب) و(ج) و(د) تدل على أربعة نجوم أصلية من كل صورة ، بحيث إنه بالمرور من صورة إلى أخرى تكون هذه الحروف مبينة لنجوم تختلف عن بعضها في الضوء .

عدد الصور : قد عد « بطليموس » ٤٨ صورة منها ٢١ في الشمال و١٥ في الجنوب و١٢ في الجزء المتوسط بالقرب من دائرة المعدل في المنطقة التي يظهر أن الشمس تقطعها في سيرها السنوي ، ويشتمل

مجموع هذه الثمان والأربعين صورة على ١٠٢٩ نجمة منها ٣٦١ للصور الشمالية و٣١٨ للصور الجنوبية و٣٥٠ للصور المنطقية ، والاثنتا عشرة صورة المنطقية اعتبرت المنازل المتتالية للشمس في مدة سنة . وأسماؤها هي : حمل . ثور . جوزاء . سرطان . سنبلة . ميزان . عقرب . قوس أو رامي . جدي . دلو . حوت ، وهي مجموعة في قول بعضهم :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

والإحدى والعشرون صورة الشمالية هي : الدب الأصغر أو بنات نعش . الدب الأكبر أو بنات نعش الكبرى . التنين أو الثعبان . الملتهب . العوا . الإكليل الشمالي . هركول أو الجاثي على ركبتيه . النسر الواقع أو السلحفاة . الدجاجة . ذات الكرسي . برشاوش . ماسك العنان . الحواء . الحية . السهم . النسر الطائر . الدلفين . الفرس الأعظم . الفرس الأصغر . المرأة المسلسلة . المثلث الشمالي أو الدلتا . والخمسة عشرة صورة الجنوبية هي : قيطس . الجبار . نهر الأردن . الأرنب . الكلب الأصغر . الكلب الأكبر . السفينة . الشجاع . الكاس أو الباطية . الغراب . المحراب أو المجمرة . سنطورس . الذئب . الإكليل الجنوبي . الحوت الجنوبي .

والنجوم التي تتكون منها الصور المعروفة عند الأقدمين تنقسم إلى أقدار ، فأضوؤها تسمى من القدر الأول ، ثم ما يليها في الضوء يسمى من القدر الثاني وهكذا ، والقدر الثالث يشتمل على النجوم التي هي آخر ما يمكن رؤيته بالعين ، وهذا الترتيب اعتباري لأن آخر نجمة من القدر الثالث مثلاً يمكن أن تكون هي أول نجوم القدر الرابع ، ولذا يوجد اختلاف بين الفلكيين في هذا الاعتبار ، ولكن المتأخرين حافظوا على هذا التقسيم ، وعلى رأي المسيو « أرجيلاندر » يحتوي نصف الكرة الشمالي على ٩ نجوم من القدر الأول و٣٤ من القدر الثاني و٩٦ من الثالث و٢١٤ من الرابع و٥٥٠ من الخامس و١٤٣٩ من السادس . والمجموع هو ٢٣٤٢ ، وأما نصف الكرة الجنوبي فيحتوي على ٤٦٨٤ نجمة منها ١٨ من القدر الأول و٦٨ من الثاني و١٩٢ من الثالث و٤٢٨ من الرابع و١١٠٠ من الخامس و٢٨٧٨ من السادس ، وأشهر الخرط لا تعطي اليوم سوى ٢٠ نجمة من القدر الأول وهي مرتبة على حسب ضوئها :

أسماء	أسماء	أسماء
(١) الشعرى اليمانية	(٨) الشعرى الشامية	(١٥) الطائر
(٢) سهيل اليمن	(٩) كتف الجبار	(١٦) السماك الأعزل
(٣) (أ) من سنطورس	(١٠) آخر النهر	« نير السنبلة »
(٤) السماك الرامح	(١١) الدبران	(١٧) فم الحوت
(٥) رجل الجبار	(١٢) (ب) من سنتورس	(١٨) (ب) من الدجاجة
(٦) العيوق	(١٣) (أ) من الدجاجة	(١٩) رأس التوءم المؤخر
(٧) الواقع	(١٤) قلب العقرب	(٢٠) قلب الأسد

عدد النجوم المنظورة: يظهر أن عدد النجوم التي ترى بالعين عظيم جداً. ولقد حصر الموسيو «أرجيلاندر» ٣٢٥٦ نجمة ترى بالعين وتمتد على القبة السماوية بين القطب الشمالي ٣٦ درجة من الميل الجنوبي وهذه النقطة تشتمل تقريباً على ٨ من ١٠ السطح الكلي للكرة، وبهذه النسبة يكون للعشرين الأخر ٨٤٤ نجمة، ويكون العدد الكلي للنجوم التي ترى بالعين ٤١٠٠ نجمة. وبعض الراصدين ذوي البصر الحاد أمكنهم رؤية بعض النجوم من القدر السابع حتى إن العدد السابق وصل إلى ٦٠٠٠ نجمة تقريباً أو أزيد من ذلك. وإذا استعملت النظارات يزيد هذا العدد كثيراً ويصل إلى ٢٠,٤٠٠,٠٠٠ نجمة تقريباً في جميع السماء ابتداء من القدر الأول لغاية القدر الخامس عشر.

وصف السماء: أسهل طريقة لمعرفة الصور السماوية هي مقارنة السماء بالخرط السماوية المنشأة على حسب القواعد. وإذا لم توجد خرط وأريد ذلك فبمساعدة بعض نقط تعتبر مبدأ يمكن إيجاد المجموعات النجمية الأصلية، وفي قطرنا «مصر» نجعل المبدأ صورة الدب الأكبر.



(شكل ٣٩ ـ الدب الأكبر)

الدب الأكبر شكل ٤١: إذا وجه الإنسان نظره جهة الشمال فإنه يرى صورة الدب الأكبر، وتحتوي على سبع نجوم أصلية وجميعها من القدر الثاني ما عدا النجمة (د) فهي من القدر الثالث، والنجوم (هـ) و(و) و(ر) تكون ذنب الدب الأكبر، انظر شكل ٣٩.

النجمة القطبية: إذا مد الخط (ب أ) من جهة (أ) ببعد يساوي (أ ر) فإنه يمر بالقرب من نجمة من القدر الثاني أو الثالث، وهي النجمة القطبية التي تستعمل في إيجاد جميع الصور المهمة المنظورة في سماء مصر، وهذه النجمة لا تبعد عن القطب إلا بقدر درجة ونصف، وبواسطة النجمة القطبية يسهل معرفة الأربع نقط الأصلية، فإنه بالنظر إليها يكون الشمال أمام الناظر والجنوب خلفه والشرق عن يمينه والغرب عن يساره، والنجمة القطبية هي ثالث نجمة من ذنب صورة مشابهة للدب الأكبر، إلا أنها أصغر منها وموضوعة بعكسها وتسمى الدب الأصغر.

ذات الكرسي: إذا وصل بين نقطة (د) من الدب الأكبر والنجمة القطبية بمستقيم ومد من جهة النجمة القطبية بكمية تساويه توجد ذات الكرسي، وهي تشتمل على جملة نجوم من القدر الثالث، وهذه الصورة هي في مقابلة الدب الأكبر دائماً بالنسبة للنجمة القطبية.

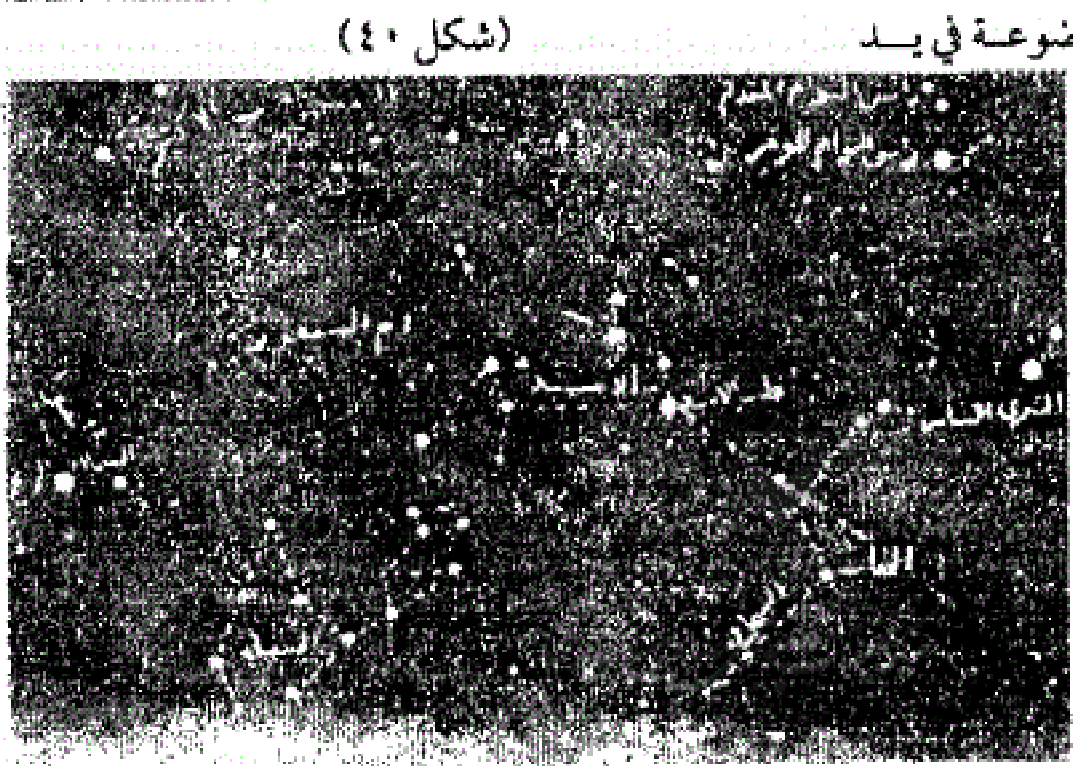
الفرس الأعظم، المرأة المسلسلة، شكل ٤٠: إذا مد الخط الذي عين النجمة القطبية من جهتها فإنه يقابل صورة الفرس الأعظم، وبإضافة النجمة (أ) من المرأة المسلسلة إليه يتكون ما يسمى مربع الفرس الأعظم، وزوايا هذا المربع تشغلها نجوم من القدر الأول، فإذا وصل بين (أ) من الفرس الأعظم و(أ) من المرأة المسلسلة توجد النجمتان (ب) و(ج) من المرأة المسلسلة اللتان تأخذان في الاقتراب من النجمة القطبية.

برشاوش : إذا مد الخط (ب ج) من المرأة المسلسلة يمر بالنجمة (أ) من برشاوش ومربع الفرس الأعظم، والخط (ب ج) من المرأة المسلسلة والنجمة (أ) من برشاوش تكون جملة شكلها يشابه الدب الأكبر إلا أنه ذو امتداد أعظم.

الغول، النجمة (أ) من برشاوش : توجد أيضاً على امتداد الخط (أ ج) من مستطيل الدب الأكبر وإذا مد هذا الاتجاه الأخير قليلاً من جهة (أ) يقابل (ب) من برشاوش وتسمى الغول، وهي نجمة شهيرة جداً يتغير ضوؤها تغيراً، والغول هي أضوأ نجمة من رأس الغول موضوعة في يد برشاوش. انظر شكل ٤٠.

(شكل ٤٠)

السنبلة، السماك الأعزل، شكل ٤١ : نحو الجهة المقابلة لنصف الكرة وتقريباً على امتداد قطر مستطيل الدب الأكبر توجد صورة السنبلة وتحتوي على نجمة من القدر الأول تسمى السماك الأعزل. انظر شكل ٤١.



(شكل ٤١)

الأسد، قلب الأسد : إذا مد خط (أ ب) من الدب الأكبر في الجهة المضادة للنجمة القطبية فإنه يمر بصورة الأسد، والنجمة (أ) من هذه الصورة هي من القدر الأول وتسمى قلب الأسد.

الجوزاء : رأس التوءم المقدم ورأس التوءم المؤخر، شكل ٤٢. القطر الثاني (ب د) من مستطيل الدب الأكبر ممتداً من جهة (ب) يقابل جملة نجوم شهيرة منها (أ) و(ب) أو رأس التوءم المقدم ورأس التوءم المؤخر من صورة الجوزاء. انظر شكل ٤٢.

(شكل ٤٢)

الكلب الأصغر، الشعرى الشامية: النجمة (أ) وهي الشعرى الشامية من الكلب الأصغر توجد على امتداد الخط الواصل بين النجمة القطبية ورأس التوءم المقدم من جهة هذه الأخيرة، وإذا مد الخط (د ب) من جهة الشعرى الشامية فإنه يقابل النجمة (أ) أو الشعرى اليمانية من الكلب الأعظم وهي أضوأ نجوم السماء.

ذو العنان، العيوق، شكل ٤٢: إذا مد الخط (ب ج) من المرأة المسلسلة من جهة (أ) من برشاوش توجد نجمة من القدر الأول وهي (أ) من ذي العنان أو العيون.

الثور، الدبران، شكل ٤٣: إذا مد الاتجاه (د أ) من الدب الأكبر من جهة ذي العنان فإنه يمر بصورة الثور ويمر بالقرب من الدبران أو عين الثور وهي نجمة من القدر الأول، وفي صورة الثور توجد الثريا وأرجل التوءمين. انظر شكل ٤٣.

(شكل ٤٣)

الجبار، الكلب الأعظم، الشعرى اليمانية: إذا مد الخط الواصل بين النجمة القطبية والعيوق من جهة العيوق فإنه يقابل الجبار وهو أجمل صورة في السماء، شكل ٤٢. ويحتوي على سبع نجوم أصلية أربع منها موضوعة على شكل شبه منحرف وفي مركزه توجد الثلاث الأخر التي هي أقل ضوء من الأربع، وتوجد هذه النجوم الثلاث على خط مستقيم، وتكون ما يسمى منطقة الجبار أو العصا، ورأسان من رؤوس شبه المنحرف هما نجمتان من القدر الأول (أ) أو كتف الجبار و(ب) أو رجل، وإذا مد الخط العصا يقابل الشعرى اليمانية من الكلب الأعظم التي علمت بتخطيط آخر.

العواء، السماك الرامح، شكل ٤٤: إذا مد ذنب الدب الأكبر فإنه يمر بالقرب من نجمة من القدر الأول منسوبة إلى صورة العواء هي السماك الرامح وهي أضوأ نجوم السماء بعد الشعرى اليمانية. انظر شكل ٤٤.

(شكل ٤٤)

النسر الواقع، الواقع: الخط الواقع بين السماك الأعزل من السنبلة والسماك الرامح من العواء يمر بصورة النسر الواقع بالقرب من نجمة من القدر الأول هي (أ) من النسر الواقع وتسمى الواقع.

الدجاجة: بجانب النسر الواقع توجد صورة الدجاجة المركبة من خمس نجوم مكونة صليباً والنجمة (أ) من هذه الصورة من القدر الأول.

الاعتدال الربيعي: على امتداد المستقيم المار بنقطة (د) من الدب الأكبر و(أ) من الدب الأصغر و(أ) من المرأة المسلسلة توجد نقطة الاعتدال الربيعي على دائرة المعدل، والدبران وقلب العقرب وقلب الأسد وفم الحوت من الحوت الشمالي تقسم السماء إلى أربعة أجزاء متساوية، وهذه النجوم الأربع الملقبة بالنجوم الملوكية كانت هي أربع حراس سماء العجم بنحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وكان الدبران في الاعتدال الربيعي هو حارس الشرق، وقلب العقرب في الاعتدال الخريفي وهو حارس الغرب، وقلب الأسد قريب من المنقلب الصيفي، وفم الحوت على بعد صغير من المنقلب الشتوي، ولكن هذه النقط تغيرت اليوم. انتهى.

هذا هو الذي كنا قرأناه منذ نحو أربعين سنة وكان هذا نهاية العلم في ذلك العصر، فلأذكر لك هنا أيها الذكي غاية ما وصل إليه علم الفلك في زماننا هذا، حتى إذا فارقنا هذه الدنيا كان مجمل ما عند الناس في زماننا من علم الفلك حاصلاً أمام المسلمين، كي يجدوا باعثاً من نفوسهم وداعياً من عقولهم يدعوهم إلى مشاركة الأمم في بحثها والمسارعة في تحصيل علومها، ثم الزيادة بما يؤتيهم الله من فضله، لأن كتابنا يأمر بالبحث والنظر، ولأن المحروم من هذه المباحث وأمثالها محروم من السعادة ومن الحكمة ومن النعيم السرمدي الذي يحس به المفكرون العالمون في هذا العالم قبل انصرام آجالهم وفوات أعمارهم، فهم مع الناس في أهوال هذه الحياة وقلوبهم في نفس تلك الحال في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمفكرين في الدنيا والآخرة، والناس حولهم يجهلون وهم بما في نفوسهم فرحون. هذا، وإن مدة الأربعين سنة التي مرت بين أيام تعلمنا وبين تأليف هذا التفسير اليوم قد خطا فيها العلم بالفلك خطوات تعد بالقرون بل بآلاف السنين. فكيف إذا مرت أربعون أخرى؟ كيف يكون علم الفلك إذ ذاك؟ وكيف يكون المسلمون وكيف تكون حالهم؟ أيكونون عالة على الأمم؟ أم يكون فيهم حكماء وعلماء بكل علم ومنها الفلك وتكون المراصد في نفس بلادهم. سيقرأ هذا من بعدنا وسيقرؤه أناس بعد مرور أربعين سنة وسيقولون: ليطرب المؤلف وليفرح في برزخه، فهانحن أولاء قد علمنا أكثر مما علمت الأمم حولنا، وهانحن أولاء شاركنا الأمم في علومها وضربنا في علومها بسهم وأخذنا قسطاً من الحكمة والعلم ولم نعد مغرورين كأولئك الذين كانوا عن العلم معرضين وبالحكمة جاهلين، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الخميس ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩. وهاك ما جاء في مجلة «المقتطف» في شهر يوليو سنة ١٩٢٨.

ما وراء المجرة

العوالم الجزرية وعظمة الكون، أحدث المباحث الفلكية

علم الفلك أو علم الهيئة من أسمى العلوم وأعقلها بالنفس، وإذا أريد التدقيق فيه فهو من أعوص العلوم لأنه مبني على أدق القوانين الرياضية والطبيعية، وهو كذلك أول علم استقرى الإنسان شيئاً من قواعده، وأدق علم وصلت إليه معارف البشر، وأسمى علم يتفرغ له كبار العلماء. وفيما يلي نبذة من أحدث المباحث الفلكية في موضوع يفتن كل لب وهو سعة هذا الكون وعظمة مبدعه، فقد أثبت علماء الفلك حديثاً أن في الفضاء أكواناً عديدة كل كون منها مثل المجرة التي منها نظامنا الشمسي سعة وعظمة، حتى إذا صغرت أرضنا وصار حجمها حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذي يرى بالتلسكوب حجم الأرض، ويبلغ حجم الكون كله على ما يقضي به مذهب «اينشتين» ألف مليون أرض منتشرة حولها في الفضاء، فما أصغر أرضنا إزاء هذا الكون العظيم، وما أحقر أمورنا ومنازعاتنا إزاء القوى التي تديره وتحركه.

أدرك القدماء أن في القبة الفلكية أجراماً غير الشمس والقمر والنجوم، لأن الذين راقبوا السماء منهم في ليال صافية شاهدوا قرب كوكبة الجبار وكوكبة المرأة المسلسلة تلك الغيوم المنيرة التي ندعوها بالسدم الآن. وقد أشار إليها أبو الحسن الصوفي أكبر علماء الفلك عند العرب، فقال: إنه رأى سديم المرأة المسلسلة وسماه «لطخة سحابية» وأشار إليه وإلى غيره مما يماثله بكلمة اللطخة أو السحابي،

على أن هذه الأجرام بقيت أسرار مغلقة على الفهم البشري حتى كشف التلسكوب فأزاح اللثام عن حقيقتها، فلما استنبط « غليليو » تلسكوبه الكاسر وجهه إلى أنحاء المجرة التي تظهر فيها السدم أو اللطخ السحابية، فثبت له أنها في الحقيقة مجاميع من النجوم تظهر قريبة بعضها من بعض لبعدها فتتعذر رؤيتها نجماً نجماً. وفي آخر القرن السابع عشر استنبط « السر إسحاق نيوتن » التلسكوب العاكس وعكف العلماء على إتقانه، فلما انقضت مائة وخمسون سنة على استنباطه صنعت تلسكوبات كبيرة، واستعمل اللورد « رس » أحدها في البحث عن حقيقة السدم، فوجد أن السديم الذي في كوكبة السلاقين يظهر لدى رؤيته بتلسكوب قوي مجموعة من الكواكب منتظمة في شكل حلزوني، ومن ثم صار البحث عن السدم الجديدة والانقطاع لدرس أشكالها وبنائها من أكبر أعمال الفلكيين شأناً وأغلقها بألبابهم، وقد كشفت حتى الآن مئات من السدم اللولبية وغيرها، وما كاد العلماء يكشفون هذا القدر منها حتى أخذوا يتكهنون في حقيقتها، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، هل هي مجاميع من النجوم تظهر لطخاً سحابية لبعدها وأنها إذا نظر إليها بتلسكوب قوي حللها إلى أجزائها؟ أم هي غيوم منيرة بنور النجوم القريبة منها، أم هي غاز ملتهب منتشر في الفضاء؟

في الجواب عن هذه الأسئلة أثبت « السر وليم هجنس » أن من السدم ما هو مجموع نجوم ترى نجوماً لبعدها الشاسع، ومنها ما هو في الحقيقة لطخ سحابية من الغاز الملتهب لأن خطوطها الطيفية تماثل خطوط غاز بلغ من الحمو درجة أخذ يبحث عندها بمقادير القوة التي يتميز بها عن غيره من الغازات، ومن هذا القبيل سديم الجبار الكبير وغيره من السدم المنتشرة في الفضاء، فإذا بلغت الغازات التي تتألف منها هذه السدم درجة كبيرة من الحمو أطلقت تلك الأشعة التي لا تشعها الجواهر إلا حين انحلالها، وقد أثبت علماء الحل الطيفي أن في هذه السدم عناصر الهيدروجين والهليوم وأحياناً النتروجين والكربون، وأن فيها عنصراً لم يجدوا له مثيلاً في عناصر الأرض فأطلقوا عليه اسم « نبوليوم » أي السديمي، وليست كل السدم على درجة من الحرارة تحملها إلى إرسال أشعتها إلى الفضاء، فبعضها مضيء بالنور المنعكس عنه الصادر من الكواكب المجاورة له في الفضاء، وبعضها بارد يمتص نور الكواكب الذي يصل إليه فتراه لطخاً مظلمة في صدر الكون، ومن هذا النوع سديم مظلم في جهة الصليب الجنوبي يدعى باللغة الإنكليزية غير العلمية « كيس الفحم »، وقد وقف الأستاذ « برنار » الأمريكي حياته على درس هذا النوع من السدم فذكر ١٨٠ سديماً منها تتباين من اللطخ الصغيرة الواضحة الحدود إلى الغيوم السديمية التي تشاهد قرب كوكبة الحواء. فالأجرام السماوية التي تعرف بالسدم تقسم إلى قسمين: أولهما: غيوم من الغاز الملتهب. والثاني: السدم اللولبية وما إليها، وهي في الغالب مجاميع من النجوم تظهر لطخاً لبعدها، وكان الرأي أولاً أن هذه السدم اللولبية مجاميع صغيرة من النجوم تحيط بشمسنا من كل الجهات، ولكن لما أتقنت آلات الرصد والتصوير والحل الطيفي ثبت للعلماء أنها لا تقاس بنظامنا الشمسي لسعتها بل كل منها كون مستقل كالمجرة التي تحيط بنا، وثبت أيضاً أن في الفضاء ألوفاً من السدم اللولبية كل منها سعته سعة مجرتنا، ولا يعقل أن تكون ضمنها، لذلك قيل: إن كلاً منها كون مستقل بنفسه خارج مجرتنا، وأطلق عليه علماء الفلك من الأمريكيين اسم « الأكوان الجزرية ».

ولما كانت لفظة كون تطلق عادة على كل ما أبدعه مبدع السماوات والأرض فاستعمالها في الإنكليزية والعربية يخرج بذهن القراء عن منطوقها الأصلي، ولكن اصطلح عليها علماء الإفرنج فجاريناهم في ذلك، فالسدم من هذه الجهة تقسم إلى قسمين أيضاً: الأول: السدم التي داخل مجرتنا والثاني: السدم التي خارجها.

لا يخفى أن مجرتنا مجموعة عظيمة من النجوم والسدم الغازية، وهي تشتمل على كل الكواكب التي ترى بالعين المجردة، وألوف من الكواكب التي ترى بالتلسكوب، وملايين أخرى لا ترى إلا بالآلة الفوتوغرافية، فإنها لبعدها لا تترك أثراً في اللوح الفوتوغرافي الحساس إلا بعد ما يتعرض لنورها الضئيل القادم من أطراف الفضاء ساعات متوالية. والثابت من رصد المجرة بكل وسائل الرصد المعروفة أنها قرص عدسي الشكل طول قطره نحو مائة ألف سنة نورية وسمكه ٢٠ ألف سنة نورية، وأن نظامنا الشمسي في وسطها تقريباً، وفي هذا القرص نحو ٣٠ ألف مليون نجمة منتشرة في فضائه على أبعاد كبيرة. ولما كانت هذه النجوم لا يبعد أحدها عن الآخر بعداً واحداً فإن بعضها يرى مجتمعاً كتلاً كتلاً في أنحاء مختلفة، وهذه لبعدها تظهر كاللطخ السحابية كما ترى في كوكبتي الرامي وهرقل، وفي المجرة أيضاً سدم غازية بعضها منير وبعضها مظلم على ما مر.

نعود الآن إلى السدم التي خارج المجرة وهي تلك الغيوم الغازية المنتشرة في الفضاء خارج المجرة كانتشار الجزائر في بحر مترامي الأطراف، وأشهر العلماء الذين عنوا بدرس هذه السدم هو الأستاذ «هبل» من علماء مرصد «جبل ولسن» الأمريكي، فقد أشار له في رسالة حديثة له نشرها في مجلة «الاستروفزكس»، علم الفلك الطبيعي، إلى نتيجة بحثه في أربعمائة سديم منها، فقال: إن منها سدماً غير منتظمة الشكل، أي: ليس لها شكل قياسي خاص، وأشهرها ما يعرف بغيوم مجلان ترى من نصف الكرة الجنوبي، ويحسبها رائيها جزءاً من درب التبان، ولكنها في الواقع بعيدة عنه بعداً شاسعاً، ولكن السدم التي لها شكل خاص أكثر من السدم غير المنتظمة الشكل، وأكثرها إما إهليلجي الشكل أو لولبيه. ونور السدم الإهليلجية الذي حلل بالسبكترسكوب يثبت أنها تماثل مجرتنا إلى حد بعيد مما لا يترك مجالاً للشك في أنها مجموعة نجوم كمجرتنا، ويتعذر تصوير هذه النجوم واحدة واحدة لبعدها الشاسع، والمحتمل أن نجومها في طور التكون من الغاز الحامي إلى حد الإضاءة، وأن الغاز الذي لا يدخل في تكوينها يغشاها كبرقع الحسناء، وبعض السدم في دور الانتقال من الشكل الإهليلجي إلى الشكل اللولبي، والبعض الآخر لولبي لا غش فيه تظهر فيه الأذرع المعكوفة التي تظهر عادة في السدم اللولبية. وقد قيست أبعاد هذه السدم فثبت أن السديم الكبير في كوكبة المرأة المسلسلة يبعد عنا نحو ٩٠٠ ألف سنة نورية، وأن السديم اللولبي الذي في كوكبة المثلث يبعد البعد نفسه تقريباً، ويظن أن ألوفاً من السدم اللولبية الضئيلة تبعد عنا أضعاف ذلك، وقد وجد الأستاذان «هبل» و«شيلي» أن في جهة كوكبتي شعر برنيكي والسنبلة سدماً لا يقل بعدها عن مائة مليون من سني النور، وقد استعمل السبكترسكوب لمعرفة سرعة حركة هذه السدم في الفضاء، فظهر أن سديم المرأة المسلسلة سائر نحو مجرتنا بسرعة ٣٠٠ كيلو متر في الثانية، ولكن أكثر السدم اللولبية تبتعد عنا بسرعة ٦٠٠ كيلومتر في الساعة، والطرق التي ابتكرها الباحثون لمعرفة جرم سديم من هذه السدم يتعذر بسطها هنا لصعوبتها،

ولكن يؤخذ من تطبيقها أن جرم السديم في كوكبة المرأة المسلسلة يساوي جرم شمسنا ألفي مليون ضعف، وأن هذا السديم يستغرق ١٧ مليون سنة للدوران على نفسه مرة، مع أن أرضنا تدور على نفسها مرة كل ٢٤ ساعة. مهما أمعنا ببصرنا وآلاتنا في الفضاء فإننا لا نؤمل أن نصل إلى نهايته لا في الزمان ولا في المكان، وهذه الملايين التي تشع في الفضاء تدهش العقل وتحير اللب، على أننا نشعر بطمأنينة حين ننظر إلى ما كشفه العلماء عنها، فنقول مع بسكال: إننا صغار، بل من أصغر الكائنات وأضعفها ولكننا نعرف أننا صغار وفي ذلك سر عظمتنا. انتهى يوم الخميس ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩.

تذكرة: قد اطلع بعض العلماء على الصور السماوية الست المتقدمة، وهي: الدب الأكبر والدب الأصغر وذات الكرسي وأمثالها، فقال: إنك قد كتبت هذه المقالة من كتاب أستاذك بدار العلوم منذ ٤٠ سنة، فقلت: نعم. فقال: إذن أنت تكتب لنفسك وكأنك نسيت أنك تكتب في تفسير القرآن، والتفسير لمجموع الأمة لا للعلماء. فقلت: كيف ذلك؟ فقال: إني لم أفهم حرفاً واحداً من هذه المقالة المنقولة، وخير لك أن تسير على طريقتك فتكتب بهيئة تلخيص، فبهذا وحده يفهم أكثر الناس، أما هذا فلن يفهمه إلا قليل. فقلت: إنني قد لاحظت في هذا أنه مسائل علمية، والعلوم لا بد من المحافظة على أوضاعها، ثم إن الأمر سهل جداً. فقال: وكيف ذلك؟ قلت له: ألم تطلع في سورة «النور» على رسم القارات مع حيواناتها؟ قال: بلى، قلت: فهل فهمته؟ قال: نعم، وهو جميل. قلت: فهاهنا كذلك، فهذه الصور الست التي رأيتها ما هي إلا أماكن من السماء فيها صور النجوم قد رسمت ليطلع عليها الناس. وبعبارة أخرى: يقف الإنسان ليلاً في الخلاء وفي الصحاري القفار أو الحقول فيرى نفس هذه الصور بعينها، بل هي أسهل من القارات الأرضية المتقدمة في سورة «النور»، لأن القارة لا يراها الإنسان كلها مرة واحدة بعينه في الطبيعة بخلاف هذه الصور فإنك تراها جميلة واضحة. فقال: زدني زدني. فقلت: أنا ولدت في بلاد الشرقية من البلاد المصرية وعشت في أول حياتي مع الفلاحين، وكنت أسمعهم يقولون: يا فلان انظر وتد النجم، أي: النجمة القطبية. إن وتد النجم لا يتحرك والنجوم كلها تتحرك حوله، وكنت اسمعهم يقولون: «بنات نعش»، يريدون بذلك الدب الأكبر المرسوم في الصور الست المتقدمة، يريدون بذلك النجوم المرموز لها بحرف (أ ب ج د) هي هيئة النعش، والنجوم المرموز لها بحروف (هـ و ز) هي هيئة بناته يبكين وراء النعش، فالمجموعة المسماة بنات نعش هي نفسها الدب الأكبر، فالنجوم الأربعة هي الدب، والثلاث التي سميناها بنات هي ذنبه، فتأمل الشكل وقل لي هل فهمت؟ قال: نعم فهمت، ولكني لا أعرفه في نفس الطبيعة. فقلت: قف ليلاً في العراء كما قلت لك في ليلة حالكة السواد وارفع بصرك إلى الجهة الشمالية وتأمل، فإنك تجد الدب الأكبر المرسوم هنا أمامك في السماء مرتفعاً فوق الأفق نحو ٣٠ درجة سماوية. فقال: وما معنى هذا. قلت: معناه أنه يبعد عن الأفق ثلث المسافة التي بينه وبين كبد السماء، ذلك لأن المسافة ما بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي يجعلونها ١٨٠ جزء كل جزء درجة. ومن الأفق إلى كبد السماء في سمت الرأس ٩٠ درجة، أي: ثلث المسافة بين الأفق وسمت الرأس. قال: فهمت الآن. ثم ماذا؟ فقلت: فهذا الدب ذو النجوم السبعة لا يغيب أبداً فهو يدور كل أربع وعشرين ساعة دورة حول نجمة القطب التي تراها عندك في الدب الأصغر أي الذي هو بعكس الدب الأكبر في نفس الصورة المتقدمة. قال: أنا الآن فهمت وسأنظرها الليلة في

السماء. ثم جاء في اليوم الثاني وقال: لقد نظرت في السماء فوقع نظري على هذه الصورة ففهمتها حالاً بدون نصب، بل وجدت الفلاحين يقولون لي: هذا وتد النجم، وأشاروا إليه إذا هو نفس النجمة القطبية التي في الدب الأصغر، ورأيت الدب الأكبر يدور حولها وهي لا تتحرك. فقلت: هذا هو السبب الذي جعلني أرسم هذه النجوم هنا، ذلك لعلمي أن مبادئ هذه الصور معروفة عند الفلاحين وأهل القرى، ومتى كان القطب معروفاً سهلت معرفة بقية الصور لمن أراد. ألا ترى أن ذات الكرسي تبعد عن النجمة القطبية بمسافة تساوي المسافة التي بين النجمة القطبية وبين الدب الأكبر. قال: بلى وربي، وأنا شاهدتها في السماء كذلك، فكما أن الدب الأكبر على شمال نجمة القطب هكذا ذات الكرسي على يمينه في هذا الوضع والمسافة متساوية، والناظر للسماء ليلاً يعرف هذا بنظره بدون آلة ولا معلم. ثم قال: أما أنا الآن فقد فهمت هذه الثلاثة في نفسي وفي التفسير وفي نفس السماء. فقلت له: إن بعض العلماء في عصرنا يقولون: إن هذه النجمة القطبية تبعد عنا ٥٠ ألف سنة نورية وذلك أيام تعلمنا فلا أدري أهذه المسافة عظمت وزادت بزيادة الكشف في عصرنا أم لا؟ فالنظر في هذه الصور نظر في عظمة الله عز وجل، وهذا هو المقصود من هذا كله، لأنه إذا كان القرآن لا يفهم سره إلا بعد فهم لفظه؛ فهكذا هذه النجوم لا نعرف عجائبها إلا بعد معرفة مواقعها وأسمائها. فقال: صدقت والله. فقلت له: إذن أنت عرفت ثلاث صور من الصور السماوية في السماء، قال: نعم عرفتها. فقلت: الأمر في البقية سهل، لأن هذه جعلت مبدأ منه يمكن معرفة الباقي، ألا ترى أن الشكل الذي بعد الشكل الأول من الأشكال الست وهو شكل ٤٠ قد عرفنا فيه الفرس الأعظم، وهو أربع نجوم كهيئة الأربعة التي في الدب الأكبر، ووراءها ثلاث متصلات بها تشبه الثلاث التي في الدب الأكبر، إذن هذه السبع كالدب الأكبر، وقد عرفناه بأمر سهل بسيط وهو أن الخط الذي امتد من الدب الأكبر إلى ذات الكرسي زدناه مداً فوصل إلى الفرس الأعظم، والذي معه هو المرأة المسلسلة وبرشاوش، فهاهنا تبينت لنا صور الدب الأكبر والأصغر والنجمة القطبية وذات الكرسي والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة ونجمة الغول، فهذه صور عرفناها الآن واضحة في نفس السماء، وفي شكل ٣٩ و ٤٠، أفلا يكفيك هذا الإيضاح؟ قال: كفاني ولكن لا يفهمه غيري إلا إذا نظر في نفس السماء وصبر على الفهم. فقلت: وهل الفهم إلا بالصبر، وهل السماء ليس لها حراس؟ إن الله متكبر ومتعال وهو الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً، ومن حفظ هذا السقف أن لا يعقله إلا الذي تأهل له. هذه سعادة وملك عظيم وهل الملك العظيم يعطى مجاناً؟ والله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فالإعراض عن الآيات السماوية يمنع فهمها، والإقبال عليها مفتاح فهمها، والله عز وجل رحيم بخلقه، ولكنه حكيم، والحكيم لا يعطي إلا المستحق، فقال: الحمد لله فقد فهمت هذا المقال حق فهمه. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

د	ج
أ	ب

ثم جاء صاحبي بعدها بأيام، فقال: لقد شغلتني هذه الصور وقد فهمتها جيداً، وأريد اليوم أن تبين كيف نعرف الجوزاء والأسد والسنبلة المشروحات في الرسم. أريد منك بياناً مختصراً بحيث أحفظه نهاراً وأطبقه ليلاً، ومتى عرفت ذلك هان علي معرفة البقية، فقلت: احفظ هذه الحروف الأربعة من مربع الدب الأكبر الذي أمامك. قال: حفظتها.

قلت : الأمر سهل فابتدئ بالقطر (د ب) من جهة (ب) وسر في خط مستقيم فإنك تقابل الجوزاء فقال : نعم . قلت : والجوزاء واضحة في الرسم أمامك فانظرها ، ففيها نجوم واضحة رسمت شكلاً وهي ٦ ، منها : رأس التوءم المقدم ورأس التوءم المؤخر . قال : نعم . قلت : ثم مد الخط (أ ب) من جهة (ب) أي من جهة تقابل جهة القطب ، وسر في السماء ببصرك فإنك تقابل صورة الأسد وهي أمامك في الرسم ، وفيها كوكب قلب الأسد ، وترى فيها ما يشبه المثلث وما يشبه خطاً مستقيماً أسفله منحنياً أعلاه وبينهما خط وهمي . قال : نعم قد فهمت ذلك . قلت : فلم يبق إلا أن تتوهم امتداد القطر (أ ج) من جهة (ج) ، أي : من الجهة المقابلة لنصف الكرة تقريباً ، فإنك تقابل السنبلة فانظرها هنا في الشكل ثم انظرها ليلاً في السماء ، ففيها مستطيل من أعلاها بقرب الأسد وتحته مثلث بجانبه شكل شبه منحرف يحيط به ست نجمات . فهذه الأشكال الثلاثة هي السنبلة . إذن الجوزاء والأسد والسنبلة التي هي ثلاث بروج من اثني عشر برجاً قد عرفناها بامتداد القطر (د ب) وبامتداد الخط (أ ب) وبامتداد القطر (أ ج) ، وهي كلها أمامك في هذا الشكل ، وبهذا عرفت إحدى عشرة صورة من الصور السماوية وهي : الدب الأكبر والدب الأصغر والنجمة القطبية فيه وذات الكرسي والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة وبرشاوش والغول والجوزاء والأسد والسنبلة ، ومن الجوزاء نجمان أيضاً فنكون عرفنا ١٣ صورة . وإذا لاحظنا أن الحمل والثور المرسومين في الصور الأخرى هما يتقدمان الجوزاء ظهر لنا أننا عرفنا مواضع الحمل والثور والجوزاء والأسد والسنبلة . ولا شك أن السرطان بعد الجوزاء ، إذن نكون عرفنا ٦ بروج . اهـ .

بهجة العلم

سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة « يس » عند قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[يس : ٣٧] عجائب تدهش العقول فوق ما ذكرناه ، فإن بعض العلماء يتوقع أنهم سيرون نجوماً تبعد عنا ١٠٠ ألف مليون سنة . ويقولون : إنهم شاهدوا نوراً وصل إلى الأرض دلهم على أن هناك شموساً أضواؤها لا حرارة فيها ، بخلاف شمسنا ونارنا فحرارتها متحدة بضوئها كما أن قوانا الغضبية متحدة بأنوار عقولنا تشغلها عن كمال صفاتها ، كما أن الحرارة المصاحبة لأضواء الكواكب لولاها لكانت أضواء تلك الكواكب أضعافاً مضاعفة . وقالوا أيضاً : إن هناك شموساً لو وضع منها مقدار حجم الحمصة على بعد ألف ميل من جسم إنسان شوته وأحرقته ، فهذه العجائب المدهشة في زماننا سيرتقي بها أناس ويسعدون بإدراكها ويعجبون ، والعجب أول منازل المعرفة ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح مسألة النور والحرارة

عجبت لأمر هذه العوالم التي نعيش فيها . أرى الموت والحياة معاً في الماء والهواء وفي الحرارة . أقف على شاطئ البحر فأشرب منه فأحيا ، ولكني أرى الموت قاب قوسين مني إذا أنا دنوت منه فغرقت ، فالماء موت وحياة وهكذا الهواء فهو حياة وموت ، حياة باستنشاقه صافياً ، وموت باستنشاقه بما خالطه من الذرات الحيوية القاتلة ، والحرارة بها حياة كل مخلوق وبها إذا اشتدت الموت . ومن العجب أن الإنسان يعيش ويموت وهو في أضواء من الكواكب السماوية والنيران الأرضية وهو لا يكاد يفرق بين الحرارة والضوء لأنهما متلازمان ، نوقد الفحم فنحس بحرارة ولكن لا نرى الضوء إلا بعد اشتدادها . ونرى ضوء الشمس يأتي إلينا مصحوباً بحرارة فلا ندري أهما أمران متلازمان إلى الأبد؟

أم هما يفترقان؟ ولكن انظر إلى العقول الإنسانية اليوم واعجب من هذا العقل الإنساني الذي يريد أن يعرج بالإنسان إلى عالم أرقى من عالمنا، وذلك العروج لا يكون إلا بنوره، ذلك النور الذي هو أرقى من الأنوار الحسية، وهو الذي سنخلص بمساعدته من هذه العوالم التي جمعت بين الموت والحياة معاً في موادها، لم يفرق الماء ولا الهواء ولا الحرارة بين الموت والحياة، بل تراها جميعها مجهزة للأمرين معدة للحالين، ولكن العقل بنوره يهدينا لله للخروج من مأزق هذه العوالم المنحطة إلى عالم يكون أرقى منها فيه الدوام والخلود، وهو العالم الذي يتعالى عن المادة. فهذا العقل العام هو الذي أملى على عالم أمريكي أموراً ينتظر تحقيقها في المستقبل فقال: ومن المستنبطات المنتظر تحقيقها قريباً النور البارد. وأبان أن السلك المعدني إذا أحمي بالكهرباء في المصباح الكهربائي حتى أضاء فإن الضوء لا يبلغ فوق ٤ في المائة من القوة الكهربائية التي يبذلها الناس في هذا المصباح، وأما الباقي وهو ٩٦ في المائة من تلك القوة الكهربائية فإنه يصير حرارة. ويقول: إنه إذا تمكن أحد من تحويل الحرارة إلى نور، أي: نور بارد، فإن النور إذ ذاك يكون أرقى من هذا النور المستعمل الآن عشرين ضعفاً وذلك بالاكتفاء بأربعة في المائة من الحرارة، والباقي وهو ٩٦ في المائة يصير نوراً. «وعبارة ٢٠ من المقتطف ولعلها ٢٤». هذا ما يقوله ذلك العالم الأمريكي. أقول: وبينما هذا العالم يقول ذلك إذا بعلماء الفلك يقولون: يا أيها الطبيعي إن ما فكرت فيه قد فعله الله قبل خلق الأرض، فإنه خلق الشموس الباردة، فضوؤها لا حرارة معه، وخلق الشموس الجهنمية. اللهم إن العلم أرقى ما في هذا الوجود، والحمد لله رب العالمين. انتهى صباح يوم الاثنين ١٨ فبراير سنة ١٩٢٩.

لطيفة: في قوله تعالى أيضاً: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾

عجائب التقويم

اعلم أن الله كرر ذكر الكواكب والبروج والشمس والقمر في القرآن لأمر عظيم جداً. إن الله خلقنا من طين لازب، أي: لاصق، ومن كان من الطين إن لم يعجن بما يرفعه إلى العلا فإنه لا يفارق الطين. جعل الله أضواء الشمس والكواكب سبباً لحياتنا، فلولا الحرارة ما سار سحاب ولا ارتفع بخار من البحار، فالحرارة رافعة له والرياح الجاريات بالسحاب ما أثارها إلا الحرارة. إذن الحرارة أصل حياتنا وهكذا الضوء، فلولا الضوء لم نعرف الطرق ولا الأعمال ولا الأيام والشهور والسنين، وبالضوء ظهرت خضرة النبات ونما، ولولا ضوء الشمس والكواكب لم تكن حياة على الأرض ولم يكن نظام لها، فالحياة والهداية في المعاش كسير السفن في البحار والقطرات في اليابسة. كل ذلك مبني على سير الكواكب في السماء، فالحرارة بها الحياة، والضوء به الهداية، وانتظام الحركات به الحساب الذي به تمام النظام. أليس هذا عجيباً؟ نعيش في الأرض وأصول الحياة من السماء والناس غافلون. ولقد شاهدنا هذه العوالم المنبثة فوق الأرض منتظمة ولم نر اليد التي نظمت، أحسسنا بالحرارة وشاهدنا الأضواء ولكن جهلنا تلك النظم التي شاهدناها في الحيوان والنبات، فإذا رأينا الحرارة والضوء من عالم السماوات فهكذا لتكن تلك المنظمات نفوساً ليست من عالم الأرض، فالضوء والحرارة اللذان بهما الحياة من هناك وهما محسوسان فبالأولى، والأولى أن تكون النفوس التي صورت تلك الصور الملازمة للنمو سماوية، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

يا الله، أنت حكمت علينا بالحبس في هذه الأرض مدة، فنحن هنا يا رب مسجونون، ومن عادة المسجون أن يؤتى له بالرزق داخل السجن، ويوعد بأنه عند تمام مدته يخرج إلى أهله. هكذا نحن الآن في الأرض سجنتنا وحكمت علينا أن لا ننال مطعمنا وملبسنا إلا بالعمل داخل سجننا، ولكنك أرسلت لنا ضوءاً من المشرقات وجعلت نظامنا متوقفاً عليها. تقلبنا في الأرض لطلب المعاش، وهذا الطلب لا تمام له ولا نظام إلا بحساب سير الكواكب والشمس، فللمشرقات فضل الحياة وفضل النظام. ولقد سخرت منا جماعة يحسبون سير تلك الكواكب لأجل النظام عندنا، فالأفراد يهتدون في الطرقات بالأضواء، والأمم تعين جماعات لحساب سير تلك الكواكب. كل ذلك فعلته لتضطرنا إلى البحث والنظر فنولي وجهنا جهة السماء، ونسمع الأنبياء والحكماء يقولون لنا: إن هناك عالماً آخر نتوجه إليه إذا متنا، وما هذا العالم إلا ما هو فوق أرضنا، فعل الله ذلك ليشوقنا إلى عوالم الجنات في السماوات، وإذا كانت العوام العلوية قد سببت حياتنا ونحن معجونون من التراب لاصقون بالأرض فكيف تكون حالنا إذا توجهنا بأرواحنا من الأرض إلى السماوات ولم يبق هناك مانع يمنعنا من الرحمة مباشرة، فهناك يكون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. هذا، ولقد ذكرت حساب السنين القمرية والشمسية في سورة «الكهف» وآخر «آل عمران»، وأزيد على ذلك بياناً يشرح الصدر فأقول:

إن المصريين كانوا أمة زراعية فكان تقويمها تابعاً للشمس. أما اليهود والأمة العربية الذين لم يكن جل اعتمادهم على الزراعة فإنهم قد اكتفوا بالأشهر القمرية. ولما جاء «يوليوس قيصر» إلى مصر ووجد تقويمها مرتبكاً أمر الفلكي المصري «سوسيجنس» فوضع تقويماً قدر فيه السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم، وجعل الأشهر ١٢ مختلفات بين ثلاثين و٣١ يوماً إلا فبراير فإنه ٢٨ ثلاث سنوات و٢٩ في السنة الرابعة، وسارت أوروبا وبلاد الشرق الأدنى على ذلك حتى سنة ١٥٨٢، ذلك أن البابا «غريغورس» الثالث عشر رأى أن حساب «سوسيجنس» جعل السنة أطول من حقيقتها ١١ دقيقة و١٤ ثانية، وعلى ذلك أمر بأن ينقص من كل ٤٠٠ سنة ثلاثة أيام، وجرى على هذا التقويم الغربيون أما القبط في مصر الذين يتبعون الكنيسة الشرقية فإنهم لا يزالون يجعلون عيد الميلاد ٧ يناير، والكنائس الغربية تجعله ٢٥ ديسمبر، ذلك لأن الغربيين عرفوا الخطأ فأصلحوه. أوليس من العجب أن المكسيكيين القدماء كانوا يعتمدون على الزراعة وتقويمهم يشبه التقويم الحديث وهذا صورته شكل ٤٥.


(شكل ٤٥ ـ تقويم أمريكي وجد في مكسيكا)

وإنما ذكرت لك هذا هنا لأريك جمال الله الذي ظهر في هذه الأرض، فانظر هذا الرسم من مكسيكا، وانظر ما تقدم في سورة «يونس» من صور البروج المرسومة في «دندرة» والأخرى المرسومة على صندوق «حتر»، ذلك أولاً: لأروي ظمئي للعلم وظمأك، لأني كنت أحب أن أطلع على آثار الأمم القديمة في هذه العلوم. وثانياً: لتعلم معي عناية الله بالأمم واتصالهم جميعاً إلى عالم السماوات، كأنه يقول لهم: ارفعوا وجوهكم إلى السماء فاقرؤوها الآن لأنكم ستسافرون

إليها بعد الموت، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وثالثاً: ليكون هذا التفسير معرضاً علمياً تعرض فيه بهجة علوم الشرق والغرب، فيشوق الناس للعلم والحكمة، أو كسوق الصور الذي يلبس كل الناس ما شاء من الصور العلمية فيه فيرقى عقله وترقى أمته، فهذا قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢]. فهذا تذكر ومبدأ شكر، لأنه لا شكر إلا إذا علم الشاكر بالمشكور عليه، فأول الشكر العلم بنعمة المشكور عليه. وقد علمت معي أيها الذكي كيف قوم الله السنين وعلمها لأهل الأرض قاطبة، وشوّقهم إلى الرقي إلى عالم أعلى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الكلام على المقصد الثاني من السورة.

المقصد الثالث

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾

بعد ما ذكر الله عز وجل حسن صنعه وجمال إبداعه بالماء المبارك النازل من السماء وإبداعه في البحر الملح والنهر الحلو، وكيف يكونان متجاورين ولا يطغى أحدهما على الآخر، وكيف تكوّن منه الماء والنبات والإنسان والحيوان وكان منه البنات والبنون، وكيف أبدع في نظام كواكبه وشمسه وقمره، وكيف نظم طرقها وأبدع منازلها، بعد ما ذكر ذلك كله أخذ سبحانه يصف عباده الذين هم أهل للقرب من مبدع هذه العجائب ليبين العباد بعد العلماء، وليظهر مقام العبادة بعد مقام الحكمة، وأن الأولى تابعة للثانية والثانية مقدمة على الأولى، وليفيد المسلمين أن العلم مقدم على العمل، فذكر صفات عباد الرحمن أنهم في النهار يتصفون بوصفين وهما:

(١) أنهم يمشون بسكينة ووقار على الأرض.

(٢) ويغضون عن السفهاء فلا يقابلونهم بقبيح الكلام ويتاركونهم. وهم في الليل يحيونه بالعبادة ساجدين قائمين في الصلاة.

(٣) ويدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم.

(٤) ويكونون كرماء لا مقترين ولا مسرفين.

(٥) ويوحدون الله.

(٦) ولا يقتلون النفس إلا بالحق.

(٧) ولا يزنون.

(٨) وينفون من مجالس الكذابين ومحاضر الخطائين تنزهاً عن مخالطة الأشرار.

(٩) وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به كرموا أنفسهم عن التلوث به، أي: إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه.

(١٠) وإذا وعظوا بالقرآن أو ذكروا بعجائب الله كانوا مقبلين عليها وخروا سجداً وبكيًّا لا أنهم يكونون صماً وعمياناً لإعراضهم.

(١١) وهم يدعون الله أن يريهم زوجاتهم وأبناءهم مطيعين لله ليكونوا معهم في الجنة.

(١٢) ويكون من دعائهم أن يقولوا: ربنا اجعلنا متبوعين في الدين أئمة يقتدي المتقون بنا في الخير.

فهؤلاء المؤمنون المتصفون بهذه الصفات الاثنتي عشرة:

(١) يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة بسبب صبرهم.

(٢) ويدعى لهم بالتعمير وهي التحية.

(٣) ويدعى لهم بالسلامة، فالتحية للبقاء، والسلام للمسلامة.

(٤) ويخلدون فيها. هذا هو جزاؤهم غرفات عالية وتعمير وأمان ودوام، والبشارة بذلك من الملائكة.

ولما بين العلم والعمل ختم السورة بأن الله لا يعتد بهذا الإنسان ولا يعبأ به لولا عبادته، إذ لا شرف له ولا كرامة إلا بالمعرفة والعبادة والأخلاق، وإلا فلا فارق بينه وبين الحيوان، وإذ أنزلت عليكم القرآن فكذبتم وخالفتم وقصرتم في العبادة والعلم فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً، وقد تم ذلك بخذلان كفار مكة في يوم بدر وفي غيره، هذا هو ملخص المقصد الثالث من السورة.

إيضاح لبعض الكلمات

قوله: ﴿هَوْنًا﴾ هينين أو مشياً هيناً، وهو مصدر وصف به، أي إنهم يمشون في سكينة وتواضع. ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ أي: تسليماً منكم ومتاركة لكم، لا خير بيننا وبينكم ولا شراً، أو قالوا سلاماً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ لأن العبادة بالليل أجمع للفكر وأبعد من الرياء، أي: يبيتون في الليل بالصلاة سجداً على وجوههم وقياماً على أقدامهم، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لازماً، ومنه الغريم لملازمته، فهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في العبادة وجلون من العذاب، مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم، ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي:

بئست، وفاعلها ضمير مبهم يفسره المميز، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ هذا هو ضد الكرم عند الحكماء ﴿ قَوَامًا ﴾ وسطاً وعدلاً ﴿ حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي: حرم قتلها ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ أي: جزاء الإثم، وقوله: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ ﴾ بدل من «يلق» ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ بأن يمحو سابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم، وهكذا يبدل ملكة المعصية بملكة الطاعة، ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: ومن تاب عن المعاصي بالترك والندم ودخل في الطاعة فإنه يرجع إلى الله متاباً مرضياً عند الله يمحو العقاب محصلاً للثواب أو مرجعاً حسناً، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضرون محاضر الكذب، فإن مشاهدة الباطل شركة فيه، ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ ﴾ أي: ما يجب أن يلغى ويطرح ﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ لم يقيموا عليها غير داعين لها ولا متبصرين بما فيها ﴿ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ أعلى موضع الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع، أي: الغرفات. ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات، ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ أي: تحييهم الملائكة ويسلمون عليهم أو يلقون تبقية دائمة وسلامة من كل آفة، ﴿ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى ﴾ ما يصنع بكم، من عبأت الجيش إذا هيأته، أو لا يعتد بكم ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ لولا عبادتكم، والعبادة يتقدمها العلم. انتهى التفسير في ألفاظ المقصد الثالث من السورة.

جوهرة: في جمال القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

الحمد لله على نعمة الحكمة والعلم، والشكر له على جمال النور والفهم. سبحانك اللهم أعنت على هذا التفسير، وأحسنت بالإلهام والتيسير، وجعلت أسلوبه سهلاً يتناول أكثره المتوسطون وبعضه لا يعقله إلا العالمون، جعلته شارحاً لآياتك مسهلاً لفهم كتابك مذكراً لأنعمك ناظماً جواهرها في عقده، فذكر به اللهم قلوباً واشرح به صدوراً ويسر به أموراً واستخرج به رجالاً يعقلون آياتك.

اللهم إنك أنت فسرت هذه الآية في نفس القرآن وذكرت معانيها في حكمك البهجات. أنت قلت: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[الروم: ٢٠]، وعطفت على ذلك ذكر خلق الأزواج لتسكن إليها الخ. وخلق السماوات والأرض واختلاف الألسن والألوان ومنامنا بالليل والنهار وابتغاءنا الرزق، وهكذا كون السماوات والأرض قائمات بأمرك، وقيامنا بعد موتنا وهكذا، وذلك في سورة «الروم». وأنت الذي جعلت الليل والنهار آيتين في سورة «الإسراء»، والقائل أيضاً: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[فصلت: ٣٧] الخ. وقد أوضحت سبحانك في سورة «البقرة» هذا فجعلت من الآيات خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والسفن في البحر والتجارة والنبات والمطر وخلق النبات والحيوان وهكذا في آخر «آل عمران».

فيا الله إنك لن تدع في كتابك أسلوباً إلا أنزلته، حتى جعلت الآيات تشمل جميع العلوم العلوية والسفلية، ولم تقصر ذلك على أنها آيات بل أقسمت بها، فأقسمت بالشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون والطور والخيل، فكما جعلت كل خلقك آيات، أقسمت بجميع خلقك حتى

قلت: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الحاقة: ٣٨-٣٩]، ولا جرم أن ما نبصر وما لا نبصر يشمل كل علم وكل صناعة. هذه هي آياتك التي ذكرت بها عبادك وجعلت هذا التفسير إيضاحاً لها وشارحاً لها ومبيناً. وإني يا الله أكتب هذا وأمضي إلى عالم أردته لي بعد هذه الحياة، وأترك هذا التفسير بين يدي المسلمين حجة على من قرأه، فهو مسؤول بين يديك مسؤول عن نشر كل ما يعلم من هذا الكتاب، ومن كل علم من علوم أوروبا وأمريكا واليابان. اللهم إن ذلك كله آياتك التي أقسمت بها إعظاماً لها وإجلالاً، حتى إذا قرأناها عرفنا أنها هي التي شرفها الله بالقسم، فهي آيات وهي ذات الشرف العظيم بأن الله أقسم بها. اللهم إن المسلمين في القرون الأخيرة قد عموا وصموا عن آياتك، وإذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً، فيقول الغافل من المتعلمين: هذه العلوم كفر، أو يقول: هو كلام النصارى، أو يقول: هو لا منفعة فيه.

انظر ما جاء في سورة «الأنعام الآية: ٩١» عند قوله تعالى: ﴿ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا ﴾ لتعلم ماذا حل بالإسلام بعد القرون الأولى من الجهل الواضح والذل الفاضح وانتكاس العقول ومخالفة المعقول والمنقول. فالحمد لله قد ظهر في هذا التفسير أن ما كان يسمى كفراً هو نفس الشكر، وهو نفس القربى إلى الله، وهو السعادة في الدنيا، وهو باب الجنة، وهو الروح والريحان، وهو مقدمات النظر لوجهه الكريم، وهو مفتاح السعادة ومنهاج السيادة، فأصبح الكفر شكراً والذي زعموا أنه كلام النصارى وغيرهم هو كلام الله تعالى، وهو المشرف بقسمه، وهو الذي به النظر لجمال وجهه، وهو النافع في الدنيا والآخرة.

اللهم إني قد أديت ما علي للمسلمين. اللهم أخرجهم من ظلمة الجهالة، واجعل هذا التفسير سبباً في اتحاد جميع العقول من المذاهب المتشاكسة والطوائف المختلفة من شيعية وسنية وزيدية وإمامية وشافعية وحنفية وحنبلية. اللهم يا مقلب القلوب والأبصار كما قلبت أفئدة المتأخرين من الأمم الإسلامية قرأت العلوم التي أمرت بها في كتابك كفراً لا نفع فيها فخروا صماً وعمياناً إذا سمعوها، فاشرح الصدور لفهمهما وأزل الغشاوة عن الأعين والحجاب عن القلوب وارفع الوقر عن الآذان وأنر البصائر. اللهم إن المسلمين متقاطعون متباعدون لحصر عقولهم في الفقه وفي الجدل المسمى علم التوحيد. اللهم إن سر دينك هي نظافة الباطن وجمال النفوس بالأخلاق الفاضلة وهكذا استكمال النفوس بالعلوم التي ترى في السماوات وفي الأرض، فاجعل هذا التفسير من مشارق الأنوار وسواطع البرهان. انتهى يوم ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٥هـ.

فصوص الحكم في هذه الآيات

ما أجمل العلم والحكمة، وما أبهى الفهم وأبهجه والنظر في هذه الآيات وتأملها. هذه الآيات كأنها ملخص السورة كلها، والسورة سميت فرقاناً وهو الفرق بين الحق والباطل، ونتيجة هذه كلها النظر في آيات الله تعالى في السماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾[الفرقان: ٧٣].

في الآية آداب النفس مع الخلق ومع الخالق، كالسكينة في المشي، وحسن المخاطبة مع الجاهلين، وقيام الليل والدعاء والاقتصاد، والتبري من الشرك ومن الزنا واللغو والكذب. هذه عشر خصال، فمن كان متصفاً بها استعد لفيض العلم والحكمة. ملخص هذه الأوصاف سكون النفس وتوجيهها

لله . فسرعة المشي تهوش على العقل وتذهب الهيبة ، وهكذا اللجاج مع السفهاء ، فترك هذين وترك الإسراف والشره الخ كل ذلك يجعل في النفس اطمئناناً وسكوناً ، والدعاء وقيام الليل تذكير بالله تعالى . هاهنا ثمان خصال ترجع لسكون النفس وهدوئها ، فلا اضطراب في الحركات ولا الخطاب ولا الإنفاق وهكذا ، وخصلتان ترجعان للتذكير بالله : القيام بالليل والدعاء . وهذه المقدمات العشر للفتح والعلم والعرفان . إن النفس لا يتم توجهها في الصلاة والدعاء إذا تقسمت الأمور عليها . فأما إذا اطمأنت اعتقاداً وعملاً بالخصال الثمانية فإنها يصدق توجهها لله تعالى ، والصلاة والدعاء معراجان للعلم . ومعنى هذا أن النفس بتعود التوجه لله يفتح لها باب العلم ، والعلم هو المقصود من هذه الدنيا ومن وجودنا ومن هذه الخصال المذكورة . فلأجل العلم خلقنا ، وبه سعادتنا في دنيانا ويوم القيامة ، بل هو اللذة القصوى التي تتضاءل دونها الجنات الحسية بحورها وقصورها وولدانها .

إذن نتيجة الصفات العشر المذكورة ما بعدها وهو أن لا يكون الإنسان أعمى أصم عن آيات الله ، أي : أن يفكر في هذا الوجود . وبعبارة أصرح : أن يكون حكيماً عالماً أو محباً أو متعلماً ، أي : أن تكون له درجة من درجات العلم حباً واستماعاً أو كمالاً فيه . إذن نتيجة هذه السورة حوز العلوم والحكمة وارتقاء النفس بذلك ، وهذا غاية الدين والدنيا . وهناك خصلتان بعدها وهما أن هذا العبد يجد في إكمال أهل منزله من زوجة وولد إكمال المتقين ، فيكون قدوة لأهله ولأمته ، أي : أن يكون نوراً للناس وفارقاً بين الحق والباطل الذي هو معنى الفرقان ، إذن هذه السورة لتخريج قواد يكونون أنواراً مشرقة للناس يمنعونهم من الضلال ، هذا هو نتيجة سورة « الفرقان » .

وهاهنا عجب عجاب . ذلك أن الناس عادة يقرؤون هذه الآيات ويمرون على الخصلة السادسة وهي عدم الإشراك بالله ، وعلى الخصلة الحادية عشرة ، وهي أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ، فيخيل للقارئ أنهما يرجعان لمعنى واحد وهذا يكون كالمكرر ، ولكن هذا التكرار فيه سر قد كشفه الزمان وأظهره ما أحاط بنا من الحدثان ، بل إن سر هذا المقام قد ظهر في انحطاط أكثر أمم الإسلام واستبان أيما تبيان . ولما وصلت إلى هذا المقام حضر العلامة الذي اعتاد أن يحاورني في الأمور العلمية في هذا التفسير واطلع على هذا الموضوع ، فقال : ما لي أراك تكثر ذكر السر في القرآن كأن مثل هذا لم يعرفه الناس قبلك ، يا عجباً لك أين السر هنا؟ جملتان جاءتا في هذه الآيات : جملة تفيد عدم الإشراك بالله ، وجملة تفيد عدم الغفلة عن آياته عند التذكير بها ، وبينهما فرق في المعنى . قلت له : ولكن لمَ قدم عدم الإشراك بالله الذي لا يتم إلا إذا لم يعرض الإنسان عن آيات ربه ، وكيف تقدم النتيجة على المقدمة؟ هنا نظر في آيات وتوحيد الله . وثانيهما نتيجة لأولهما فلمَ قدم عليه؟ فقال : إذن ما تقول في الجواب ؟ . قلت : إذن أجيبك .

اعلم أن الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى في أكثر الأحوال وأعمها اكتفوا من دين الإسلام بأمثال الخصال العشر المتقدمة على قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾[الفرقان : ٧٣] ، ومنها عدم الإشراك بالله . فإذا رأى المسلم أنه آمن بالله ولم يشرك فإنه قد يتسلى بذلك ، ويقول : كفى كفى . فإذا ضم إلى الإيمان الأخلاق الفاضلة كالسكينة والتباعد عن الكذب وشهادة الزور والقتل الخ فإنه يعد صالحاً . هذا هو الذي سار عليه المسلمون في أقطار الإسلام ، فأهم أمور الدين التوحيد

والأعمال الصالحة، ووقف أكثرهم عند هذا الحد وأخذوا يرددون كلمتي الإيمان والصلاح، ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[غافر: ٨٣]. فقال: وما الذي كانوا به يستهزئون؟ قلت: هي الخصلة الحادية عشرة، وهي: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[الفرقان: ٧٣]. فقال: والله إن هذا لعجب! أنا لم أسمع من مؤمن بالله يعرض عن آياته أو يكون كالأصم أو كالأعمى، وإنّما ذلك في الكفار. فقلت: إذا كان كذلك فتكون هذه الجملة ملغاة لا عمل لها. قال: أين الصمم والعمى عن آيات الله؟ قلت: جل في أقطار الإسلام وخاطب كثيراً من العلماء والجهلاء وقل لهم: ماذا تقولون في علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والإنسان والتشريح وجميع العلوم الكونية، فإنك لا تسمع منهم إلا أن هذه العلوم فروض كفايات، ويسكتون عن ذلك، وعند الوعظ والإرشاد والخطب على المنابر لا يقرؤون هذه العجائب ولا يشوقون الناس لربهم ولا يفرحونهم به، وليس من المعقول أن يحب الإنسان صانعاً ويعرف حكمته إلا بفهم صنعته، قال: إنك تقول هذا القول في قوم ماتوا قبل هذا العصر، أما أهل هذا العصر فقد عرفوا كل شيء. قلت له: أكثر أهل الدين لا يزالون غافلين، فهم إذا سمعوا عجائب التشريح والفلك صموا آذانهم وأغمضوا أعينهم لا بغضاً في آيات الله، ولكن إعراضاً عن الآيات لذاتها، ظناً منهم أنها لا تفيد قرباً لله، إما لأنها كفر وإما لأنها لا فائدة منها، وسبب ذلك الاقتداء بمن علموهم من علماء الدين الذين قبلهم، فهذه الجملة جاءت لترفع الغشاوة عن أعيننا في هذا الزمان، وقد ظهر أثرها في هذا التفسير الآن. فلتوجه أيها الذكي نظر أهل زمانك إلى أن هذه الجملة مذكرة لنا بجميع العلوم، وأن الإيمان والتوحيد لا يكفيان لرقي المؤمن وسعادة أمته.

تقدم أن هذه الآيات كأنها ملخص المقصود من السورة، والسورة مبتدأ بأن الله تعالى تكاثر خيره وتزايد في كل شيء وتعالى عنه في الصفات، وأنه له ملك السماوات والأرض، وأنه خلق كل شيء وقدره تقديراً بحساب متقن منظم. ولا جرم أن كل شيء أعم من السماوات والأرض، والعالم المخلوق هو الخير الكثير الذي يفيده معنى ﴿ تَبَارَكَ ﴾[الفرقان: ٦١]. ثم إنه أعاد هذه الجملة هنا قبيل هذه الآيات، فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الفرقان: ٦١]، والبروج هي الاثنا عشر المعلومة أو هي نفس الكواكب العظام، وهي بعض ما خلق الله وقدره تقديراً. ولما شرح بعض خلق الله الذي من خيره الكثير أردفه بذكر عباد الرحمن وصفاتهم، وجعل نتيجة الصفات كلها العلم والحكمة، والعلم والحكمة يرجعان إلى هذا العالم الذي نعيش فيه الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الفرقان: ٦١] الخ. فانظر كيف أعاد الجملة في أول السورة هنا ليعقبها بصفات المؤمن الذي يفهم هذا الخير الكثير الذي تضمنه ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[الفرقان: ١]. فملخص السورة إخراج علماء في الإسلام يقرؤون نظام السماوات والأرض ويكونون حكماء هادين لذرياتهم وزوجاتهم وأمتهم، فلولا ذكر التوحيد قبل التذكير بآيات الله وعدم الإعراض عنها ما تيسر لنا فهم هذه المعاني. إن هذه المعاني استخرجت من تأخير وتقديم وكأن هذا كهرباء ومغناطيس بهما أشرق النور وبهر الفرقان، فالله يذكر في أول السورة ملكه وخلقه وتقديره العوالم كلها، ثم يعيد ذلك بهيئة جميلة في ذكر البروج والكواكب، وذلك كله داخل في آيات الله التي إذا أعرض عنها المسلمون

أعرضت عنهم الدنيا والآخرة كما هو حاصل الآن في بلاد الإسلام، فيا طوبى لمن ذكر بآيات ربه، ويا طوبى لمن تذكر وتدبر وقرأ.

يا الله إني أحمدك، هاأنا ذا قد ذكرت بآياتك بإرشادك وإلهامك مع أني أقر وأعترف بالضعف والعجز حقاً وصدقاً. فاجعل اللهم هذا التفسير ذكرى، وألهم الأمم الإسلامية أن ينسجوا على منواله ولا يخروا عن الآيات صماً وعمياناً.

فقال صاحبي: هذا حسن، ولكن يظهر لي أن المقام مقام تصييد للمعاني بحيث تأخذ ما يلائم وتذر الذي لا يلائم قصدك، ويكون هناك ترجيح بلا مرجح، وهذا معيب يجعل القارئ في حيرة ويتشكك في قولك، ويقول: إن القرآن لم تقصد منه هذه المعاني، ولو أنها كانت مقصودة لكانت على وتيرة واحدة. فقلت: ماذا تقصد؟ قال: إن قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ﴾[الفرقان: ١] قد ذكر ثلاث مرات فذكرت أنت اثنتين منها. أما الثالثة فقوله تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾[الفرقان: ١٠]، وهي واقعة في غضون السورة بين الآيتين فهل لهذه حكمة؟ قلت: نعم. وأي حكمة أجل منها. فقال: وما هي؟ قلت: إن النظر للسماوات والأرض الذي جاء ذكره في المقامين الأول والثالث هو هو عينه المذكور في الخصلة الحادية عشر من خصال عباد الرحمن، وهو عينه الذي في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾[الفرقان: ١٠]. ألا ترى رعاك الله أن الجنة على قسمين: جنة حسية، وجنة معنوية، وهي العلم والمعرفة، والعلم والمعرفة مقدمتان للنظر إلى وجه الله. فانكشاف الحقائق غذاء للنفس وسعادتها للحكماء في الدنيا والآخرة. وإذا كان الحكماء بهذه المثابة، فما بالك بالأنبياء والصديقين، فهل تظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة يقنعه الحور والولدان ويستغني عن النظر لوجه الله الذي لا يكون إلا بعد تمام العلم والحكمة، كما لا يجالس الملوك والأمراء إلا أهل الحجا والعقول. فإذا كان الله وعده بجنات تجري من تحتها الأنهار ووعده بقصور؛ فليس معنى ذلك أنه قاصر على ذلك، بل هو رمز إلى انكشاف الحقائق ومعرفة العلوم، ومن عكف في قصره على المحسوسات فهو قاصر جهول. اقرأ هذا المقام في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾[البقرة: ٢٥] الخ، فستجد هناك العبارة المنقولة من كلام السلف الصالح: إن الجنة الحسية للجهلاء وجنة العلم للحكماء، أفلا ترى سيد الرسل في أعلى جنة العلماء؟ فرجعت هذه الآية إلى أختيها، وظهر أن الدنيا لا يرقى فيها الناس إلا بالعلم، والآخرة لا يسعدون فيها إلا بالعلم، وأن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[الفرقان: ٧٣] هي نهاية العلم والحكمة، وفيها ملخص علوم هذه الدنيا ومقاصد هذه السورة، وأنها الخصلة التي بها تكون الجنة والحكمة، ويكون صاحبها قطباً تدور عليه رحى الأمة وبه يقتدون وعليه يعولون.

بلاغة القرآن

فانظر إلى أمر التقديم والتأخير في جملتين كيف أثارا موضوعاً يتعلق بحياة أمتنا الإسلامية ويبين عيوبها ومخازيها ويفضح سر تأخرها وينير السبل لتقدمها وارتقائها. إن هذا المقام هو الذي ألف له الإمام الغزالي كتاب «الإحياء» فقد قال فيه: إن هذا الكتاب قد صنفته لإحياء ما اندرس من

علوم الإسلام. ويبيّن ذلك بأنه إيضاح صفات القلوب والعلوم الأخلاقية والإخلاص ثم المعارف العامة في السماوات والأرض. ثم إن هذا التفسير قد جاء لمثل ما جاء له الإحياء. كل ذلك أثاره في هذا المقام تقديم وتأخير. بمثل هذا تعرف بلاغة القرآن لا البلاغة اللفظية التي يفرح بها صغار العلماء، ويقولون: نحن نقرأ المفتاح للسكاكي وكتاب سعد الدين التفتازاني وكتاب عبد القاهر الجرجاني وغيرها لنعرف بلاغة القرآن، فنقول لهم: وهل عند هذا تقفون أو تنكصون على الأعقاب؟.

إن الذي تبحثون عنه إنّما هو أن القرآن معجز، ونتيجة ذلك أن يكون المرء به مؤمناً، وقدمنا أن خصلة الإيمان وحدها لا ترقي المسلم، بل رقيه إنّما يكون بمعرفة هذه الكائنات، فلم يخرج البلغاء في أمة الإسلام عن كونهم أشبه بالبدوي القح في البادية، وعن أنهم إذا وقفوا على ذلك قد دخلوا في حوز الموحدين المذكورين في الخصلة السادسة في هذه الآيات وهم عن آيات ربهم خروا صماً وعمياناً.

اللهم إن أمة الإسلام طال عليها الأمد وقست القلوب وكثير منهم فاسقون. لقد اعترى العمى والصمم كثيراً من أهل العلم في أقطار الإسلام جهالة وغروراً، وقد آن انقشاع هذه الغشاوة، والحمد لله رب العالمين. كتب هذا المقال بعد عصر يوم الجمعة أول يوم من شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية.

ياقوتة: في معنى قوله تعالى في هذه الآيات:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ ﴾ الخ

بعد أن كتبت ما تقدم أردت أن أبين بعض أنواع التذكير التي ذكرنا الله بها معاشر المسلمين ليكون ذلك تكملة للجوهرة السابقة وتبصيراً للأذكياء. التذكير إما بالقول أو بالفعل. أما بالقول:

(١) فهاك هذا القرآن يدرس صباحاً ومساء وصيفاً وشتاء ليلاً ونهاراً، يدرسه المسلمون ويقرؤه قراؤهم وفيه سور كثيرة ليس فيها حكم شرعي، وإنّما هي ذكرى الأمم السالفة وذكرى آيات الله في السماوات والأرض، وهذه الأخيرة كما تقدم مراراً ٧٥٠ آية، كما أن نظيرها في العدد أيضاً تقريباً جاء في إصلاح الأخلاق.

(٢) وهاك العبادات كما تقدم في سورة «البقرة» في تفسير آية الكرسي، فقد ذكرت هناك أن هناك آيات قد جعلها العباد والصالحون بذوراً بذروها للمسلمين ليربوهم تربية يكونون بها صالحين، فهؤلاء نراهم اختاروا الآيات الدالة على أفعال الله العجيبة كآية الكرسي، ونحو: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[آل عمران: ١-٢] الخ، ونحو: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[آل عمران: ١٨] الخ، وأول سورة الحديد، وهكذا. فهذه الآيات هي روضات الجنات، تمتع الصالحون بألفاظها فمست قلوبهم فذكروا ربهم، وهي مسعدة للمفكرين والحكماء والصديقين، ليدرسوا نظام ربهم ويتمتعوا بكواكبه وبشجره وبحاره وبنظمه العجيبة التي ذكر منها في هذه السورة، أي: سورة «الفرقان» التي نحن بصدد الكلام عليها:

(١) نظام الظلال.

(٢) ونظام الليل والنهار. فالأول: لباس يستر الناس وفيه النوم للراحة، والثاني: ينشر الناس فيه لطلب المعاش.

(٣) ونظام السحب والأمطار والماء الطهور.

(٤) ونظام سقي الناس والأنعام وحياة كل حي فوق الأرض.

(٥) ونظام البحرين العذب والملح.

(٦) ونظام الكواكب والبروج وعجائبهما.

(٧) ونظام الشمس.

(٨) ونظام القمر، وأن كلاً من الليل والنهار يخلف الآخر.

هذه مجاميع ما ذكر الله به في هذه السورة فضلاً عن بقية سور القرآن، وختم ذلك بقوله: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢]. فهذه العجائب جميعها وأمثالها تكون ذكرى للذاكرين وشكراً للشاكرين. فانظر كيف يقول: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[الفرقان: ٧٣] بعد أن ذكر هذه الآيات في نفس السورة، وجعلها ذكرى وشكراً للفريقين المذكورين، فإذا ذكر الله بالقرآن كله وذكرنا بالآيات التي اختارها العباد وبالآيات التي في هذه السورة فإن الإعراض عن التفكر في معناها ودراسة علومها لكل قادر من المسلمين يعتبر كفراً بالنعمة، وكأن الإنسان أصم وأعمى. لقد تكرر الذكر والتذكير في القرآن. ناهيك ما ترى في سورة: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[القمر: ١]، فهناك: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧]، وقد كررها مراراً بعد كل حادثة وقصة، وهكذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥] الخ وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[النحل: ١٣]، وقوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق: ٨]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾[المؤمنون: ٦٨] الخ وآيات كثيرة.

هذا هو التذكير القولي. أما التذكير الفعلي فهو ما أحاط بالأمم الإسلامية اليوم من القوى القاتلة والأمم القوية الظالمة وفتكهم بهم، فهذا تذكير للنوع الإنساني فعلي، فإذا نام المسلمون عن هذا التذكير بنوعيه فلا يلومون إلا أنفسهم، والعقاب الأكبر على كل مفكر عرف أمثال ما كتبناه في هذا التفسير ثم ترك النشر والتعليم.

انتهى تفسير سورة «الفرقان» يوم الاثنين التاسع من شهر فبراير سنة ١٩٢٥م، والحمد لله رب العالمين.

تذكرة

قد يستعين الناظر للصور السماوية السابقة المذكورة قريباً بمسطرة طولها ثلاثة أمتار يضعها على النجوم المعلومة لتوصل إلى النجوم المجهولة على مقتضى التعليمات المتقدمة. اهـ.

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني عشر من

كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء الثالث عشر، وأوله

تفسير سورة « الشعراء »

فهرس الجزء الثاني عشر
من كتاب تفسير الجواهر